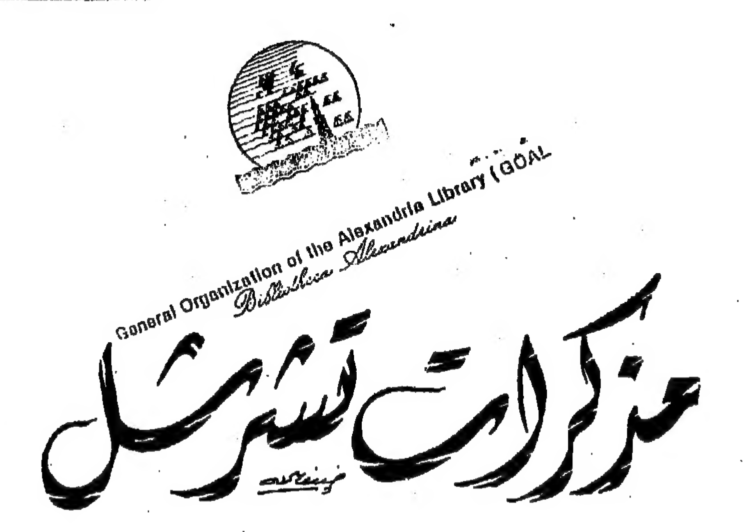

مذكرات
تشرشل
٢
دار المعرفة للطباعة والنشر
Bibliotheca Alexandrina
01304430



ونستون تشرشل



مذكرات تشرشل

الجزء الثاني

منشورات مكتبة المنار بغداد



الحلف الكبير

الحلفــاء الــروس

كان دخول روسيا الحرب الى صفوفنا عملا رحبنا به غاية الترحاب. وان لم يكن نافعا لنا فورا . فقد كانت الجيوش الالمانية على هذا القدر من القوة ، بحيث كان في استطاعتها ان تحتفظ الى عدة شهور مقبلة بخطط غزوها لانكلترا في نفس الوقت الذي تتوغل فيه داخل الاراضي الروسية وقد اجمع العسكريون على ان الجيوش الروسية ستهزم وتدمر كليا . ولا شك أن سماح الحكومة السوفياتية لسلاحها الجوي بأن يؤخذ على حين غرة في مطاراته ، وتكاسلها عن اكمال اعداداتها العسكرية ، كانا سببا في النتيجة السيئة التي منيت بها . وقد احتملت الجيوش الروسية أضرارا مخيفة . وعلى الرغم من المقاومة البطولية ، والشروع في حرب عصابات لا هوادة فيها ولا شفقة في مؤخرة الجحافل الالمانية فقد جرى انسحاب عام على طول الجبهة الممتدة الفا ومئتي ميل من جنوب لينينغراد الى مسافة اربعمائة او خمسمائة ميل عمقا . ويعود الفضل في تحطيم جيوش هتلر الى اسباب عديدة : قوة الحكومة السوفياتية ، وصمود الشعب الروسي ، والطاقة البشرية الهائلة من الاحتياطي ، واتساع البلاد وقساوة الشتاء الروسي. لكن ايا من هذه الاسباب لم يظهر في عام ١٩٤١ .

ودون انكار للحقيقة التي سيثبتها التاريخ ، وهي ان المقاومة الروسية هي التي حطمت قوة الجيوش الالمانية واصابتها باصابات مميتة ، كما انزلت بالطاقات الحياتية للشعب الالماني ضربات قاصمة ، ارى من الحق ان اوضح ان روسيا بقيت تمثل لنا حتى بعد مرور سنة على دخولها الحرب الى جانبنا ، عبئا لا عونا . ومع ذلك فقد فرحنا بهذا العبء كل الفرح ، لان اشتراكها معنا يعني دخول شعب جبار الى المعركة في جانبنا ، وكنا نشعر بانه حتى ولو اضطرت الجيوش السوفياتية الى الانسحاب حتى جبال الاورال ، فانها ستواصل كفاحها ، وستكون اذا استمرت في الحرب عاملا حاسما كل الحسم .

وكانت الحكومة السوفياتية حتى الوقت الذي هاجم فيه هتلر بلادها لا تهتم الا بنفسها . فقد راقبت بجمود يشبه جمود الحجر ، سحق الجبهة الفرنسية عام ١٩٤٠ ، ومحاولاتنا اليائسة عام ١٩٤١ لخلق جبهة في البلقان ، كما انها قدمت مساعدات اقتصادية مهمة الى المانيا وساعدتها في نواحي كثيرة ، وها هي تشعر الآن بانها قد خدعت . وكانت سياستها الثابتة تقضي بأن تلجأ الى بريطانيا العظمى وامبراطوريتها لتحصل منها على اكبر مساعدة ممكنة ، ولم يتوان الروس عن مناشدة بريطانيا المكافحة والمنهوكة ، بعبارات ملحفة ، أن تبعث اليهم بالذخائر التي تحتاج اليها جيوشهم . كما طلبوا من الولايات المتحدة ، ان ترسل لهم اكبر كمية ممكنة من الذخائر التي كنا نحن نعتمد عليها . وراحوا يطالبون ، وهذا

هو الاهم ، وحتى في الصيف من عام ١٩٤١ ، بنزول قوات بريطانية في أوروبا دون اهتمام بالاخطار والثمن ، واقامة الجبهة الثانية . واخذ الشيوعيون البريطانيون الذين نفذوا حتى الآن قد قاموا بأسوأ ما لديهم داخل مصانعنا ، والذين كانـوا ينعتون حربنا « بالحرب الراسمالية الشيوعيون البريطانيون الذين كانوا حتى الآن قد قاموا بأسوأ ما لديهم الاعلانات التي ترفع شعارهم : « الجبهة الثانية ... الآن » .

ولم يكن الروس على علم قط ، حتى ولا الى حد صغير ، بطبيعة العمليات العسكرية اللازمة لانزال الجيش على ارض معادية محصنة تماما . وكان الاميركيون ايضا يجهلون تمام الجهل هذه المتاعب . فالحصول على التفوق البحري والجوي في مراكز الانزال والغزو امر لا بد منه ، يضاف الى ذلك وجود عامل هام ثالث هو ايصال اسطول ضخم من سفن الانزال المعدة لهبوط الدبابات في اعداد كبيرة لانجاح كل عملية غزو مهما كانت المقاومة عنيفة . وكنت قد بذلت غاية جهدي وما زلت ابذله لخلق مثل هذا الاسطول . لكن لم يكن باستطاعتنا تامين قسم منه حتى ولو بشكل بسيط قبل صيف عام ١٩٤٣ . وفي هذا الوقت الذي وصلنا اليه في صيف عام ١٩٤١ ، لم نكن قد توصلنا للسيطرة الجوية على اي مكان من اوروبا عدا خليج كاليه ، حيث توجد اقوى الحصون الالمانية . اما سفن الانزال ، فكانت قيد الاعداد . ولم يكن قد تجهز عندنا حتى في بريطانيا الجيش الكبير المدرب الحسن التجهيز . ولم يكن لدينا امل في اقناع السوفيات ، في ذلك الوقت ، وقد اقترح ستالين ، في حديث لاحق معي ، انه اذا كنا نخشى عملية النزول ، فهو على استعداد لان يرسل ثلاثة او اربعة فرق روسية الى بريطانيا لتتولى عنا هذه العملية . ولم يكن في وسعي ، بسبب افتقارنا الى البواخر ووسائل النقل الاخرى ، ان الزمه بكلمته ، واحمله على تنفيذها . ولم نتلق ردا من الحكومة السوفياتية على الرسالة الصوتية التي وجهتها الى روسيا والعالم ، حين بدأ الهجوم الالماني عليها ، باستثناء ما علمته ان مقاطع من هذه الرسالة قد نشرت في جريدة « البرافدا » الرسمية . كما ان الحكومة الروسية طلبت ان نستعد لاستقبال بعثة عسكرية عزمت على ارسالها الينا . وكان الصمت في العالم الخارجي مثيرا للدهشة والاستغراب ، فقررت ان احطمه . وفهمت ان القادة الروس قد يشعرون بالخجل لما حدث منذ نشوب الحرب من مواقف بين السوفيات والحلفاء ، وتذكرت ما جرى بيني وبين الحكومة الثورية البلشفية قبل نحو من عشرين عاما ، لذلك وجهت رسالة في ٧ تموز الى ستالين اخبرته فيها عن عزمنا على تقديم كل مساعدة ممكنة الى الشعب الروسي . وقد جاءني الرد في التاسع عشر من تموز ، يقول فيه :

« .... ان موقف القوات السوفياتية في الجبهة لا يزال حرجا ، لكنه يبدو لي ان وضع الاتحاد السوفياتي ، وكذلك وضع بريطانيا العظمى سيتحسنان الى حد كبير اذا تمكنا من اقامة جبهة ضد هتلر في الغرب ، وفي شمال فرنسا ، وفي الشمال في المحيط القطبي الشمالي .

« ولا شك ان فتح جبهة جديدة شمالي فرنسا لمسيؤدي الى تحويل قوات هتلر عن الشرق ، كما يجعل من عملية غزو بريطانيا العظمى امرا مستحيلا .

« ولا ريب في انني اعلم تمام العلم ، المصاعب التي تنطوي عليها فتح مثل هذه الجبهة . ولكنني على الرغم من ذلك واثق من ضرورة تحقيقها ، لا من اجل قضيتنا المشتركة وحدها ، بل من اجل بريطانيا ايضاً .

« ولعله من الاسهل فتح جبهة جديدة في الشمال . فلن تحتاج بريطانيا هنا الا الى عمليات بحرية وجوية ، دون ان تضطر الى انزال قواتها او مدفعيتها ، لان قواتنا البحرية والجوية ، ستشارك في مثل هذه العملية . وسنرحب غاية الترحاب بارسال ما يقارب فرقة خفيفة او اكثر من المتطوعين النروجيين الى الجبهة ، حيث يمكننا استخدامهم في شمال النروج للبدء بثورة على الالمان » .

وظهر لي من الرسالة ان الضغط الروسي لفتح الجبهة الثانية قد بدأ مع بداية التراسل بيني وبين ستالين ، وهذا الضغط تلاه ضغط آخر في اتصالاته التالية مع تجاهله التام للحقائق العملية الطبيعية ، الا ما هو متعلق بأقصى الشمال .

وقد بذلت جهدي منذ البداية لمساعدة روسيا بالعتاد والذخيرة سواء بالموافقة على ارسال المساعدات الاميركية اليها ، او بالمساعدات البريطانية المباشرة . وارسلنا في مطلع شهر ايلول سربين من طائرات الهاريكين في تأمين للدفاع عن ميناء مورمانسك وللتعاون مع القوات الروسية هناك . وحاربت اسرابنا بشجاعة طيلة الاشهر الثلاثة التالية . وكنت اعلم ، اننا في بداية تحالفنا ، لا نستطيع ان نفعل الكثير ، وحاولت بالمجاملات ان اقيم علاقات شبيهة بتلك العلاقات السعيدة التي اقمتها مع الرئيس روزفلت ، لكنني ندر ان تلقيت كلمة رد لطيفة ، بل كنت اتلقى دائما الصد . وكثيرا ما ظلت برقياتي دون رد ، او ان ستالين كان يرد عليها بعد فترة طويلة .

وتكونت لدى الحكومة السوفياتية الفكرة ، بأنها تقدم الينا خدمة كبيرة ، لانها تقاتل في بلادها ، دفاعا عن ارواح ابنائها . وكلما ازدادت ضراوة الحرب ازدادت هذه الخدمة ، وازداد الدين الملقى على عاتقنا . وبالطبع لم تكن هذه الفكرة صحيحة او موزونة . وقد اضطررت مرات عديدة الى الاحتجاج بتعابير واضحة ، لا سيما على الاساءة في معاملة بحارتنا ، الذين كانوا يخاطرون بأرواحهم لينقلوا المؤن الى مورمانسك او اركانجل . وكثيرا ما اضطررت الى سماع كلمات التأنيب من الآخرين عندما يقولون : « لا تبال . فالالم هو الوسام الذي يعلق على كل من يتوجب عليه التعامل مع الكرملين » . وبالفعل كنت اتناسى الاساءات مقابل ما يتعرض له ستالين وشعبه الشجاع من ازمات شديدة ....

* * *

تمكن الالمان في الشهر الاول من التقدم في طريقهم عبر روسيا متوغلين مسافة ثلاثمائة ميل ، ولكن لم تأت نهاية شهر تموز ، حتى وقع نزاع رئيسي بين هتلر وبراوخيتش وهو القائد الاعلى للجيش الالماني . وكان راي براوخيتش يقضي بتحطيم مجموعة الجيوش التي يقودها تيموشنكو في جبهة موسكو التي تؤلف القوة الرئيسية للجيش السوفياتي . واضاف

انه اذا تم ذلك ، يصبح بالامكان احتلال موسكو المركز الحساس لروسيا عسكريا وسياسيا وصناعيا . الا ان هتلر عارضه في الرأي اشد المعارضة. فهو يريد بالاضافة الى كسب الارض ان يدمر الجيوش الروسية على اوسع جبهات ممكنة . فهو يريد احتلال لينينغراد في الشمال ، وحوض الدونتز الصناعي في الجنوب ، وشبه جزيرة القرم ومداخل القفقاس الغنية بالنفط . اما موسكو فسيصل دورها بعد ذلك .

واصدر هتلر اوامره المخالفة لآراء قادة جيشه . ونقلت الامدادات من الوسط الى الجيوش في الشمال . كما طلب اليها ان تضاعف من جهدها لاحتلال لينينغراد . وطلب الى الجيوش الوسطى ان تأخذ جانب الدفاع ، وان ترسل مجموعة من المدرعات « البانزر » جنوبا لتطويق الروس ، الذين كان رونشستات يطاردهم عبر نهر الدنيبير . ونجح هتلر في عمله هذا ، اذ لم يحل شهر ايلول ، حتى كان جيب كبير من القوات الروسية قد تكون حول « كييف » . وهناك قتل او اسر حوالي نصف مليون جندي في قتالهم اليائس الذي استمر طيلة ذلك الشهر . لكن الالمان لم يتمكنوا من تحقيق مثل هذا النجاح في الشمال . وقد طوقت لينينغراد ، لكنها لم تسقط . وصدرت الاوامر الى القوات المحاصرة للينينغراد بارسال قوات متحركة وقسم ضخم من قواتها الجوية لدعم هجوم جديد على موسكو . كما عادت المدرعات التي كانت قد مضت لمساعدة فون رونشتادت في الجنوب للمشاركة في هذا الهجوم .

وظهر الآن وجه آخر للمعركة . فبالرغم من الخسائر الضخمة التي تكبدها الروس الا أن مقاومتهم بقيت صلبة وعنيدة . فجنودهم يقاتلون حتى الموت ، فيزدادون خبرة ومهارة . وأخذ الانصار وراء جبهات الالمان يندفعون وينزلون الخراب بمواصلاتهم في حرب لا رحمة فيها ، وبدأت الطرق تنهار تحت وطأة شاحنات النقل الثقيلة ، واصبح السير على هذه الطرقات بعد هطول الامطار امرا مستحيلا . وأخذت آثار الجهد والاعياء تظهر بوضوح . ولم يبق هناك الا شهران تقريبا . ويأت فصل الشتاء الروسي المخيف . فهل ستسقط موسكو قبل حلول الشتاء ؟ واذا سقطت هل يكفي سقوطها ؟ وبالرغم من ان الفوهرر لا يزال يعيش على نشوة الانتصار في كييف ، الا أن القادة الالمان بدأوا يشعرون ان مخاوفهم السابقة لها ما يبررها تماما . ولكن مع زوال اشهر الخريف ، واستمرار التدهور في الموقف الحرج ظل السوفيات على مطالبهم التي كانت تزداد شدة والحافا .

* * *

رجع اللورد بيفربروك من الولايات المتحدة ، بعد ان اصبح الآن المطالب الاول في وزارة الحرب بضرورة ارسال المساعدات الى روسيا . وعندما نذكر أن كل ما نرسله الى روسيا يقلل من حاجات بريطانيا الضرورية ندرك تمام الادراك ، الحاجة الى شخص كاللورد بيفربروك ليتولى الدفاع عن وجوب ارسال ما تطلبه روسيا . وأحسست انه حال عودة بيفربروك وافريل هاريمان من واشنطن ، يصبح في امكاننا

استعراض جميع احتمالات الذخائر ، فان عليهما ان يسافرا الى موسكو ويعرضا كل ما يمكننا الاستغناء عنه . وهكذا جمعنا كل ما نقدر عليه ، ووافقنا على ارسال المساعدات التي ستصل الينا من اميركا ، والتي كنا في اشد الحاجة اليها ، وذلك لنساعد المقاومة السوفياتية ، ورغبت الوزارة في ضرورة عرض القضية على ستالين وان هاريمان سيمثل الرئيس خير تمثيل في هذه المحادثات .

ولخصت الوضع في رسالة بعثت بها الى ستالين ، وجاءني الرد الذي يقول فيه ستالين :

« ان الاستقرار النسبي في الجبهة ، الذي تمكنا من ايجاده منذ ثلاثة اسابيع قد تبدل في الاسبوع الاخير لان العدو نقل نحواً من اربع وثلاثين فرقة مشاة الى الجبهة الشرقية بالاضافة الى عدد ضخم من الدبابات والطائرات . ويعتبر الالمان ان ليس هناك من خطر في الغرب لذلك فهم سينقلون جميع قواتهم الى الشرق دون تردد ، لاقتناعهم بعدم وجود جبهة ثانية في الغرب . وقد صمم الالمان على وجوب تحطيم اعدائهم مبتدئين بالروس ثم الانكليز .

« وكانت النتيجة ان فقدنا اكثر من نصف اوكرانيا ، واصبح العدو على ابواب لينينغراد .... واعتقد ان السبيل الوحيد للخلاص من هذا المأزق هو في اقامة جبهة ثانية في مكان ما ، في البلقان او فرنسا ، بحيث تجتذب نحواً من ثلاثين الى اربعين فرقة المانية ، وان ترسلوا لنا نحواً من ثلاثين الف طن من الالمنيوم بالاضافة الى مساعدة شهرية لا تقل عن اربعمائة طائرة وخمسمائة دبابة متوسطة وصغيرة .... » .

وقال لي السفير السوفياتي في احدى مقابلاته مؤكدا ان روسيا تتحمل وحيدة وطأة الهجوم الالماني الكاسح . واضاف كيف يمكن للبريطانيين ان يأملوا في كسب الحرب اذا هزمت روسيا ؟ وقد اجبت السفير بقولي : « تذكر اننا قبل اربعة اشهر ، لم نكن متأكدين من انكم لن تدخلوا الحرب الى جانب الالمان ، بل كنا شبه واثقين انكم ستدخلوها ضدنا . ومع ذلك كنا واثقين من اننا سنكسب هذه الحرب في النهاية » .

ثم تلقيت برقية اخرى من ستالين ، يقول فيها :

« ليس عندي اي شك في ان الحكومة البريطانية ترغب صادقة في ان ترى الاتحاد السوفياتي منتصرا . فاذا وجدت بريطانيا ان في فتح جبهة اخرى في الغرب ، امرا مستحيلا في الوقت الحاضر ، فهناك طريقة اخرى للتعاون العسكري .

« فانا اعتقد ان بريطانيا العظمى تتمكن دون اي مجازفة ان تنزل في اركانجل ، ٢٥ الى ٣٠ فرقة ، او ان تنقلها عبر ايران الى المناطق الجنوبية من الاتحاد السوفياتي . ويمكن عندئذ اقامة تعاون عسكري بين القوات البريطانية والسوفياتية داخل الاراضي السوفياتية . وسيؤدي ترتيب من هذا النوع الى عون كبير ، كما يكون في الوقت نفسه ضربة كبيرة تلحق بهتلر .... » .

ولم اصدق نفسي ، وانا اقرأ رد رئيس الحكومة السوفياتية ، وهو يكتب مثل هذه السخافات بالرغم مما لديه من آراء خبراءه العسكريين . وبدا لي انه من العبث مناقشته وهو لا يفكر تفكيرا واقعيا ، فبعثت اليه برد بسيط حسب برقيته ....

***

وانتهت محادثات بيفربروك ــ هاريمان في لندن ، وغادرت بعثة التموين الانكليزية ــ الاميركية يوم ٢٢ ايلول ميناء سكابافلو الى اركانجل عبر المحيط المتجمد الشمالي . وكان استقبالها باردا جدا كما كانت المحادثات التي تلتها غير ودية . فالاعتقاد السائد عند الروس ان ما يعانون منه ، هو بسببنا .

وبانتهاء فصل الخريف استانفت الجيوش الالمانية الوسطى زحفها على موسكو ، ثم تحرك جيشاها مباشرة نحو العاصمة من الجنوب الغربي . وفي الثامن من تشرين الاول احتل الالمان اوريل وكالينين الواقعة على طريق موسكو ــ لينينغراد ، فاضطر الماريشال تيموشنكو ، ازاء هذا الخطر ونتيجة للزحف الرئيسي من الوسط ، الى التراجع بقواته الى خط يبعد اربعين ميلا غربي موسكو ، حيث تمكن من الصمود والقتال من جديد . واصبح الوضع الروسي خطرا كل الخطورة ، فقد انتقلت الحكومة السوفياتية ، والسلك الدبلوماسي ، والمعامل التي تمكنوا من نقلها الى مدينة كيوبيشيف الواقعة على بعد خمسمائة ميل الى الشرق . واعلن ستالين في ١٩ تشرين الاول حالة الحصار والطوارىء ، واصدر الامر اليومي : « سندافع عن موسكو حتى آخر رجل » . وقد نفذت اوامره بكل اخلاص ، فبالرغم من تقدم مدرعات غودريان من اوريل الى تولا ، وعلى الرغم من حصار موسكو في جهاتها الثلاث ، وعلى الرغم من تعرضها للغارات الجوية ، فقد تصلبت المقاومة الروسية بشدة ، وتمكنت من كبح الزحف الالماني .

اجتماعي مـع روزفلت

في منتصف شهر تموز وصل الى بريطانيا المستر هاري هوبكنز آتيا في مهمته الثانية من الرئيس . وكان بحثه الاول يتعلق بالوضع الجديد الذي نشأ عن هجوم هتلر على روسيا . وانتقل بعد ذلك الى بحث تقرير وضعه قائد اميركي كنا قد منحناه بعض التسهيلات للاطلاع على كل شيء وقد القى هذا في تقريره ظلالا من الشك على قدرتنا في الصمود تجاه الغزو الالماني ، مما سبب قلقا بارزا للرئيس . ثم انتقل الى موضوع آخر ، هو ما يشعر به الرئيس من شك في حكمة محاولتنا الدفاع عن مصر والشرق الاوسط . فقد كان يخشى انه في محاولتنا الحفاظ على كل شيء سنضيع كل شيء . واخيرا بحث المستر هوبكنز في امكان ترتيب اجتماع عاجل بيني وبين الرئيس روزفلت .

وقد قال هوبكنز ان المسؤولين في اميركا ، وهم الذين يتخذون القرارات في الشؤون العسكرية ، يرون أن الوضع في الشرق الاوسط لا يمكن التورط في الدفاع عنه ، كما ان بريطانيا تقوم بتضحيات لا فائدة منها للحفاظ على هذا الوضع ، وهم يرون ان معركة الاطلنطي يجب ان تكون المعركة الفاصلة في الحرب ، كما أن جميع القوى يجب ان تركز عليها . ثم قال ان الرئيس بالرغم من ذلك يميل الى مساعدة الكفاح في الشرق الاوسط . ثم رتب الجنرال ستيني ، وهو الذي رافق المستر هوبكنز ، بعد ذلك مشاكل بريطانية على الشكل التالي : الدفاع عن المملكة المتحدة والطرق البحرية المؤدية الى اوستراليا ونيوزيلنده ، ثم الدفاع عن الطرق البحرية بشكل عام ، ثم الدفاع عن الشرق الاوسط .

وقد طلبت من رؤساء اركاننا ابداء وجهات نظرهم . فأدلى لورد البحر الاول بالاسباب التي تجعله يعتقد بامكان بريطانيا تحطيم اي جيش يعد للغزو . ثم تحدث رئيس اركان السلاح الجوي عن مدى قوتنا الجوية اذا ما قارناها بالسلاح الجوي الالماني ، او بما كانت عليه في ايلول الماضي ، ثم اكد امكانياتنا على تدمير موانىء العدو . وتحدث رئيس اركان حرب القوات الامبراطورية ، فقال ان قوة الجيش تزيد عما كانت عليه في شهر ايلول الماضي بشكل هائل . ثم تدخلت لاشرح الاجراءات التي اتخذناها للدفاع عن مطاراتنا . واوضحت لهم بحال لجأ العدو الى حرب الغازات ، فستكون وبالا عليه ، اذ اننا سنستهدف جميع تحشداته الواقعة على السواحل وضربها على الفور ، وسننقل حرب الغازات الى بلاده . وطلبت الى ديل ان يتحدث عن الشرق الاوسط ، فقدم براهين اكيدة للاسباب التي تحملنا على البقاء هناك كأمر ضروري لا بد منه .

وقد شعرت في نهاية النقاش بأن اصدقاءنا الاميركيين قد اقتنعوا بوجهة نظرنا وبالبيانات التي قدمناها ، وقد تأثروا جدا بما بدا منا من تضامن واجماع .

لكن ثقتنا التي كنا نتحدث عنها في مسألة الدفاع الداخلي لم تشمل الشرق الاقصى في حال اعلان اليابان الحرب علينا . وقد اقلقت هذه المخاوف ايضا السير جون ديل . وكنت اعتقد بأنه يفكر بسنغافورة اكثر مما يفكر بالقاهرة . وكانت هذه القضية تدعو الى الاسف حقا فالوضع يشبه موقف الرجل الذي يخير بين ان يقتل اما ولده او ابنته . اما انا فكنت اشعر انه مهما حدث في الملايو ، فانه لا يضاهي في الاهمية ما يمكن ان يحصل اذا ما خسرنا مصر او قناة السويس او الشرق الاوسط . وما كنت لاقبل قط ، بفكرة التخلي عن الدفاع عن مصر ، ولو اضطررت للتضحية بالملايو كلها . وكان زملائي في وزارة الحرب يشاطرونني هذا الراي ايضا .

* * *

وفي احد الايام زارني هوبكنز في داوننغ ستريت وقال لي ان الرئيس يود لو نجتمع في مكان ناء ومنعزل . فأجبته بالموافقة ، وسرعان ما اعددنا كل شيء واخترنا مكان الاجتماع في خليج بلاسنتيا في جزيرة نيوفوندلند ، في التاسع من آب ، كما صدرت الاوامر الى احدث بوارجنا « برنس اف وايلز » لتكون على استعداد . وكنت متشوقا للاجتماع بالرئيس روزفلت اذ ان هذا الاجتماع يعني ترابطا اوثق بين بريطانيا والولايات المتحدة ، مما يبعث في نفوس اعدائنا القلق ، ويجعل اليابان تفكر كثيرا قبل ان تزيد من تهديدها .

ووصلنا الى موعد الاجتماع في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت في ٩ آب وبعد تبادل المجاملات البحرية المألوفة ، ذهبت لاقدم تحيتي للرئيس روزفلت الذي استقبلني بكل اجلال ، ووقف متكئا على ذراع ولده ايليوت ، حين عزفت الموسيقى العسكرية السلامين البريطاني والاميركي . وبعد ان سلمته رسالة من الملك ، قدمت اليه افراد الحاشية التي رافقتني وبدات المحادثات بيني وبين الرئيس واستمرت بلا انقطاع طيلة الايام الباقية من زيارتنا على شكل مؤتمرات عامة او اجتماعات خاصة لم يحضرها الا نحن الاثنين . وقال لي الرئيس روزفلت في احد اجتماعاتنا ، انه يقترح اصدار بيان مشترك يشرح بعض المبادىء البارزة التي يجب ان توجه سياساتنا في نفس الطريق . ورغبة مني في تنفيذ هذا الاقتراح الهام ، فقد قدمت اليه ملخصا لهذا البيان ، وبعد الكثير من النقاش والاتصالات مع وزارة الحربية في لندن ، اصدرنا الوثيقة التالية :

« بيان مشترك من الرئيس ورئيس الوزراء »

١٢ آب ١٩٤١

« لما كان رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، والمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ممثلا حكومة جلالته في المملكة المتحدة ، قد اجتمعا ، فقد رأيا انه من الافضل اعلان بعض المبادىء المشتركة في السياسات القومية لبلادهما ، والتي يعلقان عليها الكثير من الآمال لايجاد مستقبل افضل للعالم .

« اولا : ان كلا من البلدين لا ترغبان في توسع اقليمي او غير اقليمي .

« ثانيا : انهما لا ترغبان في رؤية مثل هذه التبدلات الاقليمية التي لا تتفق مع رغبات الشعوب .

« ثالثا : تحترم الدولتان حق جميع الشعوب في ان تختار شكل الحكم الذي تريده تلك الشعوب ، كما انهما تريدان ارجاع حقوق السيادة والحكم الذاتي الى اولئك الذين فقدوها بالقوة .

« رابعا : ستحاول الدولتان ، تمشيا مع تعهداتهما ، تمكين جميع الدول الكبيرة والصغيرة ، المنتصرة والمهزومة ، من الوصول على قدم المساواة ، الى مستوى تجارة العالم ومواده الاولية ، التي تحتاج اليها لرفاهيتها الاقتصادية .

« خامسا : ترغب الدولتان في تحقيق التعاون بين جميع الشعوب في المجالات الاقتصادية لتأمين المستوى العمالي الجيد، والتقدم الاقتصادي والضمانة الاجتماعية للجميع .

« سادسا : تأمل الدولتان بعد انّ تتمكن من سحق الطغيان النازي ، في ان تجدا سلاما مستقرا ، يضمن وسائل العيش لكل الشعوب داخل حدود بلادها .

« سابعا : يجب ان يضمن هذا السلام المطلوب حرية المرور في البحار والمحيطات دون معارضة ، لجميع الدول .

« ثامنا : تعتقد الدولتان انه يجب على شعوب العالم ان تترك سياسة القوة/ فالسلام في المستقبل لا يمكن الاحتفاظ به اذا بقيت الشعوب التي تهدد بالعدوان في خارج حدودها تستخدم جميع انواع الاسلحة لهذه الغاية ، فهما تعتقدان ، أنه الى ان يتم انشاء جهاز أوسع للسلامة العامة ، فان مسألة نزع السلاح من مثل هذه الشعوب أمر ضروري . وستساعدان وتشجعان ايضا كل الطرق الممكنة التي تخفف عن عاتق الشعوب المحبة للسلام اعباء التسلح » .

وقد ظهرت الاهمية الكبرى لهذه الوثيقة التي اسميت فيما بعد « بشرعة الاطلنطي » ، فالحقيقة المذهلة كانت في ان دولة كالولايات المتحدة المحايدة قد اشتركت مع دولة محاربة في اصداره . ولا شك في ان كلمة « سحق الطغيان النازي » ، كانت تحدياً واضحا في الامكان اعتباره بمثابة عمل حربي .

واستمرت الاجتماعات بين قوادنا العسكريين والبحريين وتم الوصول الى اتفاقات كثيرة فيما بينهم . وكان الخطر في الشرق الاقصى مجسدا امامنا باستمرار . وكانت الحكومتان البريطانية والاميركية منذ عدة اشهر قد اتفقتا على سياسة موحدة تجاه اليابان ، وحين اتم اليابانيون احتلالهم

العسكري للهند الصينية ، اصبحت قواتهم في وضع تتمكن به من توجيه الضربة الينا في الملايو ، والى الاميركيين في الفلبين ، والى الهولنديين في جزر الهند الشرقية . وطلب الرئيس روزفلت من الحكومة اليابانية كخطوة أولى نحو تسوية عامة ، اعلان حياد الهند الصينية ، وبالتالي سحب القوات اليابانية منها ، كما اصدر امره بتجميد جميع الارصدة اليابانية في الولايات المتحدة ، ونتج عن هذا توقف كافة العلاقات التجارية مع اليابان . ثم قامت الحكومة البريطانية بعمل مشابه بعد يومين . ثم قام الهولنديون بالعمل نفسه . وكان انضمام هولندا الى هذه الاجراءات ، يعني حرمان اليابان من جميع امداداتها البترولية دفعة واحدة .

ايـران والصحراء

ترتب على مسألة ارسال التموينات والذخائر الى روسيا وما تعترضها من المصاعب الهائلة في البحر المتجمد الشمالي ، بالاضافة الى الاحتمالات الاستراتيجية المقبلة ، ترتب على كل هذا حاجة ملحة الى فتح اقصى ما يمكن من مواصلات مع روسيا عن طريق ايران .. وبالرغم من شعوري بالقلق من الاقدام على فتح جبهة جديدة في الشرق الاوسط ، الا ان الحاجة اليها كانت قوية . فآبار الزيت الايرانية تعتبر عاملا حربيا رئيسيا ، فعلينا ان نكون على استعداد لاحتلالها في حال هزمت روسيا . بالاضافة الى الخطر الماثل على الهند . وقد ادى اخماد الثورة في العراق ، والاحتلال الانكليزي ــ الفرنسي لسوريا ، وقد حصلا في آخر لحظة أدت الى احباط خطة هتلر الشرقية . اما اذا انهار الروس ، فقد يعود الى محاولته من جديد . وكانت هناك بعثة المانية في طهران من الموظفين ، وكان من الواضح ان الايرانيين لن يطردوهم من البلاد ، فترتب علينا ان نلجأ الى القوة لطردهم . وقام المسيو مايسكي بزيارة المستر ايدن في وزارة الخارجية ، حيث اتفقا على ارسال مذكرة مشتركة الى طهران ، وهكذا وجهت الحكومتان البريطانية والسوفياتية هذه المذكرة الى ايران والتي استقبلت استقبالا غير ودي ، فتحدد يوم ٢٥ آب كموعد لدخول القوات البريطانية والروسية الى ايران .

وانتهت العملية خلال اربعة ايام ، واحتل لواء من المشاة الانكليز مصفاة النفط في « عبدان » . بعد أن فاجأت القوات الايرانية بالهجوم ، ولكنها هربت بالشاحنات ، ودار القتال في الشوارع . وضبطت بعض القطع البحرية الايرانية الصغيرة ، كما احتلت قواتنا البرية ميناء « خرمشهر » ، بينما اتجهت قوة اخرى الى الشمال باتجاه الاهواز . وبينما كانت قواتنا تقترب من الاهواز ، جاءت اوامر الشاه تطلب وقف اطلاق النار ، كما اصدر القائد الايراني أوامره الى قواته بالعودة الى ثكناتها . ووضعنا يدنا على حقول الزيت في الشمال ، وأمنا الخطر ، وكانت خسائرنا طفيفة للغاية ....

وتم الاتفاق مع الروس بسهولة على جميع الخطوات والاجراءات وكانت الشروط الرئيسية التي فرضت على الحكومة الايرانية ، تقضي بوقف العمليات الحربية ، وطرد الالمان من البلاد واعلانها الحياد في الحرب والسماح للحلفاء باستخدام المواصلات الايرانية لنقل التموينات الحربية الى روسيا . وتنازل الشاه عن عرشه لولده الاكبر الموهوب الذي اعاد الملكية الدستورية . وسافر والده بعد ايام قليلة الى منفاه المريح وتوفي في جوهانسبورغ عام ١٩٤٤ . ثم انسحبت معظم قواتنا تاركة فصائل صغيرة لحماية طرق المواصلات .

واصبح هدفنا الاول توسيع الموانيء ، وتطوير المواصلات النهرية ، وشق الطرق والسكك الحديدية ، لخلق طريق لتموين روسيا وبدأ الجيش البريطاني عام ١٩٤١ هذا المشروع ، وتمكنا بواسطته من ان ارسال اكثر من خمسة ملايين طن من المؤن الى روسيا . وهكذا انتهى اختبار قصير ومثمر ، لاستخدام القوة الضخمة ضد دولة قديمة ضعيفة ، اما بريطانيا وروسيا فكانتا تقاتلان دفاعا عن حياتهما وقد سرنا جدا ان استقلال ايران قد تمت المحافظة عليه في انتصارنا .

* * *

كان الجنرال اوكنلك القائد الرسمي في الشرق الاوسط حين بدأت علاقتي به فاتضح لي ان خلافات خطيرة في الآراء والقيم تكمن بيننا . فهو يقترح الدفاع عن قبرص بأسرع وقت ممكن وبفرقة على الاقل . كما كان يؤيد فكرة استعادة برقة ، ولكنه لم يكن واثقا من ان في امكان طبرق الصمود لما بعد شهر ايلول . وقد قال ان تركيب الدبابات الاميركية الجديدة وتسليحها ادخلا بعض التغيرات في العمليات التكتيكية ، وان وقتا سينقضي قبل الانتهاء من الدراسات الخاصة بها . ووافق على انه في نهاية شهر تموز سيكون لديه نحو من خمسمائة دبابة اميركية من النوع الثقيل والسريع لكن اي عملية تتطلب ٥٠٪ من مجموع الدبابات يحتفظ بها كاحتياط نصفها تحت التصليح والنصف الباقي للاستعاضة بها عن الدبابات المصابة ....

وسببت لي آراءه كثيرا من الخيبة ، وحيرتني ايضا قراراته . ونجحت اخيرا ، بعد كثير من الاصرار ، في نقل الفرقة البريطانية الخمسين الى مصر . وكنت شديد الحساسية بالنسبة للاشاعات المعادية والقائلة بأن سياسة بريطانيا تقوم على خوض الحرب بقوات غير قواتها ، وانها تتجنب سفك دماء الانكليز في الحروب . وكانت خسائر البريطانيين في الشرق الاوسط كله ، بما فيه اليونان وكريت ، اكبر بكثير من خسائر جميع القوات الاخرى مجتمعة ، الا ان الاشاعات المالوفة ، اوحت بانطباعات خاطئة عن هذه الحقائق . فالفرق الهندية مثلا ، الذي كان ثلثها مؤلفا مع جميع مدفعيتها من البريطانيين ، لكنها لم تكن تدعى بالفرق البريطانية ـ الهندية . كما ان الفرق المدرعة التي خاضت ميادين القتال ووطأتها ، كلها بريطانية ، لكنها لم تكن تحمل اسم الفرق البريطانية . وكنت متشوقا لوصول الفرقة البريطانية الخمسين ، باعتبارها سلاحا هاما ، لمواجهة هذه الاشاعات المهينة لنا . وكان قرار الجنرال اوكنلك باختيار الفرقة المذكورة وارسالها الى قبرص ، انتقاء يعوزه المنطق ، اذ بذلك سيتمكن الاعداء من الحصول على مادة جديدة يستخدمونها للاستهانة بنا .

وادى التصميم الآخر ، الذي اعتبرته اخطر من الجنرال اوكنلك ، الى تأجيل كل عمل حربي ضد رومل في الصحراء الغربية ، لمدة اشهر عديدة . والسبب في هذا العمل الذي قام به ويفل في ١٥ حزيران ان عملية « فأس المعركة » ، في الحقيقة الواقعة ، وهي انه بالرغم مما لحق بنا من ضرر ، وبالرغم من تراجعنا الى مواقعنا الاصلية ، فان الالمان لم

يتمكنوا مطلقا من التقدم طيلة هذه المدة الطويلة كلها . وكانت مواصلاتهم التي تهددها طبرق ، غير كافية لتمكينهم من الحصول على تعزيزات من السلاح المدرع ، ومن الذخائر ليتمكن رومل من القيام باكثر من الصمود بفضل عزيمته وشهرته . وكان من الضروري في هذه الحال ان يبقى معرضا للاشتباكات مع الجيش البريطاني الذي كان متفوقا عليه في سهولة مواصلاته البرية والحديدية والبحرية ، والذي كان يتلقى باستمرار النجدات والتعزيزات على نطاق اوسع في الرجال والمواد الحربية .

وتأكد لي ، ان المبالغة في القلق على جناحنا الشمالي ، هو نتيجة طبيعية لسوء الفهم والتقدير . وتتطلب المحافظة على هذا الجناح حرصا شديدا . لكن الوضع اصبح الآن احسن مما كان عليه في حزيران . فقد سيطرنا على سوريا ، واخمدنا ثورة العراق ، وقواتنا اصبحت الآن صامدة في جميع المراكز المهمة في الصحراء . كما ان الصراع بين المانيا وروسيا قد بعث بالثقة مرة اخرى الى تركيا ، وما دامت الحرب مستمرة بينهما ، وما دامت نتيجة المعركة معلقة في كفة القدر ، فلا يعقل ، ان تطلب المانيا من تركيا مرور جيوشها في اراضيها . وهكذا اضحى الوضع العام يتطلب القيام باجراء حاسم في الصحراء الغربية .

واحسست بتصلب في موقف الجنرال اوكنلك تجاه هذا الموضوع ، وهو تصلب لا يخدم الاهداف التي نطلبها جميعا ، وليس في مصلحتها . فاضطررت لاستدعائه الى لندن ، وكانت زيارته نافعة من عدة نواح ، فقد انسجم مع اعضاء وزارة الحرب ، رؤساء الاركان ، ووزارة الحربية . وامضى عطلة نهاية الاسبوع معي في تشيكرز . ولما زادت معرفتي بهذا الضابط اللامع ، ولما اصبح هو على معرفة بالحلقة العالية في جهاز بريطانيا الحربي ، ورأى كيف يسير هذا الجهاز ، نشأت الثقة بيننا . ولم يكن في وسعنا من الناحية الثانية اقناعه بالرجوع عن هذا التسويف الطويل في الاعداد لهجوم دقيق التفاصيل يبدؤه في تشرين الثاني ، الذي تقرر تسميته بالهجوم الصليبي ، فهو سيكون اكبر عملية قمنا بها حتى الآن . ولا ريب في انه تغلب على جميع مستشاري العسكريين بالحجج التي اوردها . اما أنا فلم اقتنع برايه . ولكن كفاءاته وقوة عرضه وشخصيته الآسرة ، كلها كانت عوامل توحي لي بأنه خير قائد يتولى هذا العمل . وهكذا قبلت بموعد تشرين الثاني الذي حدده للبدء في الهجوم ، واتجهت بكل نشاطي لانجاحه . وهكذا اسهمنا في تحمل مسؤولية جميع القرارات التي اتخذها ، ومع ذلك يجب ان اسجل اعتقادي هنا ، بأن الاربعة الاشهر والنصف التي قضاها الجنرال اوكنلك في تأجيل الاشتباك مع العدو في الصحراء الغربية ، كانت خطأ وكارثة في نفس الوقت .

والآن بعد ان علمنا تماما ما كانت تفكر فيه القيادة العليا الالمانية بالنسبة الى وضع رومل . فقد كانت هذه القيادة معجبة به كثيرا وبجراته وبالانتصارات المذهلة التي حققها ، ولكنها في نفس الوقت كانت تشعر بأن وضعه خطير للغاية . وقد منعته من القيام بأية مغامرات جديدة الى ان يتم تعزيز قواته بقوات جديدة . ومن المحتمل ، انه يستطيع ان « يبلفنا » ، وان يبقى في موقفه هذا لغاية وصول المساعدات التي ستعمل القيادة على ارسالها اليه ، فخط مواصلاته يمتد مسافة الف ميل الى

طرابلس ، كما ان بنغازي مناسبة كقاعدة قريبة لجزء من تموينانه ونجداته ، ولكن النقل البحري الى هذين المرفأين ، يتعرض لجزية باهظة التكاليف . والقوات البريطانية المتفوقة عليه عددا ما زالت تزداد كل يوم ، اما التفوق الالماني في الدبابات فيقتصر على النوعية فقط والالمان اضعف في الجو وهم يفتقرون الى ذخائر المدافع . كما ان طبرق ما برحت تهدد رومل في المؤخرة ، وقد يندفع منها هجوم في اية لحظة يقطع عليه طرق مواصلاته . ولكنهم سيبقوا في امان ما دمنا نقف مكتوفي الايدي .

واستغل الطرفان فرصة الصيف لتعزيز قواتهما . وكانت تعبئة مالطة بالاجهزة والمؤن امرا حيويا بالنسبة الينا . وادى سقوط كريت الى حرماننا من قاعدة للوقود ، تستطيع ان تضمن لاسطولنا المركز القريب لتمكين قوتنا البحرية الحامية من العمل . وازدادت احتمالات القيام بهجوم منقول بالبحر على مالطة من ايطاليا وصقلية . وكانت قواعد العدو الجوية في كريت وبرقة تهدد قوافلنا البحرية من الاسكندرية الى مالطة وتمكنت قافلتان مهمتان من شق طريقهما بالقوة وبنجاح . وكان مرور كل منهما عملية بحرية قاسية . فاستطعنا في تشرين الاول من اغراق ٦٠٪ من تموينات رومل وهي في طريقها . لكنني كنت راغبا بصورة خاصة في خلق قوة بحرية تعمل بصورة دائمة من قاعدة مالطة ، فأقمنا في شهر تشرين الاول قوة ضاربة في مالطة اسميناها القوة « ك » وضمت الطرادين اورورا وبنيلوبي والمدمرتين لانس ولايفلي . وقد لعبت دورا هاما في المعركة الجديدة التي تقرر البدء بها .

* * *

كانت مهمة اوكنلك اولا اعادة احتلال برقة وتحطيم سلاح العدو المدرع اثناء هذه العملية ، ثم احتلال طرابلس . وقد عهد الى الجنرال كاننغهام بمهمة قيادة الجيش الثامن الذي تألف مؤخرا والذي يضم الفيلقين الثالث عشر والثلاثين ، ويشتمل بالاضافة الى حامية طبرق على نحو من ست فرق ، وثلاثة الوية احتياط و ٧٢٤ دبابة . كما اشتمل سلاح الطيران في الصحراء الغربية على ١٠٧٢ طائرة حديثة صالحة للقتال وعشرة اسراب لتعمل من قواعدها في مالطة . وعلى بعد سبعين ميلا من مؤخرة رومل ، كانت حامية طبرق ، المتكونة من خمس مجموعات الوية ولواء مدرع . وكانت القلعة همه الوحيد والتي منعته من التوغل في الاراضي المصرية . وكان هدف القيادة العليا الالمانية تصفية قاعدة طبرق ، فاتخذت جميع الاستعدادات الممكنة للبدء في الهجوم يوم ٢٣ تشرين الثاني . اما جيش رومل فيتألف من الفيلق الالماني القوي المؤلف من الفرقتين المدرعتين الخامسة عشرة والحادية والعشرين ، وفرقة المشاة التسعين ، وسبع فرق ايطالية بينها فرقة مدرعة واحدة ، و ٥٥٨ دبابة بعضها متوسط وبعضها ثقيل واكثرها من الدبابات الالمانية المجهزة بمدافع اضخم من مدافع دباباتنا . اما قوته الجوية فكانت تتألف عند بدء الهجوم من ١٢٠ طائرة المانية ومائتي طائرة ايطالية .

وسارت الامور سيرا حسنا في الايام الثلاثة الاولى ، وتمكنت الفرقة البريطانية المدرعة السابعة من احتلال « سيدي رزق » ، لكن الفيلق الالماني

الذي كان قد ركز سلاحه المدرع هاجمها بقوة ، فنشبت معركة ضارية داخل المطار وحوله ، وتحولت جميع القوات المدرعة الى هذه المنطقة ، لتشتبك في معارك متأرجحة تحت وطأة نيران المدفعية المتنافسة ، وتمكن السلاح الالماني المدرع من الكسب ، بالرغم من قيادة الزعيم جوك كامبل البطولية والرائعة ، فقد تغلب العدو ومنينا بخسائر افدح من خسائرهم . فتمكن الالمان من استعادة « سيدي رزق » ، وخسرت قواتنا ثلثي سلاحها المدرع ، وصدر الامر اليها بالانسحاب عشرين ميلا لاعادة تنظيم صفوفها .

ووقعت مسرحية تذكرنا بطواف « جيب » ستيوارت حول ماكيلان في عام ١٨٦٢ اثناء الحرب الاهلية الاميركية . ولكن في هذه المرة كانت قوة مدرعة هي التي قامت بهذه الخطة ، وهي في حد ذاتها جيش قائم بنفسه ، كان تدميره سيعرض جيش المحور في افريقيا لاشد الاخطار . فقد قرر رومل ان يتسلم زمام المبادرة التكتيكية ، وان يشق طريقه شرقا ، الى الحدود بمدرعاته ، آملا بهذا ان يبعث في صفوف قيادتنا الفوضى والخوف ليرغمها على التخلي عن الهجوم . ولعله كان يفكر بما واتاه من حظ حسن اثناء اندفاعه المدرع في معركة الصحراء السابقة في ١٥ تموز . هذا الاندفاع الذي ادى الى تراجعنا في ذلك الوقت العصيب وسيظهر في سياق القصة التي ساوردها مدى النجاح الذي اصابه .

بعد ان وصل رومل الى الحدود المصرية جزأ قوته الى عدد من الارتال اتجه بعضها شمالا والبعض الآخر جنوبا ، ومضى بعضها داخل الاراضي المصرية مسافة ٢٠ ميلا ، واحدث اضطرابا في مؤخرتنا ، واسر عددا كبيرا من الرجال ، لكنه لم يستطع السيطرة على الفرقة الهندية الرابعة التي واصلت مطاردتها بوحدات تم تنظيمها على عجل . هذا بالاضافة الى سلاحنا الجوي الذي واصل تعقب ارتاله وضربها من الجو . وعانت قوات رومل التي لا يعززها غطاء جوي الآلام التي طالما عانتها قواتنا واحتملتها في الماضي عندما كانت المانيا هي المسيطرة على اجواء المعارك . واتجهت مدرعات العدو شمالا ، لتختبىء من الطائرات في « البردية » ثم عادت الى « سيدي رزق » . وهكذا فشلت ضربة رومل الجريئة ، ويعود الفضل في ذلك الى رجل واحد ، وهو القائد اوكنلك .

وقد ادت الضربات القاصمة التي نزلت بنا ، وحالات الفوضى التي نجمت عنها ، الى قيام الجنرال كاننغهام باقتراح وقف هجومنا ، معتبرا استمرار الهجوم سيؤدي الى ابادة دباباتنا كما يعرض سلامة مصر كلها للخطر . وكان اقتراحه يعني الاعتراف بالهزيمة وفشل العملية كلها . وهنا تدخل الجنرال اوكنلك شخصيا بناء لطلب كاننغهام ، وبالرغم من تفهمه لجميع الاخطار فقد اصدر امره الى الجنرال كاننغهام بمواصلة الهجوم ... وهكذا تمكن اوكنلك بعمله الشخصي من انقاذ الوضع وبرهن على ما يتمتع به من مزايا القائد البارز .

* * *

وفي هذه الاثناء كان فريبرغ ونيوزيلنديوه ، يؤيدهم لواء من دبابات الجيش الاول يواصلون الضغط على « سيدي رزق » ، حيث تمكنوا من

احتلالها بعد يومين من القتال الضاري العنيف ، وفي نفس الوقت استأنفت حامية طبرق ، محاولاتها لفك الحصار ، وتمكنت ليلة السادس والعشرين من تشرين من الاتصال مع القوة المنقذة ، فدخلت بعض الوحدات الى طبرق المحاصرة . فعاد رومل من البردية ، وشق طريقه الى سيدي رزق ، على الرغم من هجوم فرقتنا المدرعة السابعة بمائة وعشرين دبابة . واسترجع رومل مرة اخرى سيدي رزق ، وأرغم اللواء النيوزيلندي على التراجع بعد ان كبده خسائر فادحة .

وعاد اوكنلك شخصيا في كانون الاول الى القيادة وقضى عشرة ايام مع الجنرال ريتشي . الا انه لم يتسلم القيادة شخصيا لكنه ظل يشرف على اعمال مساعده . ولم يبد لي ان هذا الاجراء سليم بالنسبة الى الرجلين ، لكن قوة الجيش الثامن اصبحت متفوقة الآن ، وفي العاشر من كانون الاول ، كان في وسع القائد العام ان يبعث الينا قائلا : « بدأ العدو بالتراجع تراجعا كاملا نحو الغرب .... واعتقد انه يمكنني القول بأن الحصار على طبرق قد رفع . ونحن نواصل المطاردة بمساعدة سلاح الجو الملكي » . ونحن نعلم الآن من سجلات الالمان ان خسائر العدو في المعركة بلغت ثلاثة وثلاثين الف رجل وثلاثمائة دبابة . اما خسائرنا فلم تتجاوز نصف هذا الرقم . لكن قوتنا البحرية في شرق البحر الابيض المتوسط ، دمرت تقريبا بسلسلة متلاحقة من الكوارث ، فقد وصلت الغواصات الى الميدان ، واصيبت حاملة طائراتنا « آرك رويال » بطوربيد من غواصة المانية ، بينما كانت عائدة الى جبل طارق . وفشلت جميع المحاولات لانقاذها ، وغرقت البارجة التي لعبت دورا بارزا في كثير من معاركنا البحرية . وبعد اسبوعين اصيبت « برهام » بثلاثة طوربيدات وغرقت وعلى متنها نحو من خمسمائة رجل . وفي ليلة الثامن عشر من كانون الاول اقتربت غواصة ايطالية من ميناء الاسكندرية ، واطلقت ثلاثة طوربيدات حية ، يدير كلا منها رجلان ، واخترقت الطوربيدات مدخل الميناء حين كان الباب مفتوحا لمرور البواخر . فوضع الرجال قنابل موقوتة ما لبثت أن انفجرت صباح اليوم التالي واصيبت البارجتان « الملكة اليزابيث » و « فاليانت » باضرار بالغة ، كما ان القوة « ك » ، اصيبت هي ايضا بضربة قاصمة ، ففي اليوم الذي وقعت فيه كارثة الاسكندرية ، وصلت الانباء الى مالطة ، بأن قافلة للعدو كانت في طريقها الى طرابلس ، فخرجت ثلاثة طرادات واربع مدمرات فورا لمطاردة القافلة . وعندما اقتربت سفننا الحربية من طرابلس ، سقطت في حقل من الالغام ، فدمر طرادان الا انهما تمكنا من الابحار . اما الطراد الثالث ، فقد التقطته الالغام المغنطة وأغرقته . ولم ينج من بحارته السبعمائة الا رجل واحد اسره العدو ، بعد أن نجا مع قبطانه وثلاثة عشر رجلا آخر على عوامة من الطراد ، لكن العوامة غرقت برفاقه جميعهم . ولم يبق من اسطول البحر المتوسط الشرقي الا ثلاثة طرادات من سرب الاميرال فيان وبضع مدمرات .

وفي الخامس من كانون الاول ، وبعد ان وجد هتلر ما تعرض له رومل من اخطار ، اصدر امرا ، بنقل فيلق جوي كامل من روسيا الى صقلية وشمال افريقيا . وبدأ الجنرال كيسلرنغ الذي تولى القيادة

الجوية هجومه الجوي على جزيرة مالطة ولم يكن في وسع الجزيرة ان تفعل شيئاً سوى الدفاع عن حياتها . ولم تحل نهاية العام حتى كانت المانيا المسيطرة على الطرق البحرية الى طرابلس ، مما مكن رومل ، من اعادة تجميع قواته وتنظيمها بعد الهزيمة التي اصابته .

لكن جميع هذه الاحداث اصبحت الآن هزيلة تحت وطأة الاحداث العالمية ...

بيرل هاربور

كنت مساء الاحد في السابع من كانون الاول عام ١٩٤١ ، مع السفير وينانت وافريل هاريمان في تشيكرز نستمع الى نشرة اخبار الساعة التاسعة ، وكانت الانباء تتحدث عن القتال في الجبهة الروسية وعلى الجبهة الليبية ، ثم تلتها اخبار عن هجوم ياباني على البواخر الاميركية في جزر الهوايا وغارات اخرى على السفن البريطانية في جزر الهند الشرقية الهولندية . ولم يخطر ببالي اي شيء ، الا ان افريل هاريمان قال شيئا عن هجمات يابانية على الاميركيين ، فتفتحت آذاننا ، وكان الخادم قد سمع ما قيل ، فجاء الى الغرفة يقول : « هذا صحيح . لقد سمعنا نحن ايضا ما حدث ، لقد هاجم اليابانيون الاميركان » . وخيم علينا الصمت ، وكنت قد اعلنت في حفلة غداء رسمية ان بريطانيا ستضطر الى اعلان الحرب على اليابان « بعد ساعة واحدة » اذا قامت بمهاجمة الولايات المتحدة . ونهضت من مكاني وذهبت الى المكتب ، وطلبت ان يسجلوا لي مكالمة هاتفية مع الرئيس . وبعد دقيقتين او ثلاث ، جاءتني المخابرة الهاتفية . فقلت : « يا سيدي الرئيس ، ما القصة حول اليابان ؟ » فقال : « انها صحيحة . لقد هاجموا بير ل‌هاربور وها قد اصبحنا معكم الآن » . واعطيت السماعة الى وينانت . ودار حديث قصير ، وسمعت السفير يقول : « حسنا ... حسنا » ، وعدنا الى القاعة ، وحاولنا ان نعود انفسنا على هذا الحادث العالمي الكبير الذي كان مباغتا ، بحيث ادهش الجميع .

وطلبت الى مكتبي الاتصال برئيس المجلس في الحال لدعوة البرلمان الى جلسة في اليوم التالي . واتصلت بوزارة الخارجية طالبا اليها ، ان تعد فورا ، اعلان الحرب على اليابان ، على ان يصبح كل شيء جاهزا حين انعقاد الجلسة ، كما طلبت دعوة جميع اعضاء وزارة الحرب لابلاغهم ، ورؤساء اركان الحرب والقوات المسلحة ، الذين كنت اعتقد ان الانباء لا بد ان تكون قد وصلتهم .

وقد لا يستاء اي اميركي اذا قلت ان دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانبنا ، كان مصدر سعادة كبرى لي . فالولايات المتحدة اصبحت في الحرب ، وقد غرقت فيها حتى راسها ، وستبقى فيها حتى الموت . وهكذا فقد ربحنا اخيرا ! ! اجل ، لقد ربحنا بعد دنكرك ، وبعد سقوط فرنسا ، وبعد وهران ، وبعد خطر الغزو .

نعم لقد ربحنا الحرب ، وستبقى انكلترا وستعيش جامعة الشعوب البريطانية ، والامبراطورية . اما كم ستطول هذه الحرب وكيف ستنتهي ، فلم يكن في امكان اي انسان ان يعرف ، ولم اكن اكترث لذلك في هذه اللحظة . فالمهم باننا لن نزول من الوجود ، ولن ينتهي تاريخنا ، ولن

نموت كأفراد ايضا . وهتلر وموسوليني قد عرف مصيرهما . اما اليابانيون فسيسحقون سحقا ، فالامبراطورية البريطانية ، والاتحاد السوفياتي ، والولايات المتحدة جميعها مرتبطة الآن بكل ما لديها من قوة ، وهي حسب معلوماتي ، اقوى بضعفين او ثلاثة اضعاف من اعدائها . وليس هناك من شك في ان القتال سيطول وستكون هناك انتكاسات وخسائر خطيرة في الشرق ، الا انها لن تكون الا مجرد مرحلة عابرة . وسنتمكن عن طريق اتحادنا ان نسحق كل قوة عدوة في العالم . وربما ستقع كوارث ندفع ثمنها غاليا ، لكن النهاية لا شك فيها ....

وحاول بعض السخفاء ، التقليل من القوة الاميركية . فقالوا ان الاميركيين ناعمون ولن يتحدوا قط وسيتحركون كالحمقى من بعيد ، لانهم لا يحتملون سفك الدماء . وعادت الى ذاكرتي كلمة قالها لي ادوارد غراي ، قبل نحو من ثلاثين عاما وشبه الولايات المتحدة بمرجل هائل ، فاذا ما اشعلت النار تحته ، فليس هناك من حد للقوة التي يطلقها ومضيت الى فراشي تلك الليلة ونمت وانا اشعر بالرضى والخلاص .

* * *

وعندما استيقظت من النوم ، قررت السفر لمقابلة روزفلت . بعد ان اخذت موافقة جميع الوزراء وموافقة جلالة الملك ايضا . وقد خولتني وزارة الحرب ، اعلان الحرب على اليابان ، بعد ان اتخذت جميع الاجراءات المرعية . ولما كنت مسؤولا عن وزارة الخارجية اثناء غياب ايدن فقد بعثت بالرسالة التالية الى السفير الياباني .

وزارة الخارجية ، ٨ كانون الاول

« سيدي

« في ليلة السابع من شهر كانون الاول ، علمت حكومة جلالته في المملكة المتحدة ، ان القوات اليابانية حاولت ، دون اي تحذير سابق في شكل اعلان بالحرب او انذارا مشروطا باعلان الحرب . حاولت النزول على شاطىء الملايو وضربت بالمدفعية سنغافورة وهونغ كونغ .

« وبما ان هذه الاعمال العدوانية التي لم يسبقها استفزاز ، والتي كانت بمثابة تحد مباشر للقانون الدولي وللمادة الاولى من ميثاق لاهاي الثالث المتعلق ببدء الاعمال الحربية ، والذي وقعته كل من اليابان والمملكة المتحدة ، فان التعليمات قد ارسلت الى سفير جلالته في طوكيو بابلاغ الحكومة اليابانية الامبراطورية ، باسم حكومة جلالته في المملكة المتحدة ، بأن تعتبر حالة الحرب قد نشأت بين بلدينا .

لي الشرف ، يا سيدي ، مع مزيد الاحترام

ان اكون خادمكم المطيع

ونستون تشرشل » .

ولم يرض اسلوبي المجامل هذا بعض الناس ، ولكن حتى لو اردت ان تقتل شخصا ، فليس من مانع يمنعك من ان تكون مهذبا معه .

***

وبعد مدة سمعنا تفاصيل الهجوم على بيرل هاربور فقد كانت الخطة اليابانية حتى مطلع عام ١٩٤١ تقضي بأن يشتبك الاسطول الياباني الرئيسي في معركة واسعة في مياه الفلبين ، وذلك عندما يحاول الاميركيون ، كما هو متوقع ، فتح طريقهم عبر الباسفيك ، لانقاذ حاميتهم . لكن فكرة الاغارة على بيرل هاربور بصورة مفاجئة ، تكونت في ذهن الاميرال ياماماتو ، القائد الاعلى الياباني . وتمت الاعدادات لهذه الضربة الغادرة قبل اعلان الحرب ، وذلك في منتهى السرية والتكتم ، وفي ٢٢ تشرين الثاني رست ست حاملات تدعمها البوارج والطرادات ، في ميناء لم تألف الوقوف فيه في جزر كوريل ، شمال اليابان . وحدد يوم الاحد في السابع من كانون الاول كموعد لبدء الهجوم ، وابحرت السفن المهاجمة في ٢٦ تشرين الثاني تحت قيادة الاميرال ناغومو الى الشمال من هاواي ، متخفين في الضباب الى ان اقتربت من هدفها دون ان يشعر بها احد ، وعند الفجر ، شن الهجوم من موقع على بعد (٢٧٥) ميلا الى الشمال من بيرل هاربور . واشتركت ثلاثمائة وستون طائرة ، تضم قاذفات من مختلف الانواع ، تحرسها المقاتلات . وكانت بوارج اسطول الباسفيك هي الهدف الاساسي للهجوم . وكانت ترسو هناك اربع وتسعون سفينة حربية من سفن الاسطول الاميركي . ولم تكن موجودة لحسن الحظ حاملات الطائرات . وانتهت المعركة في العاشرة صباحا وانسحب العدو تاركا وراءه اسطولا محطما ، تلتهمه الحرائق والدخان وروح الثأر . واستشهد نحو من الفي اميركي كما جرح نحو من الفين آخرين . وانتقلت السيادة على المحيط الهادي الى ايدي اليابانيين ، واختل الميزان الاستراتيجي العالمي .

وكان الاميرال هارت قائد الاسطول الاميركي المتواضع في آسيا ، قد بدأ سلسلة مباحثات مع السلطات البحرية البريطانية والهولندية القريبة ، ثم قام بتوزيع قواته باتجاه الجنوب حيث قرر ان يجمع قوة ضاربة في المياه الهولندية بالاشتراك مع حلفائه المنتظرين . ولم يكن لديه الا طراد ثقيل واحد ، وطرادان خفيفان واثنتا عشرة مدمرة وبعض السفن المعاونة . اما قوته الكبيرة فكانت في غواصاته ، البالغ عددها ثمانية وعشرين غواصة . فعندما التقط الاميرال هارت في الساعة الثالثة من صباح ٨ كانون الاول رسالة الانباء المذهلة عن وقوع الهجوم على بيرل هاربور ، فأسرع الى تحذير جميع من يعنيهم الامر ، بأن العمليات الحربية قد بدأت ، دون ان ينتظر تأكيد النبأ من واشنطن . وقامت طائرات الانقضاض اليابانية ، بتوجيه ضربتها عند الفجر ، واستمرت الغارات الجوية طيلة الايام التالية بشكل متزايد ، فدمرت القاعدة البحرية في كافيتي ، وقام اليابانيون بأول انزال لقواتهم في شمال جزيرة لوزون في صباح اليوم نفسه . وتوالت الكوارث بسرعة . وتحطمت معظم الطائرات الاميركية على الارض . وكانت سفن الاميرال هارت قد تفرقت جنوبا قبل بضعة ايام ، ولم تبق الا الغواصات ، لتقارع العدو في السيطرة على

البحار . ونزلت قوة يابانية في خليج لينغابن مهددة مانيلا نفسها ، ومنذ هذا التاريخ ، توالت الاحداث على النحو الدائر في الملايو ، الا ان الدفاع اخذ يطول . وهكذا نجحت خطط اليابان الموضوعة منذ امد بعيد .

وذهل هتلر واركان حربه من المفاجأة . وقد روى يودل اثناء محاكمته كيف ان هتلر « وصل عند منتصف الليل الى بروسيا الشرقية لينقل هذه الانباء الي والى المارشال كايتل . وكان مندهشا حقا منها » . لكنه اصدر اوامره صباح ٨ كانون الاول الى الاسطول الالماني بمهاجمة البواخر الاميركية حيثما وجدت وذلك قبل ثلاثة ايام من اعلان المانيا الحرب على الولايات المتحدة .

* * *

وذهل هتلر واركان حربه من المفاجأة . وقد روى يودل اثناء
الوضع البحري . لقد فقدنا السيطرة على كل البحار باستثناء الاطلنطي . واصبحت اوستراليا ونيوزيلندة ، وبقية الجزر الحيوية الاخرى معرضة للهجوم . ولم يبق في يدنا الا سلاح مهم واحد . فقد وصلت البارجة « الامير ويلز » والبارجة « ريبالس » الى سنغافورة . وقد بعثنا بهاتين البارجتين لنمارس بواسطتهما ذلك التهديد الغامض ، الذي تفرضه البوارج الكبرى على الحسابات البحرية العادية . فقد ترتب عليهما ان تمضيا الى البحر وتختفيا بين الجزر التي لا حصر لها. وخيل الي ان احسن طريق لهما هو في عبور المحيط الهادي والانضمام الى ما تبقى من الاسطول الاميركي ، فهذه الحركة ستكون دلالة كريمة في مثل هذا الوقت ، فتوثق الروابط بين دولتينا . وكنا قد وافقنا على طلب وزارة البحرية الاميركية لسحب بوارجها الكبرى من الاطلنطي . وهكذا يمكن في خلال اشهر قليلة ، ايجاد اسطول على ساحل اميركا الغربي يستطيع ان يخوض معركة بحرية حاسمة اذا لزم الامر . وسيكون وجوده خير درع يقي اخواننا في اوستراليا . وقد استهوتنا جميعنا هذه الفكرة . ولكن لما كان الاوان قد فات تلك الليلة ، فقد قررنا الانتظار حتى الصباح لنرى ما سنفعله بالامير ويلز وريبالس .

ولكن لم تمض ساعتان حتى اصبحت البارجتان في قعر البحر .

وما ان استيقظت في الصباح ، سمعت جرس الهاتف على مقربة من سريري . كان لورد البحر الاول ، هو المتحدث ، وبدا لي صوته غريبا . فقال : « يا رئيس الوزراء ، يؤسفني ان اخبرك ان الطائرات اليابانية قد اغرقت الامير ويلز وريبالس . لقد غرق توم فيليب » . فقلت صارخا : « هل انت متأكد ؟ » فقال : « نعم يا سيدي » . واعدت سماعة الهاتف وسيطرت على عقلي ما تنطوي عليه هذه الكارثة الجديدة من اهوال ، فلا يوجد في المحيطين الهندي او الهادي اية سفن حربية بريطانية او اميركية كبيرة عدا تلك التي نجت من بيرل هاربور والتي اسرعت باللجوء الى كاليفورنيا . واصبحت اليابان المسيطرة على هذه البحار ، وغدونا نحن ضعفاء عراة .

سقوط سنغافورة

على الرغم مما حدث فقد بدت في مخيلتي حقيقتان ، اولاهما ان حلفنا الاعظم سيكسب الحرب في النهاية وعلى المدى البعيد ، وثانيتهما ان سلسلة من الكوارث ستكون بانتظارنا اثناء الهجوم الياباني الساحق . وكان ممكنا لاي انسان ان يشعر بشيء من الراحة بان حياتنا كشعب وكامبراطورية ، لم تعد في خطر . لكن الشعور بزوال الخطر الفتاك قد حمل كل ناقد على التحرر من الاشارة الى الاخطاء التي ارتكبت ، هذا بالاضافة الى الكثيرين الذين احسوا ان واجبهم يدعوهم الى تحسين اساليبنا في ادارة الحرب ، وبالتالي تقصير امدها . وقد انزعجت كثيرا للهزائم التي حلت بنا ، ولم يكن احد يعرف اكثر مني بأن هذه الهزائم ليست الا البداية ، فقد ادى تصرف الحكومة الاوسترالية ، وانتقادات الصحف الواسعة الاطلاع وغير المتحيزة ، ونقد اكثرية النواب باستمرار بمناوراتهم البرلمانية ، الى بعث شعور من الضيق والحيرة في نفسي ، وكنت اتصور ان هناك رأيا عاما مذهولا يبرز في تظاهرة ضدي من كل جانب .

ولكني كنت من الجهة الثانية اثق كل الوثوق من مناعة مركزي . فقد كان في امكاني الاعتماد على حسن نية الشعب بالنسبة لما قمت به من خدمات للمحافظة عليه عام ١٩٤٠ . ولم اكن اقلل من اهمية هذا الاخلاص العميق الذي يحثني دوما الى الامام . وقد ابدت لي وزارة الحرب ورؤساء الاركان كل ولاء واخلاص ، بالاضافة الى اني كنت شديد الثقة بنفسي . وقد اوضحت كلما سنحت لي الفرصة ، الى من حولي بأني لا ارضى على حد اي شيء من سلطتي او مسؤوليتي . وكانت الصحف تقترح دائما بأن ابقى رئيسا للوزارة واتنازل عن قيادة الحرب لاشخاص آخرين . ولكني قررت أن لا اتنازل عن هذه القيادة لاي كان ، وان ابقى متحملا المسؤولية بنفسي ، كذلك ان اطلب الاقتراع على الثقة في مجلس العموم . وقد تذكرت المثل الفرنسي القائل : « الهدوء هو الطريق المؤدي الى السيطرة على النفوس » .

وكان من الواجب ان انبه المجلس والبلاد للمصائب المرتقبة ، وليس ثمة من خطأ اجسم في القيادة من التطمينات الكاذبة التي لا تلبث ان تنهار . ففي امكان شعبنا ان يجابه كل الاخطار والكوارث بصبر ونشاط ، الا انه يرفض الخديعة خاصة حين يعلم ان المسؤولين عن القيادة ينعمون في نعيم الجنون . واحسست ان من الواجب تخفيف المصائب ووقعها الاليم ، وذلك بشرح الموقف الراهن في عبارات حالكة مظلمة . وكان من الممكن ان يتم ذلك في هذا الوقت بالذات دون ان يؤثر ذلك على الوضع العسكري ، او التقليل من هذه الثقة بالنصر النهائي ، التي يشعر بها كل انسان اليوم . وبالرغم من الارهاق الشديد الذي كان يصبني كل يوم ،

فاني لم اشعر بالندم على تلك الساعات الطوال التي كنت امضيتها يوميا في أعداد خطاب من عشرة آلاف كلمة اعددته ليتناول مختلف النواحي .

وبينما كانت السنة النار تلتهم قدمي من جراء الحرب الغير مواتية في الصحراء ، استطعت ان اعد بياني وتقديري للوضع بكامله .

وكانت آمالي في التغلب على رومل قد زالت قبل ان أغادر البيت الابيض ، فالمكاسب التي حققها اوكلنك في سيدي رزق والغزالة ، لم تكن حاسمة ، وادى انتعاش العدو في الجو خلال اشهر كانون ، وزوال سيطرتنا على البحر الابيض لعدة شهور ، ادى كل هذا الى حرمان اوكلنك من الاستمتاع بالنصر الذي كافح لاحرازه والذي طال انتظاره له . وكانت المكانة التي اضفاها علينا عند وضع الخطط للانزال الاميركي الانكليزي المشترك في شمال افريقيا الفرنسية قد خفتت وتأجلت العملية لمدة شهور طويلة اخرى .

وكان من الصعب ان يحل بنا ما هو اسوأ . ويحول عامل المساحة بيني وبين تقديم بيانات شاملة للكارثة العسكرية التي قدر لها ان تنزل بنا للمرة الثانية في نفس المكان ، وبعد مضي سنة من الكارثة الاولى ، والتي قدر لها ان تحطم الحملة البريطانية في الصحراء لعام ١٩٤٢ كلها . ويكفي القول ان رومل قد قام يوم ٢١ كانون الثاني بهجوم استكشافي من مراكزه في العقيلة ، ساندته ثلاثة ارتال يقدر مجموعها بثلاثة آلاف رجل تدعمهم الدبابات ، وشقت طريقها خلال الثغرات التي تركتها قواتنا الامامية التي كانت تفتقر الى السلاح المدرع ، والتي صدر اليها الامر بالانسحاب فورا . وهكذا تمكن رومل من استعادة الجزء الاكبر من برقة ، بفضل دهائه ومكره ، مثبتا تفوقه علينا في حرب الصحراء . وقد تراجعنا مسافة ٣٠٠ ميل بعد ان قضي على كل آمالنا ، وضاعت منا بنغازي وجميع المستودعات التي كان الجنرال اوكلنك قد اعدها للهجوم الكبير الذي كان يأمل المباشرة به في منتصف شهر شباط . وعاد الجنرال ريتشي بقواته المندحرة الى طبرق والغزالة ، حيث استمرت المطاردة بيننا وبين الاعداء حتى نهاية شهر ايار ، عندما تمكن من توجيه ضربته الثانية من جديد .

* * *

لا شك ان اعظم كارثة واكبر استسلام في تاريخ بريطانيا ، كان سقوط سنغافورة . وكنت عازما على اجراء تحقيق في الاسباب والظروف التي ادت الى هذه الكارثة المريعة ، الا اني قررت انه من المستحيل اجراء هذه التحقيقات سيما والحرب لا تزال دائرة . فليس في امكاننا الاستغناء عن الرجال او الوقت او الطاقات الكامنة . واجلت الموضوع لما بعد الحرب ، الا ان الحكومة لم تباشر به ، خاصة بعد مرور السنين وموت الكثير من الشهود . لذلك فاني لن احاول في هذه الصفحات الحكم على سلوك الافراد ، الا اني سأسرد على القارىء جميع الحقائق والوقائع كما اعتقدت بها ، وسأترك له ان يكون حكمه بنفسه .

ومما هو جدير بالمناقشة ، ان نقول ما اذا لم يكن من الاجدى لو تركزت قواتنا كلها على الدفاع عن سنغافورة ، وان نحاول صد الهجوم

الياباني الساحق من شبه جزيرة الملايو بواسطة قواتنا الخفيفة المتحركة . وكانت خطة القادة ، ان نباشر معركتنا في جوهور محاولين تأخير العدو في الوصول اليها قدر المستطاع . وتكون الدفاع عن البر الماليزي من التراجع بصورة مستمرة تسانده عمليات في المؤخرة . لكن الظروف والافضليات كانت بجانب العدو الذي قام بدرس طبيعة الارض واحوالها قبل مباشرة هجومه ، حتى وقبل نشوب الحرب ، واعد خططا محكمة دقيقة ، كما ارسل جواسيسه الى المنطقة قبيل هجومه الغادر . ومن جملة اعداداته كانت قوات الاحتياط المكون من الدراجات يستخدمها راكبو الدراجات اليابانيون . كما حشد العدو قوات ضخمة احتياطه ، لم يحتج لها اثناء المعركة . بالاضافة الى جميع القوات المهاجمة التي كانت متمرسة على حرب الادغال الرهيبة .

وكان التفوق الياباني في الجو وهو ما كنا نفتقر اليه ، عاملا اساسيا هاما في القتال ، الا ان قادتنا لم يكونوا مسؤولين عنه بتاتا . وهكذا فالقوة التي عهدنا اليها مهمة الدفاع عن سنغافورة قد استبسلت في الدفاع والقتال بشكل بطولي لا مثيل له ، الا انها حين وصلت ميدان المعركة الحقيقي كانت معظم قوتها قد استنفدت اثناء وصولها ، وقبل هجوم الجيش الياباني المنظم .

وظهر لي الآن بأن الجنرال ويفل الذي اصبح قائدا اعلى للحلفاء في تلك المناطق الشرقية ، كان يشك في مقدرتنا على الدفاع عن سنغافورة لمدة طويلة . وكنت اعتمد كثيرا على امكانية صمود الجزيرة وقلعتها للحصار الياباني مهما طال زمنه ، هذا اذا دعمنا الجبهة بالمدافع الثقيلة . وكنت في الوقت نفسه اراقب بتشاؤم تدهور قوة جيشنا اثناء انسحابه في شبه جزيرة الملايو ، دون ان اقوم بأي اجراء حاسم للتدخل . ومن ناحية ثانية كان هناك عامل كسب الوقت .

الا ان ويفل ابرق الينا قائلا : « كانت خططنا مقتصرة على صد الهجمات على سنغافرة الآتية من البحر والوقوف على ارض جوهور والى الشمال منها ، ولم نقم حتى وقت قريب ببناء خطوط دفاعية في الجانب الشمالي من الجزيرة ، لتحول دون مرور الاعداء من مضيق جوهور . ومع ان الخطط قد رسمت لنسف الجسور ، كما ان مدافع القلعة الثقيلة تصلح لاطلاق القنابل في جميع الاتجاهات ، لكن اتجاه سير القنابل يجعلها غير مجدية امام الاسلحة المضادة للمدفعية . ولن نتمكن من ضمان سيطرتنا على مدفعية الاعداء بحال فرضت الحصار عليها ... » .

واصبت بالدهشة حين قرأت البرقية ، اذ وجدت انه لم يكن ثمة من حصون دفاعية تحمي الجزيرة من ناحية البر ، وتحمي المدينة والقاعدة البحرية . بالاضافة الى ان ايا من القادة لم يقم ببناء حصون دفاعية متينة ، حتى ان احدا من هؤلاء القادة لم يذكر ان حصونا كهذه غير موجودة .

وقد تكونت عندي فكرة ، بفضل ما لمسته من الحرب وما قرأته عنها ، بأن خلق نقطة دفاع قوية لا يتطلب سوى بضعة اسابيع لا اكثر . كما يمكن حصر جبهة العدو وتضييق الخناق عليها بواسطة زرع الالغام

وغير ذلك من العوائق العديدة . ولكن لم يخطر لي انه ليس ثمة من دائرة من الحصون الدائمة تحمي مؤخرة القلعة الاستراتيجية . ولم اتمكن من فهم كيفية حدوث ذلك مطلقا . والظاهر ان ايا من القادة او من الخبراء في الوطن كان يدرك هذه الحاجة الماسة . واذا كان هناك من ادركها فانه لم يلمح لي بأهميتها ، حتى هؤلاء الذين قرأوا برقياتي ورسائلي المتعددة حول الاعتقاد الخاطىء بوجوب الاستعداد لحصار طويل منظم . وكنت في السابق قد قرات شيئا عن معركة بليفنا عام ١٨٧٧ ، ولم تكن المدافع الرشاشة قد اخترعت بعد ، الا ان الاتراك قد اخترعوا اساليب جديدة في الدفاع ضد الهجوم الروسي . كما درست بدقة معركة فردان عام ١٩١٧ حين تمكن الجيش المتمركز في قلاعه المحصنة المتفرقة من التغلب على اخذ الجيوش الهاجمة المنظمة . وكنت قد عزمت على ارغام العدو على استعمال مدفعيته بشكل كبير لنسف مراكزنا المحصنة المنيعة في سنغافورة ، الا ان احلامي كلها قد ضاعت حين تمثل امامي منظر الجزيرة العارية والجنود المرهقين يتراجعون اليها .

اني لا اكتب هذه الكلمات لكي ادافع عن نفسي . لقد كان من واجبي ان أعرف ، كما أنه كان من واجب مستشاري ان يعرفوا ايضا ، وبالتالي ان يطلعوني على الحقيقة كلها ، فكان علي انا ان اسألهم . ولعل السبب في اني لم اسألهم هذا السؤال من بين الوف الاسئلة التي كنت اطرحها عليهم ، هو اني لم اكن اتصور ان سنغافورة لا تملك وسائل الدفاع البرية ، كما لم اكن اتصور ان تنزل بارجة من البوارج الى البحر دون ان يكون لها قعر . وقد اطلعت على جميع الاعذار التي قدمت لتبرير هذا الخطأ الشنيع ، ومن جملتها انشغال القوات في عمليات التدريب وتجهيز الخطوط الدفاعية في شمالي الملايو ، وقلة الايدي العاملة بين المدنيين ، وتوفيرات ما قبل الحرب ، واشراف وزارة الحربية . وقد قيل ان دور الجيش كان في الدفاع عن القاعدة البحرية الموجودة على الساحل الشمالي من الجزيرة ، لذا فقد غدا من واجبه ان يحارب امام الساحل لا عليه .

وكان علي ، والحالة هذه ، ان أحاول اصلاح الاهمال الحاصل قدر الامكان ، لكن عندما افقت من نومي في صباح يوم ٢١ من الشهر الحالي ، وجدت امامي هذه البرقية المتشائمة التي وصلتني من الجنرال ويفل .

« وصل الآن الضابط الذي ارسلته الى سنغافورة ليجهز خطوط الدفاع عن الجزيرة . والآن تتخذ الاستعدادات الدفاعية عن القسم الشمالي من الجزيرة . ان الدفاع عنها يحتاج الى قوات تفوق القوات اللازمة للدفاع عن جوهور . لقد أصدرت الامر الى القائد العام برسيفال بوجوب خوض المعركة في جوهور ، وان يضع الخطط اللازمة لاطالة امد القتال عن الجزيرة في حال سقوط جوهور ، وبهذه المناسبة الفت نظرك الى انه من المستحيل الاحتفاظ بالجزيرة بعد سقوط جوهور ، اذ المدافع المتمركزة في القلعة تصلح لصد الهجوم من جهة البحر فقط ، ومعظم المدافع لا تطلق نيرانها الا باتجاه البحر . كما أن قسما من الحامية قد ارسل الى جوهور ولا اعتقد أن القسم الباقي يستطيع الصمود لوحده . آسف لهذه الصورة القاتمة التي وصفتها لك ، ولكنها الحقيقة المجردة . فالحصون المشيدة في سنغافورة لا تصلح الا للدفاع البحري ، ولا ازال

آمل في ان تصمد جوهور لحين وصول القافلة التالية ... »

نتيجة للبرقية التي وردتني ، فقد قررت على الفور تبديل الخطط من جذورها والاستعاضة عنها بخطط جديدة ، تتناسب مع الاوضاع الحالية . فأعددت مذكرة سريعة الى رؤساء اركان الحرب وسلمتها الى الجنرال ايسماي ليقدمها لهم في الاجتماع . هذا هو نصها :

« نظرا للبرقية السيئة التي وردتني من الجنرال ويفل ، ارى من الضروري علينا ان ندرس الوضع من جديد في اجتماع تعقده لجنة الدفاع في هذه الليلة .

« لقد ارتكبنا نفس الخطأ الذي كنت اخشى ان نرتكبه . فقد تقسمت قواتنا التي كان في امكانها ان تشكل جبهة قوية في جوهور ، او على الاقل على حدود سنغافورة المائية . اما من جهة البر فلم ينشأ اي خط دفاعي على طول الجزيرة . ولم يشكل الاسطول خطوطا دفاعية ضد تحركات الالتفاف المعادية من الساحل الغربي من شبه الجزيرة . وقد قال الجنرال ويفل ان الدفاع عن سنغافورة يستلزم قوات اكبر من التي يستلزمها للفوز في معركة جوهور . اما بالنسبة لمعركة جوهور فقد اوشكنا ان نخسرها ايضا ...

« اما رسالته فلا توحي بأي امل في امكانية الدفاع لمدة طويلة . ومن الواضح ان ثمن هذا الدفاع الطويل سيكون في الامدادات التي ستصلنا ، واذا كان الجنرال يشك في امكانية صمودنا لبضعة اسابيع فالسؤال الآن : أليس من الاجدى ان ننسف الارصفة والمدفعية ثم ننسحب من سنغافورة ، ونحاول ان نجمع قوانا ونركزها في بورما وابقاء الطريق اليها مفتوحا ؟

« اظن ان موضوعا كهذا يجب مواجهته بشكل صريح وان ينقل الى الجنرال ويفل بهذا الشكل الصريح . وما هي قيمة سنغافورة للعدو بالنسبة لبقية الموانىء في جنوبي غربي الباسيفيك بحال قمنا بعمليات التخريب بشكل دقيق ؟ لكن خسارة بورما من الناحية الثانية تعني ضربة قاصمة . انها تعني عزلنا عن الصين ، التي تأكد لنا ان جنودها أكفأ من غيرهم في مقارعة اليابانيين . وربما نخسر اذا ترددنا في اتخاذ القرارات الحازمة مهما كانت هذه القرارات مخيفة ، وخسارتنا ستكون بورما بالاضافة الى سنغافورة . وبالطبع فان كل شيء يتوقف على المدة التي نستطيع فيها الدفاع عن الجزيرة ، وامكانية استمرار الدفاع لبضعة اسابيع لذلك فاني ارى من العبث اضاعة كل امداداتنا وطائراتنا .

« ومع ذلك علينا ان نفكر ان سقوط سنغافورة بالاضافة الى سقوط كوريجيدور سيهز الهند هزة كبرى ، ولن ينقذها الا قوات ضخمة تصل الى بورما لتقوم باعمال ناجحة .

« اخيرا ارجو ان تدرسوا هذه الامور كلها في هذا الصباح ... » .

ولم يتوصل رؤساء الاركان الى حل حاسم ، وعندما اجتمعت لجنة الدفاع في المساء ، سيطر على الجو تردد مشابه ، تجاه الالتزام باتخاذ مثل هذا الاجراء الحاسم . وبقيت المسؤولية المباشرة الاولى متوقفة على الجنرال ويفل لوحده لكونه القائد الاعلى للحلفاء . وقد رأيت شخصيا ان المسألة صعبة كثيرا ، حتى اني لم الح في ضرورة تنفيذ خطتي الجديدة ، وهذا ما كنت افعله بالتأكيد لوكنت قد عزفت على ذلك . ولم يكن احد منا ينتظر انهيار الدفاع ، الذي حدث فعلا خلال ثلاثة اسابيع . وعلى كل حال ، لقد كان بالامكان قضاء يوما او اثنين آخرين في تفكير أكثر .

***

اما السير ايرل بيج وهو مندوب اوستراليا ، فلم يحضر اجتماع رؤساء الاركان ، كذلك لم ادعه لحضور اجتماع لجنة الدفاع . لكنه اطلع على نسخة من المذكرة التي ارسلتها الى رؤساء الاركان . وقد اتصل بحكومته على الفور ، ولم نلبث ان استلمنا رسالة من المستر كيرتن رئيس وزراء اوستراليا ، أوجز قسما منها :

« .... اعلمنا المستر بيج ان لجنة الدفاع تدرس امكانية الجلاء عن الملايو وسنغافورة . وفي امكاني القول انه بالنسبة للتأكيدات السالفة والتي كنا قد تلقيناها منكم ، لذلك فان الجلاء عن سنغافورة سيؤخذ هنا وفي عدة اماكن اخرى بانه عذر لا يمكن التغاضي عنه على الاطلاق .... لقد فهمنا ان سنغافورة ستكون قلعة لا يمكن الوصول اليها ، وهي على كل حال باستطاعتها الصمود لفترة طويلة ريثما يصل اليها الاسطول الرئيسي .

« ومن الواجب حتى لو اضطر الامر ، تحويل الامدادات الى جزر الهند الهولندية لا الى بورما . كما ان اي اجراء مغاير سيسبب الكثير من السخط والنقمة وربما يدفع بالهند الهولندية الى اللجوء للصلح المنفرد .

« وتثبيتا منا للوعود التي قطعناها على انفسنا بارسال الامدادات الضخمة ، فقد نفذنا ذلك بكل دقة وامانة . ونحن نأمل بأن لا تحطموا الاهداف كلها بهذا الجلاء .... » .

وعلينا ان نبحث عن عذر كاف لهذه الحالة العقلية التي تخبطت فيها اوستراليا نتيجة للوهم المخيف من جهاز الحرب الياباني . فقد ضاعت قيادة المحيط الهندي ، وكانت افضل ثلاث فرق عسكرية اوسترالية موجودة في مصر ، اما الرابعة وفي سنغافورة . وقد وجدوا ان سنغافورة مهددة بخطر داهم ، وخافوا من غزو مفاجيء لاوستراليا بالذات . وتقع مدنهم الكبرى التي يقطنها نصف مجموع سكان القاهرة

على شاطيء المحيط . واخذوا الآن يواجهون احتمال هجرة جماعية الى الداخل ، واستعدادا لحرب العصابات دون ان يكون عندهم مؤن كافية ومستودعات للذخيرة . والمساعدة من الوطن الاب ، غير محتملة وليس بالمستطاع اعادة فرض السيطرة الاميركية في المياه الاقليمية الاوسترالية الا بعد فترة طويلة وبصورة تدريجية . ولم اكن لاصدق بان اليابانيين سيقطعوا مسافة ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيطات ليغزوا اوستراليا ، بينما تقبع امامهم وعلى مسافة قريبة فريسة سهلة مغرية في جزر الهند الهولندية والملايو . ولكن الحكومة الاوسترالية كانت تنظر الى الموضوع من زاوية اخرى ، بالاضافة الى عدة مخاوف اخرى كانت تضغط عليها . وبقيت المشاحنات الحزبية موجودة في اوستراليا حتى بما يتعلق بهذه المشاكل المعقدة . ولم تكن الحكومة العمالية تملك في البرلمان اكثر من عضوين اثنين . وكانت الحكومة تعارض في مشروع الخدمة الاجبارية حتى في الدفاع المدني . ومع ان المعارضة مقبولة في مجلس الحرب ، الا انه لم تقم في البلاد حكومة شديدة .

واخيرا تم الاتفاق بعد كثير من المشاحنات على بذل كل المساعي الممكنة لتعزيز سنغافورة والذود عنها . واستمر انزال بقية افراد الفرقة البريطانية الثامنة عشرة . وكانت قيمة هذه التعزيزات اقل مما يوحي به عددها .وكان على الرجال ان يقذفوا بانفسهم في ميدان معركة خاسرة . وعقدت الآمال الكبيرة على طائراتنا المقاتلة من نوع « هاريكين » التي ارسلناها الى ميدان المعركة ، والتي تضاهي من حيث النوعية الطائرات اليابانية . وقد تمكنا في الايام الاولى من انزال الخسائر بها ، لكن جهل طيارينا الواصلين حديثا لطبيعة الاجواء وتفوق اليابانيين الكبير في العدد جعلا خسائرنا ضخمة . وراح الجنود اليابانيون يتدفقون على الساحل بسرعة ، فقرر الجنرال برسيفال الانسحاب والتراجع الى الجزيرة . وقد خسرنا قسما كبيرا من لواء واحد في المراحل الاولى .

اما في الوطن فلم تكن نعقد الكثير من الآمال الكاذبة على احتمال الدفاع لمدة طويلة . ولم تكن المدافع الكبيرة التي تطلق قذائفها في الاتجاه الشمالي ذات فائدة بالنسبة الى ذخيرتها المحدودة ، خاصة وان انطلاق قذائفها كان ينصب على اراض تغطيها الادغال . وقد فقد من رجال الحامية حوالي خمسة وثمانين الفا . ولم يعد هنالك من خطوط دفاعية ثابتة على طول الجبهة المعرضة للهجوم الكاسح . وضعفت روح الرجال المعنوية نتيجة للتراجع والقتال الشاق ، وكان وراءهم مدينة سنغافورة التي يسكنها حوالي مليون انسان بالاضافة الى حشد هائل من اللاجئين .

* * *

وجاءت الاخبار يوم الثامن من شهر شباط بأن العدو يحشد قوات ضخمة في المزارع الممتدة من الشمال الغربي من الجزيرة ، وقد تعرضت مواقعنا لقصف المدفعية . وفي المساء بدأ الهجوم حين عبرت القوات العدوة مضيق جوهور في زوارق مدرعة ، حيث نشب قتال ضار ، الا ان القوات الاوسترالية كانت ضعيفة جدا فتمكنت قوات العدو من النزول في عدة مواقع . واتضح لنا ان كل شيء قد انتهى في سنغافورة ، ووجدت

انه من الخطأ الاستمرار في مذبحة هائلة لا لزوم لها ، اذ ان الامل في النصر اصبح معدوما .

وهكذا في يوم الاحد الواقع في الخامس عشر من شهر شباط عام ١٩٤٢ ، حان وقت الاستسلام وتوقفت الاعمال الحربية في تمام الساعة الثامنة والنصف مساء ...

انتصار امیركا البحري

لم يكد شهر آذار ينتهي حتى اتمت اليابان المرحلة الاولى من خطتها الحربية التي تكللت بالنجاح ، وقد وقعت احداث كبيرة الآن اثرت على سير الحرب كلها . فقد سيطرت اليابان على هونغ كونغ وسيام والملايو ومنطقة الجزر الضخمة التي تتألف منها الهند الشرقية كلها . كما توغلت قوات اليابان داخل اراضي بورما . بينما بقيت القوات الاميركية تقاتل بشدة في الفليبين لكن دون اي امل .

وكانت اليابان قد وصلت الى قمة مجدها ، فالاعتزاز بالنصر العسكري ، والثقة في القيادة ، زادا من الاعتقاد بأن دول الغرب لا تتمتع بالقوة الكافية للقتال حتى النهاية . واخذت الجيوش الامبراطورية مراكزها على الحدود التي رسمت لها قبل الحرب لتكون اول المتقدمين . وكان باستطاعة اليابانيين في هذه المنطقة الزاخرة بالموارد والثروات التي لا حصر لها ، ان يثبتوا اقدامهم ويزيدوا من قوتهم وجبروتهم . وكانت خطتهم المرسومة منذ أمد طويل تقضي بفترة من التوقف للاستراحة وصد اي هجوم اميركي مضاد . ولكن خيل للقادة اليابانيين ان ساعة تقرير مصيرهم قد ازفت وعليهم ان يكون على اتم الاستعداد لها . وبدا لهم أن مشكلتهم العسكرية تقضي باختيار احد الامرين : اما تنظيم صفوفهم بشكل جديد ، او الاستمرار في التقدم الى الامام لضمان الدفاع عن الاراضي المحتلة .

وبعد المشاورات ، تقرر اعتماد فكرة التقدم والاستيلاء على جزر الاليوشان الغربية وجزيرة ميدواي وساموا وفيجي وكالدونيا الجديدة ، وميناء بورسي جنوبي غينيا الجديدة . وكانت هذه السيطرة تهدد ميناء (بيزل هاربور) الذي ما زال القاعدة الرئيسية لاميركا .

وكانت الخطط اليابانية تبدو في منتهى الجرأة والعبقرية وخاصة عند تنفيذها . ولكنها بدأت بقياسات غير صحيحة للقوى الدولية . ولم تتمكن القيادة اليابانية من تفهم القوى الحقيقية الكامنة لدى الولايات المتحدة . وكانت تظن حتى هذه اللحظة بأن النصر سيكون حليف المانيا في اوروبا . وشعرت بالرغبة العارمة بقيادة قارة آسيا نحو انتصارات وفتوحات عديدة ، لتحقق امجادها واطماعها .

ولم يكن في وسع اي انسان ان يتأكد من ان المانيا لن تقوى على هزيمة روسيا او ارغامها على التراجع الى ما وراء الاورال ، ثم تعود بعد ذلك الى بريطانيا وتحتلها ، او تزحف عبر القفقاس وايران لتلتقي مع الجيوش اليابانية في الهند . ولاعادة التوازن العسكري كان على اميركا ان

تحقق نصرا بحريا حاسما يضمن لها التفوق في المحيط الهادي ، ولو لم يضمن لها الاشراف التام على هذا المحيط . ولكن لقد قدر لنا ان نفوز ونحقق هذا النصر . وكنت متأكدا بأن الاسطول الاميركي سيستعيد سيطرته التامة على المحيط الهادي ، خلال شهر ايار ، بفضل اي مساعدة يمكن لنا تقديمها في هذا الشهر .

* * *

وقد باشرت اليابان سياسة التوسع هذا في نهاية شهر نيسان عام ١٩٤٢ . وقد اعدت الخطط للاستيلاء على مرفأ مورسبي وتولاغي في جزر سليمان الجنوبية المقابلة لجزر (كوادلكنال) الكبرى . وكان احتلال مرفأ مورسبي يعني اكمال المرحلة الاولى من سيطرة اليابان على غينيا الجديدة ، كما يؤمن لها ضمانة ثابتة لقاعدتها البحرية راباول في جزيرة بريطانيا الجديدة . ومن هناك تستطيع تطويق أوستراليا .

ووصلت الاخبار بسرعة الى المخابرات الاميركية عن الحشود اليابانية في هذه المياه . فقد شوهدت القوات اليابانية البحرية تتجمع في راباول وهي آتية من قاعدتهم الرئيسية في تروك في جزر كاولين . واضحى الزحف باتجاه الجنوب امرا محتما . وكان من المنتظر ابتداء العمليات العسكرية يوم الثالث من شهر ايار . وكانت حاملات الطائرات الاميركية قد توزعت لتقوم بالمهام المسندة اليها ، ومن بينها الهجوم الكاسح الذي قام به الجنرال دوليتل من الجو على مدينة طوكيو بالذات يوم الثامن عشر من نيسان .

اما الاميرال نيميتز فقد احس بخطر في الجنوب ، فقام ليجمع قوة ضخمة في بحر المرجان . وكان الرير اميرال فليتشر قد وصل الى هناك مع قوة مؤلفة من حاملة طائرات وثلاث طرادات ثقيلة ، كما وصلت قوة اخرى تتألف من حاملة الطائرات ليكسينغتون وطرادين آخرين تحت قيادة الاميرال فيتش التي وصلت من (بيرل هاربور) كما انضمت الى هذه القوات اسراب اخرى من مختلف الطرادات وحاملات الطائرات .

وكان الاميرال فليتشر يتزود بالوقود على بعد ٤٠٠ ميل جنوبي كوادلكنال عندما علم ان العدو قد نزل في تولاغي ليقيم هناك قاعدة بحرية له ، بعد ان انسحبت الحامية الاوسترالية الصغيرة المتمركزة هناك . وقرر الاميرال فليتشر ان يبدأ هجومه على هذه الجزيرة بالحال . لكن حاملات الطائرات المعادية كانت تشغل بال القائد فليتشر الذي لم يكن يعرف اية معلومات دقيقة عنها . وقد وصلته الانباء ان هناك حاملتين واربعة طرادات يابانية موجودة الآن الى الشمال من جزر لويزياد . ولم تكن هذه القوة هي الوحيدة ، بل كانت قوة بسيطة تقوم بالحراسة . وتوجه فليتشر على الفور لينقض باقصى ما لديه من قوة ، ولم يمض الوقت حتى شوهدت احدى الحاملات الخفيفة تحترق وتستقر في قاع المحيط بينما انسحبت بقية السفن .

* * *

وبذلك كشف فليتشر عن مكانه للعدو ، مما جعله عرضة لاخطار شديدة . وكان من المنتظر ان يتلقى هجوما صاعقا بين لحظة واخرى بينما لم يكن في امكانه اعادة تسليح قوته الا عند العصر . وكان من حسن حظه ان الطقس الرديء اخذ يسوء باستمرار ، ولم يكن العدو يملك اجهزة للرادار . وكانت قوة العدو ، في الحقيقة ، قريبة جدا منه وعلى مرمى المدافع من ناحية الشرق . وبعد الظهر بدأ العدو هجومه ، الا ان الطائرات المحلقة لـم تتميز طريقها واهدافها نتيجة لسوء الطقس ، فاضطرت الى العودة . وبينما هي في طريقها الى الحاملات مرت فوق قوة فليتشر فظهرت على شاشات الرادار ، وسرعان ما انطلقت الطائرات الاميركية لتقطع عليها طريق العودة ، وتسقط عددا منها في معركة حامية جرت في الظلام ، ولم يعد الى الحاملات من الطائرات المغيرة العدوة الا بضع طائرات من اصل ٢٧ قاذفة قنابل .

وفي صبيحة اليوم التالي تفرق الفريقان تحت جناح الليل الفائت . وفي هذه المرة ساعدت الاحوال الجوية سفن العدو فاختفت بين السحب المنخفضة ، بينما ظلت سفن فليتشر وسط اشعة الشمس ... وبدات عملية جديدة من البحث والاستكشاف . واستطاعت بعد فترة طائرة عاملة من « ليكسنغتون » من اكتشاف مخبأ العدو كما التقطت رسالة لاسلكية صادرة من العدو تفيد انهم اكتشفوا ايضا مكان حاملات الطائرات الاميركية ، وبذلك اصبحت المعركة محتمة بين فريقين متعادلين من حيث القوة .

وفي تمام الساعة التاسعة صباحا انطلقت اثنتين وثمانون طائرة اميركية ، كما انطلقت تسع وستون طائرة يابانية ، والتحمت القوتان في معركة ضارية استمرت بضع ساعات . وقد وجدت الطائرات الاميركية بعض المتاعب مـن السحب الكثيفة المنخفضة ، بينما اختفت احدى الحاملتين اليابانيتين تحت ستار من الامطار الشديدة ، وتركز الهجوم على الحاملة اليابانية الثانية فاصيبت بعدة قنابل ، واشتعلت فيها النيران وبالرغم من الاضرار التي لحقتها فقد استطاعت ان تنجو وتصل الى قاعدتها لاصلاحها . وقد اسفرت النتيجة عن سقوط ثلاث وثلاثين طائرة اميركية مقابل ثلاث واربعين يابانية . كما اصيبت حاملة الطائرات الاميركية « ليكسنغتون » اصابات مباشرة ، مما اضطر رجال الى نسفها واغراقها .

وكان من جراء ذلك ان اجل اليابانيون تقدمهم نحو مرفأ موزسبي بالرغم من ان الطريق كان مفتوحا امامهم . اما الجانب الاميركي فقد كان هدفه الاحتفاظ بقوة الحاملات الاميركية . كما تأكد للاميرال نيميتس ان هناك احداثا على جانب كبير من الاهمية منتظر حصولها في الشمال ، مما يتطلب منه اعادة استجماع قوته . وقد اكتفى في الوقت الحاضر من توقف اليابانيين من التقدم نحو بحر المرجان ، واستدعى جميع حاملات طائراته الى بيرل هاربور .

وكان تأثير هذه المعركة لا يتناسب مع خطورة الناحية التكتيكية التي علقت عليها ، ولكن من الناحية الاستراتيجية فقد كانت النتائج مرضية باعتبار ان هذا النصر كان اول نصر تحققه القوات الاميركية على اليابان .

* * *

كان الاميرال ياماتو يهيىء نفسه لمعركة جديدة ليختبر قوة اميركا في وسط الباسيفيك ، وذلك حين يتقدم لاحتلال جزر ميداوي ومطارها الكبير الذي يتمكن بواسطته من الوصول الى بيرل هاربور والذي يقع على بعد ١٠٠٠ ميل نحو الشرق . فقد قرر الاميرال ان يرسل في نفس الوقت قوات لتحتل مراكز ذات اهمية كبرى في جزر اليوشان الغربية ، وكان بذلك يامل ان يجتذب الاسطول الاميركي نحو الشمال لصد الهجوم على جزر اليوشان . حينئذ يلقي الاميرال ياماتو بجميع قواته الرئيسية على جزر ميداوي .

الا ان القائد الاميركي نيميتس كان يقظا ومستعدا . وكانت مخابراته النشيطة تطلعه باستمرار على جميع التفاصيل حتى عن موعد الهجوم الياباني . وبالرغم من ان غزو ميداوي قد يكون ستارا لاخفاء حقيقة التقدم نحو جزر اليوشان ، ومن ثم التقدم منها نحو القارة الاميركية فان ميداوي كانت بالنسبة له الخطر الاكبر والاكثر حقيقة ، لذلك لم يتردد عن تركيز قوته في ذلك المكان .

وبدأت القوات اليابانية تحركها في نهاية شهر ايار . وكانت القوة الاولى تتجه نحو اليوشان لتحويل الانتباه اليها ، ولاجتذاب بقية الاسطول الاميركي الى ذلك الاتجاه . وكان من المفروض ان تنزل القوات اليابانية في جزر آتو وكيسكا واداك والتي تقع الى الغرب . كما يقوم ناغومو مساعد الاميرال ياماتو بقوة مؤلفة من اربع حاملات بضرب جزيرة ميداوي، وبعد ذلك تأتي قوات الانزال لتحتل جزيرة ميداوي يوم الخامس من حزيران . اما الاميرال ياماتو فيعود مع اسطوله الى الغرب بحيث يبقى في مأمن مـن الطائرات الاميركية ويظل متأهبا للعودة ليضرب القوات الاميركية حين تقوم بهجومها المضاد .

وامتلأ مطار ميدواي بقاذفات القنابل الاميركية ، وصدرت الاوامر لتكون القوات باسرها على اهبة الاستعداد بانتظار الحصول على ادق المعلومات المبكرة عن اقتراب العدو . وبالفعل استمرت عمليات مراقبة العدو من الجو منذ الثلاثين من ايار . وفي يوم ٣ حزيران شوهدت احدى عشرة سفينة حربية معادية . وسرعان ما بدأ الهجوم الاميركي الخاطف على السفن المعادية ، الا ان النتيجة لم تسفر عن اي نتيجة سوى اصابة احدى ناقلات الزيت ، لكن الاميرال فليتشر تأكد الآن حقيقة مقاصد العدو . وقد علم من مخابراته ان العدو سيهاجم ميداوي من ناحية الشمال الغربي ، فحول حاملات طائراته الى الشمال من ميدواي لتبقى على اتم الاستعداد لمهاجمة جناح الاميرال ناغومو عندما يبرز وحيثما يظهر .

واشرق يوم الرابع من حزيران واضحا ، وفي الصباح الباكر ارسلت دورية من ميدواي اشارة طالما انتظرناها معلنة اقتراب حاملات الطائرات اليابانية . وشوهدت طائرات عديدة في طريقها الى ميدواي ، كما شوهدت البوارج تواكب حاملات الطائرات . وبدأ الهجوم الياباني بقوة وعنف ، وقد قوبل بنفس العنف ايضا مما اضطر الطائرات المهاجمة الى العودة وقد فقدت نصفها تقريبا . وقد حصلت اضرار جسيمة وسقط الكثير من الضحايا ، لكن المطار ظل صالحا . وسمح الوقت لهجوم معاكس على

اسطول ناغومو ، وكان تفوقه الكبير في الطائرات المقاتلة سببا في تكبيد الاميركيين خسائر باهظة ، وجاءت نتيجة الهجوم الباسل الذي بنيت عليه الآمال الكبار مخيبة ، لكن الارتباك الذي احدثه الهجوم لدى اليابانيين كان مذهلا للقائد الياباني ، فأبعده عن التفكير الصحيح ، لا سيما بعد ان الح عليه طياروه بوجوب اعادة الهجوم مرة اخرى على ميدواي . وكان قد ابقى عددا كافيا من الطائرات لمواجهة الحاملات الاميركية اذا ما ظهرت عليه فجأة ، ولكن بحثه عنها لم يؤد الى اية نتيجة ، فقرر ان يقسم التشكيلات التي اعدها ويزيد من تسليحها ويقوم بهجوم آخر على ميدواي . وقد اضطر الى اخلاء اسطح حاملاته لاستقبال الطائرات العائدة ، وهكذا عرض نفسه لخطر هائل فقد فاجأته الطائرات الاميركية بقوة وعنف بينما كانت حاملاته خالية من الطائرات المقاتلة .

* * *

كان وضع الاميرال فليتشر والاميرال سبنسر ممتاز جدا ، فبامكانهما الآن التدخل في اللحظة المناسبة . وبدأت الطائرات تشن هجومها الصاعق ، وكان الطقس قرب الحاملات المعادية غائما فتعذرت الرؤيا واصابة الهدف . ولم تتمكن معظم الطائرات من العثور على اهدافها عدا قلة مؤلفة من احدى واربعين طائرة من قاذفات الطوربيد ، وحتى هذه اصيبت بخيبة امل فظيعة من عنف المقاومة التي صادفتها ، ولم يعد من هذه الطائرات سوى ستة فقط . وفي هذه اللحظة وصلت سبعة وثلاثون طائرة من الحاملة « الانتربرايز » و « اليوركتاون » وانقضت على سفينة القيادة اليابانية وامطرتها بوابل من القنابل ، وبعد قليل توزعت الطائرات المهاجمة لتلقي بباقي حمولتها فوق البوارج الثلاث المرافقة وسرعان ما اشتعلت الحرائق الهائلة في الحاملات والبوارج اليابانية . ولم يعد بامكان القائد الاميرال ناغومو الا ان ينقل قيادته الى طراد مرافق وان يراقب الحرائق والنيران تأكل ثلاثة ارباع اسطوله .

وكان على القادة المنتصرين ان يستعدوا لمواجهة اخطار اخرى فربما يهاجم الاميرال الاكبر باسطوله الضخم جزيرة ميداوي . والآن بعد هذه المعركة ، فقد اصيبت الطائرات الاميركية بخسائر فادحة ، لكن الاميرال الاكبر ياماتو بعد ان اصدر اوامره بضرب جزيرة ميدواي عاد فألغى القرار وآثر الانسحاب التام ، وربما كان ذلك بعد ان علم بالخسارة المؤلمة التي احاقت باقوى قطع اسطوله الضخم .

* * *

وهكذا تحطمت اسطورة تفوق اليابان في المحيط الهادي بضربة واحدة من الاسطول الاميركي ، هذا التفوق الذي احبط جميع ما حاولناه في الشرق الاقصى لمدة ستة اشهر . ومنذ هذه اللحظة تحولت جميع انظارنا وتفكيرنا الى الهجوم بدلا من الدفاع . ولم نعد نفكر في اين سيكون الهجوم الياباني القادم ، بل اصبحنا نفكر اين هو المكان الافضل لنوجه نحن ضربتنا الى العدو .....

الجبهـة الثانيـة

في الثامن من شهر نيسان جاء الى لندن هاري هوبكنز والجنرال مارشال يحملان معهما مذكرة شاملة قامت باعدادها رئاسة اركان الحرب الاميركية المشتركة ، عن العمليات الحربية في غرب اوروبا . وفي هذه المذكرة قال اصدقاؤنا ان افضل مكان لتوجيه الضربة الرئيسية الاولى هو في غرب اوروبا ، وذلك بهجوم اميركي بريطاني ضخم . وقد ذكرت المذكرة وصفا دقيقا للاعدادات الهائلة المتوجب اتخاذها وتجهيزها للقيام بمثل هذا الهجوم . وقد ذكرت المذكرة ايضا ان الهجوم لا يمكن القيام به قبل سنة ، وذلك لتجهيز المتطلبات الهائلة لهذا الهجوم .

وبدأ الجنرال مارشال مباحثاته مع رؤساء الاركان البريطان . وقد سررت جدا لاهتمام اميركا وتصميمها على هزيمة هتلر في اوروبا كخطوة اولى لكسب الحرب ، فقد كانت خطة هزيمة هتلر تحتل المرتبة الاولى في تفكيري وتفكير جميع قادتنا العسكريين . لكن ايا من قادتنا لم يضع خطة لعبور المانش بجيش انكلو اميركي ضخم والنزول على الشواطىء الفرنسية قبل اواخر صيف عام ١٩٤٣ . اما المشروع الاميركي الجديد فيقضي بانزال قوات لا بأس بها في خريف عام ١٩٤٢ . وكنا نحن على استعداد لبحث اي مشروع من هذا القبيل خاصة اذا استهدف توزيع قوة المانيا ، فبذلك نكون قد خففنا الضغط الالماني الهائل على روسيا من جهة وقدمنا لها مساعدة عظيمة من جهة اخرى .

وبعد ان اجتمعت لجنتا الدفاع ، تم الاتفاق على عبور القناة في عملية اسميناها « عملية الطراد » وذلك في عام ١٩٤٣ . وقد رافق هذه الخطة اقتراحا قدمته ووافق عليه الجميع وهو القيام باحتلال قهري لافريقيا الشمالية ، ثم التوجه الى الغرب نحو طرابلس وتونس .

وبعد ان انتهى البحث كله عاد الوفد الى بلاده ليبلغ الرئيس روزفلت نتائج هذا المؤتمر .

وفي شهر ايار جاءنا زوار آخرون . فقد جاء مولوتوف ليبحث معنا في امكانية اقامة حلف انكليزي ــ روسي ، كذلك ليفهم وجهة نظرنا في مسألة فتح جبهة ثانية مع العدو . وقد تم التوصل الى تفاهم حول الحلف ، وجرى البحث في مسألة الجبهة الثانية .

وقد لاحظت مدى الشكوك المتأصلة في نفوس ضيوفنا الروس ، خاصة تجاه الاجانب . فقد طلبوا حال وصولهم مفاتيح جميع غرف النوم المخصصة لهم . وقد بحث رجالنا عن المفاتيح طويلا حتى عثروا عليها . وراح الضيوف يوصدون الابواب على انفسهم بصورة دائمة . وعندما كان

الخدام يدخلون الي هذه الغرف لتنظيفها ، كانوا يلاحظون المسدسات تحت وسائد الاسرة . وقد احضر اعضاء البعثة ضباط امن لحراستهم كما احضروا معهم امرأتين روسيتين للعناية بملابسهم وتنظيف غرفهم .

***

اما في الصحراء البعيدة ، فقد كان الجنرال اوكنلك يشعر بالعجز عن الامساك بزمام المبادرة ، الا انه كان ينتظر بثقة وهدوء هجوم العدو . وكان الجنرال ريتشي ، قائد الجيش الثامن قد جهز مواقع دفاعية قوية ممتدة من الغزالة الى بئر هاشم تتألف من ابراج محصنة تحصينا قويا . وامام هذه الابراج تمتد خطوط طويلة من الالغام ، اما وراء هذه الخطوط فكان سلاحنا المدرع يقف في الاحتياط .

وقد بدأت جميع معارك الصحراء ما عدا معركة العلمين بعملية التفاف سريعة تقوم بها القوات المدرعة حول الاجنحة الصحراوية . اما رومل فقد بدأ بالهجوم ليلة ٢٦ ــ ٢٧ من آذار بجميع ما لديه من سلاح مدرع ، وكان يأمل بالاشتباك مع سلاحنا المدرع ويدمره ، ثم يحتل طبرق في اليوم التالي . لكنه لم ينجح في خطته هذه ، وارسل الينا الجنرال أوكنلك يوم العاشر من حزيران ، بعد قتال مخيف جرى بين الاثنين ، ارسل الينا بتقرير عن خسائر الجانبين . وقد كانت الارقام مرضية ، الا ان ما جاء في التقرير حول الرجال قد اذهلني . فقد جاء فيه ان الخسائر بالرجال كانت عشرة آلاف رجل بينهم ثمانية آلاف يظن انهم وقعوا في الاسر . فقد كان الفرق الهائل بين عدد القتلى وعدد الاسرى يظهر بوضوح ان شيئا هاما قد حدث ..

وفي الثالث عشر من حزيران بدأت معركة عنيفة للسيطرة على سلسلة الصخور الواقعة ما بين « العدم » و « جسر الفرسان » . وقد اسفرت هذه المعركة عن سيطرة العدو التامة على الميدان ، بعد ان تقلصت قواتنا الى حد كبير ، فاضطررنا الى التخلي عن « جسر الفرسان » ، الذي كان مركز المواصلات في تلك المنطقة .

وقد ظهر لي ان القائد العام اوكنلك يتعرض لضغط شديد وارتباك واضح نتيجة للمسؤوليات الجمة الملقاة على عاتقه . وكان ينظر الى المعركة ، التي يتوقف عليها كل شيء ضمن حدود عمله ، كجزء من مسؤولياته ليس الا . وكان هناك الخطر الآت من الشمال الذي وجد ان من الافضل الاهتمام به بشكل بارز ، مع اننا لم نكن ننظر اليه بهذا الشكل الهام .

وبناء على تقديراته ، فقد اتخذ قرارا يقضي بتسليم زمام الامور في المعركة الحاسمة الى الجنرال ريتشي ، وفي نفس الوقت جعله تحت الاشراف الدقيق المباشر ، مواصلا ارسال التعليمات اليه . والظاهر انه لم يقتنع الا بعد فوات الاوان بأن الواجب يقضي بأن يتولى هو شخصيا ادارة دفة المعركة .

***

وفي ليل العشرين من حزيران جاءت الانباء المحزنة ، فقد سقطت طبرق ، وساء الوضع بشكل كبير بحيث اصبح الاحتمال في حدوث غارات جوية عنيفة على الاسكندرية امرا مؤكدا .

لقد كانت هذه الضربة من اقسى الضربات التي مرت بنا منذ ابتدا الحرب . ولم يكن تأثيرها يقتصر على النتائج العسكرية فقط ، بل كان تأثيرها في سمعة الجيش البريطاني كله . ففي معركة سنغافورة وقع خمسة وثمانون الف رجل في الاسر لعدد اقل منهم من اليابانيين . والآن في طبرق وقع خمسة وعشرون الف رجل من خيرة رجالنا في قبضة عدد من الاعداء يبلغ عددهم نصف عدد رجالنا . فاذا كان هذا هو نموذج الروح المعنوية لدى جيش الصحراء ، فليس بالامكان بعد ذلك تقدير مدى الكوارث التي ستلحق بنا في شمالي افريقيا .

وما ان بلغت هذه الاخبار المؤسفة مسامع اصدقاءنا في اميركا ، حتى ارسلوا الينا على الفور ست بواخر محملة بثلاثمائة دبابة من نوع شيرمان ومائة مدفع من النوع الذي يدور تلقائيا ، وشحنت على الفور الى قناة السويس .

الجيش الثامن يتأهب

ادى سقوط طبرق ، دونما عناء طويل ، الى قلب خطط المحور باكملها . وقد كانت الخطة المرسومة حتى الآن تقضي بأن يتوقف رومل قرب الحدود المصرية ، بينما تقوم قوات تصل بالجو والبحر باحتلال مالطة . لكن رومل اقترح بعد ان سقطت طبرق ، بوجوب تحطيم ما تبقى من قوات بريطانية صغيرة قرب الحدود ، وبذلك يتمكن من فتح الطريق الى مصر . وقد ايدت اقتراحه هذا في استئناف المطاردة حتى مصر ، عدة عوامل منها طبعا معنويات رجاله العالية ، والكميات الهائلة التي غنموها اثناء معركة طبرق ، من ذخيرة وعتاد . وهكذا الح في الموافقة على مطلبه ، وارسل هتلر الى موسوليني على الفور رسالة يقول فيها :

« لقد شاءت الظروف ان تقدم لنا فرصة لن تتكرر مرة اخرى في مسرح الحرب ذاته ... فقد انهزم الجيش البريطاني الثامن وتحطم شر تحطيم . وما زالت التجهيزات في المرفأ في طبرق سليمة . وها قد اصبح لديك الآن ، يا دوتشي ، قاعدة اخرى ذات اهمية عظيمة ، فقد قام الانكليز بامداد خط حديدي يصل الى مصر . فاذا لم نسعى في هذه اللحظة لمطاردة الجيش البريطاني حتى آخر رجل يتبقى منه ، فسيتكرر ما حدث عندما حرم الانكليز من ثمار نصرهم الذي احرزوه ، فلم يصلوا الى طرابلس ، فتوقفوا وارسلوا بقواتهم الى اليونان ...

« ان آلهة الحرب تزور المحاربين مرة واحدة ، فاذا هم لم يمسكوا بها ، فلن يتمكنوا من ذلك مرة اخرى » .

ولم يكن موسوليني بحاجة الى مـن يقنعه . فقد اعجبته فكرة الاستيلاء على مصر ، وخول رومل باحتلال الممر الضيق الواقع بين العلمين ومنخفض القطارة ونظم رومل بسرعة قوات المطاردة ، وفي ٢٤ حزيران اجتاز الحدود الى مصر دون ان يجد اي مقاومة تذكر ، فقد كانت خطتنا تقضي بالانسحاب الى مرسى مطروح وقد غطت طائراتنا الباسلة انسحابنا هذا بشكل رائع . ولم يكن مركزنا هنا قويا . وكانت تنظيماتنا الدفاعية القوية قد اقيمت حول المدينة المذكورة نفسها ولكن الى الجنوب منها .

وجاء الى الجبهة الامامية في مرسى مطروح الجنرال اوكنلك ، وقرر ان يأخذ بنفسه قيادة العمليات العسكرية عوضا عن الجنرال ريتشي . وكان من واجبه ان يقوم بمثل هذه المبادرة منذ ان طلبت منه ذلك في الماضي . وبعد ان درس الموقف ، قرر انه لا يمكن الصمود كثيرا في مرسي مطروح ، وكانت في نفس الوقت ، الاستعدادات تجري بسرعة لتجهيز المواقع في منطقة العلمين التي تبعد ١٢٠ ميلا الى الوراء . وقد اتخذت

جميع الترتيبات التي تضمن وقف تقدم العدو في هذه النقطة ، كما عهد الى الفرق النيوزيلاندية التي وصلت من سوريا للقيام بعمليات حربية متفرقة في المنطقة الصخرية الواقعة بين العلمين ومرسي مطروح . واستطاع العدو في ليل السادس والعشرين من اختراق جبهة لواء المشاة الهندي التاسع والعشرين ، في منطقة كانت خالية من حقول الالغام ، حيث تقدم من هذه الثغرة في صباح اليوم التالي ، وقام بعملية تطويق حول مؤخرة القوات النيوزيلاندية التي اضحت مطوقة من جهاتها الثلاث . ونشب قتال عنيف استمر طوال النهار ، وقد اصيب قائد الفرقة الجنرال فريبرغ بجراح خطيرة ، وكان معاونه انجلز يتمتع بجراة متناهية فقرر اختراق الطوق المضروب حولهم ، وهكذا وبعد منتصف الليل تقدم اللواء النيوزيلاندي الرابع باتجاه الشرق وقد انتشرت افواجه ، وفتحوا نيرانهم الحامية وفوجيء الالمان بهذا الهجوم المباغت ونشبت معارك عنيفة بالسلاح الابيض كان النصر فيها حليف الفرقة النيوزيلاندية الباسلة ، وقامت بقية الفرقة بهجوم ضخم باتجاه الجنوب في دفعات دائرية ، وتمكنت من النجاة من الطوق المضروب حولها ، وعادت لتلتقي مع بقية الفرق في العلمين .

ومن ثم تمكنوا من انقاذ بقية الجيش الثامن ، وأعيد تنظيم جميع القوات ، وحاول الجنرال اوكنلك في هذه اللحظة استعادة المبادرة التكتيكية ، فقام بعدة هجمات موفقة على قوات رومل التي اصبحت منتشرة الى اقصى حد ممكن ، وقد بلغ بها الجهد حده ، ولم يكن قد بقي لديه سوى اثنتي عشرة دبابة صالحة للعمل ، بينما اخذ تفوق سلاح الطائرات البريطاني يبدو بشكل ظاهر ، فأبرق رومل الى القيادة العليا ، بأنه سيوقف الهجوم ويأخذ جانب الدفاع حتى يستطيع اعادة تنظيم قواته المشتتة . وكان حتى هذه اللحظة واثقا من قدرته على احتلال مصر ، وكان هتلر وموسوليني يشاطرانه هذا الرأي . وبالفعل اصدر هتلر اوامره بتأجيل الهجوم المقرر على مالطة حتى يتم احتلال مصر .

وضغطت هجمات اوكنلك الموفقة على قوات رومل ضغطا متزايدا الى حد انه بدأ يفكر بالانسحاب الى الحدود ، وقد أخذ يشكو من قلة الامدادات ومن افتقاره الى الرجال والدبابات والمدفعية ، ومن كثرة نشاط السلاح الجوي البريطاني . واستمرت المعارك حتى نهاية شهر تموز ، وصمد الجيش الثامن في وجه رومل وحافظ على مصر بكل امانة .

وفي هذه المرحلة ، التي كانت اضعف ما مر بي من مراحل سياسية وعسكرية ، طلبت الى الولايات المتحدة ان تقرر بشكل حازم قرارا كان من شأنه ان يسيطر على مجرى الحرب طوال العامين المقبلين . وكان هذا القرار هو التخلي عن جميع الخطط لاجتياز المانش في عام ١٩٤٢ واحتلال افريقيا الشمالية الفرنسية في الخريف المقبل وذلك بواسطة حملة بريطانية اميركية مشتركة .

زيارتي للقاهرة وموسكو

كانت التقارير التي تصلني من الخارج تشير الى وجوب سفري الى الشرق الاوسط لانهاء مسألة القيادة في الشرق الاوسط ، لكي اسوي هذه القضية بشكل حاسم . وكان من المقرر ان اتوجه اولا الى جبل طارق ثم تاكورادي واجتاز اواسط افريقيا الى القاهرة . وقد وصل في هذه الآونة الى لندن طيار اميركي شاب يدعى الكابتن فاندر كلوت ، الذي جاء بطائرته « الفدائي » من الولايات المتحدة . وكانت هذه الطائرة قادرة على اجتياز الرحلة المنوي القيام بها بسرعة كبيرة . وقد قال الكابتن فاندر كلوت انه يستطيع الطيران من جبل طارق الى القاهرة في رحلة واحدة تستغرق يومين فقط بدلا من الرحلة الاولى التي ستستغرق خمسة ايام . وهكذا تقرر اعتماد الطائرة المذكورة للقيام بهـذه الرحلة ، فاستأذنت جلالة الملك الذي وافق على رحلتي هذه ، واستدعيت مجلس الوزراء وابلغتهم قراري هذا .

وكان اهم ما يشغلنا هو ان نعرف راي الحكومة السوفياتية في مسألة تغيير خطة عبور المانش في عام ١٩٤٢ وتأجيلها لما بعد هذا التاريخ ، فأرسلت اقتراحا الى ستالين بأن امضي الى زيارته في موسكو للبحث معه في هذا الشأن . وقد وصلني منه الرد في اليوم التالي ، بأنه مستعد للاجتماع بي في موسكو في الوقت الذي احدده انا .

* * *

وفي القاهرة ، حيث اصبحت متابعا للاحداث عن كثب ، اصبح بامكاني دراسة وضع القيادة العامة بشكل اكثر واقعية . فقد لمست أن حراجة الوضع تتطلب تبديلات جوهرية في القيادة العامة ، كما تتطلب بعض التضحيات الهامة . وهكذا وبعد أن أجريت الكثير من الاستشارات مع كبار القادة والمستشارين ابرقت الى لندن بالبرقية التالية :

« .... لقد توصلت اخيرا الى قرار يقضي بوجوب اجراء تبديلات جذرية سريعة في القيادة العامة . لهذا اقترح ان تنقسم القيادة في منطقة الشرق الاوسط الحالية الى قسمين مستقلين هما :

أ ـ قيادة الشرق الادنى التي تشمل مصر وفلسطين وسوريا وتكون القاهرة مقرهما .

ب ــ قيادة الشرق الاوسط التي تشمل ايران والعراق على ان يكون مركزهما البصرة او بغداد .

« وتضم القيادة الاولى الجيشين الثامن والتاسع ، وتضم القيادة الثانية الجيش العاشر .

« يعرض على الجنرال اوكنلك القيادة العامة في الشرق الاوسط ، ويتولى الجنرال الكساندر القيادة في الشرق الادنى .

« ويتولى بدلا من الجنرال الكساندر قيادة عملية « المشعل » الجنرال مونتغمري الذي يتمتع بكفاءات عظيمة تخوله تلك القيادة الهامة .

« اخيرا يتولى الجنرال غوت قيادة الجيش الثامن تحت امرة الكساندر .

« ان هذه الاقتراحات تشكل تبديلات جوهرية تفرضها حراجة الوضع واهميته الشديدة . وقد وافقني الجميع على هذه المقترحات ، لذلك اكون ممتنا لزملائي الوزراء اذا وافقوني على هذه المقترحات . ولا ريب في ان هذه التبديلات ستخلق في نفوس الجيش حافزا جديدا ، ومن ثم تعيد اليه الثقة بقيادته ، هذه الثقة التي باستطاعتي القول بكل اسف انها اصبحت مفقودة في الوضع الحاضر . ولا اعتقد ان وزارة الحرب ستخفق في فهم ما يعنيه الانتصار على رومل في الصحراء وما سيتركه هذا الانتصار من اثر على موقف الفرنسيين في شمال افريقيا ، عندما نباشر في عملية « المشعل » .

ووافقت وزارة الحرب على اقتراحاتي كلها ، الا انها لم توافق على لقب الجنرال اوكنلك كقائد عام بينما هو يتولى القيادة في ايران والعراق ، مما يخلق بعض الارتباك . وقد وافقت على ما ارتأته الوزارة واخذت بنصيحتها .

ولكن شاءت الاقدار ان تبدل بعض الخطط التي اعددتها ، فقد قتل الجنرال غوت اثناء سفره الى القاهرة بعد ان اسقط الاعداء طائرته . فاضطررت على الفور الى تعيين الجنرال مونتغمري في قيادة الجيش الثامن بدلا منه ، وهو القادر على مقارعة رومل في الصحراء .

* * *

وفي تمام الساعة العاشرة من مساء العاشر من شهر آب تناولنا العشاء في دار السفارة في القاهرة . وفي صبيحة اليوم التالي بدانا رحلتنا التالية الى موسكو . وقد رافقني في هذه الرحلة رئيس الاركان والجنرال ويفل الذي كان ملما باللغة الروسية ومارشال الجوتيدر، والسير الكساندر كادوغان وسافر معنا افريل هاريمان الذي وصل من اميركا بناء لطلب مني سبق ووجهته الى الرئيس . وهكذا سافرنا جميعا في طائرة واحدة . وكانت اولى محطاتنا طهران . وقد دعاني جلالة الشاه الى الغداء الخاص في قصره الفخم . وفي اليوم التالي غادرنا طهران متجهين الى موسكو . وما ان وصلناها حتى وجدنا على المطار موكبا رسميا باستقبالنا يراسه

مولوتوف ومجموعة من الجنرالات الروس ورجال السلك الدبلوماسي . وكان هناك عدد من المصورين والصحفيين . وكان حراس الشرف على اشد ما يكونون من الاناقة والابهة ، ومضينا بعد ان عزفت اناشيد الدول الثلاث الكبرى التي ستقرر نهاية هتلر . ثم القيت كلمة قصيرة ، كما تحدث افريل هاريمان ممثلا الولايات المتحدة . وبعد ذلك اقلني مولوتوف بسيارته الى المكان المعد لاقامتي والذي يبعد ثمانية اميال عن موسكو . اما هاريمان فقد قرر ان يقيم في دار السفارة الاميركية . وبينما كنت في السيارة انزلت زجاج النافذة لاستنشق بعض الهواء ، وكم ادهشني سمك الزجاج الذي يزيد عن البوصتين . وقد لاحظ المترجم شدة دهشتي فقال لي « ان الوزير يقول بأن هذا اكثر تحفظا وحكمة .... » .

***

وقد وضع تحت تصرفي ضابط شاب ، مهيب الطلعة جميل الشكل ، واعتقد انه ينحدر من سلالة الاسر النبيلة في عهد القياصرة ، فقد كان مثالا للدماثة والتهذيب وحسن العناية . كما كان الخدم ماهرون جدا في ملابسهم البيضاء وابتساماتهم المشرقة ، وهم بانتظار اي اشارة تصدر مني ليلبوا جميع ما اطلبه . ومدت طاولة الطعام الكبيرة ، وعليها جميع ما تشتهيه النفس . ثم قادوني الى غرفة نوم تضم حماما واسعا سحرني بنظافته وروعته ، وتقت الى حمام ساخن بعد عناء الرحلة الشاقة ، وسرعان ما تجهز كل شيء لي على الفور . وبعد ان اخذت حماما دافئا ، ارتديت ملابسي ونزلت الى غرفة الطعام وانضممت الى الرفاق وتناولنا طعاما يفوق ما يمكن لاجهزتنا الهضمية استيعابه . ولم يعد امامنا الا وقت قصير للانتقال الى موسكو . وكنت قد اخبرت مولوتوف بأني مستعد لمقابلة ستالين في هذه الليلة ، واقترح انه يكون الاجتماع في الساعة السابعة .

ووصلت الى الكرملين ، واجتمعت لاول مرة مع الزعيم الثوري الكبير ، والسياسي المحنك . وقد استغرق هذا الاجتماع اربع ساعات كاملة . وقد كانت الساعتان الاوليان مليئتين بالفتور والجفاف . وقد بدأت على الفور بالتحدث عن الجبهة الثانية ، وقد اكدت برغبتي في الحديث بكل صراحة ، وطلبت ان يبادلني ستالين نفس الصراحة . وما كنت لاحضر الى هنا لولا شعوري بأنه سيتمكن من البحث في الامور بواقعية . فعندما جاء مولوتوف الى لندن كنت قد اخبرته باننا نبذل محاولة لتحويل الضغط الالماني الى فرنسا . وقد افهمته اني لا استطيع ان اعده بشيء في عام ١٩٤٢ ، وقد اعطيته رسالة خاصة بهذا الموضوع . وقد جرت دراسات عديدة مع اميركا لهذه المشكلة ووصلنا الى الاستنتاج باننا غير قادرين على القيام باي عملية رئيسية في شهر ايلول ، وهو الشهر الاخير الذي يمكن الاعتماد على طقسه للقيام بعملية من هذا النوع . ولكن الدولتين ، كما يعرف ستالين تمام المعرفة ، تستعدان للقيام بعملية ضخمة في عام ١٩٤٣ . لذلك فمن المنتظر ان يصل الى انكلترا في ربيع عام ١٩٤٣ حوالي مليون جندي اميركي ليؤلفوا حملة ضخمة تضم ٢٧ فرقة اميركية و ٢١ فرقة بريطانية . وسيكون نصف هذه الحملة تقريبا مجهزا بالسلاح

المدرع . ولم يصل لغاية الآن سوى فرقتان ونصف ، ومن المنتظر وصول البقية خلال اشهر تشرين وكانون .

وقد قلت له ان هذه الخطة لن تحقق لروسيا اي مساعدة خلال عام ١٩٤٢ ، ولكن عندما ينتهي الاعداد لهذه الخطة خلال عام ١٩٤٣ فسيكون للعدو جيشا اضخم واقوى في الغرب مما لديهم الآن . وما ان وصلت الى هذا الحد من الحديث حتى بان العبوس على وجه ستالين ، ولكنه لم يقاطعني . وقلت له ان هناك اسبابا تمنعنا من القيام بهجوم على الساحل الفرنسي في عام ١٩٤٢ . اذ انه ليس لدينا في الوقت الحاضر وسائل ومعدات خاصة للانزال والهجوم على ساحل محصن ، والموجود الآن لا يكفي لاكثر من ست فرق لا غير . واذا نجح الهجوم ، فسيكون بامكاننا ارسال فرقا اخرى ، ولكن حاجتنا الى وسائل الانزال ، هو السبب الوحيد الذي يحدد تحركاتنا ، وهذه الحاجة هي التي تدعونا الآن للاكثار من اعداد لوازم الانزال في بريطانيا والولايات المتحدة . وفي استطاعتنا ان ننقل في العام القادم ثماني فرق او عشرة مقابل فرقة واحدة ننقلها الآن .

وبدا لي ستالين بوجهه العابس وكأنه غير مقتنع بجميع ما قلته له ، ثم سألني هل من المستحيل مهاجمة اي جزء من الساحل الفرنسي ؟ فعرضت عليه خريطة تبين له مدى الصعوبات التي نواجهها اذا اردنا اقامة غطاء جوي فوق قوات الغزو الا فوق مضائق دوفر . ولاحظت كذلك انه لم يفهم ، ثم وجه بضعة اسئلة اخرى عن امكانية الطائرات المحاربة ، وهل لا تستطيع تلك الطائرات ان تذهب وتعود طوال الوقت ؟ واوضحت له انها اذا بامكانها ذلك فهي لن تتمكن بهذا المدى ان تقاتل ، واضفت انه من المفروض ان يبقى الغطاء الجوي موجودا بصورة مستديمة لكي ينجح . ثم قال انه ليس هناك في فرنسا اي فرق المانية ذات قوة ، ولكني اكدت له بصورة قاطعة ان في فرنسا الآن خمسة وعشرين فرقة المانية من بينها تسع فرق من النوع الممتاز . ولكن ستالين هز رأسه مشككا . عند ذلك قلت له انني احضرت معي الجنرال ويفل ورئيس الاركان ليبحثوا مثل هذه الامور مع اركان الحرب الروس ، اذ ان هناك حدا يقف عنده الساسة ، ومن ثم يتركوه للرجال العسكريين .

واجاب ستالين ، الذي بدا عابسا اكثر ، انه قد فهم اننا عاجزون عن خلق جبهة ثانية بقوات كبيرة ، واننا لسنا على استعداد حتى لانزال ست فرق . فأكدت له ما فهمه . فقد كان باستطاعتنا انزال ست فرق ولكن انزالها لن يفيدنا بل على العكس فالضرر من انزالها سيكون اكبر من الفائدة ، اذ ان هذا سيؤثر تأثيرا مباشرا على العملية الكبيرة التي نعد للقيام بها في العام القادم . فالحرب ليست عمليات جنونية ، ومن الجنون ان يقذف المرء بنفسه في كارثة لا نتيجة من وراءها او نفع . ثم قلت له انني اخشى ان تكون هذه الكلمات قد خيبت آماله ، فاذا كانت مسألة ارسال ١٥٠ الى ٢٠٠ الف جندي ستساعده باجتذاب القوات الالمانية من الجبهة الروسية ، فاننا لن نتوانى لحظة واحدة عن القيام بهذه الخطوة مهما كلفتنا من خسائر ، اما اذا كانت هذه الخطوة لن تؤدي الى اي اجتذاب للقوات الالمانية فمن الخطأ ان نحاول التفكير فيها .

وقال ستالين ، الذي بان القلق عليه ، ان نظرته الى الحرب تختلف تماما عن نظرتنا . فالرجل الذي لا يغامر لا يستطيع ان يربح الحرب . فلماذا هذا الرعب من الالمان ؟ انه لا يفهم له اي سبب . وقد علمته التجارب ان الجيوش يجب ان تدمى في الحروب ، فاذا لم تتعرض تلك الجيوش للدماء ، فلن نتمكن من معرفة قيمتها . وقد سألته بعد ذلك هل تساءل لماذا لم يقم هتلر بغزو انكلترا عام ١٩٤٠ حين كان في اوج قوته ، بينما لم يكن لدينا سوى عشرين الف جندي مدرب ومائتي مدفع وخمسين دبابة . الا انه لم يغامر بالهجوم ، لان هتلر كان يخشى هذه العملية فليس من السهل اجتياز قناة المانش . ورد ستالين بقوله ان ما قلته لا يعتبر مثلا يشبه به . اذ أن نزول القوات الالمانية ستقابله مقاومة من الشعب البريطاني ، اما في فرنسا فسيقابل نزول الانكليز فيها باذرع مفتوحه من الشعب الفرنسي . وهنا قلت له ان ما يقوله يؤيد فكرة عدم المغامرة بالغزو ، اذ أنه لو فشلت العملية واضطررنا للانسحاب ، فهذا يعني تعريض الشعب الفرنسي كله لبطش هتلر وانتقامه .

وابتسم ستالين ابتسامة مصطنعة وقال اننا اذا كنا في الوقت الحاضر عاجزين عن القيام بهذه العملية في فرنسا ، فليس من حقه ان يطالب بها او يلح عليها ، ولكنه يعتقد ان من واجبه القول بأنه لا يوافقني على آرائي .

* * *

وقدمت له خريطة جنوب شرقي اوروبا والبحر الابيض المتوسط وشمال افريقيا ، وسألته ما هي الجبهة الثانية ؟ هل هي مسألة انزال على الساحل المقابل لانكلترا ؟ وهل لا يمكن ان تتطور الى عملية اضخم قد تصبح اكثر نفعا للقضية المشتركة ؟ ووجدت انه من الافضل لو تقدمت به نحو الجنوب في بضع خطوات . وقلت اننا لو تمكنا مثلا ، من ايقاف تقدم العدو في خليج كاليه ، حين نحشد قوات بريطانية ضخمة هناك واستطعنا في نفس الوقت من الهجوم مثلا في اللوار او الجيروند او الشلدت ، فان هذا سيكون محتملا جدا . فهناك بالطبع صورة شاملة للعملية الضخمة في العام المقبل . وقال لي ستالين ان لا تكون هذه الخطة عملية ، واجبته بان من الصعب جدا انزال مليون جندي مع معداتهم ، ولكن علينا أن نحاول وان ننجح في محاولتنا .

ثم انتقلنا بعد ذلك الى مسألة الاغارة على المانيا ، وقد اتفقنا تماما حول كل ما دار في هذا الشأن . واكد ستالين ضرورة تحطيم معنويات الشعب الالماني ، وقال انه يعقد آمالا كبيرة على عمليات الاغارة الجوية لانها تترك اكبر الاثر في المانيا .

وبعد هذه الاحاديث التي خففت من حدة غضبه وتوتره قال ستالين انه يفهم من كل حديثنا اننا في الوقت الحاضر لن ننفذ اي عملية من العمليات التي سبق وخططنا لها في الماضي سوى الاستمرار في الاغارة على المانيا وقصفها من الجو . وقررت عندئذ ان اذيقه اولا الطعم المر ، ثم امهد له الجو المناسب للمشروع الذي اتيت لعرضه عليه . ولذلك لم

احاول ان اخفف من حدة غضبه وقلت انه من الضرورة بمكان ان يخيم على الجو طابع الصراحة خاصة بين الاصدقاء الذين يشتركون في نفس المخاطر .

* * *

وجاء الوقت لاعرض على ستالين مشروع عملية المشعل فقلت اني ساعود بالحديث مرة اخرى الى موضوع الجبهة الثانية في عام ١٩٤٢ ، وهو الموضوع الذي اتيت الى موسكو لابحثه معك بالذات . فانا لا اظن ان فرنسا هي المكان الوحيد الصالح لهذه العملية او هذه الجبهة . فهناك اماكن اخرى ، وقد قررنا نحن الاميركيون خطة اخرى فوضني الرئيس الاميركي بأن ابوح بها اليك شخصيا طالبا ان تبقى سرا من الاسرار الضخمة . وهنا قطب ستالين حاجبيه وقال انه يأمل ايضا ان لا تذكر الصحف البريطانية شيئا عن هذه الخطة .

وبدات بحث موضوع عملية « المشعل » . وقد وجدت ان ستالين قد بدا مهتما بحديثي . وكان اول سؤال ساله هو عما سيحدث في اسبانيا وفي فرنسا ، وقال بأن العملية تبدو صحيحة من الناحية العسكرية ، ولكنه يشك بتاثيرها السياسي على فرنسا ، ثم سأل عن الموعد المحدد لتنفيذ هذه العملية ، فاجبته أنه لن يتأخر عن آخر تشرين الاول .

ثم رحت اشرح له بعض المزايا العسكرية المترتبة على تحرير البحر الابيض المتوسط ، حيث نستطيع فتح جبهة اضافية فيه . وقلت له ان علينا ان نكسب المعركة في مصر خلال شهر ايلول ، وفي شمال افريقيا خلال شهر تشرين الاول ، مع الحد من توسع العدو في فرنسا . فاذا استطعنا احتلال شمال افريقيا كلها في نهاية العام ، كان باستطاعتنا تهديد اوروبا الهتلرية وستصبح هذه العملية موافقة لعملية عام ١٩٤٣ .

ولكي اوضح له النقطة التي تطرقت اليها رسمت له صورة تمساح ثم شرحت له مشيرا الى الصورة ، عزمنا على ضرب التمساح في بطنه الناعم ، وفي نفس الوقت نجدع له انفه الصلب . وكان ستالين على اشد ما يكون من الاهتمام ، وما لبث ان تمنى لنا النجاح في مشروعنا هذا .

وقد اكدت له تصميمنا على تخفيف الاعباء عن كاهل روسيا ، فاذا ما حاولنا ذلك في شمال فرنسا فسنصاب بنكسة شديدة ، اما اذا حاولنا هذه العملية في شمال افريقيا فلدينا هناك فرصة اكبر للنجاح ، ثم يمكننا بعد ذلك ان نساعد اوروبا كلها . واذا ظفرنا في معركة شمال افريقيا فسيضطر هتلر الى استعادة قواته الجوية ، والا فسندمر له جميع حلفاءه وعلى راسهم حليفته ايطاليا ، وننزل في بلادها . ولا شك ان هذه العملية ستترك اثرا كبيرا في تركيا وفي الاجزاء الجنوبية من اوروبا ، وكل ما اخافه هو ان نضطر الى الاستعجال في هذا المشروع . واذا ظفرنا بشمال افريقيا خلال هذا العام كان باستطاعتنا مهاجمة هتلر بعنف في العام المقبل . وكان هذا الموضوع بداية التحول في مجرى حديثنا .

وراح ستالين يقول ما اسماه بالمصاعب السياسية . ففي فرنسا سيساء فهم الاستيلاء على اماكن عملية « المشعل » من قبل اميركا وبريطانيا ثم ماذا سنعمل بديغول ؟ فقلت له اننا لن نطلب من ديغول شيئا في هذه المرحلة . ومن المنتظر ان يحارب فرنسيو فيشي الديغوليين بدلا من الاميركيين .

وتبين لي ان ستالين ادرك اخيرا المنافع الاستراتيجية من عملية « المشعل » وما لبث ان اضاف بعض الاسباب التي تدعو الى القيام بهذه العملية ، فهي ستصيب رومل في مؤخرته ، وستخيف اسبانيا ، وستحرض على القتال بين الفرنسيين والالمان في فرنسا ، كذلك ستعرض ايطاليا وتكشفها لوطأة الحرب وعنفها .

وقلت انا مضيفا سببا آخرا هو تقصير الطريق البحري عبر البحر الابيض المتوسط . وكان ما يشغل بال ستالين ان يعرف ما اذا كنا نستطيع ان نعبر جبل طارق ، فقلت لـه ان كل شيء سيسير حسب الخطة المرسومة . ثم اخبرته عن التغييرات التي اجريتها في مصر واكدت له عزمنا على خوض معركة هائلة . ثم قلت اننا نريد ان نعيد الحيوية والنشاط في فرنسا بعد ان هوت الى الحضيض . وقد علمت فرنسا ما حدث في مدغشقر وسوريا . ولا شك في ان وصول الاميركيين سيؤدي الى وقوف الشعب الفرنسي كله الى جانب الحلفاء . كما ان فرانكو سيشعر بالخوف ، وربما طلب الالمان من الفرنسيين اعطاءهم الاسطول الفرنسي وطولون ، وهذا سيؤدي حتما الى اثارة العداوة بين فيشي وهتلر .

وهنا تحدثت عن امكانية وضع سلاح جوي بريطاني اميركي مشترك ضمن الجناح الجنوبي للجيوش الروسية ، وذلك لمساعدته في الدفاع عن بحر قزوين والقفقاس ، وللمشاركة في القتال بشكل عام هناك . وبدا ستالين ممتنا جدا لهذه الفكرة ، وقد صرح بذلك .

وقد استغرق هذا الاجتماع حتى هذه اللحظة اربع ساعات متتالية . وعندما غادرت الكرملين في طريقي الى المنزل المخصص لسكني امليت برقية الى وزارة الحرب واخرى الى الرئيس روزفلت ، ثم وصلت الى البيت وانا اشعر ان جبلا من الجليد قد تحطم ، وان مشاركة انسانية قد بدأت .

موسكو وعلاقات الصداقة

نهضت في صباح اليوم التالي ، في جناحي الفخم ، وكان اليوم الخميس ١٣ آب ، وهو « يوم بلنهايم » بالنسبة لي . وكنت قد جهزت نفسي للقيام بزيارة لمولوتوف في الكرملين ، لكي أشرح له بطريقة اكثر وضوحا وبتفاصيل اوسع نوعية العمليات الحربية التي نفكر بالقيام بها . واشرت له بطريقة مفصلة ما تنطوي عليه عملية « المشعل » من مكاسب ومعان سياسية . وكان منتبها الي اشد الانتباه ، وقد اقترحت عليه ان اقابل ستالين مـرة اخرى في تمام العاشرة مساء . ولكن في ساعـة متأخرة من الليل تلقيت اشارة عن تمديد الموعد الى الحادية عشرة ، كما طلب مني ان احضر هاريمان معي باعتبار الحديث سيتناول المواضيع نفسها التي تعرضنا اليها بالامس . وقد وافقت على طلبه وقلت له بأني سأحضر معي ايضا كادوغان وبروك وويفل وتيدر .

وقبل ان اغادر مكتب هذا الرجل الدبلوماسي القاسي والدمث في نفس الوقت ، نظرت اليه وقلت له : « لا شك ان ستالين سيرتكب خطأ عظيما اذا استمر في معاملتنا بهذه الخشونة ، خاصة بعد ان تجشمنا عناء السفر الطويل وقطعنا مسافة هائلة لكي نقابله ونجتمع به » . واجابني مولوتوف بقوله : « ان ستالين رجل حكيم جدا . وتأكد ، انه مهما زادت حدة نقاشه ، فانه يفهم كل شيء . ولكن على اي حال سأخبره ما قلت لي » .

ورجعت الى المنزل في الوقت المناسب لتناول الغذاء ، وكان الجو في الخارج رائعا جدا . وكان اشبه بالطقس الذي نحبه كثيرا في انكلترا . واعتقدت ان الفرصة مواتية لكي نستكشف تلك المنطقة . فالدار الذي كنت اقطنها ، عبارة عن بيت ريفي جميل واسع حديث التصميم يقع في سهول واسعة وجنائن كبيرة من شجر الشربين،مساحتها حوالي ٢٠ دونما . وتضم هذه الغابة الجميلة ممرات رائعة ، وكان من الجميل ان يستلقي المرء في طقس آب الجميل على تلك الحشائش او على اوراق الصنوبر المتساقطة . وفي الحديقة الكثير من الينابيع ، بالاضافة الى البرك التي تضم عددا من الاسماك الملونة المختلفة الانواع ، وكان بعضها اليفا لدرجة انه كان يأتي ليتناول فتات الخبز من ايدينا . . . .

***

وفي الساعة الحادية عشرة مساء ، سارعنا الى الكرملين ، حيث وجدنا ان ستالين ومولوتوف كانا باستقبالنا وحدهما ، ومعهما مترجمهما الخاص وبدأنا على الفور مناقشة لم تكن ممتعة على الاطلاق . وقد قلت

له ان عليه ان يفهم باننا قد قررنا الخطة التي شرحتها له والتي سننفذها تماما ، لذلك فاللوم لا فائدة منه . واحتدم النقاش فيما بيننا وطال لمدة ساعتين ، وقد صدرت عنه بضعة كلمات غير مناسبة ، كقوله اننا نخاف من مقارعة الالمان ومقاتلتهم ، واننا لو جربنا حربهم كما جربها الروس لظهر لنا انه لا مبرر لخوفنا منهم . او كقوله باننا نقضنا عهدنا بما يتعلق باحدى العمليات السابقة التي خططنا لها ، كما اننا اخفقنا في ايصال المؤن اليهم والتي وعدناهم بها ، واننا لم نرسل لهم سوى الفضلات التي لا لزوم لها ، بعد ان اخذنا ما كنا نحتاجه منها . وكان من الواضح ان اتهاماته كانت موجهة الى الولايات المتحدة بقدر ما كانت موجهة الى بريطانيا .

وقد رفضت جميع ما الصق بنا من تهم ، وان كنت لم استعمل الفاظا مسيئة او مثيرة . وافترض انه لم يكن قد اعتاد من الآخرين ان يكذبوه او يعارضوه بهذا الشكل الذي كذبته به ، لكنه لم يغضب ابدا . وعاد وكرر نظريته في انه بامكاننا ارسال ست فرق او ثماني فرق في شبه جزيرة شربورج ، طالما ان زمام المبادرة الجوية كان في يدنا . وقال انه يشعر لو ان الجيش البريطاني قد حارب الالمان مثل ما حاربهم الروس ، لما شعر بأي خوف منهم . وقد اظهر الروس وسلاح الطيران الانكليزي ان في الامكان التغلب على الالمان ، وفي امكان المشاة البريطانيين ان يبرهنوا ايضا ذلك اذا ما سنحت لهم فرصة محاربة الالمان .

وقاطعته قائلا اني اتساهل بالملاحظات التي نوه عنها اعترافا مني بشجاعة الروس ، ولكن طلب النزول في شربورج ، يتجاهل وجود المانش . واخيرا قال ستالين انه لا يمكننا الاستمرار في النقاش ، وان عليه ان يتقبل ما قررناه . وفجأة دعانا الى العشاء في اليوم التالي في الساعة الثامنة مساء .

ولم ارفض دعوته ، ولكني اخبرته اني مسافر في صباح اليوم التالي اي في الخامس عشر من شهر آب . وظهر لي انه انزعج من سفري المفاجيء وسألني اذا كان بامكاني البقاء لمدة اطول ، فاجبته انه باستطاعتي البقاء مدة اطول اذا كان هناك من جدوى لبقائي ، ووافقت على كل حال بأن ابقى لمدة يوم آخر . وذكرت له باني لا اشعر في موقفه بروح الزمالة وقد قطعت كل هذه المسافة الطويلة لكي اقيم معه علاقات متينة . وقد بذلنا كل ما في وسعنا لكي نساعد روسيا ، وسنستمر في ذلك بالتأكيد . وكنا قد تركنا منفردين لنواجه ايطاليا والمانيا لمدة سنة كاملة . اما الآن ، وبعد ان تحالفت دولنا العظمى الثلاث ، فقد اصبحنا ضامنين النصر بكل تأكيد ، ولكن على شرط ان لا نتفرق او نضعف تجاه الظروف . وقد بلغ بي الحماس الى حد كبير وانا اقول ذلك ، لدرجة ان ستالين قبل ان يسمع ما قاله المترجم ، اجاب انه قد اعجب تماما بنغمة حديثي . ومنذ هذه اللحظة بدا الجو اقل توترا .

ومضى يقص علي ويسهب في الكلام عن مدافع روسية للخنادق : تطلق الصواريخ ، فأكد لي مدى تأثيرها المدمر ، وعرض ان يطلع عليها خبراؤنا العسكريون اذا هم رغبوا في الانتظار ، واكد لي انه سيزودنا بجميع المعلومات المتعلقة بها ، ثم اضاف انه يتوقع ان يحصل على شيء

مقابل ذلك . وقال وهل لن نعقد اتفاقا لتبادل المعلومات التي تتعلق بالمخترعات الحديثة ؟ فأجبته عن استعدادنا لتزويده بكل شيء دون مقابل او دون مساومة ما عدا تلك الاختراعات التي اذا حملتها الطائرات فوق خطوط الاعداء ثم اسقطت ، ادى ذلك الى ان يحصل العدو عليها فيجعل من ضربنا لالمانيا مسألة صعبة جدا ، وقد وافق ستالين على ذلك بالحال . كما وافق على وجوب اجتماع خبراؤه العسكريون مع خبرائنا ، وذلك بعد الظهر في الساعة الثالثة . وقلت له انهم سيحتاجون الى مدة اربع ساعات على الاقل لبحث مختلف المواضيع العسكرية .

واخيرا عدت وسألته عن القفقاس ، وهل اعتمد الدفاع عن هذه السلسلة الضخمة من الجبال ، وما هي الفرق التي اعدها للدفاع عنها ؟ وعلى الفور طلب نموذجا لتلك الجبال ، ثم اوضح لي بصراحة ومعرفة ظاهرة شدة تحصين هذه الجبال وضآلتها الطبيعية ، واضاف ان خمسا وعشرين فرقة كافية للدفاع عن تلك السلسلة من الجبال ، وهي موجودة الآن هناك . ثم ذكر ان جميع الممرات الجبلية ستكون تحت اشرافه وحمايته العسكرية ؟ واضاف أنها جميعا محصنة تماما . وقال ان الاعداء لم يصلوا بعد الى الخط الروسي الاول الواقع الى الشمال من سلسلة الجبال المذكورة . وذكر ان مدة شهرين من الدفاع تكفي ثم لا تلبث الثلوج ان تكسو تلك الجبال ، فيصبح امر اجتيازها شيئا مستحيلا . واكد عن مقدرته على الصمود ، ثم تحدث عن قوة الاسطول الذي احتشد في باطوم للدفاع عن البحر الاسود .

وكان الحديث ممتعا وسهلا في مختلف المواضيع التي تطرأنا اليها ، وعندما سأله هاريمان عن المشاريع المعدة لنقل الطائرات عبر سوريا ، الامر الذي لم يقبل به الروس الا بعد الحاح كثير من الولايات المتحدة ، قال ستالين بصراحة « ان الحروب لا تربح بالمشاريع » .

واخيرا استأذنا بالانصراف ، فادى ستالين التحية ثم مد يده الي وهو يغادر القاعة ، فامسكتها وضغطت عليها .

***

وارسلت بالبرقية التالية الى وزارة الحرب :

« تساءلنا جميعا عن هذا التحول عن الاساس الطيب الذي توصلنا اليه في الليلة الماضية . واظن ان من الارجح ان يكون مجلس المفوضية « اي مجلس وزرائه » لم يرض بتلك الانباء التي حملتها بنفس الروح الطيبة التي تقبلها هو . وقد يكون لهؤلاء المفوضين سلطة اكبر مما نعتقد وان تكون معرفتهم اقل من معرفته . ومن المحتمل ايضا ان يكون قد اراد ان يسجل اقواله لاهداف مقبلة ولنفعه هذه الاهداف ، او ربما يكون قد صرح بهذه الانفعالات لمصلحته الشخصية ويقول كادوغان انه وقف موقفا متصلبا مماثلا بعد ابتداء مقابلته مع المستر ابدن في عيد الميلاد ، اما هاريمان فيؤكد ان هذه الطريقة قد اتبعها ايضا في بداية بعثة بيفربروك .

« واني لارى رأيا مدروسا بان ستالين في قرارة نفسه مقتنع تماما باننا على حق ، وانا واثق من سلامة تفكيره وسرعة بته للامور العسكرية ، مما يجعله يؤيد تأييدا تاما عملية المشعل . ولا اظن ان من المستحيل عليه ان يحاول اصلاح موقفه . وبناء لهذا الامل فانا لا ازال صامدا . على كل حال ، انا متأكد من ان الطريقة التي اتبعتها هي الطريقة المناسبة . ولم يخامرني الريب في اي وقت من انهم قد لا يمضون في القتال ، فأنا على ثقة تامة من ان ستالين مؤمن تمام الايمان بانه سينتصر . . . » .

وحضرنا في تلك الليلة حفلة رسمية في الكرملين ، حضرها حوالي اربعون شخصا ، بينهم عدد من القادة العسكريين واعضاء مكتب الحزب السياسي ، وبعض كبار الموظفين . وقام ستالين ومولوتوف بدور المضيف بطريقة ودية جدا . وهذه الحفلات تكون طويلة عادة ، حيث تتبادل فيها الانخاب والخطب القصيرة . وقد سمعت قصصا سخيفة عن تحول الحفلات السوفياتية الى حفلات للسكر والعربدة . ولا شك ان هذه الروايات كاذبة تماما . فالماريشال وزملائه كانوا يشربون من اقداح صغيرة ولا يأخذون منها كل مرة الا رشفة صغيرة .

وقد تحدث معي ستالين اثناء الحفل بطريقة كلها حيوية ، وقال « قبل عدة سنوات عندما زارنا المستر لويد جورج والليدي استور ، وقد اقترحت الليدي استور ان ندعو المستر جورج لزيارة موسكو ، وقد اجبتها لماذا ندعوه ؟ لقد تزعم حركة التدخل ضد الاتحاد السوفياتي . فقالت الليدي : كلا ان هذا غير صحيح ، فان تشرشل هو الذي ضلله . فقلت : ولكن على كل حال فهو رئيس الحكومة ، وكان ينتمي الى حزب اليسار ، اذن فهو المسؤول ونحن نفضل العدو الصريح على الصديق المدع المزيف . فقالت الليدي استور ، ان تشرشل قد انتهى على كل حال ، فاجبتها باني لست واثقا من هذا ، فاذا حدثت ازمة كبرى ، فسيلتفت الشعب البريطاني كله الى حصان الحرب العجوز » . وهنا قاطعته بقولي « ان ما قلته هو حق . فقد كنت نشيطا جدا في مسألة التدخل ، ولا اريد منك ان تظن العكس » . فابتسم ستالين ابتسامة خفيفة ثم عدت وسألته « وهل سامحتني » ؟ فرد قائلا : « ان هذه الامور اصبحت في الماضي البعيد ، والماضي شيء يتعلق بالله » .

وقلت له في حديث آخر : لقد قال لي اللورد بيفر بروك انك اثناء بعثته لموسكو عام ١٩٤١ سألته : ماذا قصد تشرشل في البرلمان عندما قال انه وجه تحذيرات عديدة لي عن الغزو الالماني المنتظر ؟ وبالطبع كنت اشير الى البرقية التي ارسلتها اليك في نيسان عام ١٩٤١ ، وهنا اخرجت نسخة البرقية وقرأها له المترجم ، ثم قال : « اني اذكرها تماما ، ولم اكن بحاجة الى من يحذرني ، فقد كنت متأكدا بان الحرب ستقع ، ولكن اعتقدت ان باستطاعتي كسب ستة اشهر اخرى لاواصل استعداداتي العسكرية » . ولم اسأله حرصا على علاقتنا المشتركة ، ماذا كان يحدث لو اصابنا الانهيار في الوقت الذي كان يقدم هو لهتلر مثل هذا الوقت الثمين ؟

* * *

وقررنا ان نسافر صباح السادس عشر من آب . ومضيت في الساعة السابعة من الليلة التي سبقت السفر لوداع ستالين . ودار بيننا حديث ها م ونافع . وسألته بصورة خاصة ، عما اذا كان قادرا على الحفاظ على ممرات القفقاس الجبلية ، والحيلولة دون تقدم الالمان الى بحر قزوين والاستيلاء على حقول النفط في باكو ، وكل ما يعنيه هذا الاحتلال ثم الزحف نحو الجنوب الى تركيا او ايران . فنشر خريطته امامي ، وقال بثقة مطلقة : « سنوقف زحفهم . ولن يعبروا الجبال » ، ثم اضاف : « هناك شائعات عن ان الاتراك سيهاجموننا في تركستان . فاذا فعلوا فانا قادر على معالجة امرهم ايضا » . وقلت له أن لا خطر هناك من مثل هذا الهجوم فهم يريدون ان يبقوا بعيدين عن الحرب وهم بالطبع لن يقعوا في خصام مع انكلترا .

واقترب حديثنا الذي استمر لمدة ساعة من نهايته ، ونهضت اودعه . وبدا الارتباك فجأة على ستالين ، وقال بلهجة اكثر ودا مما سبق له استعمالها معي : « انك ستسافر عند الفجر ، فلم لا نذهب الآن الى منزلي ونتناول بعض اقداح الشراب معا ؟ » . فقلت أنني اوافق . وسرعان ما تقدمني عبر ممرات وغرف كثيرة الى ان خرجنا الى طريق هادىء داخل الكرملين ، وبعد مائتي ياردة ، وصلنا الى الشقة التي يقيم فيها . واراني الغرف الاربع التي يعيش فيها ، وكانت متوسطة الحجم ، بسيطة ، مرتبة ، تضم غرفة نوم ومكتباً وغرفة طعام وحماما . وظهرت خادم عجوز للغاية ، وفتاة جميلة حمراء الشعر ، قبلت والدها باحترام ، ونظر الي ، وقد غمز بعينه وكأنه يقول : « اترى ، ان لنا نحن البلاشفة ايضا حياتنا العائلية » وشرعت ابنة ستالين في اعداد المائدة ، ثم جاءت الخادم تحمل عدداً من الاطباق . وكان ستالين اثناء ذلك يفتح زجاجات الشراب . ثم قال : « لم لا نستدعي مولوتوف ؟ انه قلق على البلاغ الرسمي الذي سنصدره ، فلماذا لا نقر البلاغ . وهناك ميزة في مولوتوف : انه يستطيع الشراب » . ووصل مولوتوف فورا ، وجلسنا مع المترجمين ، فكنا خمسة وكان الرائد بيرس قد عاش عشرين سنة في موسكو ، واصبحت له علاقات طيبة بالماريشال ، الذي تحدث اليه حديثا خاصا ، لم استطع الاشتراك فيه .

وجلسنا على المائدة ، حتى الثانية والنصف صباحا . وكنا نتناول الطعام قطعة من هنا وقطعة من هناك على الطريقة الروسية المتبعة من الاطباق المختارة ، ونرشف من مختلف انواع الخمور الممتازة . وبدا مولوتوف في ارق اوضاعه : وكان ستالين يداعبه بكلمات قاسية ليستفزه .

وتحدثنا عن القوافل الى روسيا . وهنا لاحظ ستالين ملاحظة خشنة وقاسية عن قافلة قطبية دمرت بكاملها في شهر حزيران .

وقال المترجم بافلوف مترددا : « يقول المستر ستالين ... اليس لدى الاسطول البريطاني اي احساس بالمجد والفخار ؟ او لا يفهمهما ؟ » . فرددت عليه قائلا : « يجب ان تفهم مني ان ما عملناه كان صحيحا . فانا افهم الكثير عن الاسطول والحرب البحرية » . وهنا قال ستالين : « وهل تعني انني لا افهم شيئا عن البحر ؟ » . فقلت : « ان روسيا حيوان بري

اما بريطانيا فخيوان بحري » . وسكت ستالين ، ثم استأنف مرحه . ونقلت الحديث الى مولوتوف وقلت : « هل يعرف الماريشال ان وزير خارجيته قرر اثناء زيارته الاخيرة لواشنطن ان يزور نيويورك وحيدا دون حاشية او رفاق ، وان السبب في تأخره لم يكن بسبب عطل في الطائرة ، بل لانه كان « يتنزه » كما يشتهي في نيويورك » .

وعلى الرغم من ان اي شيء قد يقال على سبيل المزاح ، اثناء العشاء في روسيا ، فقد بدا مولوتوف منزعجا من ملاحظتي . ولكن وجه ستالين أشرق بالمرح وقال :

« ولكنه لم يذهب الى نيويورك ، بل ذهب الى شيكاغو ، حيث يقطن قطاع الطرق من أمثاله » .

ومضى الحديث سهلا ، بعد استعادتنا للعلاقات الطيبة . وتحدثت عن نزول القوات البريطانية في النروج بمساعدة الروس ، فاوضحت له اننا اذا استطعنا احتلال رأس الشمال في الشتاء ، وقضينا على الالمان هناك ، فان طريق القوافل سيصبح مفتوحا على مصراعيه . وكانت هذه الفكرة من احب الفكر الي . ولاح لي انها قد استهوت ستالين ايضا ، وبعد ان تحدثنا عن الوسائل والسبل ، اتفقنا على وجوب القيام بهذه العملية اذا استطعنا .

* * *

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، ولم يكن كادوغان قد جاء حاملا مسودة البلاغ الرسمي .

وقلت اسأله : « قل لي هل كانت الجهود التي احتملتها في هذه الحرب شخصيا ، بمثل الشدة التي احتملتها في تنفيذ سياسة المزارع الجماعية ؟ » . وظهر الماريشال فوراً بكثير من الحيوية :

وقال « لا ، طبعا لا . لقد كانت سياسة المزارع الجماعية كفاحا مخيفا » .

وقلت : « هذا ما اظنه ، فانك لم تجد الامر سهلا ، اذ ان المشكلة لم تكن مع بضعة الوف من الارستقراطيين او كبار اللاكين بل مع ملايين من الرجال الصغار » .

وقال وهو يمد يديه : « عشرة ملايين . كان شيئا مخيفا . لقد استغرق العمل اربع سنوات . ولكن هذه العملية كانت ضرورة ملحة لروسيا اذا كنا نريد تجنب المجاعات من آن لآخر . كنا في حاجة الى فلاحة الارض بالمحاريث الآلية . وكان علينا ان نحول زراعتنا الى عمل آلي ، واذا سلمنا المحاريث الآلية الى المزارعين ، فانها تتلف في غضون بضعة اشهر . فالمزارع الجماعية ذات المشاغل الخاصة للاصلاح ، هي التي تستطيع وحدها ان تعمل بالمحاريث الآلية . وقد عانينا ابلغ المشاق في ايضاح ذلك للفلاحين . كان النقاش معهم مستحيلا . فبعد ان توضح

للفلاح كل ما تريد ايضاحه ، يقول لك ان عليه ان يذهب الى بيته لاستشارة زوجته ، واستشارة من يرعى له ماشيته . وكان هذا الاصلاح الاخير جديدا بالنسبة الي .

وبعد ان يتحدث اليهما ، يعود عادة بالجواب ، بانه لا يريد المزارع الجماعية وانه يؤثر البقاء بدون المحاريث الآلية » .

ـ وهل هذه هي ما تسمونها بالكولخوز ؟

فقال بعد تردد قصير : « اجل ، لقد كان العمل فيها شاقا وسيئا . ولكنه كان ضروريا على كل حال » .

وقلت اسأله : « وماذا حدث ؟ »

ـ « آه حسنا . لقد وافق الكثيرون منهم على الانضمام الينا . ولقد اعطينا بعضهم اراضي ليفلحوها في مقاطعة تومسك او مقاطعة اركوتسك ، او في اقصى الشمال . ولكن معظمهم لم ينالوا اية شعبية ، وقد مسحهم عمالهم مسحا .

وتوقفنا عن الحديث وقفة طويلة . ثم مضى يقول : ونحن لم نعمل على زيادة الانتاج الغذائي فحسب بنسبة ضخمة ، بل وحسنا من جودة القمح الناتج تحسينا كبيرا . وها نحن ننتج القمح السوفياتي الموحد من اقصى البلاد الى اقصاها ، بينما كان المزارعون في الماضي ينتجون مختلف الانواع التي تتفاوت في الجودة. واذا خالف المزارعون هذه القاعدة عاملناهم بصرامة ، وهذا يعني زيادة كبيرة اخرى في الانتاج الغذائي .

وانني ادون هذه الذكريات كما تتوارد الى خاطري ، وكل ما اتخيله من انطباع الآن ، هو ان هناك ملايين من الرجال والنساء ، قد ازيلوا من الوجود او انتزعوا من ارضهم الى الابد . وسيأتي جيل جديد حتما لا يعرف شيئا عن تعاستهم وآلامهم ، ولكنه يعرف ان طعامه قد ازداد ، فيبارك اسم ستالين ، ويتغنى بحمده والثناء عليه . ولم اكرر على مسامعه قول بيرك المأثور : « اذا لم اتمكن من القيام بالاصلاح بدون ظلم او اجحاف ، عدلت عن الاصلاح » . ففي الوقت الذي تلتهب فيه الحرب الكونية حولنا جميعا ، كان من العبث ان يتحدث الانسان عن الاخلاق ، وان يجهر بحديثه .

* * *

ووصل كادوغان حوالي الساعة الواحدة صباحا ، يحمل مسودة البلاغ الرسمي ، وبدأنا فورا في وضعه في الصيغة الرسمية النهائية . وجيء الى المائدة بحلوف صغير طهي بطريقة رائعة . ولم يكن ستالين قد اكل شيئا حتى تلك اللحظة ، اما الآن فقد شارفت الساعة على الواحدة والنصف صباحا ، وهو الموعد المقرر لعشائه . ودعا كادوغان لمشاركته ، وعندما اعتذر الصديق ، نزل مضيفنا على الضحية وحده . وبعد ان انتهى من ذلك ، مضى فجأة الى الغرفة المجاورة ، حيث استلم التقارير عن جميع جبهات القتال ، وكانت تصله دائما بعد الثانية صباحا . وانقضى

اكثر من ثلث ساعة قبل ان يعود ، وكنا في اثناء ذلك قد اتفقنا على البلاغ الرسمي . واخيرا قلت انني مضطر الآن للذهاب ، وكانت الساعة الثانية والنصف صباحا . وكان علي ان اقضي نصف ساعة في الطريق الى الدار ، ومثلها في العودة الى المطار . وشعرت بصداع شديد ، كان بالنسبة الي امرا غير مألوف . وكان علي ان اجتمع بالجنرال اندرز . وطلبت من مولوتوف ان لا يأتي لوداعي عند الفجر ، فقد كان متعبا كما يبدو . وتطلع الي بنظرة تنطوي على اللوم وكأنه يريد ان يقول : وهل تعتقد حقا انني سأتأخر عن المجيء !

وطرنا في الخامسة والنصف صباحا . ونمت نومة مريحة في الطائرة لم افق منها الا عندما وصلنا نهاية بحر قزوين وبدأنا نصعد جبال البروز . ولم اذهب في طهران الى دار المفوضية بل الى الظلال الباردة الهادئة في مقرها الصيفي فوق المدينة . ورأيت في انتظاري حشدا من البرقيات . وكنت قد فكرت في ان اعقد مؤتمرا في اليوم التالي في بغداد لجميع رجالنا المسؤولين في ايران والعراق ، ولكنني تأكدت انني لا استطيع احتمال حر بغداد في شهر آب وقررت تحويل الاتجاه الى القاهرة . وتعشيت مع رجال المفوضية تلك الليلة في حديقة الدار الرائعة ، ونسيت جميع متاعبي في نومة مريحة حتى الصباح .

الاستعدادات للمعركة

قمت في التاسع عشر من شهر آب برحلة الى جبهة الصحراء . مضيت مع اليكساندر في سيارته خارجين من القاهرة ، عبر الصحراء الى البحر في ابو صير . وقال لي اليكساندر ان الجميع كانوا يهتفون لي . ومع اقتراب ساعات المساء ، كنا نقترب من مقر قيادة مونتغمري في برج العرب . وفي هذا المكان بالذات رسمت امواج الضوء ، صورة القافلة المشهورة على الكثبان الرملية . وقدم لي الجنرال عربته التي قسمها الى مكتب وغرفة نوم . وبعد هذه الرحلة الطويلة مضينا جميعنا فاستحممنا . وقال مونتغمري ، ونحن نجفف اجسادنا من الماء : « ان جميع الجيوش تستحم الآن في هذه الساعة على طول الساحل » . واشار بيده الى الغرب . وعلى بعد الف ياردة منا كان نحو من الف رجل من رجالنا يتريضون على الشاطىء . وعلى الرغم من انني كنت اعرف الرد فقد سألت : « لماذا تكلف وزارة الحربية نفسها عناء ارسال سراويل بيضاء للاستحمام للجنود ؟ يجب عليها ان توفر ذلك » . حقا لقد كان جميع الجنود سمر الاجساد لوحتهم الشمس في كل مكان في جسدهم باستثناء ما تغطيه سراويلهم القصيرة .

كم تبدلت الاوضاع ! عندما تقدمنا الى ام درمان قبل اربعة واربعين عاما ، كانت النظرية السائدة ان على الانسان ان يقي جلده من شمس افريقيا مهما كان الثمن . وكانت الاوامر في هذا الصدد صارمة للغاية . وكنا نلصق حشايا خاصة في ظهر « ستراتنا » الخاكية . وكان من الجنح العسكرية ان يخرج الجندي او الضابط بدون قبعة من القش او الفلين في اوقات الفراغ . وكانوا ينصحوننا بارتداء ملابس داخلية ثخينة جريا على ما الفه العرب بفضل تجاربهم منذ الوف السنين . ولكن ها هم الجنود البيض الآن ، وفي منتصف القرن العشرين ، يمضون الى اعمالهم اليومية دون قبعات ، وعراة تقريبا الا من قطعة نسيج صغيرة تستر جزءاً من اجسادهم . ويبدو ان هذا الوضع لا يسبب لهم اذى . وعلى الرغم من ان عملية التحول من اللون الابيض الى اللون البرونزي قد استغرقت عدة اسابيع وتمريننا تدريجيا ، الا ان حوادث ضربات الشمس وضربات الحرارة نادرة تماما ، واني لأستغرب تماما كيف يشرح الاطباء هذه الظواهر .

وبعد ان ارتدينا ملابسنا للعشاء ، اجتمعنا في عربة خرائط مونتغمري وعرض علينا الجنرال وصفا دقيقا للوضع : مبديا انه في غضون بضعة ايام تمكن من السيطرة سيطرة كاملة على زمام المشكلة وتفهمها . وقد توقع بدقة موعد هجوم رومل المقبل ، واوضح خططه لمواجهة هذا الهجوم .

وقد برهنت الايام على صحة توقعه وسلامة استنتاجاته . ثم شرح لنا خططه لتسلم زمام المبادرة والهجوم بنفسه ، ولكنه يحتاج الى ستة اسابيع على كل حال ، ليصبح الجيش الثامن في وضع منظم وعلى اتم اهبة . وقد قرر اعادة تشكيل الفرق على اسس وحدات تكتيكية متكاملة، وعلينا ان ننتظر حتى تكون الفرق الجديدة قد اتخذت مواقعها في الصحراء، وحتى تكون دبابات شيرمان قد وصلت الى الميدان ، وحينئذ ستكون هنالك ثلاثة فيالق يتولى قيادة كل منها ضابط مجرب، يثق فيه هو واليكساندر. وسيستخدم المدفعية بشكل لم يكن في الامكان استخدامها فيه قبل الآن في الصحراء . وتحدث عن نهاية ايلول كموعد للهجوم . وشعرت بخيبة أمل من هذا الموعد ، ولكن كل شيء كان متوقفا على رومل . فقد دلت المعلومات التي تلقيناها ، على ان هجومه اصبح متوقعا في كل لحظة. وكانت المعلومات قد وصلت الي بالفعل ، وهي تشير الى أنه سيحاول حركة التفاف واسعة حول جناحنا الصحراوي ، للوصول الى القاهرة ، وان معركة مناورة يجب ان تدور لمهاجمة مواصلاته .

وفكرت في هذا الوقت طويلا بهزيمة نابوليون في عام ١٨١٤ . فقد توقف هو ايضا ليضرب مواصلات الحلفاء ، ولكن الحلفاء زحفوا راسا الى باريس المكشوفة تقريبا . وخيل الي ان من اشد الامور ضرورة : الدفاع عن القاهرة ، وان يشترك في هذا الدفاع كل رجل قادر من الجنود الذين لا يحتاج اليهم الجيش الثامن . وبهذه الطريقة وحدها يستطيع جيش الميدان ان يحصل على حرية المناورة الكاملة ، ويصبح قادرا على المخاطرة بالسماح لجناحه بان يتعرض للالتفاف قبل ان يبدأ الهجوم . وسرني غاية السرور اننا كنا متفقين جميعا على هذا الرأي . وعلى الرغم من انني كنت تواقا لنبدأ الهجوم في اقرب فرصة ممكنة ، الا انني رحبت باحتمال قيام رومل بهجومه علينا قبل ان نشن نحن حملتنا . ولكن الدنيا الوقت الكافي لتنظيم الدفاع عن القاهرة ؟ فالدلائل كلها تشير الى ان القائد الجريء الذي يواجهنا على بعد اثني عشر ميلا فقط ، سيوجه ضربته الهائلة قبل نهاية شهر آب . وقال مونتغمري انه قد يحاول في اي يوم المغامرة لتحقيق تفوقه المستمر في الجبهة . واذا تأخر في هجومه اسبوعين او ثلاثة اسابيع فذلك في مصلحتنا حتما .

* * *

وخرجنا في العشرين من آب ، لنرى الميدان المنتظر ، والقوات الباسلة التي ينتظر منها ان تصمد فيه . واخذوني الى النقطة الرابعة الهامة الواقعة الى الجنوب الشرقي من جرف الرويسات . ورأيت في هذه الأرض الصحراوية الوعرة بتغضناتها والتواءاتها ، القسم الاكبر من سلاحنا المدرع ، وقد اختفى وانتشر باساليب التعمية العسكرية ، على الرغم من حشده من ناحية تكتيكية . واجتمعت هنا الى الزعيم الشاب روبرتس ، الذي كان يتولى آنذاك قيادة جميع قواتنا المدرعة في هذا الموقع . كانت جميع دباباتنا الممتازة تحت قيادته. واوضح لي مونتغمري توزيع مدفعيتنا من مختلف الانواع والاشكال . فكل شق في الصحراء كان يخفي بطاريات مخيفة ، ومغطاة بوسائل التعمية . وسينطلق ثلاثمائة او اربعمائة مدفع

على الدبابات الالمانية المهاجمة قبل ان تقذف بدباباتنا الى الميدان .

وعلى الرغم من عدم السماح بتجمعات الجنود بسبب عمليات العدو الاستطلاعية المستمرة ، فقد رأيت في ذلك اليوم عددا كبيرا من الجنود حيوني بالهتافات والاشارات . وقمت بتفتيش كتيبتي « الهوسار » الرابعة ، او اكبر عدد امكن جمعه من رجالها على مقربة من مقبرة الميدان ، حيث دفن الكثيرون من زملائهم قبل ايام . وكانت جميع هذه المناظر مؤثرة : ولكن معها ، نما معي احساس بقوة الجيش المنبعثة . وكان كل انسان يجمع على ان تبدلا كبيرا قد طرأ منذ تولي مونتغمري القيادة . وكان بوسعي ان احس وان المس هذا الشعور من الراحة والسرور الذي يغمر الجميع .

وكان من المقرر ان نتناول الغداء مع بيرنارد فريبرغ . وعادت بي الذاكرة الى زيارة مماثلة قمت بها له في الفلاندرز في مركز الميدان في وادي سكارب ، قبل نحو من ربع قرن ، عندما كان لا يزال يتولى قيادة لواء واحد . وقد عرض علي آنذاك بابتهاج ، ان يسير بي على مراكزه الامامية . ولكن ، لما كنت اعرفه ، واعرف خط الجبهة ، فقد اعتذرت عن مرافقته . اما الآن ، فقد اختلف الوضع تماما ، اذ كنت متشوقا اشد التشوق لرؤية احد مراكز المراقبة الامامية التي يقوم عليها هؤلاء الجنود النيوزيلنديون الرائعون والتي تبعد نحوا من خمسة اميال الى الامام . وكان موقف اليكساندر ينطوي على عدم المعارضة في الحملة وعلى الرغبة في الاشتراك فيها . ولكن بيرنارد فريبرغ ، رفض باصرار تحمل المسؤولية ، ومثل هذه القضايا لا تصدر الاوامر فيها عادة ، حتى من السلطات العليا .

ومضينا بدلا من ذلك ، الى خيمته الخانقة التي يستخدمها كمطعم ، حيث تناولنا غداء احسن بكثير من ذلك الذي تناولته معه في سكارب . كان الوقت ظهرا من يوم من ايام شهر آب في الصحراء . وكان الطبق الاول في الوجبة حساء غاليا من المحار النيوزيلندي المحفوظ ، لم استسغ طعمه ، وان تظاهرت بابتلاعه . وسرعان ما انضم الينا مونتغمري الذي كان قد تركنا قبل مدة . ومضى فريبرغ الى الخارج لتحيته ، وليبلغه ان مكانه محفوظ على المائدة ، واننا ننتظره على الغداء . ولكن « مونتي » وكان هذا هو الاسم الذي اطلق عليه ، كان قد اتخذ قاعدة لنفسه بان لا يقبل دعوة من اي من مرؤوسيه . ولهذا فقد ظل في الخارج في سيارته ، يأكل شريحة، ويشرب عصير الليمون . وكان نابوليون يتبع مثل هذه القاعدة حرصا على النظام العسكري . وكان من شعاراته المعروفة ، ان الانسان يجب ان يكون قاسيا حتى على الكبار . ولكنه في الوقت نفسه ، كان سيتناول حتما دجاجة مشوية ، تقدم اليه في عربته . اما مارلبرو ، فكان يدخل حتما ويشرب النبيذ الطيب مع ضباطه ويتناول الغداء معهم . وهذا ما كان سيفعله كرومويل حتما ايضا . فقد تختلف الاساليب ، ولكن النتائج تكون طيبة في جميع الحالات تقريبا .

وقضينا طيلة بعد ظهر اليوم مع الجيش، وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما عدنا الى القافلة والى امواج الشاطىء الجميل . وقد احسست بارتفاع في معنوياتي الى الحد الذي تناسيت فيه كل متاعب

النهار ، وظللت حتى ساعة متأخرة من الليل اتحدث . وقبل ان يمضي مونتغمري الى فراشه في الساعة العاشرة ، جريا على مألوف عادته طلب لي ان اكتب له شيئا في دفتر يومياته الشخصي . وقد كتبت له في هذه المرة ، وفي مرات اخرى لاحقة طيلة الحرب . وهذا ما كتبته هذه المرة :

« ارجو ان تكون الذكرى السنوية لبلنهايم التي ترمز الى بداية القيادة الجديدة ، فاتحة خير لقائد الجيش الثامن ورجاله ، وان تاتي لهم كلهم بالشهرة وبالحظ اللذين يستحقونهما » .

وزرت في الثاني والعشرين من آب كهوف طرة قرب القاهرة حيث كانت تجري عمليات اصلاحية واسعة النطاق . فمن هذه الكهوف قطعت الاحجار التي بنيت منها الاهرامات قبل الوف السنين . وقد بدت الآن جميلة الشكل ، وبدا لي ان العمل يسير سيرا نشيطا ودقيقا في المنطقة ، وان جماهير غفيرة من العمال الفنيين تشتغل ليلا ونهارا في عمليات الاصلاح اللازمة . ولكن كانت لدي ارقامي وحقائقي ، وظللت غير راض عن سير العمل . فالنطاق الذي يسير فيه ضيق . ولعل العيب الوحيد هو ان الفراعنة لم يبنوا اهرامات اكثر عددا واضخم حجما . وكان علي ان اقوم بمسؤوليات اخرى ، فقد قضيت بقية النهار اطير من مطار الى آخر ، افتش المؤسسات واخطب في الجنود . ورايت في احد المطارات نحوا من الفين الى ثلاثة آلاف طيار جمعوا فيه لكي اتحدث اليهم . وزرت ايضا جميع الالوية واحدا اثر آخر ، كما زرت فرقة الجبليين التي كانت قد نزلت الى البر في ذلك اليوم . وعدنا الى السفارة في ساعة متأخرة من المساء .

وتركزت جميع افكاري ، طيلة الايام الاخيرة من الزيارة ، على المعركة المنتظرة . فقد يشرع رومل في هجومه في اية لحظة بقوة هائلة ومدمرة من السلاح المدرع ، ومن المحتمل ان يصل الى الاهرامات دون ان يلقي اي دفاع حقيقي باستثناء قناة واحدة ، ثم يصل الى نهر النيل الذي يجري عند نهاية المرج الذي تقوم فيه دار السفارة . وابتسم طفل الليدي لامبسون ، من عربته القابعة تحت ظلال اشجار النخيل ، وتطلعت عبر النهر ، الى الآفاق المستوية القائمة وراءه . كل شيء هادىء وهين ، ولكنني اقترحت على الام ان تمضي بطفلها عن القاهرة ، لان الطقس فيها شديد الحرارة والرطوبة في آن واحد ولا يصلح للاطفال . وقلت لها : « لم لا تبعثين بالطفل الى لبنان ليستنشق هواءه العليل البارد ؟ » ولكنها لم تستمع الى نصيحتي ، وليس في وسع انسان ان يقول انها لم تحكم على سلامة الوضع العسكري حكما صائبا .

واقمت بالاتفاق مع الجنرال اليكساندر ورئيس اركان الامبراطورية ، سلسلة من الاجراءات المتطرفة للدفاع عن القاهرة وعن الخطوط المائية المتجهة شمالا . واقمنا جحورا للبنادق ومراكز للمدافع الرشاشة ، ولغمنا الجسور ، ونصبنا الاسلاك الشائكة على مداخلها ، واطلقنا مياه السدود على الجبهة العريضة الواسعة . وسلمنا لجميع الموظفين البريطانيين في القاهرة وهم يعدون الالوف من ضباط الاركان ، والكتبة الذين يرتدون الملابس العسكرية ، بنادق ، واصدرنا اليهم الاوامر بان يتخذوا مواقعهم

عند وقوع طارىء عند خط النهر المحصن . ولم تكن الفرقة الجبلية الحادية والخمسون قد اعتبرت حتى الآن « جديرة بالصحراء » . فعهدنا الى هؤلاء الجنود المتازين بالدفاع عن جبهة النيل الجديدة . وكان الموقع قويا للغاية بسبب قلة الطرق الجسرية التي تعبر منطقة الاقنية او المنطقة التي يغمرها الفيضان في الدلتا . وبدا لنا من الممكن وقف هجوم مدرع على هذه الطرق الجسرية. وكان الدفاع عن القاهرة من اختصاص الجنرال البريطاني الذي يتولى قيادة الجيش المصري ، الذي اصطفت جميع وحداته ايضا للاشتراك في الدفاع . وخيل الي ان من الافضل على كل حال ، ان يعهد بالمسؤولية ، اذا وقع اي طارىء الى الجنرال متيلاند ويلسون ــ جمبو ــ الذي كان قد عين لقيادة العراق ــ ايران ، والذي كانت قيادته لا تزال في هذه الاسابيع الحرجة في طور التشكيل في القاهرة . واصدرت اليه توجيها طالبا اليه الاطلاع على جميع تفاصيل خطة الدفاع ، وان يتولى المسؤولية في اللحظة التي يبلغه فيها الجنرال اليكساندر ان القاهرة أضحت في خطر .

وتحتم علي ان اعود الى الوطن ، عشية يوم المعركة ، لاعود الى ادارة شؤون تتناول آفاقا اوسع ، وان كانت لا تقل حسما عن المعركة المرتقبة . وكنت قد حصلت على موافقة وزارة الحرب على التوجيه الذي قررت اصداره الى الجنرال اليكساندر ، فقد غدا السلطة العليا التي اتعامل معها في الشرق الاوسط ، وكان مونتغمري وجيشه الثامن يعملان تحت قيادته. وكذلك كان متيلاند ويلسون والدفاع عن القاهرة اذا نشأت الضرورة لهذا الدفاع . وكان « اليكس » ، كما كنت ادعوه منذ امد طويل ، قد انتقل بقيادته الشخصية الى الصحراء على مقربة من الاهرامات ، وكان بهدوئه ومرحه وتفهمه لكل شيء ، يوحي بالثقة المطلقة الهادئة لكل انسان .

* * *

واقلعنا من مطار الصحراء في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة من مساء الثالث والعشرين من آب ، ونمت نوم الانسان العادل الذي يشعر براحة ضميره حتى بعد طلوع النهار في الصباح التالي . وعندما تركت سريري الى غرفة قيادة الطائرة « الفدائي » ، كنا نقترب من جبل طارق . وبدا لنا الهبوط شيئا خطرا ، فقد كان ضباب الصباح يلف كل شيء . ولم يكن في وسع الانسان ان يرى لمسافة مائة ياردة الى الامام ، ولم تكن نطير على ارتفاع يزيد عن ثلاثين قدما فوق البحر . وسألت فاندر كلوت ، ان كان كل شيء يسير على ما يرام ، واعربت له عن أملي في ان لا يصطدم بصخرة جبل طارق . ولم تكن ردوده مطمئنة بصورة خاصة ولكنه كان واثقا من الخطة التي اتبعها في عدم الطيران على ارتفاع عال ، وهو ما كنت اوثره . وظللنا على هذا الحال اربع دقائق اخرى او خمسا . وفجأة رأيتنا ندخل هواء صافيا جليا وامامنا تبدو هاوية جبل طارق العظيمة مطلة على البرزخ ، وعلى قطعة الارض المحايدة التي تصل القلعة باسبانيا ، وبالجبل المسمى « ملكة العرش الاسباني » . ولقد تمكن فاندر كلوت من ان يكون دقيقا للغاية بعد طيران ثلاث ساعات او اربع عبر الضباب . ومررنا على بعد بضع مئات من الياردات من الصخور دون أن نضطر الى

تغيير اتجاهنا ، وهبطنا هبوطا صحيحا ودقيقا . ومع ذلك فما زلت اظن انه كان من الخير لو ارتفعنا عاليا وطفنا فوق المطار ساعة او ساعتين ، فقد كان معنا ما يكفينا من الوقود ولم نكن على عجلة من امرنا . لكن قائد الطائرة حقق عملا رائعا . وقضينا الصباح مع الحاكم ، ثم طرنا نحو الوطن بعد الظهر ، بعد ان قمنا بدورة واسعة عبر خليج بسكاي عندما حل الظلام .

* * *

وعندما بدأت بعثتي الى القاهرة وموسكو ، لم يكن الاختيار قد وقع على من سيتولى عملية « المشعل » . وكنت قد اقترحت في الحادي والثلاثين من تموز ، انه اذا اختير الجنرال مارشال لتولي القيادة العليا لعملية اجتياز المانش في عام ١٩٤٣ ، فان من الواجب تعيين الجنرال ايزنهاور نائبا له ، وان يكون سابقا له في المجيء الى لندن ، ليعمل في الاعداد لعملية « المشعل » التي يجب أن يعهد اليه بقيادتها ، وان يكون الجنرال اليكساندر نائبا له . وقد اتجهت الفكرة لتنفيذ هذا الراي ، وقبل ان اغادر القاهرة الى موسكو كان الرئيس روزفلت قد بعث الي بموافقته على اقتراحي . ومع ذلك فقد ظل امامنا الكثير لنقره قبل أن نصل في خططنا الى مراحلها الاخيرة ، وجاءني الجنرالان ايزنهاور وكلارك في اليوم التالي لوصولي الى لندن ، لتناول الغداء معي ، ولبحث اوضاع العملية .

وكنت في هذا الوقت على احسن ما اكون من علاقات ودية ووثيقة مع هذين القائدين الاميركيين . وكنت منذ وصولهما الى لندن في شهر حزيران ، قد اعددت لهما غداء اسبوعيا في داوننغ ستريت رقم ١٠ ، في ايام الثلاثاء . ونجحت هذه الاجتماعات تمام النجاح . وكنت على الغالب وحيدا معهما ، وكنا نتحدث عن جميع قضايانا ، ونجول في بحثها وكأننا نمت الى بلد واحد . وكثيرا ما عقدنا سلسلة من المحادثات غير الرسمية في قاعة الطعام ، تبدأ في العاشرة مساء وتمتد الى ساعات متأخرة . وكثيرا ما جاء الجنرالان الاميركيان لقضاء ليلة او عطلة نهاية الاسبوع في تشيكرز . ولم نكن نتحدث في هذه المناسبات الا عن مختلف الشؤون العامة ، واني لواثق من ان هذه الاتصالات الوثيقة كانت ضرورية لادارة دفة الحرب ، ولم يكن بوسعي ان اقبض على ناصية الموقف بكامله بدونها .

وعقدنا اجتماعا لرؤساء اركان الحرب في الثاني والعشرين من ايلول ، برئاستي ، وحضره ايزنهاور ، وقد اتخذنا فيه القرار النهائي ، وحددنا موعد البدء بعملية « المشعل » في الثامن من تشرين الثاني .

* * *

وكان رومل في غضون ذلك كله قد قام بمحاولة جدية ، ثبت فيما بعد ، أنها الاخيرة للوصول الى القاهرة . والى ان انتهت هذه المحاولة ، ظلت افكاري معلقة بالصحراء ، و « بتجربة القوة » الدائرة فيها . وكانت لي ثقة كاملة ، بقادتنا الجدد ، كما كنت متأكدا من ان تفوقنا العددي في الجنود والمدرعات والسلاح الجوي ، هو اليوم اكثر منه في اي وقت مضى .

ولكن بعد المفاجآت المزعجة التي وقعت في العامين الماضيين كان من الصعب علينا أن نستبعد القلق كل الاستبعاد . ولما كنت قد زرت مؤخرا نفس الارض التي سيدور فوقها القتال ، وكانت صورة الصحراء بصخورها المتعرجة وأخاديدها ، وبطارياتنا المدفعية ودباباتنا وقواتنا المخبوءة فيها استعدادا لقفزة مضادة ، لا تزال ماثلة في ذهني ، فانني كنت ارقب المعركة الضارية بافكاري تمام المراقبة . ولا ريب في أن اية نكسة جديدة لن تكون منطوية في حد ذاتها على معاني الكارثة فحسب بل ستؤدي ايضا الى تحطيم سمعة بريطانيا والتأثير على المحادثات التي كنا نجريها آنذاك مع حلفائنا الاميركيين . اما اذا صد رومل من الناحية الثانية فان الثقة النامية، والشعور المتزايد بـأن التيار يوشك على ان ينقلب الى مصلحتنا ، سيساعدان على الوصول بمختلف القضايا الاخرى الى مرحلة الاتفاق .

وقد وعد الجنرال اليكساندر ، بان يبعث الي بكلمة (زيب) ، وهي اسم يطلق على الملابس التي كنت ارتديها ، ليبلغني بدء المعركة . وبعثت اليه أسأله في الثامن والعشرين من آب : « ما رأيك في احتمال وقوع « زيب » ، عند اكتمال القمر في هذا الشهر ؟ ان المخابرات العسكرية لا تعتقد بان الهجوم الالماني اصبح قريبا للغاية . اطيب تمنياتي » ، فجاءني رده يقول : « ان « زيب » تعادل كل يوم قيمتها من المال ، وتزداد الاحتمالات بعدم وقوعها حتى الثاني من ايلول ، عندما تصبح غير متوقعة » وتلقيت في الثلاثين من ايلول برقية بكلمة واحدة هي « زيب » ، فابرقت الى روزفلت وستالين اقول : « بدأ رومل هجومه الذي كنا نستعد له . قد تدور الآن معركة مهمة » .

وكانت خطة رومل ، كما توقعها مونتغمري بالضبط ، وهي أن يمر بسلاحه المدرع عبر نطاق الالغام الضعيف الدفاع في الطرف الجنوبي من الجبهة البريطانية ، وان يتجه بعد ذلك شمالا ليلتف حول مواقعنا في الجناح والمؤخرة . وكانت النقطة الحرجة والحساسة لنجاح هذه المناورة تقوم في احتلال روابي العلم ــ حلفا ، ولهذا فقد وزع مونتغمري قواته بحيث يضمن قبل كل شيء عدم وقوع هذه الروابي في ايدي العدو .

واخترقت الفرقتان المدرعتان الالمانيتان ، ليلة الثلاثين من آب ، حقول الالغام ، واتجهتا في الصباح الى منخفض الرجيل . وانسحبت فرقتنا المدرعة السابعة ببطء واستمرار امامهما الى ان اتخذت مواقعها في الجناح الشرقي . وحاولت فرقتان ايطاليتان مدرعتان وفرقة آلية اخرى، اختراق حقول الالغام الى الشمال من الفرقتين الالمانيتين ، ولكنهما لم تحققا نجاحا يذكر ، فقد كانت الحقول اعمق مما توقعته وسرعان ما وجدت نفسها تحت وطأة نيران مدفعية شديدة من الفرقة النيوزيلندية . لكن الفرقة الالمانية الخفيفة التسعين نجحت في الاختراق لتشكل «مفصلة» من الاندفاع المدرع نحو الشمال . وشن الالمان في الوقت نفسه في الطرف الثاني من الجبهة هجمات مانعة على الفرقة الهندية الخامسة والفرقة الاوسترالية التاسعة ، فصدت بعد قتال عنيف . وكان على المدرعات الالمانية ــ الايطالية ، بعد اجتياز منخفض الرجيل ، ان تتقدم اما شمالا باتجاه روابي العلم ــ حلفا ، أو شمالا بشرق نحو الحمام . وكان مونتغمري يرجو ان لا تتجه الى الحمام ، فقد آثر ان يخوض المعركة في الارض التي

اختارها وهي الروابي . وكنا قد تمكنا من ايصال خريطة زائفة ، الى رومل ، تظهر سهولة الاندفاع الى الروابي وصعوبة الاتجاه الى الحمام . وقد اعترف الجنرال فون توما الذي اسر بعد شهرين ، بأن هذه الخريطة المضللة نجحت في تحقيق هدفها . وهكذا اتخذت المعركة الآن ، الشكل الذي اراده مونتغمري .

وصدت قواتنا في الحادي والثلاثين اندفاعا نحو الشمال ، ومضت مدرعات العدو الى الهدوء تلك الليلة تحت نيران مستمرة تنصب عليها من المدفعية ومن قصف الطائرات . وتقدمت في الصباح التالي الى قلب الخط البريطاني، حيث كانت الفرقة العاشرة المدرعة في انتظار لقائها . وكان الرمل في المنطقة اكثف مما كان متوقعا ، والمقاومة اعنف مما انتظروه واستؤنف الهجوم بعد الظهر ، ولكنه فشل . ووجد رومل نفسه في مأزق . فقد اصاب الاعياء حلفاءه الايطاليين . ولم يكن في وسعه ان يأمل في تعزيز وحداته المدرعة الامامية ، وكانت الاشتباكات العنيفة قد استنفدت ما لديه من وقود . ولا ريب في انه سمع ايضا باغراق ثلاث ناقلات اخرى للزيت في البحر المتوسط . وهكذا تحولت مدرعاته في الثاني من ايلول الى موقف الدفاع ، واخذت تنتظر الهجوم الذي سيقع عليها .

ولم يقبل مونتغمري الدعوة ، ولم يجد رومل مناصا له من الانسحاب . وبدات الحركة في الثالث من ايلول ، في الوقت الذي اندفعت الفرقة البريطانية السابعة لمضايقته من الجناح ، ملحقة بالعدو خسائر فادحة في سياراته غير المدرعة . وبدأ الهجوم البريطاني المضاد تلك الليلة ، لا على سلاح العدو المدرع : بل على فرقته الخفيفة التسعين وفرقة تريستا الآلية . وقدر مونتغمري انه اذا استطاع تحطيم هاتين الفرقتين اغلق الفجوة التي احدثها العدو في حقول الالغام قبل ان تنسحب منها المدرعات الالمانية الى الوراء . وقد قامت الفرقة النيوزيلندية بهجمات قوية ضمد لها العدو ، وتمكن الفيلق الالماني من النجاة . وتوقف مونتغمري الآن عن متابعة المطاردة . وقد قرر تسلم زمام المبادرة ، عندما تصبح الفرصة مواتية ، ولم تكن قد اضحت كذلك حتى الآن . واقتنع بصد آخر هجوم قام به رومل باتجاه مصر ، ملحقا به خسائر فادحة . وقد تمكن الجيش الثامن وسلاح الصحراء الجوي من انزال ضربة قاصمة بالعدو دون ان يمنياهما بخسائر كبيرة ، ومن خلق ازمة حادة له في طرق مواصلاته . وقد عرفنا من الوثائق التي صادرناها فيما بعد ان رومل وجد نفسه في ضائقة شاقة ، فأخذ يلحف مطالبا بالعون والمساعدة . وعرفنا ايضا انه كان في هذه الاثناء انسانا متعبا كثير الشكوى والتحبب والالم . وقد بانت نتائج معركة العلم ــ حلفا ، بعد شهرين .

❋ ❋ ❋

وعلى الرغم من سير جميع الاستعدادات للعمليتين العظيمتين في طرفي البحر الابيض المتوسط سيرا حثيثا ، فان فترة الانتظار كانت مشحونة بالقلق الزائد وان كان مخيفا . وكانت الحلقة الداخلية التي تعرف كل شيء تشعر بالقلق الشديد مما قد يحدث . اما الذين لا يعرفون ، فقد ازعجهم الهدوء المسيطر ، وضايقهم أننا لا نقوم بأي عمل .

وقد مضى علي الآن ثمانية وعشرون شهرا في قيادة شؤون البلاد ، منينا ابانها بسلسلة متواصلة من الهزائم العسكرية . وقد احتملنا هزيمة فرنسا وانهيارها ، والهجوم الجوي على بريطانيا ، وقد نجونا من الغزو ، وما زلنا نحتفظ بمصر ، كما اننا ما زلنا احياء نقف موقف التحدي ، وهذا كل شيء . اما من الناحية الاخرى ، فقد منينا بسلسلة متلاحقة من الكوارث . فهناك الخيبة المرة في داكار ، وهناك خسارة كل ما كسبناه من الايطاليين في الصحراء ، ومأساة اليونان ، وضياع كريت ، ونكسات الحرب مع اليابان ، وضياع هونغكونغ ، واحتلال الهند الهولندية ، وكارثة سنغافورة ، وغزو اليابانيين لبورما ، وهزيمة اوكنلك في الصحراء ، واستسلام طبرق ، والفشل في ديبب .... كلها حلقات مؤلمة في سلسلة من النوازل والفشل ، لا مثيل لها في تاريخنا . لكن الحقيقة القائلة باننا لم نعد وحيدين ، وان اعظم دولتين في العالم ، اصبحتا حليفتين لنا ، تحاربان بياس الى جانبنا ، اضفت علينا بعض الثقة بالنصر النهائي . ولكن هذه الثقة ، ادت بعد ارتفاع الاخطار المميتة ، الى انطلاق الانتقادات وحريتها ، اوليس من الغريب ان تتعرض الطبيعة الكلية لادارة الحرب ونظامها ، وهما في عهدتي ، الى مثل هذا التساؤل والتحدي ؟

ومن البارز حقا ، انني في هذه المرحلة من الجمود الغريب ، لم اصرف من السلطان ، ولم اواجه بطلبات لتبديل اساليبي وهي طلبات كان من المعروف حتما انني لن اقبلها . ولو صرفت من الخدمة في مثل هذا الوقت ، لخرجت من الميدان بأعباء من الكوارث احملها على كتفي ، ولعزي الحصاد الذي سيجني ، الى اختفائي من المسرح . فقد اوشك منظر الحرب كلها دون شك على تحول كلي . فمنذ اليوم اخذ النجاح المتزايد ، الذي لا يعكره من آن الى آخر ، الا حلول نكسة بسيطة ، يصبح من نصيبنا . وعلى الرغم من ان الكفاح سيكون طويلا وشاقا ، ويتطلب اعظم الجهد منا جميعا ، فقد وصلنا الى قمة المضيق ، واخذ طريقنا الى النصر ، يضحي مضمونا ومؤكدا ، ومصحوبا بالاحداث المفرحة . ولم احرم من حقي في الاشتراك في هذه المرحلة الجديدة من الحرب بفضل وحدة وزارة الحرب وقوتها ، وبفضل الثقة التي اولانيها زملائي السياسيون والعسكريون ، ونتيجة ولاء البرلمان الثابت وحسن نية الشعب التي لم يطرأ عليها وهن او ضعف . ويظهر هذا كله ، مدى ما يمني به الانسان في شؤونه من حظ حسن ، وان من واجبه ان لا يهتم بشيء سوى اداء واجبه باقصى ما يستطيع من عزم .

ووجدت بعض التسلية في غضون ذلك ، في دراسة الاقتراحات التي كانت وزارة الخارجية تقوم بدراستها بالتشاور مع وزارة الخارجية الاميركية حول مستقبل الحكومة العالمية بعد الحرب . وقام وزير الخارجية في شهر تشرين الاول ، بتوزيع وثيقة مهمة على اعضاء وزارة الحرب ، حول هذا الموضوع ، اسماها « مشروع الدول الاربع » ، نصت على ان يتولى الادارة العليا العالمية مجلس يضم بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وروسيا والصين . ويسرني انني وجدت في نفسي القوة لاضمن هذه المذكرة التي بعثت بها الى وزير الخارجية في الحادي والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٤٢ ، آرائي في هذا الموضوع اذ قلت :

« ١ ــ على الرغم من ضغط الاحداث ، فسأحاول كتابة رد . ويبدو ان من البساطة بمكان عظيم اختيار هذه الدول الاربع الكبرى . ولكن ليس في وسعنا على أي حال ان نحدد نوع روسيا التي يتحتم علينا مواجهتها او الطلبات التي ستتقدم بها . وقد يصبح هذا ممكنا بعد وقت قصير . اما بالنسبة الى الصين فانني لا استطيع اعتبار حكومة شونكينغ ممثلة لدولة عالمية عظمى . ومن المؤكد انه سيكون هناك تصويت من جانب الولايات المتحدة ، يؤيد اية محاولة لتصفية الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار .

« ٢ ــ ويجب ان اعترف بان افكاري تتركز بصورة رئيسية في اوروبا ، وفي بعث أمجادها بوصفها القارة الام لجميع الشعوب والحضارات الحديثة . ولا ريب في انه سيكون من الكوارث التي لا حد لها اذا سيطرت البربرية الروسية على حضارات الدول الاوروبية الغربية واستقلالها . ولما كان من الصعب ان يحدد الانسان الآن الموقف ، فان الاسرة الاوروبية قد تعمل بصورة متحدة في ظل مجلس اوروبي . واني لاتطلع الى ولايات متحدة اوروبية ، تخفف فيها القيود بين مختلف الدول ، وتزول القيود المفروضة على التنقل والسفر . واني لآمل في ان ارى الاقتصاد الاوروبي يدرس ككل لا في اجزاء . واني لارجو ان ارى مجلسا يضم عشر وحدات مثلا ، كان يشمل الدول العظمى السابقة مع عدد من الاتحادات التعاونية (كونفيدراسيونات) كاتحاد اسكنديناڤيا والدانوب والبلقان وما شابهها ، وان يكون لهذا المجلس شرطة دولية تتولى مهمة الحفاظ على بروسيا منزوعة السلاح . وعلينا بالطبع ان نتعاون مع اميركا في مختلف السبل والاتجاهات ، واعظمها ، ولكن اوروبا هي اهم ما يشغلنا ، ونحن بالطبع لا نود في ان نرى الروس والصينيين يحولون بيننا وبين العمل ، عندما يكون السويديون والنروجيون والدانماركيون والهولنديون والبلجيكيون والفرنسيون والاسبان والبولنديون والتشيكيون والاتراك ، يواجهون مشاكل ملتهبة ملحة ، ويكونون في حاجة الى مساعدتنا ، لاسماع أصواتهم عاليا . ومن السهل ان يتوسع الانسان في بحث هذه النظريات ، ولكن من سوء الحظ ، ان الحرب تتطلب منا الآن ان نوجه اليها اقصى اهتمامك واهتمامي » .

وهكذا اقتربنا من الذروة العسكرية الكبرى التي كان يتوقف على نتيجتها كل شيء .

معركــة العلمــين

مضت اعدادات التخطيط والتدريب بلا توقف ، في الاسابيع التي تلت التبدلات التي وقعت في القيادة ، في كل من القاهرة والجبهة . وقد تعزز الجيش الثامن بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخه . ووصلت الى مصر الفرقتان الحادية والخمسون والرابعة والاربعون قادمتين من الوطن ، وغدتا اهلا لحرب الصحراء . وارتفعت قوتنا في السلاح المدرع الى سبعة الوية تشتمل على اكثر من ألف دبابة ، اكثر من نصفها من طراز غرانت وشيرمان الاميركيين ، وغدا تفوقنا في الكم مضاعفا ، بينما غدونا متعادلين في الكيف ، وحشدت ، لاول مرة في الصحراء الغربية ، قوة مدفعية ضخمة وحسنة التدريب لتأييد الهجوم المتوقع في كل لحظة .

واصبح السلاح الجوي في الشرق الاوسط تابعا لمفاهيم القيادة العليا البرية واحتياجاتها العسكرية ، دون ان نضطر ، بسبب وجود شخص عظيم كماريشال الجو تيدر على رأسه ، الى اتخاذ سابقات متسرعة تمليها الاوقات الحرجة . فقد كانت العلاقات بين القيادة الجوية والجنرالات الجدد ، على احسن ما يرام . وغدا لسلاح الجو الصحراوي الذي يقوده ماريشال الجو كوننغهام ، قوة تربو على الخمسمائة والخمسين طائرة . وكان ثمة مجموعتان بالاضافة الى الطائرات العاملة من مالطة ، تضم نحوا من ستمائة وخمسين طائرة ، مهمتها تدمير موانىء العدو وطرق تموينه عبر البحر المتوسط والصحراء . واذا اضفنا الى المجموع مائة طائرة اميركية من المقاتلات والقاذفات المتوسطة ، تبين ان مجموع الطائرات العاملة غدا ألفا ومائتي طائرة .

وابلغنا اليكساندر في مختلف البرقيات ان الرابع والعشرين من تشرين الاول قد اختير موعدا لعملية « الخطوة السريعة » وهو الاسم الذي اطلقناه على الهجوم ، وقال الجنرال في احدى برقياته : « ولما لم يكن هناك جناح مكشوف ، فان المعركة ستدور بحيث نخرق ثقبا في جبهة العدو . وسيمر الفيلق العاشر الذي يضم دباباتنا والذي سيؤلف رأس رمح هجومنا عبر الثقب ويتقدم في وضح النهار . ولن يكون هذا الفيلق تام السلاح والعتاد قبل الاول من تشرين الاول . وسيحتاج بعد ذلك الى نحو شهر من التدريب على الدور الذي سيقوم به » . ومضى الجنرال يقول : « وارى ان من الضروري ان يشن الهجوم الاقتحامي الرئيسي في فترة القمر البدر . وستكون العملية رئيسية وضخمة للغاية ، مما قد يستغرق بعض الوقت ، لا سيما وان خرق ثغرة مناسبة في خطوط العدو تمر منها كافة قواتنا المدرعة قد يستغرق اكثر من ساعات النهار ، لتصبح العملية حاسمة للغاية ... » .

ومضت الاسابيع واقترب الموعد . وكان السلاح الجوي قد بدأ معركته ، مهاجما قوات العدو ومطاراته ومواصلاته . وكان يولي عناية خاصة في غاراته للقوافل المعادية . واغرقنا في شهر ايلول ثلاثين في المائة من بواخر المحور التي تنقل المؤن الى افريقيا الشمالية بواسطة الغارات الجوية . وارتفع هذا الرقم في شهر تشرين الاول الى نحو اربعين في المائة. اما خسارة ناقلات الزيت فبلغت ستا وستين في المائة . ودمرنا في اشهر الخريف الاربعة ما يربو على مائتي الف طن من حمولة بواخر المحور . وكانت هذه الضربات قاصمة للغاية لجيش رومل . واخيرا وصلت الكلمة المنتظرة . فقد ابرق الينا الجنرال اليكساندر يقول : « زيب » .

وانطلق نحو من الف مدفع ليلة البدر التم في الثالث والعشرين من تشرين الاول تطلق حممها على مدافع العدو مدة عشرين دقيقة ، ثم استدارت على مواقع مشاته تقصفها بحممها . وتحت ستار هذه النار الهائلة التي يعززها قصف ضخم من الجو ، تقدم الفيلق الثلاثون بقيادة الجنرال ليز والفيلق الثالث عشر بقيادة الجنرال لومسدن لاستغلال النجاح . وأحرزت الوحدات المتقدمة انتصارات قوية ، تحت ستار النار الحامية وكانت عند الفجر قد شقت طرقا داخلية لها في صفوف العدو بعد ان قام المهندسون بتطهير الالغام وراء القوات الامامية . ولكننا لم نتمكن من اختراق حقول الالغام على عمقها اختراقا كاملا ، ولم يكن هناك امل مبكر في ان تتمكن مدرعاتنا من اختراق جبهة العدو . وشقت الفرقة الافريقية الجنوبية طريقها في الجنوب الى الامام لحماية الجناح الجنوبي للاندفاع ، بينما شنت الفرقة الهندية الرابعة هجمات من هضاب الرويسات وتمكنت الفرقة المدرعة السابعة والفرقة الرابعة والاربعون من الفيلق الثالث عشر من اختراق خطوط العدو الدفاعية المواجهة لهما . وقد حقق هذا الاندفاع غرضه باقناع العدو بالاحتفاظ بفرقتيه المدرعتين ثلاثة ايام وراء هذا الجزء من الجبهة ، بينما كانت المعركة الرئيسية تتطور في الشمال .

ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من فتح فجوة في جهاز العدو العميق من حقول الالغام والخطوط الدفاعية. وعقد مونتغمري في الساعات المبكرة جدا من صباح الخامس والعشرين من شهر آب مؤتمرا شهده كبار قادته العسكريين ، واصدر امره في غضونه الى سلاحه المدرع بالاستمرار في ضغطه قبيل الفجر وفقا لتعليماته الاصلية . وتم كسب اراض جديدة في خلال النهار بعد قتال مرير ، ولكن التضريس الطبيعي الذي يعرف برابية « الكلى » اضحى محور الصراع العنيف مع الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة والفرقة الايطالية المدرعة « اريتي » اللتين قامتا بسلسلة من الهجمات المضادة . ولم يقم مونتغمري بتشديد الضغط مسافة ابعد من جبهة الفيلق الثالث عشر ، ليبقي على الفرقة المدرعة السابعة سليمة للذروة المعركة .

ووقعت ارتباكات خطيرة في قيادة العدو في هذه الآونة ، فقد نقل رومل الى المستشفى في المانيا في نهاية شهر ايلول ، وخلفه في القيادة العامة الجنرال شتوم . واصيب شتوم بعد اربع وعشرين ساعة من بداية المعركة بنوبة قلبية مفاجئة قضى نحبه فيها ، وغادر رومل مستشفاه بطلب هتلر فاستعاد قيادته في الخامس والعشرين .

واستمر القتال العنيد طيلة السادس والعشرين من تشرين الاول ، على طول الفجوة العميقة التي تم شقها في خط العدو ، ولا سيما في جوار « رابية الكلى » . وانطلقت قوة العدو الجوية التي كانت هادئة في اليومين الماضيين من عقالها ، لتتحدى بشكل حاسم تفوقنا الجوي . ودارت عدة معارك جوية كانت تنتهي دائما في مصلحتنا . وقد افلحت جهود الفيلق الثالث عشر في تأخير حركة السلاح الالماني المدرع وان لم تفلح في منعه من الانتقال الى ما غدا يؤلف الآن القطاع الفاصل في الجبهة . لكن سلاحنا الجوي صب على هذه الحركة الجديدة حممه الشديدة .

وقامت الفرقة الاوسترالية التاسعة بقيادة الجنرال مورسهيد في هذه اللحظة باندفاع مثمر ، فقد اتجهت الى الشمال من الفجوة باتجاه البحر . وسارع مونتغمري الى استغلال هذا النجاح البارز ، فأمر القوات النيوزيلندية بالتوقف عن اندفاعها نحو الغرب ، واصدر امره الى الاوستراليين بمواصلة التقدم نحو الشمال . وهدد هذا الاندفاع مؤخرة قسم من فرقة المشاة الألمانية في الجناح الشمالي . وشعر في الوقت نفسه ان قوة هجومه الرئيسي بدأت تضغط وسط حقول الالغام ومراكز المدفعية القوية المضادة للدبابات . ولهذا فقد اعاد جمع قواته واحتياطيه لهجوم جديد نابض بالحيوية .

ونشب قتال ضار طيلة السابع والعشرين والثامن والعشرين في سبيل احتلال رابية الكلى ، امام هجمات الفرقتين المدرعتين الالمانيتين الخامسة عشرة والحادية والعشرين اللتين وصلتا من القطاع الجنوبي . وبعث الجنرال اليكساندر يصف القتال بالعبارات التالية :

« في السابع والعشرين من تشرين الاول بدأ هجوم مدرع مضاد كبير ، على النمط القديم . وقد هاجمنا الالمان خمس مرات بكل ما يتوافر لديهم من دبابات المانية وايطالية ، ولكنهم لم يحققوا اي مكسب ، وانما منوا بخسائر بالغة ، لا تتناسب مع خسائرنا ، اذ كنا نحن نحارب في موقف الدفاع ، ولم نمن الا بخسائر طفيفة . وقام العدو بهجوم آخر في الثامن والعشرين ، بعد عمليات استكشاف طويلة ودقيقة ، استغرقت طيلة ساعات النهار الباكر ، للعثور على المراكز الضعيفة وتحديد مواقع مدافعنا المضادة للدبابات . وقد جاء الهجوم بعد الظهر بشكل مركز ، بينما كانت شمس المغيب وراءهم . وكانت عمليات الاستطلاع هذه المرة أقل نجاحا منها في الايام السالفة ، ذلك لانه كان في وسع دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات ان تشترك مع العدو من مدى أبعد . وعندما حاول العدو تركيز قواته للقيام بالهجوم النهائي ، تدخل السلاح الجوي الملكي ثانية على نطاق واسع مدمر . وألقت قاذفاتنا في غضون ساعتين ونصف الساعة ، نحوا من ثمانين طنا من القنابل على منطقة احتشاده التي كانت تتسع ثلاثة اميال طولا في ميلين عرضا ، وفشل هجوم العدو ، قبل ان يستكمل تشكيله . وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي حاول فيها العدو تسلم زمام المبادرة » .

وقد اغرقنا في هذه الايام الثلاثة الواقعة بين السادس والعشرين والثامن والعشرين من تشرين الاول ثلاث ناقلات عدوة للنفط ذات اهمية حيوية بقنابلنا التي قذفتها الطائرات ، فحققنا ثمرة جنية للعمليات الجوية التي كانت جزءاً لا يتجزأ من المعركة البرية .

***

واعد مونتغمري الآن خططه ومواقعه لعملية الاقتحام الحاسمة التي اطلقنا عليها اسم « الهجوم الاكبر » . ونحى عن الجبهة الفرقة النيوزيلندية الثانية والفرقة البريطانية المدرعة الاولى ، وكانت الاخيرة في حاجة ماسة الى اعادة التنظيم بعد بلائها الرائع في صد السلاح الالماني المدرع في روابي « الكلى » . وجمعت الفرقة البريطانية المدرعة السابعة والفرقة الحادية والخمسون ولواء من الفرقة الرابعة والاربعين الى بعضها وادمجت في قوة احتياطية واحدة . وتقرر ان يتولى النيوزيلنديون طليعة الاقتحام ومعهم لواءا المشاة البريطانيان (١٥١) و (١٥٢) واللواء البرطياني التاسع المدرع .

وكان الاندفاع الاوسترالي الرائع الى الامام الذي تحقق بعد قتال ضار وعنيف هو الذي احال المعركة كلها الى صالحنا . وبدأت في الساعة الواحدة من صباح الثاني من تشرين الثاني عملية « الهجوم الأكبر » . وتمكنت الالوية البريطانية الملحقة بالفرقة النيوزيلندية ، تحت ستار قوي من المدفعية من اختراق المنطقة المحصنة وانطلق اللواء المدرع التاسع في زحفه ، ولكنه واجه خطا دفاعيا جديدا قويا بمدافعه المضادة للدبابات يمتد على طول طريق الرحمن . ونشبت معركة طويلة مني فيها اللواء بخسائر فادحة ولكنه تمكن من الاحتفاظ بالرواق مفتوحاً ، وتحركت الفرقة البريطانية المدرعة الاولى لتندفع منه . وهنا وقع الصدام الاخير بين السلاحين المدرعين في المعركة . فقد هاجمت جميع الدبابات المتبقية عند العدو نتوءنا من جانبيه ، ولكنها صدت . وهنا حلت مرحلة القرار الاخير ؛ ولكن تقارير طائراتنا الاستطلاعية دلت على انه في الثالث من تشرين الثاني ، وعلى الرغم من بدء تراجع العدو ، كانت قوات مؤخرته للتغطية على طريق الرحمن صامدة في وجه الزحف الرئيسي لسلاحنا المدرع ، مانعة اياه من التقدم . ووصل امر من هتلر ، يحظر اي تراجع ، لكن النتيجة لم تعد في ايد يالالمان . وكان علينا ان نفتح ثقباً ثانيا في الجبهة . وشن اللواء الهندي الخامس في الساعات المبكرة من صباح الرابع من تشرين الثاني هجوماً سريعا تنقلة السيارات على بعد خمسة اميال الى الجنوب من تل العقاقير ، حقق نجاحا بارزا ومنقطع النظير . وهكذا كسبنا المعركة واصبحت الطريق مفتوحة امام سلاحنا المدرع لمطاردة العدو عبر الصحراء الغربية .

وبدأ رومل تراجعه الكامل السريع ، لكن وسائل النقل لم تكن متوافرة لديه لحمل كل ما لديه من قوات ، كما ان الوقود كان ينقصه ، وعلى الرغم من ان الالمان كانوا قد قاتلوا ببسالة ، فانهم كانوا يعطون لانفسهم الافضلية على حلفائهم الايطاليين في السيارات . وترك الالوف من ست فرق ايطالية شاردين في الصحراء دون غذاء او ماء ، ودون اي امل ، سوى ان تقوم قوات الحلفاء بجمعهم للزج بهم في معسكرات الاسر .

وامتلأت ارض المعركة بحشد كبير من الدبابات المدمرة او الخربة والمدافع والسيارات . وتقول سجلات الالمان ، انه لم يبق من مجموع ٢٤٠ دبابة صالحة للاستعمال ، كانت متوافرة لدى الفرق الالمانية عند بداية المعركة الا ثماني وثلاثون دبابة في الخامس من تشرين الثاني . وكان السلاح الجوي الالماني ، قد تخلى عن محاولة الحصول على التفوق الجوي ، واصبح في [illegible] سلاحنا الآن ، ان يعمل بحرية وانطلاق ، لا يعيقه عائق ، مهاجما العدو بكل موارده وهو يتراجع في ارتاله العظيمة من الرجال والسيارات باتجاه الغرب . وقد اثنى رومل نفسه ثناء عاطرا على الدور البارز الذي لعبه السلاح الجوي الملكي في المعركة . وهكذا هزم جيش رومل هزيمة حاسمة ، وغدا مساعده الجنرال فون توما ، مع تسعة جنرالات من الايطاليين اسرى في ايدينا .

وبدت لنا آمال مشرقة في تحويل الكارثة التي لحقت بالعدو الى عملية ابادة . واتجه الهجوم النيوزيلندي الى الفرقة ، ولكن عندما وصل النيوزيلنديون الى هناك في الخامس من تشرين الثاني ، كان العدو قد انسحب منها . وظل هناك امل بقطع طريق تراجع العدو في مرسى مطروح التـي استهدفتها الفرقتان البريطانيتان المدرعتان الاولى والسابعـة بهجومهما . وعندما هبط ليل السادس من تشرين الثاني ، كانت الفرقتان تقتربان من هدفهما بينما كان العدو ، لا يزال يحاول الهروب من الفخ الذي يكاد يطبق عليه . وفجأة سقط المطر ، ونضبت كميات الوقود عند قواتنا الامامية . فتوقفت عمليات مطاردتنا طيلة السابع من تشرين الثاني . وادى هذا التوقف الذي استمر اربعا وعشرين ساعة الى الحيلولة دون اكمال عملية التطويق . لكن اربع فرق المانية وثماني فرق ايطالية قد توقفت عن الوجود كتشكيلات مقاتلة ، واسر نحو من ثلاثين الف جندي كما وضعت قواتنا يدها على كميات كبيرة من المعدات الحربية من مختلف الانواع . وقد سجل رومل رايه في الدور الذي لعبته مدفعيتنا في هزيمته فقال : « وقد اظهرت المدفعية البريطانية مرة ثانية تفوقها المشهور . ولعل ابرز ما فيها قدرتها على الحركة ، وسرعتها على التكيف وفقا لمتطلبات قوات الهجوم » .

❋ ❋ ❋

وقد اختلفت معركة العلمين عن سائر المعارك الاخرى في الصحراء . كانت الجبهة محدودة ، وقوية التحصين ، وتضم قوات كبيرة . ولم يكن هناك جناح يمكن الالتفاف حوله . وكان على الفريق الاقوى ، والذي يود الهجوم ، ان يحقق اختراقا في الجبهة . وتكاد معركة العلمين تذكرنا بمعارك الحرب الكونية الاولى في الجبهة الغربية . وقد تكررت في مصر ، المظاهر التي سبق لنا ان رأيناها ، ونفس المحاولات لتجربة القوى واختبارها التي شهدناها في معركة كمبريه في نهاية عام ١٩١٧ ، وفي المعارك الكثيرة التي جرت في عام ١٩١٨ واهم هذه المظاهر ، تمتع المهاجمين بطرق مواصلات قصيرة وطيبة ، واستخدام المدفعية في اكبر تركيز ممكن والقصف الطبلي ، وتغلغل الدبابات في هجومها الى الامام .

وكان الجنرال مونتغمري ورئيسه الجنرال اليكساندر ، قد اتقنا إتقانا كاملا هذا النوع من الحروب بفضل التجربة والدراسة والتفكير العميق . وكان مونتغمري في حد ذاته مدفعيا عظيما . وكان يؤمن ، كما قال برنارد شو عن نابليون ، ان المدافع تقتل الرجال . وسنراه دائما يحاول ان يجمع نحوا من ثلاثمائة او اربعمائة مدفع الى بعضها ، وان يجعلها تعمل عملا مشتركا ، تحت قيادة واحدة ، مركزة ، بدلا من اشتباكات البطاريات ، وهي العمليات التي لا مناص منها والتي ترافق اندفاعات السلاح المدرع في المجالات الصحراوية . وبالطبع كان كل شيء في المعركة على نطاق اضيق واصغر بكثير من معارك فرنسا والفلاندرز . وقد خسرنا اكثر من ثلاثة عشر الفا وخمسماية رجل في العلمين في اثني عشر يوما ، ولكننا خسرنا ستين الفا في اليوم الاول وحده من معركة السوم . وقد ازدادت القوة النارية الدفاعية من الناحية الثانية عما كانت عليه في الحرب الماضية . وفي تلك الايام كان المفروض ان تكون القوات المحتشدة للهجوم ضعفين او ثلاثة اضعاف القوات المدافعة لا في عدد المدافع فحسب ، بل في عدد الرجال ايضا ، لتتمكن من اختراق الجبهة المحصنة وتحطيمها رغم المدافعين عنها . ولم يكن لدينا مثل هذا التفوق في العلمين . وكانت جبهة العدو تتألف لا من سلسلة من الخطوط المتعاقبة من المراكز الحصينة ومواقع المدافع الرشاشة فحسب ، بل من منطقة عميقة للغاية بكاملها تضم جهازا دفاعيا شاملا . وامام هذه المنطقة يقوم درع هائل من حقول الالغام لم يعرف تاريخ الحروب له مثيلا من قبل في قوته وكثافته . ولهذه الاسباب كلها فان معركة العلمين ستحتل دائما صفحة مجيدة في التاريخ العسكري البريطاني .

وهناك سبب آخر لخلود هذه المعركة ، وهو انها ترمز في الحقيقة الى انقلاب في « محور الحظ » . وقد يقال ، وهذا القول صحيح ، اننا « قبل العلمين لم نحرز اي انتصار ، ولكننا بعد العلمين لم نمن بأية هزيمة » .

المشعل يضـــاء

كانت الحزازات التي يحملها الرئيس روزفلت ضد الجنرال ديغول ، واتصالاته التي يجريها عن طريق الاميرال ليهي مع حكومة فيشي ، وذكرياتنا عن تسرب الاخبار عن عزمنا على مهاجمة الاسطول في داكار قبل عامين ، قد حملتنا على اتخاذ قرار بعدم الافضاء للفرنسيين بأي شيء عن عملية « المشعل » . ولم احاول مناقشة هذا التصميم . ومع ذلك فقد كنت مدركا تمام الادراك لعلاقاتنا نحن البريطانيين بديغول ، كما كنت احس بالاساءة البالغة التي سيشعر بها من تعمدنا استثناءه من الاشتراك في المشروع . وقررت أن ابلغه قبل ان تنزل الضربة ، وكوسيلة للتخفيف من الاساءة التي ستلحق به وبحركته ، قررت ان اعهد اليه بالوصاية على مدغشقر . وكانت جميع الحقائق الموجودة امامنا في شهور الاعداد ، وكل ما جمعناه من معلومات منذ ذلك الوقت ، يبرر الرأي القائل بأن ادخال ديغول في المشروع ، سيكون من ناحية ردود الفعل الضارة التي ستصدر عن الفرنسيين في افريقيا الشمالية .

ولكن الحاجة الى ايجاد شخصية فرنسية بارزة ، كانت واضحة : وبدا لأعين البريطانيين والاميركيين ان لا شخص اصلح لهذه المهمة من الجنرال جيرو ، القائد الفرنسي ذي الرتبة العالية الذي تناقلت الاساطير قصة فراره المسرحي الغريب من السجن في المانيا . وكنت قد قابلت جيرو في ميتز عام ١٩٣٧ عندما زرت خط مماجينو ، اذ كان يتولى قيادة القطاع الاكبر فيه . وكان قد حدثني عن مغامراته في الحرب الكونية الاولى كأسير فار وراء الخطوط الالمانية . ولما كنت بدوري اسيرا فارا في حرب البوير ، فقد كان هناك ما يجمعنا . وكان قد اعاد الآن كقائد جيش بعض مغامرات الصبى بطريقة اكثر اثارة . وشرع الاميركيون في محادثات سرية مع الجنرال ، ووضعت الخطط لنقله من الريفييرا الى جبل طارق في اللحظة الحاسمة . وركزت آمال كثيرة على « دبوس الملك » ، وهو الاسم الذي اطلقناه عليه في برقياتنا الرمزية ، وقد نقل جيرو ووالده بسلام وامان على الرغم من المخاطر البحرية التي تعرض لها .

* * *

وكان اسطولنا الجبار في غضون ذلك يقترب من مسرح المعركة . وكان على معظم القوافل التي ابحرت من الموانىء البريطانية ان تمر بخليج بسكاي وان تقطع جميع طرق الغواصات . وكنا في حاجة الى قوات حراسة ضخمة ، كما كان علينا ان نخفي حشد بواخرنا التي بدأت تجتمع منذ اوائل شهر تشرين الاول في كلايد وغيرها من الموانىء الغربية ، وكذلك

ابحار بواخرنا . وقد نجحنا في ذلك اتم نجاح . وخيل للالمان وفقا لمعلومات دوائر مخابراتهم ، ان داكار ، هي هدفنا من جديد . واحتشدت نحو اربعين غواصة المانية وايطالية حوالي نهاية الشهر الى الجنوب والشرق من جزر الازور . وهاجمت قافلة كبيرة كانت في طريق العود الى سيراليون ، واغرقت ثلاث عشرة باخرة . وكان في وسعنا ان نحتمل مثل هذه الخسارة في مثل هذه الظروف . وغادرت أولى قوافل « المشعل » في الثاني والعشرين من تشرين الاول ، ولم يحل السادس والعشرون من الشهر ، حتى كانت جميع بواخر نقل الجنود السريعة في طريقها بينما كانت القوات الاميركية مبحرة الى الدار البيضاء من الولايات المتحدة . وهكذا اشتركت نحو من ٦٥٠ باخرة في العملية كلها . وقد قطعت خليج بسكاي او المحيط الاطلنطي دون ان تبصر بها الغواصات او الطائرات الالمانية .

واشغلنا في العملية كل ما لدينا من قوات بحرية . فتولت طراداتنا في الشمال مراقبة مضيق الدانمارك ومداخل بحر الشمال لتحول دون تدخل سفن العدو الحربية في سير الحملة . وقامت طرادات اخرى بحراسة الطريق الاميركي قرب جزر الازور ، وقامت القاذفات الانكليزية والاميركية بمهاجمة قواعد الغواصات على طول الساحل الفرنسي على الاطلنطي . وبدات سفن الطليعة تدخل البحر الابيض المتوسط ليلة الخامس ــ السادس من تشرين الثاني ، دون ان يلاحظها العدو . ولم يشاهد العدو القافلة المتجهة الى ميناء الجزائر الا في السابع من الشهر ، اي قبل اربع وعشرين ساعة فقط من موعد وصولها الى هدفها ، فهوجمت احدى بواخرها .

وطار ايزنهاور في الخامس من تشرين الثاني في رحلة خطرة فوصل الى جبل طارق . وكنت قد عهدت بالقلعة الى قيادته ليجعل منها مقره المؤقت بوصفه القائد العام لهذا المشروع الضخم الاول ، الذي تقوم به قوات بريطانية واميركية . وحشد في القاعدة القوات الجوية الضخمة اللازمة للقيام بعملية « المشعل » . وامتلأ البرزخ بالطائرات ، ووقف اربعة عشر سربا على استعداد لساعة الصفر . وكان هذا النشاط يتم بالطبع على مرأى من المراقبين الالمان ، وكان جماع املنا يتركز في ان يحسب الالمان ان القصد من هذه القوات الجوية تعزيز مالطة . وقد بذلنا كل ما وسعنا لحملهم على هذا الاعتقاد . ويبدو انهم قد اعتقدوا ذلك .

وتحدث الجنرال ايزنهاور في مذكراته بشكل واضح عن التجارب القلقة التي مر بها ليلة السابع ــ الثامن من تشرين الثاني وفي غضون الايام القليلة التالية . وكان الجنرال رائعا دائما في احتمال الجهود التي من هذا الطراز . وكانت ضخامة العملية التي تقوم بها ، وعدم الاطمئنان الى الطقس الذي قد يحطم كل شيء ، والانباء الصغيرة التي تصل الينا ، والتعقيدات الكبيرة عن موقف فرنسا ، والخطر الماثل من اسبانيا ، كلها امور اذا اضيفت الى القتال الفعلي كانت كافية لتجعل الامر شاقا على القائد الذي يتحمل مسؤوليات ضخمة ومباشرة .

وهنا ظهر الجنرال جيرو في الميدان . فقد جاء وقد سيطرت عليه فكرة ، بأنه سيعين قائدا اعلى في افريقيا الشمالية وان جميع الجيوش

البريطانية والاميركية التي لم يكن يعرف شيئا سابقا عن قوتها ، ستوضع كلها تحت قيادته . وكان هو يحث حثا قويا على القيام بانزال في فرنسا بدلا من افريقيا او بالاضافة اليها ، وكان يبدو له لمدة طويلة ان هذه الصورة تملك شيئا من الواقع . وطالت المناقشات اكثر من ثمان واربعين ساعة ، بينه وبين الجنرال ايزنهاور ، قبل ان يقتنع هذا الفرنسي الشجاع بنطاق الاحداث . وكنا قد علقنا الكثير من الآمال على « دبوس الملك » ، ولكن يبدو انه كان اقل الناس انخداعا ، بالنفوذ الذي يملكه على الحكام الفرنسيين والجنرالات ، وجماعات الضباط في شمال افريقيا .

* * *

وقد وقع الآن تعقيد غريب ، ولكنه جاء مؤاتيا تمام المؤاتاة في هذه اللحظة . فقد عاد الاميرال دارلان بعد ان اكمل جولة تفتيشية في شمال افريقيا الى فرنسا . وكان ولده قد اصيب بشلل الاطفال ، ونقل الى المستشفى في مدينة الجزائر . وادت خطورة حالته الى ان يعود الاميرال طائرا الى الجزائر في الخامس من تشرين الثاني . وهكذا كان دارلان في الجزائر عشية هبوط القوات الانكليزية ــ الاميركية ، وكان هذا مجرد صدفة غريبة ورهيبة . وكان المستر روبرت ميرفي ، الممثل الاميركي السياسي في افريقيا الشمالية يأمل في ان يتمكن دارلان من مغادرة البلاد قبل بدء الهجوم على سواحلها . ولكن هذا الذي اشغله مرض ولده ، تأخر يوما ثانيا ، مقيما في دارة احد الموظفين الفرنسيين ، وهو الاميرال فينارد .

وكان الجنرال جوان القائد العسكري الفرنسي في الجزائر ، هو الرجل الذي تركزت عليه آمالنا في الاسابيع الاخيرة . وكانت علاقاته بالمستر مورفي وثيقة ، وان كان المبعوث الاميركي لم ينقل الموعد الحقيقي للغزو . وقام مورفي بعيد منتصف ليلة السابع من تشرين الثاني ، لينقل اليه ان الساعة الحاسمة قد ازفت . وعلى الرغم من ارتباطات الجنرال جوان الوثيقة بنا ، وعلى الرغم من اخلاصه للمشروع ، فقد بوغت بهذه الانباء ، وكان قد ركز آماله في ان يتولى القيادة كاملة في الجزائر ، بوصفه الشخصية العسكرية الكبرى في البلاد ، لكن وجود الاميرال دارلان في المنطقة الآن ، يعرض سلطته للتحدي . وكان يعرف ان تحت تصرفه عددا لا يعدو المئات من الشبان الفرنسيين المتحمسين ، لكنه كان يعرف ايضا ان الاشراف على الادارتين العسكرية والسياسية قد انتقل من يديه الى يدي الوزير الاميرال دارلان . ولا ريب في ان القوات العسكرية والهيئات الادارية لن تطيعه الآن . وسأل مورفي ، لماذا لم يبلغوه مسبقا بساعة الصفر . كانت الاسباب واضحة ، وكانت الحقيقة لا تغير شيئا من سلطاته وصلاحياته . فدارلان موجود في المنطقة ، وهو المسيطر على كل ولاء لفرنسة فيشي . وقرر مورفي وجوان ان يطلبا الى دارلان هاتفيا ، المجيء اليهما فورا . واوقظ دارلان من نومه في الساعة الثانية صباحا ، تلبية لهذا الهاتف المستعجل من الجنرال جوان . وعندما نقل الى الاميرال نبأ الضربة التي ستقع بعد لحظات ، احمر وجهه وقال : « لقد كنت اعرف منذ زمن بعيد ان البريطانيين سخفاء ، ولكنني كنت اعتقد دائما ان الاميركان اكثر

منهم ذكاء . وها انا قد بدأت اعتقد انكم ترتكبون من الاخطاء بقدر ما يرتكبون » .

وكان دارلان الذي اشتهر امر عدائه لبريطانيا منذ امد بعيد، قد ارتبط بالمحور ارتباطا وثيقا . وكان في ايار عام ١٩٤١ ، قد وافق على منح الالمان تسهيلات في داكار ، وعلى السماح للمؤن بالمرور الى جيوش رومل عبر تونس . ولكن الجنرال ويغان كان قد اوقف هذه العملية التي تنطوي على الخيانة ، اذ كان قائدا عاما في شمال افريقيا . وافلح في اقناع بيتان برفض هذا الطلب الالماني . ولما كان هتلر في ذلك الوقت مغرقا في الاعداد للحملة الروسية المرتقبة ، فانه لم يضغط على بيتان في هذه القضية على الرغم من نصيحة قواده البحريين . ونحي ويغان في تشرين الثاني من العام نفسه عن القيادة لان الالمان كانوا يعتبرونه انسانا غير موثوق . وعلى الرغم من اننا لم نسمع شيئا جديدا عن خطط المحور لاستخدام داكار ضدنا ، فان الموانىء التونسية فتحت فيما بعد لسفن المحور ، ولعبت دورا بارزا في تأمين العتاد والمؤن لجيوش رومل في صيف عام ١٩٤٢ . وقد تبدلت الاوضاع الآن ، وتبدل معها موقف دارلان ، ولكن مهما تكن الافكار التي ساورته في مساعدة الاحتلال الانكليزي ـ الاميركي لشمال افريقيا ، فقد كان لا يزال مرتبطا ببيتان مظهرا وحقيقة . وكان يعرف انه اذا انضم الى الحلفاء ، فانه سيصبح مسؤولا شخصيا عن قيام المانيا بغزو مناطق فرنسا غير المحتلة . وكان جل ما يستطيع عمله والحالة هذه هو ان يطلب الى بيتان برقيا تخويله صلاحية العمل . وكان هذا هو السبيل الوحيد امامه بالنسبة الى الحالة المخيفة التي وجد نفسه متورطا فيها من جراء سلسلة متلاحقة من الاحداث التي تنكب فيها جانب الضمير .

وبدأت بعيد الساعة الواحدة من صباح الثامن من تشرين الثاني حركات انزال بريطانية واميركية في عدد من النقاط الى الشرق من مدينة الجزائر وغربها تحت اشراف الرير ـ اميرال بورو من الاسطول الملكي البريطاني . واتخذت العناية الكافية للغاية لتوجيه قطع الانزال الى السواحل التي اختيرت لاتمام العملية . ونجحت في الغرب طلائع اللواء البريطاني الحادي عشر نجاحا كاملا . اما الى الشرق ، فقد ادت تيارات مدية غير متوقعة الى انحراف بعض قطع الانزال التي تنقل الاميركيين عدة اميال عن مواقعها المعينة ، مما ادى الى وقوع شيء من الارتباك والتأخر . وقد حققنا لحسن الحظ عامل المباغتة : ولذا كانت المقاومة على الشاطىء معدومة تقريبا . وسرعان ما تحققت السيطرة الكاملة . وشاهدت طائرة من سلاح الاسطول اشارات ودية من الارض ، فهبطت في مطار بليده ، وتمكنت بالتعاون مع القائد الفرنسي المحلي من الحفاظ على المطار حتى وصلت قوات الحلفاء قادمة من الشواطىء .

ودار اعنف قتال في ميناء الجزائر نفسها . فقد حاولت المدمرتان البريطانيتان بروك ومالكولم ، ان تقتحما مدخل الميناء وان تنزلا قوات اميركية على الحاجز المائي لتتولى السيطرة على الميناء ، وتحتل بطارياته الساحلية ، وتحول دون اغراق السفن الفرنسية نفسها او تخريبها . وقد ادى هذا العمل الى تعرض المدمرتين لنيران البطاريات الفرنسية الساحلية ،

وانتهى الى كارثة مخيفة ، اذ سرعان ما شلت حركة مالكولم ، بينما دخلت بروك الميناء بعد المحاولة الرابعة وانزلت الجنود الذين تحملهم . وسرعان ما اصيبت باصرار بالغة وهي تحاول الانسحاب وغرقت . اما الجنود الذين نزلوا الى البر فقد وقعوا في فخ ، وارغموا على الاستسلام .

وبعث دارلان في الساعة الخامسة مساء برقية الى رئيسه قال فيها : « دخلت القوات الاميركية المدينة ، على الرغم من عملياتنا الاعاقية . وقد خولت الجنرال جون القائد العام ، التفاوض لتسليم مدينة الجزائر وحدها » . وتم تنفيذ استسلام مدينة الجزائر اعتبارا من السابعة مساء . ومنذ تلك اللحظة اصبح الاميرال دارلان في قبضة الاميركان واستأنف الجنرال جوان قيادته تحت اشراف الحلفاء .

وكانت المقاومة اعنف في وهران ، فقد اشتبكت الوحدات الفرنسية النظامية التي سبق لها ان حاربت البريطانيين في سوريا ، ورجال القيادة البحرية الذين ما زالوا يحملون ذكريات مؤلمة عن هجومنا على الاسطول الفرنسي في عام ١٩٤٠ ، مع « قوة طوارىء » اميركية . وتفرق فوج من المظليين الاميركيين كان قد غادر انكلترا لتسلم المطارات فوق اسبانيا في طقس عاصف . وتمكنت الطلائع من المضي في طريقها ، ولكن عمليات ملاحتها الجوية كانت خاطئة ، وهبطت على بعد بضعة اميال من هدفها .

وحاولت سفينتان حربيتان بريطانيتان صغيرتان ، انزال عدد من الجنود الاميركيين في ميناء وهران ، وكان الهدف ، كما في الجزائر ، منع الفرنسيين من تخريب مؤسسات الميناء ، وتدمير السفن وتحويل القاعدة في اقرب وقت ، الى قاعدة بحرية للحلفاء . وواجهت سفينتان بحريتان بريطانيتان من سفن الشواطىء ، كنا قد اخذناهما من الاميركيين بموجب قانون الاعارة والتأجير ، ويتولى قيادتهما القبطان بيترز ، نيرانا قتالة من مدى قريب ، فدمرتا ، وقتل معهما معظم من كان على ظهرهما من رجال . اما القبطان بيترز فقد نجا من الموت باعجوبة ليلقى مصيره بعد بضعة ايام في كارثة طائرة وهو في طريق العودة الى انكلترا ، وقد منح بعد موته وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة الممتازة الاميركي . ونشطت عند الفجر المدمرات الفرنسية والغواصات في خليج وهران ، ولكنها اما ان تكون قد اغرقت او قضي عليها . وقامت الوحدات البحرية البريطانية وبينها البارجة رودني بقصف البطاريات الفرنسية الساحلية ، واستمر القتال حتى صباح العاشر من تشرين الثاني عندما شن الاميركان هجومهم النهائي على المدينة . ولم تحل الظهيرة ، حتى كان الفرنسيون يستسلمون .

ووصلت « قوة العمليات الغربية » الى الساحل المراكشي قبيل فجر الثامن من تشرين الثاني . وكان الهجوم الرئيسي على مقربة من الدار البيضاء ، مع هجمات جناحية الى الشمال والجنوب من الميناء ، وكان الطقس حسنا ولكنه معتم ، بينما كانت الامواج على الشاطىء اقل عنفا مما كان متوقعا . وساءت اوضاع الامواج بعد ذلك ، ولكن بعد ان كانت قواتنا قد اقامت لها مواطىء قدم ثابتة على الشاطىء . واستمر القتال العنيف مدة من الزمن . ودار اشتباك عنيف في البحر . ففي ميناء الدار البيضاء البارجة جان بارت التي لم يكن قد كمل بناؤها بعد ، ولكنها كانت قادرة على استخدام مدافعها الاربعة من عيار خمس عشرة بوصة . وسرعان

ما اشتبكت في مبارزة مع البارجة الاميركية مساشوسيت ، بينما اقلعت المدمرات الفرنسية يدعمها الطراد بريموغييه لمقاومة حركة النزول . والتقت هذه الوحدات وجها لوجه بالاسطول الاميركي كله . ودمرت سبع سفن فرنسية وثلاث غواصات ، ومني الفرنسيون بخسارة اكثر من الف رجل . واشعلت النيران بطن البارجة جان بارت وجنحت الى الشاطىء ، واستسلم نوغيس المقيم الفرنسي العام في صباح الحادي عشر من تشرين الثاني ، اثر امر تلقاه من دارلان . وبعث ببرقية الى فيشي يقول فيها : « لقد خسرت كل ما كان لدي من سفن القتال والطائرات بعد ثلاثة ايام من القتال العنيف » .

وكان ميرسييه ، قبطان الطراد بريموغييه ، يتمنى للحلفاء النصر ، ولكنه مع ذلك قتل على جسر طراده وهو ينفذ اوامره . ولا ريب في ان من حقنا ان نشكر الاقدار لانها لم تضعنا في مثل هذه المواقف الحرجة من الولاء المتضارب .

***

وبدات نتف من الانباء ، من هنا وهناك ، تصل الى مقر قيادة الجنرال ايزنهاور في جبل طارق ، الذي اخذ يواجه الآن وضعا سياسيا خطيرا . فقد كان متفقا مع الجنرال جيرو على ان يعهد اليه بقيادة اية قوات فرنسية يمكن ان تنضم الى قضية الحلفاء . وفجاة ، وبصورة عرضية ظهر في وسط المسرح الآن ، رجل يستطيع ان يقرر بالفعل ، اذا كان بعض هذه القوات سينضم الى الحلفاء فعلا ، وبصورة نظامية ، وهو الاميرال دارلان . ولم يكن الامل بالتفاف هذه القوات حول جيرو قد وضع في موضع التجربة والاختبار بعد ، وان كانت الدلائل الاولى غير مشجعة على الاطلاق . ولهذا فقد طار الجنرال جيرو في صباح التاسع من تشرين الثاني الى الجزائر ، وطار بعده بقليل الجنرال كلارك النائب الشخصي للجنرال ايزنهاور . وكان استقبال كبار القادة العسكريين الفرنسيين في الجزائر لجيرو ، فاترا بل وباردا كالثلج . وكانت فئات المقاومة المحلية التي نظمها العملاء البريطان والاميركان قد انهارت واختفت . ولم يصل كلارك في اجتماعه الاول بدارلان الى اي اتفاق . وكان من الواضح ، ان اي رجل مسؤول ذي مكانة لن يقبل بجيرو قائدا فرنسيا اعلى . واجتمع كلارك في اليوم التالي مرة ثانية بالاميرال ، وتحدث الى ايزنهاور على « الراديو » بأن الاتفاق مع دارلان هو الحل الوحيد ، وان الوقت اضيق من ان يسمح بمناقشات برقية من لندن وواشنطن . ولم يكن جيرو حاضرا هذا الحديث ، اما دارلان فقد تردد ، على اساس الافتقار الى التعليمات من فيشي . واعطاه كلارك مهلة نصف ساعة لاتخاذ قراره النهائي . ووافق الاميرال بعد لاي على ان يصدر امره « بوقف اطلاق النار » بصورة عامة في جميع انحاء افريقيا الشمالية . وتولى السلطة الكاملة «باسم الماريشال» في جميع انحاء الممتلكات الفرنسية في افريقيا الشمالية . واصدر اوامره الى جميع الموظفين بالبقاء في مناصبهم .

***

واصدر دارلان امره الى الاميرال استيفا ، المقيم الفرنسي العام في تونس بالانضمام الى الحلفاء . وكان هذا تابعا امينا ومخلصا لفيشي . وقد تابع تطور الاحداث بمزيج من الفزع والاضطراب والحيرة . ولما كان اقرب الى العدو من دارلان او نوغيس اذ ان الاعداء يرابطون في صقلية وعلى حدودها الشرقية ، فقد كان وضعه أسوأ من وضعهما . وكان كبار مساعديه لا يقلون عنه حيرة وارتباكا ، وترددا في اتخاذ القرار . وفي التاسع من تشرين الثاني قامت وحدات من السلاح الجوي الالماني باحتلال مطار العوينة المهم . ووصلت في نفس اليوم قوات المانية وايطالية الى البلاد . ووجد استيفا نفسه في وضع متردد يائس بين قوات المحور القادمة من الشرق من طرابلس وقوات الحلفاء التي تحت الخطي قادمة من الغرب ، فقرر ان يظل على ولائه لفيشي ، اما الجنرال الفرنسي باريه ، الذي وجد نفسه في البداية في نفس الموقف من الارتباك والحيرة ، فقد قرر في النهاية ان يتحرك مع القسم الاكبر من الحامية الفرنسية غربا وان يضع نفسه تحت تصرف الجنرال جيرو واوامره . اما في بنزرت فقد استسلمت ثلاث زوارق طوربيد وتسع غواصات فرنسية الى المحور .

اما في الاسكندرية ، حيث كان الاسطول الفرنسي ، فقد نزعت منه اسلحته منذ عام ١٩٤٠ ، فلم تؤد المحادثات التي دارت مع الاميرال غودیفروي الى اية نتيجة ، اذ ظل على اخلاصه لفيشي ورفض الاعتراف بسلطة دارلان . وكان من رأيه ، ان الحلفاء اذا لم يحتلوا تونس ، فلن يكون في وسعهم الادعاء بأن في وسعهم تحرير فرنسا . وهكذا ظلت سفنه عاطلة عن العمل ، الى ان تمكنا اخيرا ، وبعد وقت طويل من احتلال تونس . وفي داكار قبل الحاكم الفيشي الجنرال بواسون أوامر دارلان ، بوقف المقاومة في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، ولكن وحدات الاسطول الفرنسي هناك ، رفضت الانضمام الى الحلفاء . ولم تنضم البارجة ريشيليو والطرادات الثلاثة الى قضية الحلفاء الا بعد ان تم احتلال الشمال الافريقي بكامله .

* * *

واحدث النزول البريطاني ـ الانكليزي في افريقيا الشمالية ، نتيجة فورية في فرنسا . وكان الالمان منذ كانون الاول عام ١٩٤٠ قد اعدوا خطة تفصيلية كاملة لاحتلال ما تبقى من فرنسا . وقد نفذت هذه الخطة الآن . وكان هدف هتلر الاول الاستيلاء على الوحدات الرئيسية للاسطول الفرنسي الموجودة في طولون ، وكان الجنرال ايزنهاور ، تواقا بدوره لان يضع يده على هذه الغنيمة العظيمة ، ولكن في الوقت الذي كان يتفاوض فيه مع دارلان ، وكان هذا يبعث بدوره الرسائل الى فيشي ، كان الالمان يزحفون بسرعة نحو ساحل البحر المتوسط ، ويحتلون ما تبقى من فرنسا . وادى هذا التطور ، الى تسهيل مهمة دارلان وتبسيط وضعه . فقد اصبح في وسعه ان يقول ، وان يصدقه جميع الموظفين والقادة العسكريين ان المارشال بيتان لم يعد مطلق السراح والحرية .. واصابت الحركة الالمانية دارلان بهزة عصبية . فقد غدا مصير الاسطول الفرنسي مرة ثانية تماما كما حدث في عام ١٩٤٠ في كفة القدر . وكان الاميرال الشخص

الوحيد الذي يستطيع انقاذه . فسارع الى العمل بشكل حاسم . وابرق بعد ظهر الحادي عشر من تشرين الثاني الى فرنسا يقول ان على اسطول طولون أن يخرج الى عرض البحر ، اذا كان في خطر الوقوع عاجلا في ايدي الالمان .

واراد الاميرال دوفان وزير بحرية فيشي الوقوف الى جانب دارلان ، ولكنه كان عاجزا عن القيام بأي عمل في وجه لافال ، وازاء موقف القادة الفرنسيين في طولون . وكان الاميرال دي لابورد ، القائد العام لاسطول فرنسا في البحر الابيض المتوسط ، معادياً للبريطانيين بصورة تنطوي على التعصب . وعندما سمع بنزول الحلفاء في شمال افريقيا ، اراد ان يخرج الى البحر وان يهاجم قوافل الحلفاء . وقد رفض اطاعة نداءات دارلان بالمجيء الى افريقيا ، وعندما وصل الالمان الى قطاع القاعدة البحرية الفرنسية ، تم الوصول الى اتفاق لاقامة قاعدة حرة حول الميناء ، يتولى الجنود الفرنسيون حراستها . وجرت محاولات لوضع الميناء في حالة دفاعية قوية ، ولكن الالمان طلبوا في الثامن عشر من تشرين الثاني انسحاب جميع الجنود الفرنسيين من المنطقة ، واستقال الاميرال دوفان في اليوم التالي .

وقرر الالمان الآن القيام بعمل حاسم ضد الاسطول . وجرت العملية في السابع والعشرين من تشرين الثاني . ولكن شجاعة واخلاص عدد من الضباط بينهم الاميرال لابورد نفسه ، جعلت من الممكن القيام بعملية تخريب جماعية للاسطول ، تمهيدا لاغراقه . وبالفعل ، غرقت بارجة وطرادان ـ بارجتان وسبعة طرادات وتسع وعشرون مدمرة وزورق طوربيد وست عشرة غواصة بالاضافة الى مجموعة اخرى من السفن الحربية بلغ مجموعها كلها ثلاثا وسبعين .

* * *

وقتل الاميرال دارلان بعد نحو من شهر . فبعد ظهر الرابع والعشرين من كانون الاول كان يقود سيارته من دارته الى مكتبه في القصر الصيفي . وفي مدخل المكتب اطلق شاب في العشرين من عمره يدعى بونييه دي لا شابيل النار على الاميرال ، فأصابه اصابة بالغة قضى نحبه متأثرا منها بعد نحو من ساعة وهو على مائدة العمليات في مستشفى قريب . وكان القاتل الشاب يقنع نفسه منذ وقت طويل ، متأثرا بحالة عقلية معينة بأنه منقذ فرنسا من الزعامة الشريرة . وقد حوكم امام محكمة عسكرية بأمر من جيرو ، وكم كانت دهشته عظيمة ، عندما وجد حكم الاعدام ينفذ فيه رميا بالرصاص بعيد فجر السادس والعشرين من كانون الاول .

وقد دفع عدد اقل من الرجال ، ثمنا أغلى من الثمن الذي دفعه دارلان لاخطائه في التقدير ولافتقاره الى الخلق . فلقد كان شخصية محترفة ، وقوية . وقد كرس حياته كلها لبعث الاسطول الفرنسي ، وسما به الى مركز لم يره منذ ايام الملوك الفرنسيين . ولم يحظ بولاء الضباط البحريين فحسب بل بولاء جميع العاملين في سلك البحرية . وكان عليه

طبقا لوعوده المتكررة ان يأمر جميع اساطيل فرنسا في عام ١٩٤٠ بالاتجاه الى بريطانيا او الولايات المتحدة او الموانىء الافريقية او اي مكان آخر خارج نطاق السيطرة الالمانية . ولم تكن هناك اية معاهدة تلزمه بذلك باستثناء التأكيدات التي كان قد قطعها على نفسه بمحض اختياره . وكان هذا قراره وتصميمه الى ان ولاه الماريشال بيتان وزارة البحرية في ذلك اليوم البشع ، يوم ٢٠ حزيران عام ١٩٤٠ . ومن المحتمل ان يكون قد تأثر بعد ذلك بدوافع ذات طابع اداري ، فكرس ولاءه لحكومة الماريشال بيتان . وتوقف عن ان يكون بحارا واصبح سياسيا ، فاستبدل المجال ، الذي يعرفه اكمل معرفة واعمها بمجال آخر لا يسترشد فيه الا بالضغائن التي يحملها على بريطانيا والتي تعود في تاريخها كما ذكرت سابقا الى ايام معركة الطرف الاغر ، التي قتل فيها احد اجداده .

واظهر في مركزه الجديد انه رجل تصميم وحزم ، ولا يفهم تماما القيم الاخلاقية والمعنوية لما يفعله . وكان الطموح هو الحافز على الاخطاء التي ارتكبها . ولم يكن افقه كاميرال يتسع الى ابعد من الاسطول ، كما ان افقه كوزير لم يتسع الى ابعد من منافعه الشخصية والمحلية . وظل يمثل طيلة عام ونصف قوة عظمى في فرنسا المحطمة . وفي الوقت الذي هبطنا فيه على الارض الافريقية الشمالية . كان ولا شك الوارث الذي لا ينازع للماريشال العجوز . وها هو فجاة يتعرض لسيل دافق من الاحداث المذهلة التي سقطت عليه .

وقد تحدثت عن المتاعب التي مر بها . فجميع المناطق الفرنسية في شمال افريقيا وغربها اخذت تتطلع اليه ، وقد منحه غزو هتلر لفرنسة فيشي السلطة المطلقة كما منحه الحق ايضا ، في اتخاذ قرار جديد حاسم . وقد أتى للحلفاء الانكليز والاميركان الآن بكل ما يحتاجون اليه تماما ، واعني به صوت فرنسا ، الذي يطيعه حتما جميع ضباط فرنسا وموظفيها في هذا المسرح الواسع الذي انغمس الآن في الحرب . وقد وجه ضربته الأخيرة لمصلحتنا ، وليس من حق اولئك الذين افادوا فائدة كبيرة من انضمامه الى صفوفنا ان يسيئوا الى ذكراه . وفي وسع قاض صارم ومنصف ان يقول ، ان واجبه كان يحتم عليه ان يرفض كل حديث مع الحلفاء الذين اساء اليهم في الماضي ، وان يتحداهم ليفعلوا ما يشاءون به . ولكن من حقنا ان نفرح جميعا لانه اتخذ النهج المعاكس . وقد كلفه هذا حياته ، ولكنه كان قد استنفد اكبر قسط من هذه الحياة ولم يبق له منها الكثير . وقد اتضح في هذا الوقت انه كان مخطئا في انه لم يأمر الاسطول الفرنسي بالابحار الى الموانىء الحليفة او المحايدة في حزيران عام ١٩٤٠ ولكنه كان على صواب كل الصواب في قراره المخيف الثاني . ولعل اكثر ما حز في نفسه من الم انه فشل في اجتذاب اسطول طولون . وقد اعلن دائما ان هذا الاسطول يجب ان لا يقع في ايدي الالمان . ولم يفشل في الوفاء بهذا التعهد امام التاريخ . فلروحه الرحمة ، ولنشكر الله ، ان الاقدار لم تشأ لنا ان نواجه الامتحان العصيب الذي واجهه والذي تحطم تحت وطأته .

عودة الى الماضي

عادت الى مخيلتي احداث الماضي القريب ، هذه الاحداث التي لا بد لي من ذكرها في هذا الفصل ، لكي ابقي القارىء مطلعا على جميع جوانب هذه القصة المأساة عن الحرب العالمية الثانية . وهذه الاحداث تتعلق برحلتي الاولى الى واشنطن واجتماعي بالرئيس روزفلت ، فقد سافرت على ظهر البارجة الجديدة « الدوق أوف يورك » مع فريق يتألف من اللورد بيفر بروك ممثلا وزارة الحربية ، والاميرال باوند ، اللورد الاول للاميرالية ، وبورتال ماريشال الجو ورئيس اركان حرب سلاح الطيران ، والفيلد مارشال دايل الذي خلفه الآن الجنرال بروك في مهمة رئاسة اركان حرب الامبراطورية . كذلك رافقني اللورد موران الذي اصبح في عام ١٩٤١ مستشاري الطبي بصورة دائمة ، وكانت هذه اول رحلة يرافقني فيها ، واصبح بعد ذلك ملازما لي في جميع رحلاتي ، ولا شك في اني مدين بحياتي لعنايته الفائقة بصحتي . وبالرغم من انني كنت لا انجح في اقناعه بالالتفات الى نصائحي التي اسديها له حين يمرض هو ، وبالرغم من انه لم يكن يثق بطاعتي المطلقة لارشاداته الطبية ، الا اننا اصبحنا صديقين حميمين . على كل حال ، لقد استطعنا ان نتغلب على جميع ما اصابنا من علل .

وكنا آملين في ان نجتاز المسافة خلال سبعة ايام بنسبة عشرين عقدة في الساعة، بعد ان نقوم بتعرجات وانحناءات لكي نتجنب الغواصات. وقد كانت تعليمات السير تقضي بأن نتوجه من المضيق الايرلندي الى خليج بسكاي . وكان الجو سيئا جدا ، فقد كان البحر هائجا والعواصف شديدة . كما امتلأت السماء بالغيوم المتلبدة . وكان علينا ان نجتاز طريق ذهاب الغواصات وايابها المتد بين موانىء فرنسا الغربية ، واماكن الصيد في الاطلنطي . وقد كان عددها كبيرا الى الحد الذي حمل الاميرالية الى ان تصدر الامر الى قبطان بارجتنا بأن يواصل السير بحراسة المدمرات المرافقة وان لا يسير امامها ، لكن المدمرات لا تتمكن من قطع اكثر من ست عقد في الساعة ، خاصة في هذه البحار القاسية والجو العاصف . وهكذا اجتزنا الدورة حول ساحل جنوب ايرلندة في اكثر من ٤٨ ساعة ، كما مررنا على مسافة اربعماية ميل من بريست . وقد حالت الغيوم الكثيفة بين الطائرات وبين مرافقتنا عدا طائرة واحدة استطاعت ان ترافقنا . وعندما صعدت الى الجسر ، رأيت زرقة السماء التي لم نكن نرحب بها ، ولم يحدث شيئا على كل حال ، وسارت الامور على طبيعتها . وبقيت البارجة الكبيرة تمخر عباب البحر بحراسة المدمرات ، ولكن كاد صبرنا ان يفرغ من هذا البطء في السير . وفي الليلة التالية اقتربنا من نهر الغواصات . وقال الاميرال باوند ، الذي اتخذ قرارا لنفسه يقضي بوجوب

تحطيم احدى غواصات العدو قبل ان تتمكن من نسفنا باحدى طوربيداتها. وكان الليل مظلما حالك السواد ، وبذلك استطعنا ان نتجاوز مدمراتنا الحارسة ، واسرعنا وحدنا باقصى سرعة ممكنة في هذا الجو المدلهم . وقد اعترض اللورد بيفر بروك على هذا وقال انه كان من الافضل لو قمنا بسفرنا في غواصة بدلا من البارجة .

وكان باستطاعة موظفي « الرموز » ان يلتقطوا بواسطة اللاسلكي عددا من الرسائل . وكان في استطاعتنا ايضا ان نرد على بعضها الى حد ما . وحين انضمت الينا بعض الواحدات الاخرى والتي قدمت من جزر الازور ، كان في وسعها ان تستقبل باشارات المورس الواضحة رسالات بالرموز ، ثم لا تلبث ان تبتعد عنا مسافة مئة ميل ، ثم نعود لنرسل رسائلنا دون ان تكشف مكاننا ، ومع كل هذا فنحن لا زلنا في قلب الحرب ، وكان هناك الكثيرين من الذين يهوون اللاسلكي ....

كانت الحرب قائمة ومشتعلة على جميع الجبهات . فاليابان هاجمت هونغ كونغ في نفس الوقت الذي قامت بهجومها الغادر على بيرل هاربور . ولم يكن عندي ادنى شك في مصيرها نتيجة للضغط الهائل الذي تقوم به القوات اليابانية . وكنت قد مانعت قبل سنة تقريبا تعزيز حاميتها ، اذ ان فقدانها هو شيء مؤكد ، وكنت ارى ان الافضل تخفيض الحامية الى عدد رمزي ، ولكني سمحت للآخرين في التغلب علـى رأيي فارسلنا بالتعزيزات الى الجزيرة ، وها هي الآن تواجه مهمة لا تقوى على احتمالها ، وقد صمدت اسبوعا كاملا ، كما انخرط في سلاح المقاومة كل من يقوى على كل السلاح في مقاومة شبه يائسة . وقد فاق احتمال الرجال المدنيين البريطانيين صلابة الحامية العسكرية . الا ان هذه الصلابة استنفدت يوم عيد الميلاد ، واصبح الاستسلام لا بد منه . وسرعان ما جابهتنا كوارث اخرى في الملايو ، اذا رافقت عمليات الانزال اليابانية في الجزيرة غارات عنيفة على مطاراتنا واصابت قوتنا الجوية الضعيفة بالشلل ، وقد دمرت مطاراتنا الشمالية واضحت غير صالحة للاستعمال . ولم ينته الشهر الحالي ، حتى كانت قواتنا التي شاركت بعدة معارك عنيفة قد اصبحت على بعد ١٥٠ ميلا من اماكنها الاصلية التي كانت فيها عندما قامت بهجومها الاول ، بينما انزل اليابانيون ثلاث فرق كاملة من ضمنها فرقة الحرس الامبراطوري . وفاقت الطائرات اليابانية التي ملأت السماء كل ما كنا نتوقعه من خسارة ، وقد دافعنا بشدة بالرغم من خسائرنا الهائلة .

* * *

كان كل فرد من افراد فريقنا يعمل دون كلل ، وكانت البارجة « الدوق اوف يورك » تواصل سيرها باتجاه الغرب ، وتركزت جميع افكارنا على الاخطار الجديدة التي تهددنا بالاضافة الى ما تخلفه هذه الاخطار من مشاكل يترتب علينا حلها . واخذنا نتطلع بلهفة شديدة مع كثير من القلق الى اول مقابلة سنجريها كحلفاء مع الرئيس الاميركي ومستشاريه السياسيين والعسكريين . وكنا نعلم قبل ان نغادر الوطن ان الهجوم المخادع على بيرل هاربور قد استفز الشعب الاميركي بأسره . وظهر لنا من التقارير الرسمية ومن مقتطفات الصحف الاميركية ، ان

غضبة الشعب الاميركي ستنصب على راس اليابان . وكنا نخشى ان لا تفهم النسبة الحقيقية للحرب ، وكنا نشعر بخطر مائل من ان الولايات المتحدة ستستأنف الحرب ضد اليابان في المحيط الهادي ، وتتركنا وحدنا لنقاتل المانيا وايطاليا في قارات اوروبا وافريقيا والشرق الاوسط .

واتجهت معركة الاطلنطي الاولى بشكل ظاهر الى جانبنا ومصلحتنا . ولم نك نشك في مقدرتنا على الابقاء على خطوطنا البحرية مفتوحة . وكنا على ثقة من ان هتلر سيهزم اذا ما حاول غزونا في جزيرتنا . وقد شجعتنا شدة المقاومة الروسية . وكان تفاؤلنا كبيرا وفي محله نتيجة لحملة ليبيا ، كما ان جميع خططنا المقبلة يتوقف عليها الاستمرار بسيل التموينات الاميركية على اختلاف انواعها ووصولها الينا ، كتلك المؤن التي هي الآن بطريقها عبر الاطلنطي . وكنا قبل كل شيء نعتمد اعتماداً كلياً على الطائرات والدبابات وعلى ما تزودنا به احواض السفن الاميركية من بواخر تجارية . وكان الرئيس روزفلت حتى اليوم ، بكونه شخصا غير محارب ، على استعداد لارسال كميات كبيرة من الاسلحة والذخيرة للقوات الاميركية المسلحة الينا ، علما ان قواته العسكرية لم تكن قد شاركت في الحرب فعليا بعد . لكن هذه العمليات ستصبح معقدة في المستقبل بعد ان اعلنت الولايات المتحدة الاميركية الحرب على المانيا وايطاليا واليابان . وبذلك ستكون الافضلية في السلاح من نصيب بلاده وحاجاتها . وكنا بعد محاولة هتلر لغزو روسيا ، قد ضحينا بالكثير من المؤن والذخائر التي كانت مصانعنا تنتجها لمعاونة الجيوش السوفياتية في دفاعها ، وقد ارسلت كذلك الولايات المتحدة الى روسيا كميات ضخمة من المؤن كان المفروض ان ترسل الينا. ولكننا وافقنا على ارسالها لروسيا بسبب اعجابنا الشديد بالمقاومة الشديدة التي ابداها الروس في دفاعهم عن بلادهم بوجه الغزاة الالمان .

ولكن كان من الصعب علينا ان نؤخر تزويد قواتنا بالسلاح اللازم لها ، وخاصة جيشنا الباسل الذي كان يخوض معارك ضارية في ليبيا ، والذي كان بحاجة ماسة الى السلاح والعتاد . وكان علينا ان نفترض ان مبدأ (الافضلية لاميركا) سيكون المبدأ الاساسي الذي ستتمسك حليفتنا به . وكنا نخاف من مضي وقت طويل قبل ان تبدأ القوات الاميركية في العمل بشكل واسع ، وان نتعرض نحن في هذا الوقت الطويل من التجهيز والاعداد الى العسر والضيق . وسيحدث هذا في وقت يفرض علينا مواجهة عدو رهيب في الملايو والمحيط الهندي وبورما والهند . ومن الظاهر ان توزيع المؤن يتطلب عناية فائقة ، لا سيما وانه سيصادف متاعب كثيرة ودقيقة في الوقت نفسه . وكان قد وصلنا نبأ يقول ان برامج الاعارة والتأجير وارسال المعدات سيتوقف في الوقت الحاضر ريثما يتم تعديلها . ومن حسن الطالع ان انتاج الذخائر والطائرات في معاملنا قد تضاعف ووصل الى المستوى المطلوب وسيصل في وقت قريب الى مستوى اضخم . ولكن في الوقت الذي كنا نبحر فيه في بارجتنا ، كنا نرى الازمات الكثيرة ماثلة أمام اعيننا وخاصة منع بعض الادوات واللوازم الضرورية التي تؤثر على كل انتاجنا . وكان اللورد بيفر بروك متفائلا ، كعادته في اوقات الازمات ، فاعلن ان امكانات الولايات المتحدة هائلة جدا وهي لا تعد ولا تحصى ، وان طاقات الشعب الاميركي بعد ان تحول الى الجهاد ستكون

اكثر مما يتصوره العقل . وهو يظن بأن الاميركيين انفسهم لا يدركوا مدى قوتهم في ميدان الانتاج . وسيتفوق المجهود الاميركي على جميع ما هناك من ارقام قياسية ، وسيكون كافيا للجميع . ولا ريب في ان اللورد بيفر بروك كان مصيبا في حكمه .

الا ان جميع هذه الاعتبارات تقلصت امام المشكلة الاستراتيجية الرئيسية . فهل سيكون باستطاعتنا اقناع الرئيس روزفلت ورؤساء اركان القوات المسلحة ان هزيمة اليابان لا تؤدي الى هزيمة هتلر ، بينما تؤدي هزيمة هتلر الى هزيمة اليابان وذلك خلال وقت قصير ؟ وقد امضينا الساعات الطوال في دراسة هذه المشكلة الخطيرة . واعد رئيس الاركان والجنرال دايل وهوليس وضباطه مذكرات عديدة تتعلق بهذا الموضوع ، كما اكدوا جميعهم بأن الحرب لا يمكن ان تتجزأ . وسيبدو لنا عما قريب ان جميع ما كنا نخشاه لم يكن له اي مبرر على الاطلاق .

* * *

وكانت هذه الرحلة ، بما فرضته علي من تخفيف اعباء الاعمال العادية ، دون جلسات وزارية نعقدها ولا اشخاص اجتمع بهم ، من استعراض احداث الحرب بصورة كاملة كما كنت اراها وأشعر بها . وتذكرت ما قاله نابليون عن قدرته على تركيز التفكير على المواضيع مدة طويلة دون ان يشعر بتعب او يحس باعياء . وحاولت ان افعل هذا بواسطة عرض افكاري ، خطيا واملائها . ورغبة مني في تهيئة نفسي لمقابلة الرئيس ، وللمحادثات مع الاميركيين ، وللتأكد من وجود رئيسي الاركان باوند وبورتال معي بالاضافة الى الجنرال ديل ، ومن التثبت من الحقائق في الوقت المناسب بواسطة الجنرال هوليس وموظفي السكرتارية ، فاعددت ثلاث مذكرات ، عن مجرى الحرب في المستقبل كما ارى وجوب سيرها . وقد استغرق العمل في كل مذكرة اربع ساعات او خمسا ، يوميا لمدة ثلاثة ايام على التوالي . ولما كانت الصورة كلها مرتسمة في ذهني ، فان اعداد هذه المذكرات تم بكل سهولة وان كان ببطء . وعندما كنت انتهي من كل وثيقة بعد ان اعود الى تدقيقها كنت ابعث بها الى زملائي المحترفين كتعبير عن آرائي الخاصة . وكانوا بدورهم يعدون مذكرات من جانبهم لمؤتمرات الاركان المشتركة . وقد سرني حين وجدت ان الانسجام قائما بين المذكرات التي اعددتها وبين مذكرات القادة العسكريين، على الرغم من ان آرائي تبحث النواحي العامة وآرائهم تبحث النواحي الفنية ، وذلك بالنسبة الى المبادىء والقيم . ولم تقع اية خلافات ادت الى قيام مناقشات ، ولم تتطلب الا بعض الحقائق تصحيحا لها . وهكذا على الرغم من ان ايا منا لم يتقيد بصورة متزمتة او دقيقة ، فقد وصلنا جميعا نحمل مجموعة من العقائد ذات طابع انشائي كنا كلنا على اتفاق بصددها .

وتضمنت المذكرة الاولى الاسباب التي تحملنا على ان نجعل هدف حملاتنا في عام ١٩٤٢ في المسرح الاوروبي احتلال جميع سواحل افريقيا والشرق الادنى من داكار الى الحدود التركية ، بقوات بريطانية وامريكية : وتناولت المذكرة الثانية الاجراءات التي يجب اتخاذها لاعادة السيطرة على

المحيط الهادي ، وحددت ايار عام ١٩٤٢ ، كالشهر الذي يمكن فيه تحقيق هذه الغاية . واسهبت في الحديث بصورة خاصة عن ضرورة مضاعفة عدد حاملات الطائرات ، والاسراع في انتاجها بأعداد وافرة ، وحددت المذكرة الثالثة كهدف نهائي تحرير اوروبا بانزال جيوش بريطانية واميركية ضخمة، في اية منطقة يعتقد انها خير مكان لمثل هذا الانزال في المناطق التي تحتلها المانيا ، وحددت عام ١٩٤٣ ، كموعد لتوجيه هذه الضربة العظيمة .

وقد رويت قصص عدة ، في كتب ومقالات ، عن كراهيتي العميقة لعمليات واسعة النطاق في القارة ، حتى بات من المهم ان أروي الحقيقة وأؤكدها . فقد كنت اعتبر دائما ان الهجوم الحاسم على البلاد التي تحتلها المانيا في اوروبا وعلى نطاق واسع هو السبيل الوحيد لكسب الحرب وكنت اري اختيار صيف عام ١٩٤٣ ، كهدف للقيام بهذا الهجوم . وكنت منذ نهاية عام ١٩٤١ ، اقدر ان هذه العملية المرتقبة ، تحتاج الى اربعين فرقة مدرعة ، والى نحو من مليون جندي من القوات الاخرى وذلك في المرحلة البدائية . وعندما الاحظ عدد الكتب التي صدرت والتي تفترض بصورة خاطئة انني لم اكن أؤيد غزو القارة ، ارى ان الفت نظر القارىء الى هذه الوثائق الصحيحة والرسمية ، التي كتبتها في هذا الوقت والتي سنعود الى الحديث عنها فيما بعد .

وقد قدمت هذه المذكرات الثلاث الى الرئيس قبل عيد الميلاد واوضحت له انها بالرغم من تعبيرها عن آرائي الشخصية ، الا انها لا تتعدى نطاق الاتصالات الرسمية التي جرت بين ضباط اركاننا . وكنت قد وضعتها في شكل وثائق مقدمة الى لجنة رؤساء اركان الحرب البريطانيين . وقلت له ايضا ، انني لم ارغب في اطلاعه عليها فحسب ، بل رأيت ان من المهم ان يعرف شيئا مما يدور في رأسي ، ومما اريد ان افعله ، ومما ستحاول بريطانيا العظمى من ناحيتها أن تنفذه . وقد قرأها الرئيس فور تسلمه لها وسألني في اليوم التالي اذا كان في امكانه الحصول على نسخ منها . وبالطبع وافقت على ذلك بمنتهى السرور .

وشعرت بأن الرئيس كان يفكر في نفس الخطوط التي كنت افكر فيها بالنسبة الى الاعمال في الشمال الافريقي الفرنسي . وها نحن قد غدونا الآن حلفاء ، ويجب ان نعمل بالاشتراك وعلى نطاق واسع . واصبحت واثقا من انني والرئيس سنجد مجالا فسيحا للاتفاق ، وان الارض ممهدة تمام التمهيد لذلك . وهكذا غدوت متفائلا ، وحصلت كما سيرى القارىء على موافقة الرئيس النهائية على القيام بحملة اطلقنا عليها اسم « عملية المشعل » في افريقيا الشمالية ، وقد قدر لها ان تكون اول هجوم برمائي عظيم نقوم به بالاشتراك معا .

وبينما من الحيوي جدا ان نضع الخطط للمستقبل ، ومن المحتمل احيانا ان نتكهن بنتائجه من بعض النواحي ، الا ان من المتعذر تحديد الاوقات المعينة لمثل هذه الاحداث العظيمة التي قد تتعطل او تتأخر نتيجة عمل العدو او ضرباته المقابلة . ولقد حققنا جميع الاهداف التي وضعتها في المذكرات الثلاث عن طريق القوات البريطانية والاميركية . ولكن آمالي بأن يتمكن الجنرال اوكنلك من تطهير ليبيا قبل شباط عام ١٩٤٢ ، قد منيت بالفشل . فقد مر بسلسلة من الانتكاسات الباعثة على الالم ، والتي

سأشرحها عما قريب . وشجع هذا الانتصار هتلر ، فقرر القيام بمجهود واسع النطاق لاحتلال تونس ، وسرعان ما بعث بنحو من مائة الف جندي من قواته الجديدة عبر ايطاليا والبحر الابيض المتوسط . وهكذا تحتم على الجيوش البريطانية والاميركية ان تخوض حملات اطول واضخم في افريقيا الشمالية مما تصورت في البداية . وهكذا فرض تأخر لا يقل عن اربعة شهور على البرنامج الموضوع ، ولم تتمكن قواتنا الحليفة من تحقيق السيطرة على جميع ساحل افريقيا الشمالية من تونس الى مصر ، حتى شهر ايار من عام ١٩٤٣ ، ولهذا لم يكن في الامكان تحقيق المشروع الاعظم لعبور قناة المانش وتحرير فرنسا . وهو المشروع الذي كنت اعمل لتحقيقه واتطلع اليه بفارغ الشوق ، في ذلك الصيف ، وتقرر تأجيله تبعا لذلك عاما كاملا ، أي حتى صيف عام ١٩٤٤ .

وقد اقنعتني المعلومات التي حصلنا عليها بعد الحرب ، والتفكير الطويل فيها ، باننا كنا سعداء الحظ جدا ، لخيبة الامل التي لحقت بنا بالنسبة لتوقيت خططنا . فتأجيل عام كامل في موعد الغزو قد انقذنا مما كنا سنتعرض له من مخاطر هائلة ، ومن كارثة محتملة تهز العالم بأسره بأصدائها . ولو كان هتلر حكيما لو فر على نفسه الخسائر التي مني بها في شمال افريقيا ولواجهنا في عام ١٩٤٣ في فرنسا ، بضعف القوات التي واجهنا بها في عام ١٩٤٤ ، وقبل ان تكون الجيوش الاميركية التي تم امدادها حديثا ، قد وصلت الى ما وصلت اليه من نضوج وتفوق ، وقبل ان تكون تلك الاساطيل الضخمة من سفن الانزال والموانىء العائمة قد تم صنعها . وانا واثق الآن ، بأن عملية « المشعل » لو انتهت كما خططت لها ان تنتهي في عام ١٩٤٢ ، أو حتى لو لم نحاولها مطلقا ، وقمنا بمحاولتنا لعبور المانش في عام ١٩٤٣ ، لمنينا بهزيمة قاتلة من الطراز الاول كان في امكانها ان تترك اثرا لا يقدر على نتيجة الحرب كلها . وقد ازداد ادراكي لهذه الحقيقة طيلة عام ١٩٤٣ ، وتقبلت كشيء لا مناص منه ، تأجيل عملية « السيد الاكبر » ، على الرغم من تفهمي تمام التفهم لما كان يحس به حلفاؤنا السوفيات من غضب وسخط .

***

وكان من المقرر ان نمخر عباب البوتوماك ، ونصل الى البيت الابيض ولكن صبرنا كان قد نفد بعد عشرة ايام في البحر ، وكنا تواقين الى انهاء رحلتنا . ولهذا اتخذنا العدة للطيران من « هامبتون رودز » ، وهبطنا بعد تخييم الظلام في الثاني والعشرين من كانون الاول في مطار واشنطن . كان الرئيس ينتظرنا هناك في سيارته . وقبضت على يده القوية اهزها براحة وسرور . وسرعان ما وصلنا الى البيت الابيض الذي غدا بيتنا في كل ناحية من النواحي طيلة الاسابيع الثلاثة التالية ، وهنا رحبت بنا السيدة روزفلت التي لم تترك وسيلة الا اتبعتها لتضمن لنا الراحة .

وعلي ان اعترف هنا ان عقلي كان مشغولا للغاية في هذه الفترة بدوامة الاحداث ، وبالمهام الشخصية التي كان علي ان انفذها ، حتى ان ذاكرتي لم تع على الرغم من ايقاظها الا ذكريات غامضة عن تلك الايام . لقد كان المظهر البارز بالطبع اتصالاتي بالرئيس . فقد كنا نرى بعضنا عدة

ساعات كل يوم ، وكنا نتناول الغداء معا وثالثنا هاري هوبكنز . ولم تكن احاديثنا تتعدى حدود العمل ، وتوصلنا الى الكثير من الاتفاق على عدد من النقاط ، صغيرها وكبيرها . امـا فرصة العشاء فكانت مناسبة اجتماعية ، ولكنها ودودة ايضا ومقتصرة على عدد صغير من الناس . كان الرئيس يقوم باعداد اقداح الكوكتيل الاولية بنفسه ، وكنت اقوده بمقعده من غرفة الجلوس الى المصعد . كدليل على الاحترام ، واتصور السير وولتر رالي ، وهو ينشر عباءته امام الملكة اليزابيت ، وتكون في نفسي حب قوي جارف نما مع سنوات الزمالة الطويلة لهذا السياسي القوي ، الذي فرض ارادته اكثر من عشر سنوات على المسرح الاميركي ، والذي كان فؤاده يستجيب للكثير من الحوافز التي كانت تستثيرني . ولما كنا نحن الاثنين بحكم العادة او الضرورة مرغمين على القيام بمعظم اعمالنا ونحن في الفراش ، فقد كان يأتي لزيارتي في غرفتي عندما يشعر بالميل الى ذلك ويشجعني على زيارته في غرفته . وكانت غرفة هوبكنز امام غرفتي التي انا مقيم فيها والى جانبها غرفة الخرائط التي اعدت لي بسرعة . وقد اهتم الرئيس بالغ الاهتمام بهذه الغرفة التي اتقن الكابتن بيم اعدادها . وكان يحب ان يأتي وان يدرس بعناية الخرائط الكبيرة لجميع مسارح الحرب التي سرعان ما اصبحت تغطي جميع الجدران والتي تبدو عليها جميع حركات الجيوش والاساطيل بوضوح ودقة وجلاء . ولم يمض طويل وقت حتى كان الرئيس قد اعد لنفسه غرفة خرائط من الطراز الاول .

ومرت الايام وكنا نحسبها بالساعات . وسرعان ما ادركت ان علي بعد عيد الميلاد مباشرة ان اخطب في كونغرس الولايات المتحدة ، وبعد ايام اخرى في برلمان كندا في اوتاوه . وتفرض مثل هذه المناسبات الكثير من الاعباء على حياتي وقواي ، وكانت بالاضافة الى ما نعقده من مشاورات يومية ، وما اقوم به من اعباء عادية ، ولا ادري كيف مررت بكل هذه الامور .

واقتصر عيد ميلادنا على احتفالات بسيطة ، فقد اقيمت شجرة عيد الميلاد التقليدية في حديقة البيت الابيض ، والقيت انا والرئيس خطابين قصيرين من الشرفة على الجماهير الكبيرة التي احتشدت في الظلام . ومضيت مع الرئيس الى الكنيسة يوم الميلاد ، وشعرت بالهدوء الروحي في الصلاة البسيطة ، وتمتعت بالاشتراك في انشاد الاناشيد المعتادة ، ونشيد « آه يا بلدة بيت لحم الصغيرة » الذي لم اكن قد سمعته من قبل ، ولا ريب انه كان ثمة الكثير من المناعة لحماية ايمان كل من يعتقد بالملكوت الروحي في العالم .

* * *

واديت واجب القاء الخطاب في مجلس « كونغرس » الولايات المتحدة بمزيد من الاثارة القلبية . وكانت المناسبة مهمة بالنسبة الى ما آمنت بانه التحالف الغالب للشعوب الناطقة بالانكليزية . ولم يسبق لي قبل ذلك اليوم ان القيت خطابا في برلمان اجنبي . ولكن بالنسبة الي ، والى ما ادعيه من دم اميركي يسري في عروقي عن طريق الجد الخامس لامي الذي كان ملازما في جيش جورج واشنطن ، فقد شعرت بشيء من الحق في ان اتكلم

الى ممثلي الجمهورية العظيمة حول موضوع قضيتنا المشتركة ولا ريب في انه كان من الغريب ان تسير الامور على هذا النحو ، واحسست مرة ثانية ، بانه قد يكون لي العذر ، في انني استخدمت ، رغم عدم جدارتي ، في خطة مقررة .

وقضيت طيلة يوم عيد الميلاد اعد خطابي . ورجا لي الرئيس حظا طيبا عندما مضيت في السادس والعشرين من كانون الاول في رعاية رئيسي مجلسي الشيوخ والنواب من البيت الابيض الى دار الكابيتول . وبدا لي ان هناك حشودا كبيرة من الناس على جانبي الطريق ولكن اجراءات الامن التي تفوق في دقتها في اميركا ، ما الفناه في بريطانيا ، ابقت هؤلاء الناس بعيدين عن الطريق بينما كانت تحيط بسيارتي سيارتان او ثلاث ملأى برجال الشرطة المسلحين احسن تسليح وهم في ملابسهم العادية . وعندما خرجت من السيارة اردت ان امشي الى جماهير الهاتفين لاحييهم تحية الاخوة ، ولكن حراسي رفضوا السماح لي بذلك . وعندما دخلنا الى القاعة ، كان المنظر عظيما ومؤثرا ، وكانت القاعة نصف الدائرية ، التي اراها عبر مجموعات من مكبرات الصوت ، مكتظة بالناس .

وعلي ان اعترف ، بانني لم اشعر باي ارتباك ، وكنت واثقا من نفسي هذه المرة ، اكثر من مرات عدة ، ظهرت فيها امام مجلس العموم . واستقبل الحاضرون ما قلته بمنتهى اللطف والعناية . وقد تلقيت من المستمعين ما كنت اتوقعه من هتاف وضحك ، تماماً في النقاط التي كنت اريد هذا الهتاف او الضحك فيها . وكان أعلى رد فعل منهم ، عندما كنت اتحدث عن الهجوم الياباني فقلت : « ترى اي نوع من الناس يعتقدون اننا منه ؟ » وتفجرت من جميع انحاء الجمعية الجليلة جميع مشاعر القوة والعزيمة المتمثلة في الامة الاميركية . فهل من يشك في أن كل شيء سيسير سيراً مرضيا ؟ وعندما انتهيت خرج معي رئيسا المجلسين الى المكان الذي كانت تقف فيه الجماهير محيطة بالبناء ، لاحييها تحية قلبية ، وسرعان ما اقبل رجال دائرة المخابرات في سياراتهم فطوقوني وعادوا بي الى البيت الابيض، حيث كان الرئيس ، وقد اصغى الى خطابي كله ، فهنأني على نجاحي .

* * *

وسافرت بالقطار ليلة ٢٨ ــ ٢٩ كانون الاول الى اوتاوه لاحل ضيفا على الحاكم العام اللورد اثلون . وشهدت في التاسع والعشرين اجتماعا لوزارة الحرب الكندية . وبعد قليل قدمني المستر مكنزي كينغ رئيس الوزراء الى زعماء المعارضة من حزب المحافظين وتركني معهم . ورأيت هؤلاء السادة يلتهبون ولاء وتصميما ، ولكنهم يشعرون ببعض الالم ، لان الحظ لم يشأ أن يشرفهم بشن الحرب هم انفسهم ، وشاء ان يحملهم الى ان يصغوا الى الكثير من العواطف التي يعبر عنها خصومهم الاحرار الآن بعد ان كانوا هم الذين رفعوا لواءها طيلة حياتهم .

وتحدثت في الثلاثين من كانون الاول الى البرلمان الكندي . وكان اعداد هذين الخطابين اللذين القيتهما عبر الاطلنطي ، واللذين اذيعا على العالم قاطبة ، في غمرة كل ما كان علي من عمل تنفيذي لم يتوقف لحظة

واحدة ، امرا مجهدا كل الاجهاد . وليس الالقاء بالعبء الثقيل على السياسي المخضرم ، ولكن الاختيار ، وانتقاء ما يجب ان يقال ، وما يجب ان لا يقال في مثل هذا الجو المكهرب ، عملية شاقة . وقد بذلت طاقتي . ولعل اكثر نقطة لاقت نجاحا في خطابي الكندي ، كانت تلك المتعلقة بحكومة فيشي التي كانت كندا لا تزال تحتفظ معها بعلاقات دبلوماسية فقد قلت :

« لقد كان من واجبهم في عام ١٩٤٠ ، وكان من مصلحتهم ان يذهبوا الى شمال افريقيا ، حيث يظلون على رأس الامبراطورية الفرنسية . وكان بامكانهم ان يحتفظوا في افريقيا ، بمساعدتنا ، بقوة بحرية متفوقة . وكان في وسعهم أن ينالوا اعتراف الولايات المتحدة وان يستخلصوا جميع الذهب الذي كان مودعا لهم وراء البحار . ولو فعلوا هذا آنذاك ، لكان من المحتمل اخراج ايطاليا من الحرب قبل نهاية عام ١٩٤٠ ، ولكان في وسع فرنسا ان تحتل مكانها في مجالس الحلفاء وفي مؤتمر الصلح بين المنتصرين . ولكن قادتهم العسكريين ضللوهم . وعندما حذرتهم بأن بريطانيا ستقاتل وحدها على الرغم من ما قد يفعلونه ، قال قادتهم العسكريون لرئيس وزرائهم ولمجلس وزرائهم المنقسم على نفسه : « بعد ثلاثة اسابيع ستقطم رقبة انكلترا وكأنها دجاجة » . ولكن اية دجاجة قطم راسها ! واية رقبة ! » .

كان هذا رائعا ، واستشهدت لاعود الى الماضي بالاغنية التي وضعها السير هاري لودر عن الحرب الماضية والتي مطلعها :

« لو تطلعنا جميعا الى تاريخ الماضي لامكننا ان نقرر اين نقف » .

وكنت قد كتبت في اوراقي عند الاشارة اليه عبارة « ذلك الكاتب الساخر العظيم » . وهنا داهمتني فكرة « الشاعر الموسيقار » . وكاتب فكرة رائعة . ولا ريب انه يسمعني وسيسر بهذا التعبير ، وكم سرني انني وجدت الكلمة المناسبة حقا ، لهذا الشاعر الذي استطاع بأناشيده الملهمة وحياته الباسلة ان يقدم خدمات لا تعد ولا تحصى لشعبه الاسكوتلندي ولامبراطوريته البريطانية .

وكنت محظوظا في توقيت خطبتي في واشنطن واوتاوه . فقد جاءنا في الوقت الذي كان في امكاننا جميعا ان نحتفل فيه بانشاء الحلف الاعظم ، بكل ما لديه من احتمالات القوة الهائلة ، وقبل ان يسقط علينا ذلك الجلمود الكبير من الدمار على ايدي الهجوم الياباني الذي اعد اعدادا رائعا منذ مدة طويلة . وبينما كنت اتحدث بلهجة الواثق المطمئن ، كنت اكاد احس بالسياط المتوقعة ستنهال عما قريب على اجسادنا العارية . وكان علينا جميعا ، بريطانيا وهولنده ، والولايات المتحدة ، ان ندفع جزيات مخيفة في المحيطين الهندي والهادي ، وفي جميع الجزر والاراضي الآسيوية التي تتدفق عليها موجاتهما . فامامنا فترة غير محدودة من الكوارث العسكرية ، وعلينا ان نتحمل اشهرا طويلة من الظلام والاجهاد والهزيمة ، قبل ان يطلع علينا الضوء من جديد . وعندما عدت بالقطار الى واشنطن عشية رأس السنة ، طلب الي ان امضي الى العربة الملأى بكبار رجال الصحافة في الولايات المتحدة . ولم اكن مغرقا في الخيال عندما تمنيت لهم عاما جديدا ميدا وانا اقول : « لنشرب نخب عام ١٩٤٢ ، عام التعب

والجهد ، والكفاح والخطر ، والخطو البعيد في طريق النصر ، فلياخذ الله بيدنا جميعا فيه ، لنخلص منه بشرفنا وسلامتنا » .

* * *

كان المشروع الاول الذي قدمه الرئيس روزفلت الي فور وصولي من امريكا ، وضع بلاغ جليل الشأن ، توقعه جميع الدول المشتبكة في حرب مع المانيا وايطاليا او اليابان . وقد اعدت مع الرئيس الاساليب التي اتبعناها في صياغة شرعة الاطلنطي ، فأعددنا مسودات البيان ، ثم دمجناها مع بعضها . وقد كنا على اتفاق كامل من ناحية المبدأ والعاطفة حتى وفي اللغة ايضا . وسرعان ما بوغتت وزارة الحرب ، ودهشت من النطاق الذي اعددنا فيه الحلف الاعظم . وتبودلت الرسائل بسرعة ، واثيرت بعض النقاط والمصاعب بصدد الحكومات والسلطات التي يجب ان توقع هذا الاعلان ، وترتيبها . وقد تنازلنا بسرور عن مكان الصدارة الى الولايات المتحدة . وعندما عدت الى البيت الابيض من كندا ، كان كل شيء قد أعد لتوقيع ميثاق الامم المتحدة . وتبودلت البرقيات بين واشنطن ولندن وموسكو ، ولكن كل شيء قد تقرر الآن . وقد بذل الرئيس كل ما لديه من جهد لاقناع لتفينوف ، السفير السوفياتي ، الذي عاد الى الظهور بعد تبدل الاحداث ، لقبول عبارة « الحرية الدينية » ، وقد دعي لتناول الغداء معنا في غرفة الرئيس خصيصا لهذه الغاية . ولكن كان هذا الرجل بعد التجارب الشاقة التي مر بها في بلاده ان يكون حريصا كل الحرص . ودار حديث طويل بينه وبين الرئيس عن الروح وعن عذاب جهنم . ولعل الوصف الذي تلاه الرئيس علينا في مناسبات عدة عما دار بينه وبين السفير الروسي كان مؤثرا كل التأثير . وقد وعدت المستر روزفلت في احدى هذه المناسبات باني سأوصي بتعيينه رئيسا لاساقفة كنتربري في حالة فشله في انتخابات الرئاسة المقبلة . لكنني على اي حال لم اقدم مثل هذه التوصية لا الى الملك ولا الى مجلس الوزراء ، لان الرئيس كسب معركة الانتخابات في عام ١٩٤٤ . ونقل لتفينوف ، وهو يرتعد فرقا قضية « الحرية الدينية » الى ستالين ، فقبلها كأمر واقع ، واضافت وزارة الحرب البريطانية عبارة « الضمان الاجتماعي » . وهي عبارة وافقت عليها بوصفي واضع اول قانون ضد البطالة . وتم الاتفاق بعد اسبوع من تبادل البرقيات مع جميع انحاء العالم على « الحلف الاعظم » .

ونقل الرئيس في مقعده المتحرك الي في صباح الاول من كانون الثاني وخرجت من الحمام ووافقت على المسودة . وليس في وسع البيان وحده ان يكسب المعارك ولكنه اوضح من نحن ، ولماذا نحارب . وفي ساعة متأخرة من ذلك اليوم وقع روزفلت وانا ولتفينوف وسونغ ممثلا الصين هذه الوثيقة الجليلة في مكتبة الرئيس عهد الى وزارة الخارجية الاميركية بان تجمع تواقيع الاثنين والعشرين دولة الباقية . وارى ان نسجل هنا الصيغة النهائية للوثيقة :

« اعلان مشترك مـــن الولايات المتحدة الاميركية والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندة ، واتحاد الجمهوريات السوفياتية

الاشتراكية ، والصين ، واوستراليا ، وبلجيكا ، وكوستاريكا ، وكوبا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وجمهورية الدومنيكان ، السلفادور ، واليونـان ، وغواتيمالا ، وهايتي ، وهندوراس ، والهند ، ولكسمبورغ ، وهولنده ، وجنوب افريقيا ، ويوغوسلافيا ، تعلن الحكومة الموقعة ادناه ، والمذكورة اعلاه . . .

« انها لما كانت قد اسهمت في برنامج مشترك للاهداف والمبادىء التي تضمنها البيان المشترك الصادر عن رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، ورئيس وزراء المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلنده والمؤرخ في الرابع عشر من آب عام ١٩٤١ ، والمعروف بشرعة الاطلنطي .

« واقتناعا منها بأن النصر النهائي على اعدائها ، ضروري للدفاع عن الحياة والحرية والاستقلال والحرية الدينية ، والحفاظ على الحقوق الانسانية والعدالة في بلادها وفي غيرها من البلدان ، ونتيجة لاشتراكها الآن في صراع مشترك ضد قوى الوحشية التي تحاول استبعاد العالم ، تعلن :

« ١ ـ تتعهد كل حكومة باستخدام جميع مواردها العسكرية والاقتصادية ضد اعضاء الميثاق الثلاثي ، والدول المنضمة اليه والتي تشتبك هذه الحكومة في حرب معها .

« ٢ ـ تتعهد كل حكومة بالتعاون مع الدول الموقعة على هذه الوثيقة، وبأن لا تعقد هدنة منفردة او صلحا منفردا مع العدو .

« يمكن للدول الاخرى ان تنضم الى هذا الاعلان شريطة ان تكون هذه الدول مسهمة اسهاما ماديا ، في الكفاح للانتصار على الهتلرية » .

وقد يرى مؤرخو المستقبل ان اهم نتيجة وصل اليها مؤتمرنا الاول في واشنطن ، الذي اطلق عليه اسم « اركاديا » ، واخلدها اثرا ، هي اقامة ما اشتهر اسمها « بلجنة رؤساء اركان الحرب المشتركة » . وقد تقرر ان يكون مقرها في واشنطن . ولما كان وجود رؤساء اركان الحرب البريطان ، على مقربة من حكومتهم ضروريا ، فقد رؤي ان يمثلهم في واشنطن عدد من كبار الضباط يجعلون من العاصمة الاميركية مستقرا لهم . وكان هؤلاء الممثلون على اتصال يومي ، بل بين كل ساعة واخرى بلندن ، وكان في وسعهم ان يعربوا عن آراء رؤساء اركان الحرب البريطان ويوضحوها الى زملائهم الاميركان ، حول اية مشكلة تتعلق بالحرب ، وفي كل وقت من اوقات النهار او الليل وكانت المؤتمرات المألوفة التي عقدت في اماكن مختلفة من العالم كالدار البيضاء وواشنطن وكويبك وطهران والقاهرة ومالطة والقرم ، قد جمعت بين الرؤساء انفسهم مدات تطول احيانا الى حدود الاسبوعين . وكان نحو من تسع وثمانين جلسة من مجموع المائتي جلسة رسمية التي عقدتها لجنة رؤساء اركا نالحرب المشتركة طيلة الحرب ، قد عقدت اثناء هذه المؤتمرات وفي هذه الجلسات اتخذت معظم القرارات الهامة .

وكان الاجراء المعتاد ان تعقد كل لجنة من لجان رؤساء اركان الحرب للدولتين اجتماعا على انفراد في الصباح . ثم يجتمع الفريقان اثناء

النهار ، فيصبحان لجنة واحدة ، وقد تعودان الى الاجتماع بصورة مشتركة في المساء . ويدرس المجتمعون ، سير الحرب العامة ، ويقدمون توصيات متفق عليها الى الرئيس والي . وفي غضون ذلك استمرت اتصالاتنا المباشرة ، نحن الاثنين ، طبعا أما عن طريق الهاتف او البرق ، وكنا بدورنا ندرس في جلسات تمهيدية ، ثم تصدر الاوامر على ضوء ذلك الى قادة الميدان . ومهما كان الخلاف حادا في وجهات النظر في لجنة رؤساء اركان الحرب المشتركة ، ومهما كان النقاش صريحا وحامياً ، فان الولاء المخلص للقضية المشتركة كان يتغلب على المصالح الشخصية او حتى القومية . وعندما تصل القرارات الى رئيسي الحكومتين فيوافقان عليها ، فان الجميع يسيرون في تنفيذها باخلاص مطلق ولا سيما اولئك الذين جاءت القرارات مخالفة لوجهات نظرهم الاولى . ولم يحدث قط ان فشلنا في الوصول الى اتفاق فعال على العمل ، او الى ارسال تعليمات واضحة الى القادة في كل ميدان . وكل قائد منفذ كان يعرف ان هذه الاوامر التي يتلقاها ، تحمل معها مفاهيم الحكومتين المشتركة وسلطة خبرائهما . ولم يحدث قط ان اقيم بين اي حلفاء جهاز حربي عملي كجهازنا ، وانني لمسرور ان الجهاز مستمر فعلا أن لم يكن شكلا حتى يومنا هذا .

ولم يكن الروس ممثلين في لجنة رؤساء اركان الحرب المشتركة . لقد كانت جبهتهم بعيدة وحيدة مستقلة ، ولم تكن هناك حاجة ولا سبيل لاندماج بين أركان الحرب . وكان يكفي ان نعرف الاتجاه العام لحركاتهم وموعدها ، وان يعرفوا هم اتجاه حركاتنا وموعدها . وقد حافظنا من هذه الناحية على اكبر قدر من الاتصال الوثيق بهم بقدر ما سمحوا هم لنا به . وكان رؤساء اركان الحرب للدول الثلاث ، يجتمعون حول مائدة واحدة في المؤتمرات المشتركة التي عقدناها في طهران ويالطة وبوتسدام .

مؤتمـر كازابلانكـا

بما ان اقرار عملية « المشعل » قد وضع حدا لكل امل في القيام بعملية عسكرية رئيسية لعبور قناة المانش في فرنسا المحتلة عام ١٩٤٣ ، وهو ما ايدته الدوائر العليا ، واقتنع به الرأي العام العسكري الامريكي كافة .

ولما كنت غير ميال لتأييد هذا الراي ، لاني كنت لا أزال آمل في ان تسقط دويلات الشمال الافريقي (الفرنسي) بما فيها تونس ، بعد قتال لا يتعدى بضعة اشهر ، وفي مثل هذه الحالة قد يصبح غزو فرنسا المحتلة شيئا محتملا في شهر تموز او شهر آب عام ١٩٤٣ .

لهذا فقد كنت أود ان ارى اعداد القوة العسكرية الامريكية في بريطانيا يسير جنبا الى جنب مع عملية « المشعل » وذلك طبق أمكانياتنا الملاحية . وكانت مستلزمات الحرب تقتضينا أن نخوضها بكل قوتنا ، حتى نرغم العدو على اتخاذ موقف الاهبة والاستعداد لتلقي الضربات التي تنهال عليه منا . وسوف تقرر الأحداث وحدها ما اذا كان من حظنا أن نعبر القناة ، أو أننا سنتابع السير وراء طبيعة قواتنا في البحر المتوسط ، أو نقوم بالعمليتين في وقت واحد .

وكان من الضروري لمصلحة العمليات الحربية في جملتها ـ ولا سيما لمساعدة روسيا وعونها ـ ان تدخل جيوش بريطانيا وأمريكا من الغرب أو من الشرق في السنة القادمة .

وكان هناك خطر من الا نتمكن من القيام بأي عمل من العملين في السنة نفسها ، فحتى لو سارت حملتنا ـ لاحتلال الجزائر وتونس ـ سيرا مرضيا وسريعا فاننا سنجد انفسنا مضطرين للموافقة على احتلال سردينيا او صقلية ، أو كليهما وان نؤجل عبور المانش حتى عام ١٩٤٤ ، وقد يعني هذا اضاعة عام كامل على الحلفاء الغربيين ، مع وجود نتائج قد تكون قاضية لا بالنسبة على وجودنا ، بل الى النصر الحاسم ، ولم نكن على استعداد لان نخسر خمسمائة الف او ستمائة الف طن من الحمولة الملاحية في كل شهر الى ما لا نهاية ، وكان أمل المانيا الوحيد أن ترانا في حال من التوقف والجمود .

وكان رؤساء أركان الحرب البريطانيون يدرسون جميع هذه الخطط حتى قبل أن نعرف نتائج معركة العلمين ، أو ما سوف يحدث لحملة « المشعل » وقبل أن تظهر نتائج المعركة الرهيبة الدائرة من أجل احتلال مداخل القوقاز ، وكان واضعو الخطط الحربية مشغولين معهم أيضا ، وكانت تقاريرهم في رأيي سلبية وكنا على جانبي المحيط الاطلنطي ندنو من مرحلة جمود مشتركة .

وكانت القيادة البريطانية تؤيد الاتجاه الى البحر الابيض المتوسط والقيام بهجوم على سردينيا وصقلية مستهدفا ايطاليا ، امـا خبراء الولايات المتحدة فقد فقدوا كل امل في عبور القناة في عام ١٩٤٣ ، الا انهم في الوقت نفسه كانوا غير راغبين في اقحام انفسهم « في منطقة البحر الابيض » في مشروعات قد تحول بينهم وبين تحقيق مشروعهم العظيم في عام ١٩٤٤ .

هذا وقد كتبت في شهر تشرين الثاني اقول : (يبدو لي أن مخاوف الامريكيين جميعها ستتضاعف بالنسبة لمخاوف البريطانيين ، وهـي مخاوف يسهم فيها كل فرع من فروع قواتنا المسلحة اسهاما فعالا) .

وسيقال دون شك ، أن سير الاحداث قد برهن على أن نظرتي الى الآمال المترتبة على الاحتمالات في الشمال الافريقي كانت مغرقة في التفاؤل ، وأن القيادة الامريكية كانت على حق في الاعتقاد بأن قرار « المشعل » الذي اتخذناه في شهر تموز ، قد أغلق الطريق على احتمال نجاح عبور القناة في عام ١٩٤٣ ، وبالفعل كان هذا ما حدث تماما .

ولم يكن من المتوقع في هذا الوقت ان يبذل هتلر مجهودا كبيرا في تعزيز الجناح التونسي ، حيث ارسل مـا يزيد على مائة الف مـن خيرة جنوده بطريق الجـو والبحـر ، وذلك علـى الرغم من الخسائر الفادحة التي منى بها ، وكان هذا العمل من جانبه خطأ استراتيجيا جسيما ، وكانت خطوته هذه سببا في تأخير انتصارنا في افريقيا عدة اشهر ، ولو انه حافظ على القوات التي تـم أسرها في شهر أيار لكان بامكانه ان يعزز بها جبهته المتدهورة في روسيا ، او يحشد جزءا منها في نورماندي تؤخرنا عن الزحف حتى لو قررنا النزول في عام ١٩٤٣ .
وليس هناك الآن من يشك في أن القرار الذي اتخذناه بالانتظار حتى عام ١٩٤٤ كان قرارا حازما .

واني لاشعر بارتياح لانني لم اخدع ستالين أو اضلله ، فقد بذلت كل مـا وسعني مـن جهد ، ومن جهة اخرى ، فلـو اننا غزونا البـر الاوروبي من البحر الابيض المتوسط في المرحلـة المقبلة ، واصبحت الجيوش الانجليزية الامريكية في حالة اتصال كامل مع العدو ، فانني كنت راضيا بما سيفرضه القضاء والقدر .

وقد قدر لنا أن نصاب بنكسة وتوقف في الشمال الافريقي ، وعلى الرغم من اننا كنا نتمتع بعنصر المباداة والمباغتة ، الا أن اعداد قوتنا كان بطيئا بسبب قيود الملاحة الشديدة التـي فرضت علينا ، وكانت عمليات التفريغ تتعرض لغارات جوية عنيفة في مينائي الجزائر وعنابه ، كما كنا نفتقر الى وسائل النقل البري ايضا ، وكان الخط الحديدي الوحيد على الساحل الذي يمتد الى مسـافة خمسمائة ميل في وضع سيء للغاية ، اذ يمتد فوق مئات الجسور الكبيرة والصغيرة التي يمكن تدميرها ونسفها هذا وقد بدات مقاومة عنيفة من الطراز الاول عندما وصلت اعداد كبيرة من جنود المانيا الى تونس بطريق الجو ، وكان عدد الجنود الفرنسيين الذيـن انضموا الآن الـى جانبنا لا يقل عن مائة

الف ، وكان معظمهم من جنود المستعمرات ، وهم محاربون ممتازون ولكنهم يفتقرون الى العتاد الجيد والتنظيم والادارة .

هذا وقد دفع الجنرال ايزنهاور الى الامام بكل ما تحت امرته من وحدات امريكية ، ودفعنا نحن بكل ما لدينا من قوة ، وقد تمكن لواء بريطاني من المشاة في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني «بمعونة بعض رجال الفرقة الامريكية المدرعة الاولى » من الوصول الى الحديدة ، التي تقع على بعد اثني عشر ميلا من تونس ، وكان هذا ذروة معركة الشتاء .

وحل الآن فصل الامطار ، واخذت السماء تمطر مدرارا ، حتى اصبحت مطاراتنا المؤقتة غير صالحة لهبوط الطائرات اطلاقا ، وكان سلاح الجو الالماني على الرغم من ضآلة عدده يعمل من مطارات صالحة لجميع الأجواء .

وفي اليوم الاول من شهر كانون الاول قام الالمان بهجوم مضاد ، احبطوا به الهجوم الذي كنا نعد له العدة ، مما اضطرنا في خلال بضعة ايام الى التراجع نحو المجاز ، ولم يكن في الامكان ايصال المؤن الى القوات الامامية عن طريق البحر الا على نطاق ضيق ، وكان من الصعب مدها بحاجاتها ، ولم يكن في أمكاننا أن نشن هجوما من جديد حتى الثاني والعشرين من شهر كانون الاول حيث بدأنا الهجوم الذي لقي نجاحا أوليا ، الا انه عند الفجر ، توالى نزول الامطار واستمرت ثلاثة أيام حتى تعطلت مطاراتنا وغدت غير صالحة للعمل ، كما أن السيارات لم يكن في وسعها ان تتحرك الا على طرق سيئة .

ولهذا قرر الجنرال ايزنهاور في مؤتمر عقده عشية عيد الميلاد ، التخلي عن خطته لاحتلال تونس ، وأن يحاول حماية مطاراته الامامية في المنطقة التي احتلها ، حتى يحين موعد شن الهجوم من جديد ، هذا وقد استمر الالمان في تعزيز قواتهم في تونس ، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي عانوا منها بحرا ، ولم تحل نهاية شهر كانون الاول حتى كانت قواتهم قد بلغت خمسين الفا .

وكان الجيش الثامن في اثناء ذلك قد قطع مسافة هائلة ، وكان رومل قد تمكن من سحب قواته المحطمة من العلمين ، وظل الضغط مستمرا على قوات مؤخرته الا أن المحاولة التي بذلتها قواتنا للوصول قبله الى الجنوب من بنغازي قد منيت بالفشل ، وبذلك تيسر لرومل ان يستريح بعض الوقت في العقيلة ، في حين اضطر مونتغمري بعد تقدمه الطويل الى مواجهة نفس المصاعب في النقل والتموين التي عاني منها أسلافه . وفي الثالث عشر من كانون الاول ، تمكنت الفرقة النيوزيلندية الثانية من زحزحة رومل عن مواقعه ، حتى اصبح طريقه مهددا بالانقطاع بسبب الحركة الالتفافية الواسعة التي قامت بها الفرقة المذكورة ، بعد أن مني بخسائر فادحة انزلها به سلاحنا الجوي حيث واصل هجماته على طرق المواصلات الساحلية ، ولم يكن في استطاعة مونتغمري أن يتابع المطاردة في أول الامر الا بالقوات الخفيفة ، وكان

الجيش الثامن قد قطع مسافة الف ومائتي ميل منذ معركة العلمين ، واحتلت قواته « سرته » مع مطاردها يوم عيد الميلاد ، ثم تقدمت الى مركز رومل الرئيسي في البويرات في نهاية العام .

هذا وقد اعدت لجنة رؤساء اجهزة القيادة في هذه الاثناء مذكرتين ارسلتهما الى وزارة الحرب ، أوضحت فيهما آراءهما المدروسة المتعلقة بالاستراتيجية المقبلة ، واكدت في النتائج التي توصلت اليها وجود خلافات كثيرة في وجهات النظر بين اعضائها وبين زملائهم الامريكيين ، وكانت هذه الخلافات منصبة على الافضلية . اكثر منها في موضوع المبدأ ، وكان راي رؤساء اركان الحرب البريطانيين أن أفضل سياسة هي متابعة عملية «المشعل» بحماس ونشاط ، والاستعداد التام لعبور القناة في عام ١٩٤٣ ، ان أمكن ، في حين كان من رأي رؤساء اركان الحرب الامريكيين بذل غاية الجهد في محاولة عبور القناة والصمود في شمالي افريقيا ، وهكذا غدت القضية معقدة ، ولم يكن في الامكان حلها الا باجتماع أعقده مع الرئيس ، ولذا قررنا بعد نقاش طويل أن نجتمع في الدار البيضاء لبحث الموضوع والبت فيه ، وذهبت الى هناك في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٣ ، وكانت رحلتي مشوبة ببعض القلق ، وكان المسئولون عن طائرتنا « الفدائي » قد أعدوا مدفأة غازية لتوليد الحرارة ، وكانت قوتها شديدة ، وقد أفقت من نومي في الساعة الثانية صباحا وكنا فوق الاطلنطي على بعد خمسمائة ميل من أقرب نقطة برية ، واحسست بالحرارة تحرق أصابع قدمي وخيل الي انها ستبلغ حد الاحتراق بعد قليل وتشعل النار في الفراش ، ولهذا فقد أيقظت بيتر بورتال ، الذي كان نائما في مقعده ووجهت نظره الى الجهة المنبعثة منها الحرارة ، وهبطنا معا الى المكان الذي تحفظ فيه القنابل في الطائرات ، حيث كانت الطائرة من قاذفات القنابل ، فوجدت رجلين يعملان في جد ونشاط للابقاء على جهاز الحرارة الغازي مشتعلا ، وقد خيل الي ان هذه العملية خطرة من جميع نواحيها ، لما يمكن ان يسببه الجو البترولي بسبب اشتداد الحرارة من احتمال الانفجار ، وقد وافقني بورتال على رأيي ، ولذلك فقد فضلت ان نتجمد من البرد على أن نحترق ، وأمرت في الحال باطفاء أجهزة التدفئة ، وعدنا الى الراحة ونحن نرتجف من شدة البرد الثلجي حيث كنا على ارتفاع ثمانية آلاف قدم في الجو وهو الارتفاع الذي تحتم علينا ان نطير عليه لنكون فوق السحاب ، وأود أن اعترف بأن هذه الفترة كانت من الفترات السيئة التي مرت بي .

وعندما وصلنا الى الدار البيضاء ، وجدنا استعدادات طيبة في انتظارنا حيث وجدنا هناك فندقا كبيرا به عدد كبير من الغرف تكفي لنزول جميع الضباط البريطانيين والامريكيين ، وقاعات كبيرة للمؤتمرات ، وكان يوجد بجوار هذا الفندق عدد من البيوت المريحة خصصت لاقامة الرئيس واقامتي واقامة الجنرال جيرول ، والجنرال ديغول اذا قرر الحضور ، وأحيطت المنطقة كلها بالاسلاك الشائكة وتولى الجنود الامريكيون حراستها ، وكنت قد وصلت الى الدار البيضاء قبل وصول الرئيس بيومين مع أركان حربي ، وكنت أسير

في بعض الاحيان مع باوند وغيره من رؤساء أركان الحرب على الصخور وعلى الشاطىء حيث كانت الامواج الرائعة تتكسر على الصخور مرغية مزبدة ، مما يجعل النزول الى البر معجزة من المعجزات ، ولم يمر علينا يوم هادىء مطلقا ، حيث كان ارتفاع الامواج يبلغ خمسة عشر قدما وكان تكسرها فوق الصخور يتخذ شكلا مخيفا ، مما سبب انقلاب عدة قطع من سفن الانزال وعدة زوارق بما عليها من الرجال ، وفي هذه الاثناء جاء ولدي راندولف من الجبهة التونسية ، حيث كان هناك الكثير مما يتحتم علينا ان نفكر فيه ، كما كان رؤساء أركان الحرب يجتمعون ويتشاورون ساعات كل يوم .

وقد وصل الرئيس بعد ظهر اليوم الرابع عشر من الشهر ، كان لقاء حار بيننا ، وكان اشد ما أبهجني أن أرى زميلي العظيم هنا على هذه الارض المحتلة أو المحررة ، التي تمكنا معا من الاحتفاظ بها ، على الرغم من نصيحة مستشاريه العسكريين ووصل الجنرال ايزنهاور في اليوم التالي بعد طيران محفوف بالخطر ، وكان تواقا لمعرفة ما ستقرره القيادة المشتركة ، وأن يظل على اتصال بهم ، وكانت صلاحيتهم دائما فوق صلاحيته ، وبعد يوم أو يومين ، وصل الكساندر ، وقدم الي والى الرئيس تقريرا عن سير تقدم الجيش الثامن ، وقد أثر القائد البريطاني اشد التأثير على الرئيس ، اذ استهوته شخصيته والانباء التي حملها ، والتي ذكر فيها ان الجيش الثامن سيستولي على طرابلس في المستقبل القريب جدا ، وأوضح لنا أن مونتغمري الذي كان يتولى قيادة فيلقين قويين ، انتزع جميع المعدات من أحدهما وسلمها الى الفيلق الثاني ، لاعتقاده بأنه على جانب كبير من القوة لارغام رومل على التراجع غربا عبر طرابلس الى خط ماريث القائم على الحدود ، والذي يؤلف حاجزا مانعا بالفعل ، وقد أثلجت هذه الانباء أفئدة الجميع وفاضت مشاعرهم بالسرور .

وبعد عشرة ايام من الدرس المتواصل للقضايا الاساسية توصل رؤساء أركان الحرب للقيادة المشتركة الى الاتفاق ، وكنت أنا والرئيس على اتصال يومي بهم وعلى علم بما يتم الاتفاق عليه لاقراره ، وقد اتفق على أن نحشد كل ما نستطيع من قوات لاحتلال تونس سواء بواسطة جيش الصحراء وكل ما يمكن للبريطانيين أن يزجوا به من الجنود في المعركة ، او بواسطة جيش ايزنهاور أو بهما معا ، وأن يكون الكسندر نائبا لايزنهاور وقائدا فعليا لجميع العمليات الحربية ، ووصلنا الى اتفاق أيضا على الخطوة التالية وهي الهجوم على صقلية أو سردينيا ، وكان من رأيي أن تكون صقلية الهدف التالي وأيدني في ذلك رؤساء أركان الحرب بالقيادة المشتركة ، أما واضعو الخطط المشتركة من الناحية الاخرى ومعهم اللورد مونتباتن فكان من رأيهم أن نهاجم سردينيا أولا ، لان في امكاننا أن نقوم بهذا العمل قبل ثلاثة أشهر من الوقت المحدد للعملية التالية ، وقد تمكن مونتباتن من اقناع هوبكنز والآخرين برأيه ، ولكني تشبثت بوجهة نظري وأصررت على الهجوم على صقلية وأيدني في ذلك جميع رؤساء أركان الحرب ، وهكذا أذعن واضعو الخطط لرأيي الا انهم قالوا انه لا يمكن البدء في هذه العملية قبل الثلاثين من شهر آب ، وهنا تدخلت شخصيا في هذه المرحلة ،

ودرست معهم جميع الارقام . ثم أصدرت مع الرئيس أوامرنا بأن يكون يوم الغزو خلال فترة البدر في شهر تموز أو ان أمكن خلال هذه الفترة من شهر حزيران ، وبالفعل بدأت عملية الهبوط من الجو ليلة التاسع من تموز ، كما بدأ النزول من البحر في صباح العاشر من الشهر نفسه .

وفي أثناء ذلك اثير موضوع ديغول ، فقد أزال مصرع دارلان على الرغم من وحشيته عقبة من طريق الحلفاء ، اذ حررهم من مشكلة التعاون معه ، وقد انتقلت سلطاته بيسر الى المنظمة التي تم تكوينها بالاتفاق مع الامريكيين خلال شهري تشرين الثاني ـ كانون الاول ، وملأ جيرو الفراغ الذي خلفه دارلان ، واصبح الطريق ممهدا أمام القوات الفرنسية في شمالي افريقيا وغربيها ، للانضمام الى حركة فرنسا الحرة التي يتزعمها ديغول ، لكي يجتمع شمل الفرنسيين في العالم بعيدا عن السيطرة الالمانية ، وكنت شديد الرغبة في ذاك الآن لدعوة ديغول الى الحضور ، وقد وافقني الرئيس على رأيي هذا ، وطلبت من المستر روزفلت أن يبرق اليه داعيا اياه للحضور ، ولكن الجنرال رفض تلبية الدعوة عدة مرات ، وهنا طلبت من ايدن أن يضغط عليه بشدة حتى ولو اضطر الى تهديده بأنه في حالة اصراره على عدم الحضور ، فاننا سنجد أنفسنا مضطرين الى وجوب استبداله بآخر على راس حركة التحرير الفرنسية في لندن ، وقد وصل أخيرا في الثاني والعشرين من كانون الثاني ، وفي الحال هيىء له المنزل المجاور لبيت الجنرال جيرو ، ولما كان غير راغب في زيارة جيرو فقد انقضت عدة ساعات قبل أن نتمكن من اقناعه بالاجتماع به ، وبعد ذلك اجتمعت بديغول في جو عاصف فأوضحت له بأنه اذا استمر على وضع العراقيل في طريقنا فاننا لن نتردد على قطع كل علاقتنا به ، وقد ظل صامدا في موقفه ، وخرج من حجرتي الى الحديقة شامخا بأنفه ، الا أن رجالنا تمكنوا أخيرا من اقناعه بالتحدث الى جيرو ، وقد استغرق الاجتماع ساعتين أو ثلاثا ، واتفقا فيما بينهما على كل شيء ، وتوجه بعد ظهر ذلك اليوم لمقابلة الرئيس ، وقد سررت جدا لان الرجلين تفاهما تماما بصورة لم نكن نتوقعها ، وقد استهوت الرئيس تلك « النظرة الروحية في عين الرجل » الا أنه لم يكن في وسعنا أن نصل بهما الى اتفاق .

وسيجد القارىء في صفحات هذا الكتاب ، بعض البيانات القاسية عن ديغول مستمدة من أحداث الساعة ووقائعها ، ولا ريب أنني لقيت من الرجل مشكلات مستمرة ، اذ أثار لي الكثير من المتاعب والخلافات ، ولكن علاقتنا ظلت باقية تحت سيطرة عنصر قوي ، فلم يكن في وسعي أن أعتبره ممثلا لفرنسا الاسيرة والخائفة ولا حتى لفرنسا التي كان من حقها أن تقرر لنفسها حرية المستقبل الذي تريده ، وكنت أعرف انه لا ينطوي على اي شعور بالصداقة لانجلترا ، الا انني كنت أرى فيه دائما تلك الروح وذلك المفهوم الذي ستحملهما فرنسا أبد الآبدين عبر صفحات التاريخ ، وكنت أحب فيه هذا المظهر المتعجرف واعجب به وان كنت اتضايق منه فهو هنا لاجىء ومنفى من بلاده لصدور حكم الاعدام ضده ، وكان في وضع يعتمد فيه كل الاعتماد

على نوايا الحكومة البريطانية الطيبة ، وعلى نوايا الحكومة الامريكية ايضا في الوقت الحاضر ، وقد احتل الالمان بلاده ، وليس له موطىء قدم حقيقي في اي مكان ، ومع ذلك فهو يتحدى كل انسان ، وكان يبدو لي حتى في أسوأ حالاته وتصرفاته معبرا عن شخصية فرنسا ، تلك البلاد العظيمة بكل كبريائها وعظمتها وطموحها ، وكان يقال استهزاء به وسخرية منه انه يعتبر نفسه ممثلا حيا لجان دارك ، التي قيل ان احد أجداده قد عمل معها ، ولكني لم أكن أرى في مثل هذا القول موضعا للغرابة ، كما كان يقال انه يحاول التشبه بكليمنصو ، ولكن هذا كان أكثر منه حكمة وأوسع خبرة في الشئون السياسية ، ولكن الرجلين كانا من الفرنسيين الذين لا يخضعون ولا يستكينون .

وهناك نقطة أخرى تستحق الذكر ، فقد بعثت الي وزارة الحرب تقريرا بما يلي :

« لقد اقترحنا اعداد بيان عن اعمال المؤتمر ، لاذاعته عن طريق الصحافة في الوقت المناسب ، ويسرني أن اعرف رأي وزارة الحرب في أن يتضمن هذا البيان اعلانا من جانب الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية يؤكد عزمها على المضي في الحرب قدما ودون هوادة الى أن تستسلم المانيا واليابان استسلاما مطلقا بلا قيد أو شرط ، واذا حذفنا ايطاليا فقد يشجعها هذا الاغفال على الخروج من الحرب ، وقد حبذ الرئيس الفكرة ، ولا ريب انها تستثير أصدقائنا في كل مكان » .

ويهمني أن يلاحظ القارىء ، أن استخدام الرئيس لعبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » عند اجتماعه التالي برجال الصحافة ، قد أثار قضايا سيتكرر ظهورها في هذه القصة ، وستكون موضع الجدل والنقاش لمدة طويلة ، فهناك مدرسة فكرية في كل من انجلترا وامريكا ، قالت ان هذه العبارة ، قد أطالت أمد الحرب ، وكانت عاملا مساعدا للديكتاتوريين ، في الدفع بشعوبهم وجيوشهم الى حالة اليأس والقنوط ، لكنني لم أوافق هذه المدرسة الفكرية على رأيها ، لاسباب سأعرضها في سياق هذه القصة ، ولما كانت الذاكرة تخون المرء أحيانا فمن الخير كل الخير أن أسرد الحقائق كماوردت في سجلاتي ووثائقي .

هذا وقد دونت وزارة الحرب في سجلاتها ، أن هذا الموضوع أثير في الجلسة التي عقدتها ظهر اليوم العشرين من كانون الثاني ، وقد اتجه النقاش لا الى عبارة الاستسلام بلا قيد ولا شرط من ناحية المبدأ ، بل الى استثناء ايطاليا منه وقد بعث الينا المستر اتلي والمستر ايدن في الحادي والعشرين من الشهر بالرسالة التالية :

« استقر رأي الوزارة على أن سيئات استثناء ايطاليا أكثر من حسناته ، نظرا لما قد يثيره هذا الاستثناء من مخاوف حتمية في تركيا والبلقان وغيرهما ، يضاف الى ذلك عدم الاقتناع بأن أثر الاستثناء سيكون نافعا ومجديا لايطاليا ، فمعرفة الشعب الايطالي بكل ما سيلقاه من قسوة وشدة سيكون أكثر تأثيرا على معنوياته من مثل هذا الاستثناء » .

ولهذا فان وزارة الحرب لم تعرب عن عدم موافقتها على عبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » المقترح تضمينها في بياننا المشترك الذي كنا في سبيل اعداده ويتضح من هذا جليا أن رغبة وزارة الحرب كانت في عدم استثناء ايطاليا من هذا الشرط ، ولا اذكر كما لا تشير وثائقي الى أنه قد دار الحديث بيني وبين الرئيس حول هذا الموضوع بعد أن وصلتني رسالة وزارة الحرب ، ومن المحتمل أن يكون ضغط العمل ، ولا سيما بحث العلاقات بين جيرو وديغول ، واجتماعاتنا بهما قد صرفنا عن هذا الموضوع ، وقد كان مستشارونا ورؤساء أركان الحرب في هذه الاثناء يشرفون على اعداد البيان المشترك الذي جاء وثيقة رسمية أعدت بعناية فائقة ، حيث نالت موافقتنا أنا والرئيس بعد أن قمنا بدراستها ، ومن المحتمل ، أنه بسبب عدم رغبتي في تطبيق « الاستسلام بلا قيد او شرط » على ايطاليا ، انني لم اثر هذا الموضوع من جديد مع الرئيس ، وجاء البيان خاليا من أي ذكر لعبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » ولما عرضته على وزارة الحرب ، وافقت عليه في صيغته النهائية .

ولذلك فقد دهشت جدا ، عندما سمعت الرئيس يتحدث بعد ذلك في مؤتمره الصحفي في الرابع والعشرين من كانون الثاني ، ويقول اننا سنفرض « الاستسلام دون قيد او شرط » على جميع أعدائنا ، حيث كان من المفروض أن البلاغ الذي اتفقنا عليه قد نسخ ما قبله من أحاديث ، وقد دهش أيضا الجنرال اسماي لانه كان يعرف ما يدور بخلدي ، والذي شهد جميع المحادثات التي دارت بين رؤساء أركان الحرب عندما تم اعداد البلاغ ، ولذلك فانه عندما ألقيت خطابي بعد الرئيس « في المؤتمر الصحفي » كان لزاما علي أن أؤيده تمام التأييد ، وأن أوافق على كل كلمة قالها ، لان كل خلاف بيننا حتى ولو كان غير مقصود ، سيؤثر في مثل هذه الظروف تأثيرا سيئا وضارا بمجهودنا الحربي ، وهكذا فقد تحملت نصيبي من المسئولية بالاشتراك مع وزارة الحرب البريطانية .

وقد اتضح أن ما ذكره الرئيس لهوبكنز في هذا الصدد كان باتا ، فقد قال « لقد عانينا الكثير من المشقة في الجمع بين هذين الجنرالين الفرنسيين ، حتى بدا لي أن الجمع بينهما لم يكن اقل صعوبة من الجمع بين جرانت ولي « في الحرب الاهلية الأمريكية » وفجأة وجدت أمامي المؤتمر الصحفي ، ولم يكن في وسعي أنا ورونستون ان نستعد له ، وسرعان ما طافت بخاطري هذه الفكرة ، وهي أن جرانت قد طلب اليه فيما مضى « الاستسلام بلا قيد او شرط » وفجأة ودون ما ارادة وجدت نفسي انطق بهذه العبارة .

وقد تكون ذكريات الحرب جلية وواضحة ، ولكن يجب الا يركن المرء اليها دون تثبت او تحقيق ، ولا سيما اذا كانت تتعلق بتسلسل الاحداث ولا ريب في أنه قد صدرت عني عدة بيانات خاطئة عن حادثة « الاستسلام بلا قيد او شرط » ذلك لانني كنت اقول ما يجول بخاطري واعتقده في تلك اللحظة دون الرجوع الى السجلات والوثائق ،

ولم اكن انا الوحيد الذي خانته ذاكرته ، ذلك لان المستر أرنست بيفن افضى ببيان مزعج في الحادي والعشرين من شهر تموز عام ١٩٤٩ في مجلس العموم ، تحدث فيه عن المتاعب التي واجهته في اعادة بناء المانيا بعد الحرب بسبب سياسة « الاستسلام بلا قيد او شرط » لانه « كما قال » لم يستشر هو ولا وزارة الحرب فيها عند اعلانها ، وقد رددت عليه ببيان في الحال لا يقل عن بيانه بعدا عن الدقة ولكن في حسن النية ، فأعلنت انني سمعت هذا الكلام لاول مرة على لسان الرئيس في المؤتمر الصحفي الذي عقد في الدار البيضاء ، وعندما عدت الى البيت في ذلك اليوم ، ورجعت الى وثائقي ، رايت الحقائق التي سردتها هنا ، وتذكرت في الحال قصة ذلك الاستاذ الذي اجتمع اليه طلابه المخلصون عندما داهمته المنية ، يطلبون منه نصحيته الاخيرة لهم فقال : « تحققوا من الاقوال التي تقتبسونها » .

وعلى الرغم من اعجاب الناس بعبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » في حينها الا أنها اعتبرت بعد ذلك لدى الكثير من الاوساط ، كواحدة من الاخطاء العظيمة التي وقعت فيها السياسة الانجليزية ـ الامريكية ، واحرى بنا أن نتناولها بالبحث الآن ، فقد قيل أنها كانت سببا في اطالة امد الحرب ، وانا لا اعتقد في صحة هذا القول ، وكان السبب الرئيسي « في معارضتي المستمرة في اصدار بيان آخر يتضمن شروطنا للسلام وهو ما كان يلح علينا في اصداره » هو ما كنت أعتقده بأن أي بيان يتضمن الشروط الحقيقية والتي تصر عليها دول الحلفاء الثلاث الكبرى والتي يفرضها الراي العام علينا ، ستكون قاسية جدا . ولا يمكن أن نمحو من الاذهان عبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » خصوصا لدى الالمان ، واني لاذكر عدة محاولات جرت لوضع مسودة شروط السلام التي يمكن أن يرضى عنها المحتلون لالمانيا ، وقد بدت هذه الشروط لي مزعجة وقاسية عندما دونت على الورق ، وفاقت في الحقيقة وفي قسوتها كل ما عمل حتى الآن ، حتى أن مجرد نشرها كان كفيلا بأن يستثير المقاومة الالمانية .

وقد أوضحت في عدة بيانات عامة أفضيت بها ، ما انتويت انا والرئيس عمله فعلا .

وقلت في مجلس العموم في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٤٤ ما يلي :

« ان اصطلاح عبارة « الاستسلام بلا قيد او شرط » لا تعني مطلقا أن الشعب الالماني سيتعرض للاستعباد او الدمار ، وان ما تعنيه فعلا هو أن الحلفاء لن يكونوا ملزمين بأي شيء تجاه الالمان في لحظة الاستسلام ، أو مقيدين بأي حلف أو التزام « والاستسلام بلا قيد ولا شرط » يعني أن المنتصرين سيكونون مطلقي الايدي . ولكنه لا يعني اطلاقا أن من حقهم أن يسلكوا سلوكا وحشيا ، أو أن يمحوا اسم المانيا من خريطة أوروبا ، واننا سنحكم ضميرنا ازاء موقفنا من الحضارة والمدنية ، ولن نلتزم بشيء تجاه الالمان نتيجة لاي عملية من عمليات المساومة ، وهذا هو معنى « الاستسلام بلا قيد او شرط » وبهذا التفسير زال كل سوء فهم لدى الالمان عن هذا التعبير » .

وكان لزاما علينا ان نختتم مباحثاتنا ، فعقدنا آخر جلسة رسمية اخيرة مع رؤساء أركان الحرب في الثالث والعشرين من كانون الثاني ، عندما قدموا الينا تقريرهم الاخير عن مشروع « ادارة دفة الحرب في عام ١٩٤٣ » ويمكن تلخيص هذا التقرير على النحو التالي :

« يجب أن تظل المهمة الاولى الملقاة على عاتق الامم المتحدة اولا القضاء على الغواصات ، وثانيا مد القوات السوفيتية بأكبر كمية من المؤن التي يكون في وسعنا نقلها الى روسيا ، وأن نستهدف من العمليات الحربية في الجبهة الاوروبية هزم المانيا في عام ١٩٤٣ ، بأقصى ما يمكن للامم المتحدة أن تحشده من قوات ضدها .

وستكون الخطوط الرئيسية للهجوم على النحو التالي :

« في البحر الابيض المتوسط »

أ ـ أن نستهدف من احتلال صقلية ما يلي :

١ ـ تأمين سلامة خطوط المواصلات في البحر الابيض المتوسط .

٢ ـ تخفيف الضغط الالماني عن الجبهة الروسية .

٣ ـ تشديد الضغط على ايطاليا .

ب ـ بذل الجهود الممكنة الفعالة لدى تركيا حتى تكون حقيقة لنا .

« استمرار العمليات في المحيط الهادي والشرق الاقصى بقصد الضغط على اليابان ، الى أن نبدأ الهجوم الكاسح عليها فور هزيمة المانيا ، على أن تظل هذه العمليات في حدود النطاق الذي يشير به رؤساء أركان القيادة المشتركة ، انه لن يؤثر على قدرة الأمم المتحدة عندما تحين الفرصة المناسبة لايقاع الهزيمة بالمانيا في عام ١٩٤٣ .

واخيرا عقدنا مؤتمرا صحفيا صباح الرابع والعشرين من كانون الثاني حيث حضره ديغول وجيرو وجلسا في صف واحد معي ومع الرئيس روزفلت بعد أن أرغمناهما على أن يتصافحا أمام الجمهور وأمام حشد ضخم من رجال الصحافة والمصورين ، وقد تصافحا بالفعل ، وليس في وسع الانسان ان ينظر الى هذا الحادث حتى في مثل هذه الايام المليئة بالمآسي دون أن يضحك ، هذا وقد ظل وجودي انا والرئيس روزفلت في الدار البيضاء سرا من الاسرار التي حوفظ عليها بكل دقة وعناية ، حتى أن رجال الصحافة عندما راونا امامهم لم يصدقوا عيونهم ، كما لم يصدقوا آذانهم عندما سمعوا اننا كنا هنا منذ أسبوعين .

وبعد هذا الزواج الاكراهي بين ديغول وجيرو ـ وهو الاسم الذي أطلقته الصحافة الامريكية على هذا الحادث ـ والذي عانينا الكثير من المتاعب في سبيل تحقيقه ، القى الرئيس خطابه أمام رجال الصحافة وقد أيدته في كل كلمة قالها .

ولما استعد الرئيس لمغادرة المدينة ، قلت له ليس في وسعك أن ترحل ، بعد أن قطعت كل هذه المسافة الطويلة لتصل الى شمالي افريقيا ، دون أن ترى مدينة مراكش ، وطلبت منه أن نقضي فيها

يومين ، لنرى معا مغيب الشمس على ثلوج جبال الاطلس ، كما ألححت على هاري هوبكنز أيضا بقبول هذا الاقتراح وكان هناك منزل رائع للغاية ، لم أكن أعرف عنه شيئا ، حيث كان نائب القنصل الامريكي المستر كنيث بيندار ، قد استأجره من سيدة أمريكية تدعى تيلور ، وكان واسعا يصلح لايوائي أنا والرئيس ، فضلا عما كان يحتويه من غرف خارجية لايواء أفراد حاشيتنا ، وهكذا تقرر أن نمضي جميعا الى مراكش ، وركبت أنا والرئيس سيارة واحدة قطعنا بها مسافة مائة وخمسين ميلا من الطريق الصحراوي بين الدار البيضاء ومراكش ، وكانت خضرة الربيع قد بدأت في الظهور ، قبل أن نصل الى هذه الواحة المشهورة ، وكنت دائما أصف مراكش بأنها « باريس الصحراء » حيث تؤمها القوافل من جميع انحاء افريقيا الوسطى منذ قرون طويلة ، لتدفع الجزيات الباهظة لقبائل الجبال قبل وصولها اليها ، حيث يستمتعون بمباهج الحياة في المدينة ، ومن بينها قراءة الطالع ، وسحر الافاعي ، والمطاعم والمشارب ، وكان لكل هذه المباهج في مراكش شهرة مدوية منذ أقدم العصور .

وأمضيت مع الرئيس في السيارة زهاء خمس ساعات قطعناها في أحاديث مهمة تخللها بعض النكات ، في حين انتشر الوف الجنود من الامريكيين على طول الطريق لحمايتنا من أي خطر ، كما ظلت الطائرات تحوم فوقنا بلا انقطاع حتى وصلنا في المساء الى المنزل ، حيث أقام لنا المستر بيندار وليمة عشاء كبيرة ، وصعدت مع الرئيس الى برج المنزل ، بعد ان حملوه في مقعده ، وجلسنا نستمتع برؤية مغيب الشمس وراء ثلوج جبال الاطلس ، ومعنا خمسة عشر أو ستة عشر شخصا وهم الذين حضروا معنا مأدبة العشاء ، وكان يعمنا السرور والبهجة وأنشدنا جميعا أعذب الاناشيد ، وغنيت بمفردي ، في حين اشترك الرئيس مع فرقة « الكورس » ولما أراد الرئيس أن يغني أغنية على انفراد منعه أحد رجال حاشيته .

ولما كان على الرئيس أن يغادر مراكش فجر اليوم الخامس والعشرين في رحلته الجوية الطويلة عن طريق لاغوس وداكار فالبرازيل ، ومنها الى واشنطن ، فقد افترقنا بعد ان ودعنا بعضنا بعضا ليلة السفر ، ولكنه جاء في الصباح ، وهو في طريقه الى الطائرة ، ليكرر الوداع ، وكنت لا أزال في الفراش ، ولما كنت لا أسمح بأن يمضي وحيدا الى المطار ، فقد قفزت من الفراش ووضعت علي وشاحي ، ومضيت بهذه الصورة غير الرسمية الى المطار ، ولما وصلت الى الطائرة ، رأيته يجلس في مقعده مرتاحا ، فأعجبت بما يبدو عليه من شجاعة على الرغم مما يعانيه من عاهة جسدية ، وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالقلق من المخاطر التي سيخوض غمرتها في طريق عودته ، ولو اننا كنا متعودين على هذه الرحلات الجوية في اثناء الحرب ، الا انني ظللت اعتبرها من المغامرات الخطرة دائما ، ولكن من حسن الحظ أن كل شيء سار على ما يرام ، ثم عدت الى المنزل بعد أن ودعته حيث قضيت يومين آخرين كنت فيهما على اتصال مستمر مع وزارة الحرب للتشاور حول حركاتي المقبلة .



تركيا ـ ستالينغراد ـ تونس

وقد طرأ على الوضع الاستراتيجي للحرب في البحر المتوسط ، تحول أساسي بسبب احتلال قوات الحلفاء للشمال الافريقي واستيلائها على قاعدة ثابتة على شاطئه الجنوبي ، أمكنها أن تجعل منها قاعدة أمامية للحركة ضد العدو في أوروبا ، ولما كنت أنا والرئيس نبحث منذ أمد طويل عن فتح طريق جديد لامداد روسيا ، وتوجيه ضربة الى جناح المانيا الجنوبي ، ولما كانت تركيا هي مفتاح جميع هذه الخطط ، فقد استهدفنا منذ عدة اشهر ، ان نقنع تركيا بدخول الحرب الى جانبنا ، وكان هذا هو أملنا الجديد الآن لما لها من أهمية ومظهر بارز كل البروز لنجاح خططنا .

ولما كان ستالين متفقا معي ومع الرئيس على هذا الموضوع ، فقد صممت على أن اعالجه بنفسي ، في اجتماع أعقده مع الرئيس اينونو على الارض التركية ولما كانت هناك أيضا مشاغل عدة تنتظرني في القاهرة ، كما أملت في أن أزور الجيش الثامن في طريق عودتي الى الوطن ، على أن تكون زيارتي له في طرابلس التي كاد يحتلها في ذلك الوقت ، ثم أقوم بزيارة الجزائر أيضا ، حيث كانت هناك مشكلات كثيرة في وسعي أن أحلها في مكانها ، ولهذا فقد أبرقت من الدار البيضاء الى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية اقترح عليهما أن أطير من مراكش الى القاهرة لاقضي بها يومين أو ثلاثة ثم اتصل اتصالا مباشرا بالاتراك .

وقدردت وزارة الحربية بانها تعتقد أن الاتصال المباشر بتركيا ما زال سابقا لاوانه ، وطلبت مني العودة مباشرة الى لندن ، لاقدم تقريرا الى البرلمان عن اجتماعي بالرئيس روزفلت ، ولكن بعد تبادل عدة برقيات وافقت الوزارة على خطتي ، وبعد أن تناولنا العشاء في منزل السيد بندار في مراكش ، امتطينا الطائرة « الفدائي » مساء السادس والعشرين ، وقد نمت نوما عميقا ولما استيقظت عند الفجر وجدت نفسي أجلس في مقعد مساعد الطيار بجانب قائد الطائرة فاندر كلوت ، أرقب معه للمرة الثانية شروق الفجر على مياه النيل ، ولم نكن في هذه المرة مضطرين الى الهبوط بعيدا في اتجاه الجنوب ، لان انتصارنا في العلمين كان قد جرف اعداءنا مسافة الف وخمسمائة ميل الى الغرب ، ونزلنا في المطار الذي يبعد عشرة أميال عن الاهرام ، حيث كان في انتظارنا السفير اللورد كليرن ورجال القيادة العامة في القاهرة ، واتجهنا فورا الى السفارة ، حيث وجدت السير الكساندر كادوجان الوكيل الدائم لوزارة الخارجية الذي اوفدته وزارة الحربية الى القاهرة تلبية لطلبي ، وكان في وسعنا أن نقارن الآن بين اوضاعنا

الحالية ، وبين ما كنا عليه في شهر آب عام ١٩٤٢ ، وأن نشعر باحساس من الرضا والراحة .

وعندما وصلتني الرسائل التي تشير الى ان الرئيس التركي عصمت اينونو قد اعرب عن سروره لفكرة الاجتماع المقترح ، واتخذت الترتيبات لاعداده في « اضنه » على الشاطىء على مقربة من الحدود التركية ـ السورية ، على أن يتم في الثلاثين من كانون الثاني ، توجهت في طائرة « الفدائي » لمقابلة الزعماء الاتراك وقد قطعنا المسافة في اربع ساعات ، ونحن نطير فوق البحر الابيض المتوسط بالقرب من سواحل فلسطين وسورية ، ومعنا طائرة اخرى استقلها كاذوجان والجنرالات بيروك والكساندر وويلسون وغيرهم من القادة والضباط ، وقد لقينا بعض المشقة في اثناء الهبوط في ذلك المطار التركي الصغير ، وما كدنا ننتهي من مراسم الحفاوة والاستقبال ، حتى ظهرت مجموعة من الدبابات الطالية بالميناء تزحف قادمة من الجبال ، تحمل الرئيس التركي وجميع اعضاء حكومته والماريشال شاقماق ، وقد استقبلونا بمنتهى الحفاوة والحماس ، واعدت لنا جملة عربات في القطار لنزولنا واستراحتنا لعدم وجود مكان آخر قريب نستريح فيه ، وقد قضينا ليلتين فيه ، حيث كانت تدور محادثات يومية طويلة مع الاتراك ، واحاديث ودية في اثناء وجبات الطعام مع الرئيس اينونو .

وقد دارت معظم المحادثات حول موضوعين ، اولهما ، بناء عالم ما بعد الحرب واقامة منظمة دولية ، وثانيهما ، مستقبل العلاقات بين تركيا وروسيا ، وأرى أن أسرد هنا بعض الملاحظات التي تلوتها على مسامع القادة الاتراك وفقا لسجلاتي الخاصة ، فقد ذكرت لهم انني اجتمعت بستالين ومولوتوف ، وأن الرجلين يرغبان في اقامة ارتباط سلمي وودي مع المملكة المتحدة والولايات المتحدة ، حيث في وسع الدولتين الغربيتين أن تقدما الكثير من العون في الحقل الاقتصادي لروسيا ، ومساعداتهما لها في تعويض ما لحق بها من خسائر بالغة ، ولو انني ليس في وسعي أن اتكهن بما سيقع بعد عشرين عاما ، الا اننا عقدنا معاهدة مدتها عشرون عاما مع روسيا ، لاعتقادي بأن روسيا ستركز جهودها في السنوات العشر القادمة على اعادة البناء والانشاء ، ولو انه من المحتمل ان تقع فيها تبديلات أساسية بسبب أن الشيوعية نفسها قد تعرضت للتعديل ، وأني لاومن بأن علينا أن نعيش في علاقات طيبة مع روسيا .

واذا واصلت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة العمل متعاونتين واحتفظتا بقوة جوية متفوقة ، ففي وسعهما ان تضمنا بقاء فترة طويلة من الاستقرار ، ولا ريب فان روسيا ستستفيد من هذا الوضع ، لان لديها مناطق شاسعة متخلفة تفتقر الى التطوير ولا سيما في سيبيريا .

وقد لاحظ رئيس الوزارة التركية بأنني أعربت عن رأيي في أن روسيا قد تصبح من الدول الاستعمارية ، ولما كانت مثل هذه الملاحظة جديرة بأن تحمل تركيا على التحفظ والحيطة والحذر ، فقد اجبت بأن منظمة عالمية ستقوم وستكون مسئولة عن الحفاظ على السلم

والسلامة ، وستكون أقوى من عصبة الامم السابقة ، واضفت بأنني لا اخشى شيئا من الشيوعية ، فقال رئيس الوزارة التركية ، انه يتطلع الى شيء أكثر واقعية ، فأوروبا ملأى بالسلاف والشيوعين ، ومن المتوقع أن تتحول جميع الدول المهزومة الى البلشفية والسلافية اذا هزمت المانيا ، وقد رددت عليه بأن الامور لا تسير دائما الى الاسوأ ، كما يتوقع الجميع ، وحتى اذا سارت الامور على هذا النحو ، فمن الخير لتركيا ان تكون أقوى مما هي عليه الآن ، وأن تكون أوثق ارتباطا بالمملكة المتحدة والولايات المتحدة ، واذا قدر لروسيا ان تهاجم تركيا دون أي سبب أو مبرر ، فان المنظمة العالمية التي تحدثت عنها ستستخدم بأسرها للدفاع عن تركيا ، وستكون الضمانات بعد الحرب الراهنة أقوى وأشد من تلك التي كانت قائمة قبل الحرب ، لا بالنسبة الى تركيا فحسب ، ولكن بالنسبة الى أوروبا بأسرها ، وفضلا عن ذلك فلن أكون صديقا لروسيا اذا حاولت تقليد المانيا ، واذا ما حذت حذوها فان علينا أن نحشد ضدها أكبر عدد ممكن من الدول ولن أتردد عن قول هذا لستالين نفسه .

وفي الوقت الذي كانت هذه المحادثات السياسية ذات الطابع العام قائمة على قدم وساق ، فانه كانت هناك مباحثات عسكرية أخرى يقوم بها رئيس أركان حرب الامبراطورية وغيره من القادة العسكريين البارزين ، وكانت النقطتان الاساسيتان في هذه المباحثات هما ، أولا ــ تزويد القوات التركية بما تحتاج اليه من عتاد قبل أن تتخذ تركيا أية خطوة سياسية بعدها ، ثانيا ــ اعداد الخطط لتعزيزها بالوحدات البريطانية في حالة دخولها الحرب ، وقد تم صياغة نتائج هذه المباحثات في اتفاق عسكري أمكننا الوصول اليه .

وكان القصد من محادثاتي مع تركيا ، تمهيد الطريق أمامها للاشتراك في الحرب في خريف عام ١٩٤٣ ، ولكن هذا لم يحدث ، حتى بعد انهيار ايطاليا وبعد زحف الروس على الالمان من البحر الاسود ، بسبب بعض الاحداث السيئة التي وقعت في بحر ايجة في زمن لاحق من ذلك العام ، وهي ما سأتحدث عنها في مكان آخر من هذا الكتاب .

وبعد ذلك طرت عائدا الى القاهرة بعد وقفة قصيرة في قبرص ، ثم تابعت سيري الى طرابلس ، وكان الجيش الثامن قد احتلها في الوقت المحدود وهو الثالث والعشرون من كانون الثاني ، وعندما دخلت قواتنا المدينة وجدت ميناءها محطمة تماما ، كما سد مدخلها بالسفن الغارقة ، في حين بثت في المنافذ المؤدية اليها مئات الالغام ، وهو ما كنا نتوقعه في مثل هذه الحالة ، ولذلك فانه لم تدخل أولى سفن التموين الى الميناء الا في الثاني من شهر شباط ، بعد تطهيرها من الالغام ، وبعد مضي أسبوع ، كانت البواخر تنزل ما حمولته الفا طن في اليوم تقريبا ، وعلى الرغم من انه ما زال أمام الجيش الثامن مسافات طويلة يتحتم عليه اجتيازها ، الا أن تموينه في أثناء الزحف الذي امتد ألفا وخمسمائة ميل بعد العلمين ، والذي توجه فتح ميناء طرابلس بسرعة أمام سفن التموين وهو عمل اداري رائع ، يرجع الفضل فيه الى الجنرال ليند

ستيل الموجود في القاهرة والجنرال روبرتسون الذي كـان يرافق الجيش الثامن ، ولم تحل نهاية الشهر ، حتى انضمت الى الجيش الثامن قوة فرنسية قوامها « ٢٥٠٠ » جندي مـن القوات المختلفة التابعة لفرنسا الحرة ، بقيادة الجنرال ليكليرك ، بعد أن قطعت مسافة الف وخمسمائة ميل عبر الصحراء ، قادمة من افريقيا الاستوائية الفرنسية ، ووضع ليكليرك نفسه دون تحفظ تحت تصرف مونتغمري ، وقدر له ولقواته أن يلعبا دورا هاما في المراحل المتبقية من الحملة التونسية .

وعندما اجتاز الجيش الثامن الحدود الى تونس في الرابع من شباط ، بعد أن تم الاستيلاء على امبراطورية ايطاليا الأفريقية فقد أصبح منذ هذه اللحظة طبقا للقرارات التي اتخذت في مؤتمر الدار البيضاء تحت قيادة الجنرال ايزنهاور مع تولي الجنرال اليكساندر بوصفه نائبا له في القيادة التنفيذية للعمليات البرية ولعل القارىء يذكر التوجيه الذي كنت قد بعثت به الى اليكساندر عشية مغادرتي القاهرة قبل نحو من ستة أشهر ، وقد بعث الي الآن بالرد التالي :

سيدي :

« لقـد نفذت الاوامر التي أصدرتها الي في العاشر مـن آب عام ١٩٤٢ ، وقد تم القضاء على جميع أعداء جلالته ، ومـا كانوا يضعونه مـن عوائق في مصر وبرقة وليبيا وطرابلس ، وهانا الآن في انتظار أوامر جديدة منك » .

وبعد أن قضينا يومين ، أقلعت من طرابلس لزيارة ايزنهاور وصحبه في الجزائر ، وكان التوتر هنا شديدا ، فاغتيال دارلان ، كان لا يزال يفرض الكثير من الاحتياطات لحماية جميع الشخصيات البارزة ، ونظرا لما أبدته وزارة الحرب من قلق عن سلامتي واظهارها رغبتها في أن أعود الى الوطن في أسرع وقت ممكن ــ وطبعا كان في هذا الكثير مـن المجاملة ــ فقد طرنا ليلة الاحد السابع مـن شباط عام ١٩٤٣ عائدين راسا وبسلام الى الوطن ، وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي طرت فيها في طائرة « الفدائي » لانها سقطت فيما بعد ، وقتل كل من كان فيها ، ولو أنهم كانوا غير معروفين لي .

وكان أول واجب علي بعد عودتي الى الوطن ، هو ان أفضي ببيان مسهب أمام مجلس العموم ، عن مؤتمر الدار البيضاء ، وعن رحلتي في البحر الابيض المتوسط ، وعن الوضع بصورة عامة ، وقد استغرق القاء الخطاب الذي أعددته في الحادي عشر من شباط أكثر من ساعتين ، ويبدو أنه كان يلوح على الأعياء من رحلتي ، حيث قد أصبت ببرد في أثنائها ولم تمض بضعة أيام حتى كنت طريح الفراش ، أعاني من زكام شديد مصحوب بالتهاب في الحنجرة ، وفي مساء السادس عشر من الشهر وقد كنت وحيدا مع زوجتي ، ارتفعت حرارتي ارتفاعا مفاجئا ، وقرر اللورد موران الذي كان يتولى علاجي في ذلك الوقت انني مصاب بالتهاب في الجزء الأسفل من الرئة وقد وصف لي الدواء

المسمى (ا م. اند بي) وفي اليوم التالي عملت لـي اشعة اثبتت صحة تشخيصه واستدعى الدكتور جيوفري مارشال طبيب مستشفى « جاي » للاشتراك في المشاورة الطبية ، وكنت على الرغم مـن سوء حالتي ، ا تبع الاحداث وكانت تصلني الاخبار وانا في الفراش ساعة بعد ساعة ، فأقوم بتصريفها كالمعتاد ، وعندما شعرت بنقص ملحوظ في عدد الاوراق التي تصل الي لابداء رأيي فيها ، احتججت على ذلك ، فأكد لي الاطباء وقد انضمت اليهم زوجتي ، وجوب انصرافي عن العمل كلية ، ولكنني ما كنت لاوافقهم على ذلك ، لولا أنهم أبلغوني أني أعاني من ذات الرئة ، فقلت لهم « ولكن في وسعكم علاجها ، السلفا ستم واثقين من علاجكم الجديد ؟ » فقال الدكتور مارشال ، انه يطلق على ذات الرئة اسم « صديقة الرجل العجوز » وعندما سألته عن السبب ، قال « لانها تمضي بالرجال الطاعنين في السن من هذه الحياة بهدوء » وقد رددت عليه ردا مناسبا ، ولكننا اتفقنا على أن تصل الي الاوراق المهمة والمباشرة فقط ، وان انصرف الى مطالعة احدى الروايات ، وقد اخترت روايات « مون فلاندرز » التي كنت قد سمعت الكثير عنها ، دون أن يتوافر لدي الوقت لقراءتها والحكم عليها ، وهكذا قضيت اسبوعا ثانيا أعاني فيه من وطأة الحمى والالم ، وهكذا لم يتيسر لي كتابة مذكراتي في المدة من ١٩ الى ٢٥ من شباط ، وقد أبرق الي الرئيس روزفلت والجنرال سمطس وغيرهما من الاصدقاء الذين علموا نبأ مرضي ، طالبين أن أطيع أوامر الاطباء وفعلا قد نفذت أوامر الاطباء ، وعندما انتهيت من قراءة الرواية التي كنت اقرؤها ، أعطيتها للدكتور مارشال ليقرأها ، وفي الوقت نفسه كان قد تم شفائي .

هذا وقد بعث الي ستالين في هذه الفترة ، شريطا سينمائيا عن انتصار ستالينغراد ، وقد صور تصويرا رائعا كل ما دار من قتال بائس . وارى أن الوقت قد حان للحديث بايجاز واختصار عن ذلك الكفاح الحاسم الرائع الذي خاضته الجيوش الروسية .

وكان قد اشتد زحف الالمان في اتجاه القوقاز في أثناء صيف عام ١٩٤٢ وخريفه ومضت الامور في البداية وفق الخطة المرسومة ، وان كانت لم تتم بالسرعة الكبيرة التي كان يأملها الالمان ، وقد تمكنت مجموعة الجيوش الالمانية الجنوبية من اخراج الروس من منحنى حوض نهر الدون الاسفل ، هذا وقد انقسمت مجموعة الجيوش الالمانية بعـد ذلك مجموعتين ، الاولى ويقودها ليست ، والثانية يقودها بوك ، وفي الثالث والعشرين من تموز عهد هتلر الى كل من المجموعتين بالمهمة الموكولة اليها ، حيث كان علـى المجموعة الاولى أن تحتل الساحل الشرقي للبحر الاسود بكامله وذلـك بالاضافة الـى حقول البترول القريبة ، وأن تتقدم المجموعة الثانية بعـد اقامة جناح دفاعي علـى حوض الدون متجهة الى ستالينغراد ، وأن تحطم قوات العدو المتجمعة فيها وتحتلها ، كما قرر هتلر أن تقوم القوات العاملة في جبهة موسكو بالضغط عليها ، في حين تحتل قوات جبهة لينينغراد المدينة في مستهل شهر ايلول .

كما زحف جيش الصاعقة بقيادة الجنرال فون كلايست والمؤلف

من ١٥ فرقة مدرعة على القوقاز ، وذلك بعد ان عبر نهر الدون وقطع مسافة كبيرة دون أن يلقى اية مقاومة تذكر ، وقد وصل الجيش الزاحف الى حقول البترول في ميكوب ، ولكنه فشل في الوصول الى حقول غرزوني ، اما حقول باكو ذات الاهمية الكبيرة فكانت لا زال تبعد ثلثمائة ميل ، كما أن القادة الالمان لم يستطيعوا احتلال ساحل البحر الاسود باكمله تنفيذا لاوامر هتلر ، حيث صمد الروس في كل مكان بعد تعزيزها بقوات جديدة وصلت بسرعة عن طريق السكة الحديدية على ساحل بحر قزوين الغربي في حين لحق الضعف والاعياء بكلايست بسبب تحويل القوات الى جبهة ستالينغراد ، بعد أن ظل يكافح ويجالد وسط جبال القوقاز حتى شهر تشرين الثاني عندما داهمه الشتاء ، وكان قد استنفد قواه كلها .

أما المجموعة الثانية ، فقد عانت من مرارة الفشل ، وكان سحر اسم ستالينغراد يستهوي هتلر ، لانها كانت احدى مراكز الصناعة الهامة فضلا عن انها كانت نقطة دفاع قوية في الجناح الدفاعي ضد اندفاع قوات هتلر الرئيسية في اتجاه القوقاز ، وأصبحت ستالينغراد عبارة عن مغناطيس يجذب اليه كل ما لدى الجيش الالماني والقوة الجوية من عزم ومجهود ، هذا وقد اخذت المقاومة تشتد يوما بعد يوم ، حتى أن الالمان لم يتمكنوا من الوصول الى ضواحيها الا في الخامس عشر من ايلول بعد معارك ضارية في المنطقة الواقعة بين نهري الدون والفولجا ، كما استمرت هجماتهم طيلة الشهر التالي التي تحقق بسببها بعض التقدم مقابل خسائر فادحة ، ومع هذا فلم تستطع اية قوة من التغلب على الروس الذين كانوا يقاتلون بحماس واخلاص وسط خرائب مدينتهم ، ولذلك فان الجنرالات الالمان بدأوا يشعرون بالقلق ويحسون بالفزع والانزعاج ، لانه بعد أن مضت ثلاثة أشهر من القتال كانت لا تزال الاهداف الرئيسية للحملة وهي « القوقاز وستالينغراد ولينينغراد » في أيدي الروس ، بينما كانت خسارتهم فادحة وكان تعويضها متعذرا ، وكان هتلر بدلا من أن يرسل وحدات جديدة لتعوض الخسائر التي منيت بها الفرق العاملة هناك ، يشكل فرقا جديدة تفتقر الى التدريب ، وكانت سلامة التقدير العسكري تتطلب في ذلك الوقت وقف الزحف ولكن الرجل المغامر لا يصغي الى صوت العقل ، ولذلك فقد اضطر هولدر رئيس اركان حربه الى أن يعارضه معارضة شديدة وذلك في نهاية شهر ايلول ، فكان جزاؤه الطرد من منصبه ، وأستمر هتلر يدفع بجيوشه الى الامام .

وفي منتصف شهر تشرين الاول ساء وضع الجيوش الالمانية سوءا ظاهرا ، حيث كانت المجموعة الثانية منتشرة على جبهة تمتد سبعمائة ميل ، وكان الجيش السادس الذي يقوده الجنرال باولوس قد انهدت قواه وغدا منهوكا ومتعبا وكانت لا تحمي جناحاه الا قوات ضعيفة من جيوش حليفة مشكوك في صلاحيتها ، وكان فصل الشتاء قد اقترب ، وأصبح هجوم الروس المضاد متوقعا في كل لحظة واذا لم يكن في الامكان الاحتفاظ بجبهة الدون ، فان سلامة الجيوش العاملة في القوقاز ستغدو مهددة الى أقصى حدود التهديد ، ومع هذا فان هتلر كان يرفض البحث

في اي اقتراح يقضي بالانسحاب ، وفي التاسع عشر من تشرين الثاني شرع الروس في هجومهم التطويقي الذي أعدوا له ببسالة منذ عهد طويل ، مستهدفين شمالي ستالينغراد وجنوبيها ، لتحطيم الجناحين الالمانيين الضعيفين ، والتقى طرفا « الكماشة » الروسية بعد اربعة أيام وبذلك وقع الجيش الالماني السادس في الفخ بين الدون والفولغا ، ولما حاول الجنرال باولوس خرق الحصار المضروب حوله ، أصدر اليه هتلر أمرا بالصمود مكانه ، وبمضي الايام أخذ الضغط يشتد على الجيش المحاصر ، وأخذت شقة الارض التي يحتلها تضيق شيئا فشيئا وفي الثاني عشر من كانون الاول حيث كان الطقس باردا جدا قام الالمان بمحاولة يائسة لتحطيم الحصار الروسي وانقاذ رفاقهم المحصورين ولكن المحاولة منيت بالفشل ، وعلى الرغم من أن باولوس وجيشه قد صمدا بعد ذلك التاريخ مدة سبعة أسابيع ، الا أن مصيرهما قد تقرر بعد تلك المحاولة الفاشلة .

وقد بذلت محاولات جبارة لتموين جيش باولوس من الجو ، ومع هذا فلم يصل اليه الا قليل من المؤن بعد خسائر جوية فادحة ، وقد اشتد البرد الى حد مخيف ، ونفدت المواد الغذائية والذخائر ، وزاد انتشار وباء التيفود بين الجنود الذي كان سببا كبيرا في متاعب الجيش وشقائه ، ومع هذا فقد رفض الجنرال باولوس في الثامن من كانون الثاني انذارا نهائيا روسيا بالاستسلام ولذلك فان الروس قد شرعوا في اليوم التالي بالهجوم العنيف من الغرب وقاتل الالمان ببسالة ومع ذلك فلم يستطيعوا احتلال خمسة أميال الا في بحر عدة ايام .

واخيرا بدأت القوات الالمانية تتحطم ، ولم يحل السابع عشر من كانون الثاني حتى كان الروس قد غدوا على بعد عشرة اميال من ستالينغراد نفسها ، ثم قذف باولوس في المعركة بكل رجل قادر على حمل السلاح ، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح ، واندفع الروس في الثاني والعشرين من جديد ، مما اضطر الالمان الى التراجع الى ضواحي المدينة التي حاولوا احتلالها ، وهكذا اصبحت بقايا جيش عظيم محصورة في مستطيل طوله ثمانية اميال وعرضه اربعة ، وصمد الباقون تحت وطأة نيران المدفعية الحامية والغارات الجوية المستمرة في قتال يدور في الشوارع وقد ازدادت حالتهم سوءا ، حتى انه عندما واصل الروس ضغطهم عليهم ، بدأت هذه الوحدات المنهوكة تستسلم بالجملة ، وأسر باولوس ورجال أركان حربه وأبرق الماريشال فوردلوف في الثاني من شباط يقول ان المقاومة قد توقفت وان عدد الأسرى بلغ تسعين الف رجل ، وكانوا هم كل ما تبقى من جيش كان تعداده احدى وعشرين فرقة المانية وفرقة واحدة رومانية ، وهكذا انتهت محاولة هتلر لاحتلال روسيا عنوة ، وتحطيم الشيوعية ليحل محلها نوع من الحكم لا يقل عنها غرابة في الطغيان الجماعي ، وسجل ربيع عام ١٩٤٣ ، نقطة التحول في الحرب على الجبهة الشرقية ، وكان المد الروسي المتزايد حتى قبل معركة ستالينغراد نفسها ، قد دفع بالالمان الى الوراء على طول الجبهة ، وتم سحب الجيش الالماني بمهارة ونجاح من القوقاز ، ولكن الروس واصلوا الضغط على العدو ، واخرجوه من حوض الدون الى ما وراء حوض الدونتز ، وهو خط البداية في الهجوم الذي شرع فيه هتلر في الصيف

الماضي ، كما خسر الالمان الاراضي التي كانوا احتلوها في الشمال ، واصبحوا على بعد يزيد على المائتين وخمسين ميلا من موسكو ، كما تحطم الحصار المضروب على لينينغراد ، ومنى الالمان واتباعهم بخسائر ضخمة في الرجال والمعدات ، كما انهم فقدوا تفوقهم على الروس برا ، وكان عليهم ان يحسبوا الآن حسابا للقوة الجوية البريطانية المتزايدة والعاملة من بريطانيا وافريقيا في وقت واحد .

الا ان النصر لم يدخل البهجة والسرور على نفس ستالين ، ولو انه حضر مؤتمر الدار البيضاء ، لامكن الحلفاء الثلاثة ان يضعوا خطة مشتركة معا ، وبما انه لم يحضر فقد اتفقنا على ابلاغ قراراتنا اليه بوساطة البرقيات ، وعندما عدت الى الوطن ، بعثت اليه بموافقة الرئيس على الايضاحات الاضافية عن خططنا ، واكدت له فيها اننا سنحرر تونس في شهر نيسان ثم نستولي على صقلية ، كما اننا سنزحف بجيوشنا لعبور المانش في شهر آب او ايلول ، وقد رد علي بقوله انني لا أرى بي حاجة الى القول بأن تأخير احتلال تونس الى شهر نيسان بدلا من شباط قد خيب الآمال الى حد كبير ، كما انه طالب بفتح الجبهة الثانية (غزو فرنسا) في موعد اقرب من شهر آب ، حتى لا نعطي للعدو اية راحة ، ولانه يرى ان توجيه الضربة اليه من الغرب في الربيع او في مستهل الصيف هي من الاهمية بمكان عظيم .

كما ابرق الي في الخامس عشر من آذار يقول « مع ادراكي تمام الادراك ما لصقلية من اهمية الا انه لا يمكن الاستعاضة بها عن الجبهة الثانية في فرنسا ، وارى من واجبي تحذيركم تحذيرا شديدا ما سيترتب عليه من اخطار على قضيتنا المشتركة اذا تأخر فتح الجبهة الثانية في فرنسا ، وهو يثير القلق الشديد في نفسي وأجدني عاجزا عن السكوت عليه » .

وكان من الواضح ، أن اقصى عون فعال يمكن لنا أن نقدمه الى الروس هو الاسراع في تطهير شمالي افريقيا من قوات المحور ، وتوسيع نطاق الحرب الجوية على المانيا ، الا انه على الرغم من أن زحفنا من الشرق قد فاق في سرعته ما كنا نتوقعه ، فقد ظل وضع الحلفاء باعثا على القلق ، وكان قد أعيد تسليح مالطة ومدها بالمؤن ولذلك فقد قفزت من جديد الى مسرح النشاط والعمليات ، وكانت قواتنا البحرية والجوية التي تعمل من قواعدها الجديدة في الجزائر وبرقة ، تجوب مناطق واسعة وتحمي طرق الحلفاء البحرية ، وتنزل بتمريننات العدو ونجداته افدح الخسائر ، وبالاضافة الى فرض الحصار على تونس ، حيث كان السلاح الجوي الالماني لا يزال قويا ، فقد أخذت طائراتنا تصل الى موانىء ايطاليا ، وبدأت باليرمو ونابولي وسبيزيا تحس بوطأة الغارات الجوية مع زيادتها يوما بعد يوم وذلك بالاضافة الى الغارات التي كانت تشنها قاذفاتنا العاملة من وطننا على المدن الواقعة في شمالي ايطاليا ، كما ان الاسطول الايطالي لم يحاول أن يتدخل ، لما كانت تعانيه ايطاليا من أزمة في الوقود ، بالاضافة الى وجود الاسطول البريطاني وقد انقضت عدة أيام ، خلت فيها جزيرة صقلية من الوقود اللازم للبواخر التي تتولى حراسة نقل المؤن والعتاد الى تونس .

لكن كل هذه المظاهر ، لم تكن كافية لاخفاء الحقيقة الواقعة ، وهي اننا قد استنفذنا كل ما لدينا من جهد في اثناء المحاولة الفاشلة التي قمنا بها في شهر كانون الاول لاحتلال تونس ، وعلى الرغم من أن هتلر كان عاجزا عن حماية الممر القصير الذي يصل تونس بجزيرة صقلية ، الا انه امر باعداد جيش جديد لمواجهة « الهجومين المتوقعين في كل لحظة من الشرق والغرب » ، وفي ذلك الوقت عهد الى رومل بقيادة جميع قوات المحور ، فحشد فرقتين المانيتين مدرعتين شرقي فايد ليقذف بالفيلق الامريكي المواجه الى الوراء ، وليحول بينه وبين الهجوم على جناحه ومؤخرته ، عندما يشترك في معركة حامية مع الجيش الثامن ، الذي كان يواصل ضغطه من الشرق ، وبدأ الهجوم الالماني في الرابع من شباط ، وكانت قيادتنا قد اخطأت التقدير ، اذ حسبت ان الهجوم الرئيسي سيأتي من ناحية « فندق » لا من ناحية فايد ، ولهذا فقد تفرقت الفرقة الامريكية المدرعة الاولى التي يتولى قيادتها الجنرال اندرسون ، فلم يحل السابع عشر من شباط حتى كانت « القصرين وقربانه وسبيطله في أيدي الالمان ، واندفع رومل بعد ذلك في اتجاه الشمال ، في قتال عنيف ، ولم يحل ظهر الثاني والعشرين من شباط حتى كان رومل قد بدأ يتراجع تراجعا منظما ، وعاد خطنا الدفاعي الى ما كان عليه في السابق ، ولكن رومل لم ينته بعد ، اذ لم تمض اربعة أيام حتى عاد يشن سلسلة من الهجمات القوية على جبهة الجيش الخامس البريطاني ، الا أنه صد دون أن يحقق أي مكاسب ذات قيمة ، اما الى الشمال فقد كسب عدة اميال من الارض ، واضطرت قواتنا عند الساحل الى التراجع مسافة عشرين ميلا الى الوراء ، ثم صمدت في مواقعها الجديدة .

وتولى الجنرال اليكساندر في الاسبوع الاخير من شهر شباط قيادة الجبهة كلها ، وتولى مريشال الجوتيدر في الوقت نفسه طبقا لقرارات الدار البيضاء قيادة القوات الجوية الحليفة ، وكانت معركة تونس قد بلغت الآن قمتها ، وشن رومل في السادس من آذار اربع هجمات رئيسية على الجيش الثامن الزاحف ، مستخدما كل ما لديه من دبابات « ثلاث فرق مدرعة » ، ولكن هذه الهجمات صدت كلها بخسائر فادحة ، ولا ريب في أن هذه الهزائم كانت اعظم ما مني به رومل من نكسات في الحرب الافريقية كلها ، كما كانت في الوقت نفسه آخر ما قام به من عمل عسكري هناك ، فقد نقل عليلا الى المانيا ليخلفه أرنيم في قيادته .

وواصل الجيش الثامن زحفه الى الامام ، ليطبق على مواقع العدو الرئيسية في خط ماريت وهو خط محصن ومنظم كان الفرنسيون قد أقاموه على طول عشرين ميلا قبل الحرب لمنع الايطاليين من الهجوم على تونس ، وها هم اولاء الايطاليون يملئون هذا الخط ويحصنونه ضد البريطانيين ، وكنا في حاجة الى اسبوعين لاعداد العدة للهجوم على مثل هذه الخطوط الدفاعية المحصنة ، ووجهنا ضربتنا في الاسبوع الثالث من شهر آذار ، واحطنا بجناح العدو وفي السابع من نيسان وبعد قتال عنيف ، اتصلت دورية من الفرقة الهندية الرابعة بدورية من الفيلق الامريكي الثاني وتبادلا التحية ، وهكذا فقد اتصل الجيشان

اللذان بدآ المعركة وبعد كل منهما عن الآخر ميلا على اقل تقدير ، كما هاجمت طائراتنا من قاذفات اللهب والطائرات الامريكية « دور هوك » قافلة جوية للعدو يربو عددها على المائة طائرة ، على مقربة من رأس بون ، فتفرقت شذر مذر ودمر اكثر من خمسة عشر طائرة منها ، وفي الثاني والعشرين من نيسان اشتعلت النيران في ثلاثين طائرة أخرى بينها عدد كبير من ناقلات الزيت ، وكانت هذه الضربة قاضية بالنسبة لعناد هتلر واصراره على الاحتفاظ بموقع لا يستطيع البقاء فيه ولم تجرؤ اية طائرات للعدو بعد هذا التاريخ على الطيران في اثناء النهار ، وكانت قد حملت اكثر من اربعين الف رجل واكثر من اربعة عشر الف طن من المؤن الى افريقيا .

وفي السادس من ايار ، شن اليكساندر هجومه العظيم ، وبذلت طائرات الحلفاء مجهودا هائلا ، فقامت بأكثر من ألفين وخمسمائة غارة في اليوم الواحد ، وكان سلاح المحور الجوي قد ضعف تدريجيا ، ولم يكن في وسعه ان يقوم في هذه الازمة بأكثر من ستين غارة في اليوم ، ولذلك فقد اقتربت الازمة من نهايتها ، بعد ان احكمنا الحصار بحرا وجوا ، والذي كان سببا في ايقاف حركات العدو منذ مدة طويلة ، كما أن مجهوده الجوي آخذ في التوقف ، وقد تمكن الفيلق البريطاني التاسع من خرق جبهة العدو ، كما عبرت الفرقتان المدرعتان وسط قوات المشاة المعادية الطريق الموصل الى ماسييكوت والواقعة في منتصف الطريق الى تونس ، وواصلت في اليوم الثاني ضغطها حتى تمكنت الفرقة المدرعة السابعة من دخول مدينة تونس في السابع من ايار ، ثم انطلقت شمالا للاتصال بالقوات الامريكية الزاحفة شرقا ، وبعد ان انهارت المقاومة الالمانية امام الجبهة الامريكية الرئيسية كما وصلت الفرقة الامريكية التاسعة الى بنزرت ، وهكذا تم تطويق ثلاث فرق المانية بوساطة قوات الحلفاء فاضطرت الى الاستسلام في التاسع من ايار .

وقد زحفت الفرقة المدرعة السادسة تتبعها الفرقة البريطانية الرابعة والفرقة المدرعة الاولى الى يمينها شرقا بعد ان عبرت مدينة تونس ، ولكن هذه القوات توقفت امام مقاومة تم تنظيمها بسرعة على بعد بضعة اميال الى الشرق من المدينة ، الا أن دباباتنا تمكنت من الزحف على الطريق الساحلي حتى وصلت الى الحمامات على الساحل الشرقي في مساء العاشر من ايار ، كما تقدمت في الوقت نفسه الفرقة الرابعة فالتفت حول شبه جزيرة رأس بون دون أن تلقى اية مقاومة ، وهكذا سقطت قوات العدو في الفخ .

وبعث الينا الجنرال اليكساندر في الحادي عشر من ايار ، يقول : « أتوقع ان تنتهي كل مقاومة منظمة للعدو في خلال الثماني والاربعين ساعة القادمة ، وان تتم تصفية جميع قوات المحور بصورة نهائية في بحر يومين أو ثلاثة ، واعتقد ان عدد الاسرى حتى الآن قد تجاوز المائة الف ، وان كان هذا الرقم لم يتأيد بصورة رسمية بعد .

وكان الاميرال كاتنجهام قد اعد العدة لمواجهة انهيار العدو النهائي فأصدر أوامره الى جميع قواتنا البحرية بحماية مضايق

تونس والحيلولة دون اية محاولة قد يقوم بها العدو للجلاء عن تونس كما فعلنا في دنكرك ، كما اصدر اليها اوامره ايضا في الثامن من ايار « بأن يغرقوا ويحرقوا ويدمروا والا يتركوا شيئا للعدو يمر » وقد حاولت بعض الزوارق الفرار ولكنها وقعت جميعها في ايدينا واغرقناها وقد تم اغلاق جميع الطرق في الثامن عشر من ايار واستسلم العدو استسلاما كاملا وابرق اليكساندر ظهر الثالث عشر من ايار يقول :

سيدي :

« من واجبي ابلاغك بأن حملة تونس قد انتهت ، وتوقفت جميع مقاومة العدو ، وأصبحنا سادة الساحل الشمالي الافريقي كله » .

وليس في وسع اي انسان ان يشك في عظمة انتصار تونس ، انه يقف جنبا الى جنب مع ستالينغراد ، فقد أسرنا نحوا من ربع مليون جندي من جنود الاعداء ، ومني العدو بخسائر فادحة في الارواح ، كما أغرقنا ما لا يقل عن ثلث سفن مؤنه ، وهكذا تطهرت افريقية من أعدائنا وتم انقاذ قارة واحدة على الاقل ، ولهذا فقد شعرنا في لندن لاول مرة منذ نشوب الحرب بارتفاع صادق في المعنويات ، كما أستقبل البرلمان والوزراء بالحماس وسجل شكره البالغ مع اصدق عبارات التقدير للقادة العسكريين وكنت قد اصدرت الاوامر بأن تقرع جميع اجراس الكنائس في طول البلاد وعرضها ، ويؤسفني انني لم اسمع رنينها ، اذ كنت في ذلك الوقت أؤدي عملا آخر مهما في الطرف الثاني من المحيط الاطلسي .



ايطاليا تخرج من الحرب

لقد اخرتني اسباب مهمة جدا عن السفر الى واشنطن بعد ان انتصرنا في افريقية ، وسألت نفسي ، ماذا سنفعل بعد ذلك ، وهل سنكتفي بجني ثمار نصرنا في شمال افريقية ، أو نعمل كل ما في امكاننا لاخراج ايطاليا من الحرب ؟ وادخال تركيا الى جانبنا ؟ وهذه اسئلة كانت على جانب كبير من الاهمية والخطورة ، وعزمت على أن ابحث كل هذه المسائل مع الرئيس روزفلت ، مع مسألة تنسيق الخطط في المسرح الهندي ، وذلك لحسم الخلافات الخطيرة الخفية لاننا اذا لم نقم بحلها فورا فستؤدي الى المتاعب ، والى اضعاف عملنا في المدة المتبقية من العام ، وهذا هو السبب الذي دعاني لان أعقد مؤتمرا مع الرئيس .

ولما كنت لا زلت مريضا ، فقد قرر الاطباء أن أسافر بحرا بدلا من الطائرة ولهذا فقد غادرت لندن مع جميع اعضاء الوفد المرافق على البارجة « الملكة ماري » وكانت قد أعدت بصورة وافية لحاجتنا ، وهيئت غرف خاصة لجميع الاعضاء على السطح الرئيسي للبارجة مجهزة بالمكاتب والخرائط وبها قاعات فسيحة للاجتماعات ، ولذا فقد بدأنا نعمل في الحال ودون توقف ، لمدة اسبوعين وتناولنا بالبحث كل ناحية من نواحي الحرب مع رؤساء اركان الحرب وعدد آخر من ضباط أركانهم ، بحضور اللورد ليثرز وكبار موظفي وزارة النقل البحري والجنرال ايسماي وموظفي مكتبي كوزير للدفاع ، وكذلك قادة الفيالق الهندية وهم الماريشال ويفل والاميرال سومرفيل وماريشال الجو الاعلى بيرس ، وكان سبب وجود هؤلاء جميعا هو تنسيق العمل مع اصدقائنا الامريكيين للقيام بعمليات سريعة من الهند ولمعرفة آرائهم فيما سيطلب اليهم من العمل .

وفي اثناء رحلتنا كانت اللجنة المشتركة لاركان العمليات الحربية والمخابرات تعقد اجتماعات مستمرة ، على حين كان رؤساء أركان الحرب يجتمعون مرة او مرتين في كل يوم ، وكنت أنقل آرائي اليهم كل صباح على شكل ملاحظات وتوجيهات مكتوبة ، كما كنت أتحدث اليهم دائما بعد الظهر او في المساء ، واستمرت هذه الابحاث والمناقشات طيلة ايام الرحلة ، وقد وصلنا الى قرارات خطيرة مدروسة بعناية ، كما اتفقنا اتفاقا تاما على العمليات التي يجب أن تتم في أوروبا ، ولما كنا قد قررنا في مؤتمر الدار البيضاء الهجوم على صقلية ، واتخذت الاستعدادات لتنفيذ هذا القرار ، ولما كان رؤساء اركان الحرب البريطانيين يرون الهجوم على البر الايطالي لاحتلال

راس جسر في مقدمة الحذاء الايطالي يتبعه هجوم آخر على الكعب كمقدمة للزحف على كل من باري ونابولي ، فقد اعدوا مذكرة بذلك لتسليمها الى رؤساء الحرب الامريكيين بمجرد وصولنا الى واشنطن لتكون أساسا للمجادثات .

هذا وقد خشينا الا يتم الاتفاق مع أصدقائنا الامريكيين حول الجبهة الثانية في الهند ، وكنا قد أعددنا الكثير من الخطط على الورق ولكنه لم يتوافر لنا الوقت لاظهارها بصفة عملية .

ولما كان الرئيس روزفلت وافراد حاشيته يؤملون في القوة العسكرية التي تستطيع الصين اعدادها اذا اتيح لها الحصول على الاسلحة والمعدات الكافية وكانوا يخشون من انهيارها اذا لم تصلها هذه المعدات ولما كانت لم ترق لي فكرة اعادة احتلال بورما عن طريق الزحف عن طرق اسام غير المعبدة ، وكنت لا أحبذ احتلال الادغال ، وكان تفكيري متجها الى القوات الجوية والبحرية والبرية والمواقع الهامة ، ورأيت انه من الضروري الا يشعر اصدقاؤنا بأننا غير راغبين في اقتحام المصاعب ولكي يقتنعوا اننا على استعداد لتلبية طلباتهم — فقد وافقتهم على آرائهم .

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم الثاني عشر من ايار اجتمعنا والرئيس وجميع رؤساء الاركان البريطانيين والامريكيين في مكتب الرئيس لاستعراض الاوضاع بصورة عامة ووضع أسس العمل لاجتماعاتنا ومؤتمراتنا ، وقد طلب الي الرئيس أن أبدأ الحديث ، وكانت خلاصة الافكار التي سردتها على النحو التالي :

« علينا الا ننسى أن هناك ١٨٥ فرقة المانية في الجبهة الروسية ، وقد حطمنا الجيش الالماني في افريقيا ، وعن قريب سنصبح غير مشتبكين معهم في اية جبهة او ميدان ، ولا ريب ان المجهود الروسي عظيم ، واننا في وضع المدين لهم ، ولعل خير طريقة لتخفيف الضغط على الجبهة الروسية في عام ١٩٤٣ هو ان تخرج ايطاليا سواء بالرضا او بالاكراه من الحرب ، وبذلك نرغم المانيا على ارسال قوات ضخمة للمحافظة على البلقان ، ويوجد لنا جيش كبير وقوة جوية كبيرة من المقاتلات في بريطانيا ، ولدينا ايضا خيرة الجنود وأحسنهم تدريبا في البحر الابيض المتوسط ، كما ان للبريطانيين وحدهم ثلاث عشرة فرقة في شمالي افريقية ، واذا افترضنا اننا انتهينا من صقلية في شهر آب ، فماذا تعمل هذه القوات في الفترة الواقعة بين هذا التاريخ وبين عام ١٩٤٣ ، والتي قد تمتد سبعة أشهر أو ثمانية لكي نبدأ عملية عبور القناة ؟ ليس في وسعنا أن نترك هذه القوات بدون عمل ، ولا شك في ان هذه الفترة الطويلة ستترك اثرا سيئا تحمل وحدها أعباء لا يمكن تصورها » .

وقد وافقني الرئيس روزفلت ، على انه يحبذ الاشتباك مع المانيا لتخفيف العبء عن روسيا ، وأعرب عن رأيه في أن خير طريقة لارغام المانيا على القتال هي أن نشرع في عملية عبور القناة ، وقد قلت للرئيس بأننا سبق ان اتفقنا على الا نشرع في مثل هذه العملية قبل

عـام ١٩٤٤ ، ولذلك فانه مـن اللازم الآن ان نستخدم جيوشنا في الهجوم على ايطاليا ، حتى اذا انهارت ، فاننا سنحتل الموانيء والمطارات الضرورية للقيام بعمليات مقبلـة في البلقان وجنوب شرقي أوروبا ، ويكون في وسعنا أن نقيم حكومة ايطالية تتولى الاشراف على البلاد ، تحت توجيه واشراف الحلفاء ، وطلبت مـن اعضاء اللجنـة المشتركة لرؤساء أركان الحرب ومستشاريهم أن يدرسوا هذه الخطط دراسة وافية وأن يمحصوها .

وقد ظهر ان هناك اختلافات في وجهات النظر لا يمكن تذليلها بسهولة او التغلب عليها ، وأدى تسرب بعض الاخبار من كبار القادة العسكريين الامريكيين في هذه الفترة الـى الشيوخ الديموقراطيين والجمهوريين الى مناقشتها في مجلس الشيوخ ، ولكنه مـع الصبر والاناة أمكن تذليل هذه الخلافات وحلها تدريجيا ومما ساعد على ذلك وجودي مع الرئيس حيث كنت أقيم في البيت الابيض وكنـا نرى بعضنا بعضا في كل ساعة من ساعات النهار ، وكنا دائما متفقين في الآراء ، وهكذا حلت تلك الازمة المستعصية .

كما أسفرت الاتفاقات التي تمت بين الاركان على غزو صقلية ، وقد شعرت بقلق عظيم لان لجنة الاركان لـم تتخذ توصيات محدودة بأن يتبع احتلال صقلية غـزو البر الايطالي ، وكنت اعرف ان آراء أركان الحرب الامريكيين تتجه الـى جزيرة سردينيا ، لانهـم كانوا يرون ان هذه الجزيرة يجب ان تكون الهدف الباقي للقوات الكبيرة المحتشدة في البحر الابيض المتوسط في المدة الباقية من عام ١٩٤٣ . وكنت أرى أن هـذا الاتجاه غـير سليم لاسبـاب عسكريـة وسياسيـة ، لان الروس يحاربون في جبهة شاسعة ودمهم يسيل انهارا في هـذه المعركة الجبارة ، ولا يصح لنا أن نبقي مليونا ونصف مليون من خيرة جنودنا بالاضافة الى القوات الجوية والبحرية الهائلة بدون عمل مدة سنة تقريبا .

واتضح لي ان الرئيس غـير مستعد للضغط علـى مستشاريه بقبول فكرة غزو ايطاليا بصورة محدودة ، ولـما كان هـذا الهدف الرئيسي هو الذي حملني على قطع المحيط الى واشنطن ، فقد رأيت نفسي عاجزا عن الوقوف بهذه القضية عند هـذا الحد ، وقال لـي هوبكنز انـك اذا أردت أن تقبل وجهة نظرك ، فعليك أن تستمـر مواصلا الالحاح لمدة اسبوع آخر ، ولـما كانت النتيجة غـير مضمونة تماما ، فقـد أحسست بخيبة أمل ، وطلبت الى الرئيس في الخامس والعشرين مـن ايـار بصفة شخصية ان يسمـح للجنرال مارشال بالمجيء معي الى الجزائر ، بعـد ان أوضحت للمؤتمر بأنـي أشعر ببعض الحرج في بحث هـذه القضايا مـع الجنرال ايزنهاور دون أن يشترك معنا في الحديث ممثل أمريكي كبير ، اذ ربما تفسر موافقة ايزنهاور على رأيي في واشنطن انها كانت بسبب الضغط عليه ، ولـما علمت بأن الجنرال مارشال سيرافقني في رحلتي شعرت بالارتياح .

وفي صباح اليوم التالي غادرت واشنطن بطائرة ركب معـي فيها

الجنرال مارشال ورئيس اركان حرب الامبراطورية وايسماي وبقية أعضاء الوفد البريطاني ، وقد دارت بيننا محادثات كثيرة اثناء هذه الرحلة الجوية الطويلة وكانت مثمرة ، ولما اقتربنا من جبل طارق بحثنا عن طائرات الحراسة فلم نجد لها أثرا وهبطنا مطار جبل طارق في المساء وكان في استقبالنا الحاكم ، وبالنسبة لان الوقت كان متأخرا فلم يعد في امكاننا مواصلة الطيران الى الجزائر في تلك الليلة ، وقد استضافنا الحاكم في الدير الذي يقيم فيه ، ولم نترك جبل طارق الا بعد ظهر اليوم التالي وقد أتيحت لنا الفرصة للطواف بالجنرال مارشال في جميع انحاء الصخرة وزرنا مشروع تقطير المياه الجديد كما زرنا مواقع بعض المدافع وبعض المستشفيات والثكنات ، وهبطنا الى المكان المفضل عند الحاكم ، وهو الشرفة الصخرية الجديدة التي حفرت داخل الصخر الى عمق بعيد ، وقد نصبت فيه المدافع التي تسيطر على البرزخ الذي يصل الصخرة بالبر وعلى الارض الحرام بين بريطانيا واسبانيا ، وقد ثبت لي انه مهما كانت الاخطار التي قد تتعرض لها صخرة جبل طارق ، فانها لن تخشى ابدا هجوما يشن عليها من البر الاسباني .

هذا وقد احاطت بنا أثناء ركوبنا الطائرة الى الجزائر ، اثنتا عشرة طائرة مقاتلة لحراستنا ، ووصلنا في المساء الى الجزائر ، حيث كان الجنرال ايزنهاور وبيدل سميث والاميرال اندرو كاتنجهام والجنرال اليكساندر وعدد من الاصدقاء في انتظارنا ، وذهبنا فورا الى منزل الاميرال كاتنجهام المجاور لمنزل الجنرال ايزنهاور ، التي وضعها تحت تصرفي مدة اقامتي في الجزائر ، وقد شعرت بالسعادة طوال الثمانية ايام التي قضيتها في الجزائر وتونس ، وأبرقت الى ايدن طالبا اليه المجيء والانضمام الينا ، ليشرف بنفسه على اعداد الترتيبات اللازمة للمقابلة التي مهدنا لها بين جيرو وديغول وللقيام ببعض المهام الاخرى .

ولما كانت تحدوني الرغبة في الحصول على قرار بغزو ايطاليا ، قبل مغادرتي لافريقية في حالة الانتهاء من احتلال صقلية ، فقد نقلت انا وبروك آراءنا الى الجنرال اليكساندر والاميرال اندرو كاتنجهام وماريشال الجو تيدر والجنرال مونتغمري فيما بعد ، وقد وافقت جميع هذه الشخصيات على آرائنا ، ورأوا في احتلال ايطاليا الثمرة الطبيعية لتلك الانتصارات التي بدأت بمعركة العلمين وكان أملنا ان نحصل على موافقة حليفتنا العظمى ، لاني لاحظت من جانب ايزنهاور بعض التحفظ بعد أن استمع الي جميع حججنا ، كما أن مارشال قد ظل صامتا حتى اللحظة الاخيرة .

ولما كانت لدينا قوات تبلغ ثلاثة اضعاف القوات الامريكية ، كما كانت لدينا اربعة اضعاف قواتهم البحرية ومثل هذه النسبة من الطائرات ، كما كنا قد خسرنا منذ معركة العلمين وحدها دون أية اشارة الى الخسائر السابقة في البحر الابيض المتوسط ثمانية أضعاف ما خسرته أمريكا من الرجال وثلاثة أضعاف ما خسرته من السفن ؛ فقد كانت ظروف الاجتماع مواتية للبريطانيين ، فضلا عما لاقته هذه

الحقائق الواضحة مما تستحقه من عناية واعتبار لدى القادة الامريكيين الذين لم يكونوا يجهلون تفوقنا عليهم في المنطقة في كل شيء ، كما كان تقبلنا للجنرال ايزنهاور كقائد أعلى ، فقد اقتنع الامريكيون بصواب رأينا .

وعقدنا اول اجتماع لنا في منزل الجنرال ايزنهاور في الجزائر في مساء التاسع والعشرين من آيار ، وترأس الجنرال ايزنهاور الجلسة بوصفه مضيفنا يساعده فيها كل من مارشال وبيدل سميث ، وأخذت مقعدي أمامه ومعي بروك واليكساندر وكاتنجهام وتيدر وايسماي وآخرين ، وقال مارشال ان رؤساء أركان الحرب الامريكيين يرون أنه ليس من الحكمة اتخاذ قرار بشأن غزو ايطاليا حتى تتبين نتيجة الهجوم على صقلية ، وينجلي الوضع في روسيا تمام الجلاء والطريقة المنطقية هي أن نعد قوتين منفصلتين في مكانين متفرقين ولكل منهما قيادته الخاصة ، وسيجري تدريب احدى هاتين القوتين على القيام بعملية حربية ضد جزيرتي سردينيا وكورسيكا بينما تدرب الثانية على القيام بعمل حربي في البر الايطالي ، وهنا قال ايزنهاور انه اذا انتهت عملية صقلية بسهولة فانه سيكون راغبا في مهاجمة ايطاليا نفسها ووافقه اليكساندر على رأيه .

وهنا قال رئيس أركان حرب القوات الامبراطورية ، ان معركة هائلة ستنشب عما قريب بين الروس والالمان ، وان علينا ان نبذل كل ما في وسعنا لمساعدة روسيا ، وان نحمل الالمان على تجزئة قواتهم وتوزيعها ، بعد ان انتشروا في مساحات شاسعة ولا يمكنهم تخفيضها لا في روسيا ولا في فرنسا ، ولعل المكان الصالح لتجزئة هذه القوات هو ايطاليا ، واذا أمكننا أن نخرج ايطاليا من الحرب فستجد المانيا نفسها مضطرة الى استبدال الفرق الايطالية الست والعشرين الموجودة في البلقان بقوات المانية كما ستجبر على تعزيز ممر برنو والريفييرا والحدود الاسبانية والايطالية ، وان توزيع هذه القوات هو ما نرمي اليه لتأمين عبور القناة .

وأعلن ايزنهاور انه اذا نجحت عملية صقلية في بحر أسبوع ، فانه سيعبر فورا مضايق سينا ويقيم رأس جسر له في البر الايطالي ، واعربت له عن وجهة نظري الشخصية في أن عملية صقلية ستنتهي في الخامس من آب ، فاذا تحقق ذلك فسنهاجم فورا ايطاليا ، على شرط ألا تكون المانيا قد بعثت بعدد كبير من فرقها الى هناك نظرا لاحتمال قيام رد فعل تركي في مصلحتنا .

وعندئذ أوضح بروك عدد ما لدينا من قوات في البحر الابيض المتوسط بعد أن حذف سبع فرق يجب ان تعود الى بريطانيا لتشترك في عملية اجتياز القناة وفرقتين لتغطية التزامات بريطانيا العسكرية لتركيا ، وان ما سيتبقى في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط سبع وعشرون فرقة حليفة ، وقال ان من المؤسف الا نتمكن بمثل هذه القوات الضخمة من عمل شيء في الفترة ما بين آب وايلول من هذا

العام ، وعلى ذلك فقد اتضحت لي رغبة جميع القادة العسكريين في ان نمضي سريعا وبأجرأ ما يكون من خطط .

واجتمعنا ثانية بعد ظهر الحادي والثلاثين من ايار ، بعد ان وصل المستر ايدن وابديت رأيي في ان نتجه الى غزو جنوب ايطاليا ولربما تكون طوالع المعركة تقتضينا اتخاذ سبيل معاكس . ولم يخالفني الجنرال مارشال في هـذا الرأي ، الا انه قال ان من الخير تأجيل القرار الى ما بعد البدء في عملية صقلية ، واضاف انه من الضروري ان نعرف شيئا عن رد الفعل الالماني لنستطيع ان نقرر ما اذا كان الالمان سيقاومون مقاومة حقيقية في جنوب ايطاليا ، او سينسحبون الى نهر البو وهل في وسعهم ان يعتمدوا علـى الايطاليين ، وان نعرف امداداتهم التي اتخذوها في سردينيا وكورسيكا والبلقان ، والتعديلات التي ستطرأ على أوضاعهم في الجبهة الشرقية ، وكان هو والجنرال ايزنهاور ورجال رياسة الاركان المشتركة يدركون تمامـا ، حقيقـة مشاعري في صدد غزو ايطاليا ، وأبدوا رغبتهم في ان يتركوا اختيار الهدف التالي الى ما بعد صقلية .

وقد قلت ان رغبتي الوحيدة ، هي ان ارى ايطاليا قد أزيحت من طريقنا ، وان اشهد روما في قبضتنا ، واني لا احتمل ان ارى هذا الجيش الضخم عاطلا عن العمل في الوقت الذي نستطيع ان نقحمه في معركة لضرب ايطاليا واخراجها من الحرب ، وأكدت لهم ان برلماننا وشعبنا سيفرغ صبرهما اذا تعطل الجيش عن العمل .

ويجدر بي هنا ان أوضح بعض الامور التي كانت موضوعا لسوء التفاهم والخلاف ، فقد طلب مني المستر ايدن ان أبين الوضع الذي ستكون عليه تركيا اذا خرجت ايطاليا من الحرب ، وهل هذا سيمهد الطريق لادخالها في الحرب الى جانبنا عندما تصل قواتنا الى منطقة البلقان ، وعلى الرغم من انني كنت متفقا مع ايدن على سياستنا الحربية فقد خشيت ان يؤدي تحوير العبارة الى تضليل اصدقائنا الامريكيين ، فقد قال انه ليس من الضروري ان نبعث الى البلقان الآن بجيش طالما ان الاتراك سيبدأون العمل في اللحظة التي نستطيع فيها أن نشكل تهديدا مباشرا للبلقان .

وهنا طلبت الى الجنرال اليكساندر ان يبدي رأيه ، فقال ان تامين رأس جسر على البر الايطالي يجب أن يكون جزءا من خطتنا في الوقت الذي تجري فيه عملية صقلية ، ولو ان رأس الجسر في ايطاليا ربما لا يكون منيعا كل المناعة مما يتطلب اي تعديل في خطتنا وعملياتنا لاحتلال قبرص ، وعلينا أن نواصل الحركة دون توقف بعد أن يبدأ هجومنا على صقلية ، وقد يصبح التقدم اكثر صعوبة كلما تحركنا شمالا في البر الايطالي ، الا أن هذا لا يمكن ان يحول بيننا وبين المضي الى ابعد ما نستطيع كجزء من عملية صقلية ، وكثيرا ما تقع في الحروب امور لا يكاد الانسان يصدقها فقبل بضعة اشهر ، ما كان ليصدق ان ما حدث لرومل وفيلقه الافريقي بالفعل ، قد يحدث مطلقا كما كان من الصعب أن يصدق ان ثلثمائة الف الماني سينهارون في أسبوع

واحد ، وقد تم القضاء على قوات العدو الجوية حتى انه اصبح في وسعنا أن نقيم عرضا عسكريا لكل قواتنا العاملة في شمالي افريقيا دون ان نخشى خطرا من طائرات العدو .

وفي الحال انبرى كاتنجهام لتأييده ، وقال ان علينا في حالة نجاح العملية في صقلية ، ان نعبر المضايق فورا دون اي تأخير ، واختتم الجنرال ايزنهاور الاجتماع بقوله ، ان واجبه يدعوه الى الحصول على المعلومات الكافية في صدد المراحل المبكرة من غزو صقلية ، وان يبعث بها الى رياسة أركان القيادة المشتركة في وقت مبكر ، لتقرير الخطة التي يجب علينا ان نتبعها دون توقف او انقطاع ، وانه سيشفعها بالتوصيات التي يراها على أساس الاوضاع الراهنة ، وأعرب عن أمله في ان يتمكن القادة الثلاثة المسئولون اي اليكساندر وكاتنجهام وتيدر من أن يوضحوا له بصفة رسمية آراءهم في جميع هذه الخطط .

وبعد ان امضينا يومين في بعض الاماكن الجميلة في شمالي افريقيا ، قام الجنرال مارشال بزيارة قصيرة لبعض القوات الأمريكية ، ثم رافقني ومعنا الجنرال اليكساندر في زيارة جميع القادة العسكريين وبعض الوحدات وقد أحسسنا بشعور النصر يملأ الجو ، بعد أن تم تطهير شمالي افريقية من قوات العدو ، وأصبح في حوزتنا ما يربو على ربع المليون أسير .

وقد شعرت بأننا حققنا تقدما كبيرا في محادثاتنا وان الجميع اصبحوا يؤيدون فكرة الهجوم على ايطاليا ، ولهذا فعندما عقدنا اجتماعنا الختامي في الثالث من حزيران لخصت النتائج التي توصلنا اليها وأثنيت بالغ الثناء على الجنرال ايزنهاور .

وبعد انتهاء هذا الاجتماع عدت انا وايدن طائرين الى الوطن عن طريق جبل طارق ، ولما كانت الصحافة تنقل انباء وجودي في شمال افريقية بصورة كاملة ، فقد نبه ذلك الالمان ، وقد ادى هذا الى مأساة سببت لي الكثير من الالم ، فعندما كانت الطائرة التجارية العادية على وشك مغادرة مطار لشبونه تقدم منها رجل ضخم الجثة وفي فمه سيجارا ، على انه سيسافر عليها ، ولكن ظهر انه من الجواسيس الالمان ، حيث ابرق الى مرجعه يقول اني موجود في تلك الطائرة ، وعلى الرغم من ان هذه الطائرات التجارية كانت تسافر بانتظام في الاشهر الماضية بين انجلترا والبرتغال دون أن تتعرض لها الطائرات الالمانية ، الا ان طائرة حربية المانية ، تلقت الامر فورا بقطع الطريق على طائرة الركاب المذكورة ، فهاجمتها واسقطتها ، وقضى ثلاثة عشر راكبا نحبهم وبينهم الممثل البريطاني المشهور ليسلي هوارد ، ومن الصعب على الانسان ان يفهم كيف يمكن ان يتصور عاقل ان رجلا مثلي ، تحت تصرفه كل ما لدى بريطانيا العظمى من موارد عظيمة ، يمكن ان يحجز مقعدا في طائرة ركاب عادية غير مسلحة ، ولا حراسة لها ، تطير من لشبونه الى الوطن في وضح النهار ، ولكننا كنا قد قمنا في الليل بدورة واسعة من جبل طارق فوق المحيط ووصلنا إلى الوطن دون أي حادث الا انني أصبت بما يشبه الصاعقة عندما علمت بما أوقعه القدر الاعمى بالآخرين .



الجزء الرابع

النصر والمأساة

١٩٤٢ - ١٩٤٥

« لقد فشل النصر الساحق الذي حققه الحلف الاعظم حتى الآن ، في ان يأتي للعالم القلق بالامن والسلام »



سقوط موسوليني

الآن وبسبب دخول الولايات المتحدة في الحرب بعد هجوم اليابان على بيرل هاربور ، قد اصبح انتصار الحرية أمرا مؤكدا ، وفعلا قد وصلنا الى نقطة التحول في الحرب الكونية الثانية ولم يأت شهر ايار حتى كانت جميع القوات الالمانية والايطالية في القارة الافريقية قد ابيدت او أسرت ، كما اوقفت انتصارات الامريكيين منذ عام في بحر المرجان وجزيرة مايدواي ، التوسع الياباني في المحيط الهادي ، كما اتضح لهتلر أن عليه ان يدفع الثمن غاليا للغلطة الكبرى التي ارتكبها في محاولة احتلال روسيا عن طريق الغزو ، وعما قريب سيجد الشعب الالماني نفسه وحيدا في اوروبا ، وكان في وسعنا ان نرى الميزان ينقلب الى مصلحتنا في نيسان عام ١٩٤٣ ، حيث كانت قوافل الغواصات المعادية تضطر الى البقاء تحت سطح البحر وكانت مطاردتها تستمر وتتواصل ، بينما تقوم وحداتنا الحارسة من بحرية وجوية بحماية القوافل ، والصمود للغواصات المهاجمة ، وتوافر لدينا الآن القوة الكافية لتشكيل مجموعات مستقلة من السفن التي تمثل دور فرق الفرسان ، وكان هذا كل أملي ، ولما كان الالمان قد انزلوا الى البحر مائتين وخمسا وثلاثين غواصة وهو اكبر عدد دفعوا به حتى الآن ، وكان بحارتها تنقصهم الخبرة ، فلم تكن هجماتهم تصيب اهدافها بدقة ، ولهذا فقد هبطت خسائرنا الى ثلثمائة الف طن ، كما اغرقوا لنا أربعين غواصة في شهر ايار وحده كما ان خسائرنا في شهر حزيران هبطت الى اقل رقم شهدناه منذ دخلت الولايات المتحدة الحرب وأخذت القوافل تجتاز طريقها بأمان .

كما اصبح في وسع جيوشنا ، ان تعبر البحر لمهاجمة هتلر في اوروبا ، وذلك بسبب زوال قوة المحور من الشمال الافريقي ، كما أعيد فتح طريق القوافل المباشرة الى مصر والهند واستراليا ، في حماية قواتنا البحرية والجوية على طول الطريق من جبل طارق الى السويس ، وبذلك لم تعد قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح وهي الطريق التي كلفتنا غاليا من الوقت والجهد والحمولة ، وأدى ذلك الى توفير خمسة واربعين يوما بالنسبة الى كل قافلة تسافر الى الشرق الأوسط .

ولما كانت الهزيمة التي نزلت بغواصاتنا قد اثرت على جميع الاحداث مما جعل الباقي منها يتفرق في مساحات شاسعة ونائية في جنوب الاطلنطي والمحيط الهندي ، واصبحت وسائل دفاعنا اقل قوة ، هذا وقد استمرت عملياتنا الجوية الهجومية في خليج بسكاي في الازدياد والقوة يوما بعد آخر ، حيث أغرقنا للعدو سبعا وثلاثين غواصة في شهر تموز وحده ، كما أغرقنا في الاشهر الثلاثة الاخيرة من العام ثلاثا وخمسين غواصة ، بينما كانت خسارتنا في هذه المدة نفسها اكثر من سبع

واربعين باخرة تجارية ، وقد بذلت غواصاتنا في اشهر الخريف العاصفة جهود المستميت ولكن جهودها ذهبت هباء ، وفشلت في استعادة التفوق في شمالي الاطلنطي .

هذا وقد اعلن الاميرال دونتس الالماني ، ان عام ١٩٤٤ سيكون عاما ناجحا برغم ما فيه من صعوبات ومشقات وقال اننا سنحطم طريق تموين بريطانيا بسلاح جديد من الغواصات ، وكان لهذه الثقة بعض ما يبررها ، فقد كانت المانيا تبذل مجهودا هائلا ، لبناء طراز جديد من الغواصات يستطيع التحرك بسرعة اكبر تحت الماء وقطع مسافات طويلة ، وفي الوقت نفسه سحبت معظم غواصاتها القديمة لكي يتم تجهيزها بسلاح « شنوركل » الجديد ، وقد مكنها هذا الابتكار الجديد من اعادة تعبئة بطارياتها في الوقت الذي تكون فيه تحت الماء ، وهكذا امكنها ان تتجنب اكتشاف الطائرات لها ، واصبح من الواضح ان الغاية من الغواصات المجهزة بهذا الجهاز الجديد ، هي مقاومة عبور القناة الانجليزية عندما تصبح قوات الحلفاء متاهبة لغزو اوروبا .

اما مسالة غزو صقلية فقد كان من راي الجنرال ايزنهاور ان الهجوم عليها يجب أن يتم اذا كانت الغاية منه تطهير الطريق البحري في البحر الابيض المتوسط ، اما اذا كان غرضنا غزو ايطاليا فيجب احتلال جزيرتي سردينيا وكورسيكا لان هاتين الجزيرتين تقعان بالقرب من رأس الحذاء الايطالي ، وعلى الرغم مما في هذه النظرية العسكرية من وجاهة فاني لم أكن موافقا عليها ، ولكن القوى السياسية تلعب دورها .

وبذلك اعددنا العدة لغزو صقلية ، وابتدانا عمليات النزول فيها مسترشدين بالتجارب التي مرت بنا في شمال افريقية ، واشتركت فيها ثلاثة آلاف سفينة وقطعة انزال كانت تحمل مائة وستين الف رجل واربعة عشر الف سيارة وستمائة دبابة والفا وثمانمائة مدفع ، وقد سارت الامور سيرا مرضيا ، نتيجة لحسن التعاون بين اركان القيادة المشتركة ، وكنت لاسباب سياسية قد تخليت عن قيادة الحملة في شمال افريقية واسنادها للولايات المتحدة ، اما الآن فقد دخلنا مرحلة جديدة هي غزو صقلية وقد تقرر ان يتخذ القرار النهائي لغزو ايطاليا على ضوء ما يسفر عنه القتال في صقلية ، فقد شعرت انه من الضروري أن يكون البريطانيون متساوين مع حلفائهم في تحمل اعباء القيادة ، وقد وافق حلفاؤنا الامريكيون على ذلك ، وسلمونا القيادة الفعلية للقتال ، وتقرر ان يتولى اليكساندر مجموعة الجيوش الخامسة عشرة التـي تضم الجيش الامريكي السابع الـذي يقوده الجنرال باتـون ، والجيش البريطاني الثامن الذي يقوده مونتغمري ، وتولى قائد القوات الجوية تيدر قيادة قوات الحلفاء الجوية كما تولى الجنرال كاننجهام قيـادة قوات الحلفاء البحرية . وكان الجنرال ايزنهاور هو القائد العام للقوات كلها ، وبدات الغارات الجوية العنيفة على الجزيرة في الثالث من تموز لتعطيل مطاراتها ومطارات سردينيا ايضا ، مما اضطر مقاتلات العدو الى الدفاع واضطر قاذفاته البعيدة المدى الى الانسحاب الى قواعد جديدة في البر الايطالي ، وعندما اقتربت قوافلنا من الجزيرة كنا قد ضمنا السيطرة الجوية على المنطقة ، ولم تحاول بوارج المحور وطائراته

ان تعرقل الحملة ، وتمكنا عن طريق التمويه ، ان نجعل العدو في حالة من الشك ، ولم يتمكن من معرفة الهدف الحقيقي من هجومنا حتى اللحظة الاخيرة ، لان حركاتنا البحرية واستعداداتنا العسكرية كانت في مصر مشيرة الى ان حملتنا ستستهدف اليونان وكنا قد حددنا اليوم العاشر من تموز لبدء الغزو وفي صباح التاسع من تموز تحركت الاساطيل الجبارة من الشرق والغرب الى جنوب مالطة استعدادا لابحارها الى شواطىء صقلية ، وفي الوقت المحدود اتجهت كلها الى ميدان الهجوم وكانت هذه العملية هي اضخم عملية جرت في التاريخ حتى الآن ، الا ان الرياح اشتد هبوبها بعد الظهر حتى بلغت حدا من العنف جعل النزول الى البر امرا خطرا ولا سيما على الشواطىء الغربية ، ولما كنا نود تأجيل النزول عند الضرورة ، وكان الوقت قد مضى على امكان التأجيل ، فقد شعرنا بالقلق بالنسبة لقوافل الانزال الصغيرة التي كانت تصطرع مع البحر ، وقد تغرق بعضها ، كما لقيت قواتنا الجوية الهابطة اسوأ حظ حيث قذفت الطائرات الامريكية بأكثر من ثلث رجال لواء المظلات الاول ، قبل الاوان ، مما ادى الى غرقهم في البحر ، اما الثلثان الباقيان فقد نزلا فوق القسم الجنوبي من صقلية ، وتمكن ثمانية ضباط وخمسة وستون جنديا من احتلال الجسر وصمدوا فيه الى ان وصلتهم النجدة بعد اثنتي عشرة ساعة ، وكانت عمليات النزول من البحر تحت ستار من الحماية الجوية المستمرة ناجحة كل النجاح ، وتمكنا من الاستيلاء على اثني عشر مطارا ، وبدأ العدو بعد ان افاق من ذهول المفاجأة يقاتل بشدة ، وبعد ثمانية وثلاثين يوما من القتال ابرق الجنرال اليكسباندر يقول : « في الساعة الواحدة من صباح اليوم السابع عشر من تموز عام ١٩٤٣ طرد آخر جندي الماني من جزيرة صقلية واصبحت الجزيرة كلها في ايدينا » .

وفي التاسع عشر من تموز قامت قوة ضخمة من قاذفات القنابل الامريكية بالاغارة على مطار روما ، وعلى ارصفة السكة الحديدية فيها فأوقعت اضرارا فادحة وكان اثرها النفسي مؤلما ، واصبح انهيار ايطاليا السريع امرا محتملا ، لكن الامريكيين اصروا على عدم القيام بأي عمل جدي في البحر الابيض المتوسط قد يؤدي الى التأثير على العمليات الحربية الاخرى ، وكان هذا التحفظ سببا في خلق الكثير من المتاعب عندما بدأ نزولنا في ساليرنو ، وبينما كانت المناقشات الحادة دائرة بيننا ، تبدل الموقف فجأة كليا بسبب سقوط موسوليني .

وكان على الدوتشي ان يتحمل الآن اعباء الكوارث العسكرية التي قاد بلاده اليها بعد هذه السنوات الطويلة من الحكم ، حيث كانت سلطته مطلقة ، ولم يكن في وسعه ان يلقى اللوم على الملكية او النظام البرلماني او الحزب الفاشي او اركان الحرب ، اما وقد انتشرت الآن بين الطبقات العليمة ببواطن الامور في ايطاليا ، الآراء بأن المحور قد خسر الحرب ، فان اللوم قد اتجه الى ذلك الرجل الذي قذف ببلاده بتهوره الى جانب الفريق الخاسر .

هذا وكان قد اجرى بعض التنقلات بين قادته العسكريين ومستشاريه السياسيين ، فعين في شهر شباط الجنرال امبروزيو

خلفا للجنرال كافاليرو في رياسة أركان الحرب ، وكان امبروزيو مع صديقه الدوق اكوروني وزير البلاط المستشارين الشخصيين للملك ، وكانا منذ اشهر يأملان في قلب حكم الدوتشي ووضع نهاية للعهد الفاشي ، ولكن موسوليني كان لا يزال مسيطرا على مسرح العمليات الاوروبي وكأنه عامل اساسي فيه ، وقد شعر بالاسى عندما طلب اليه قائده الجديد سحب الفرق الايطالية فورا من البلقان ، لانه كان يعتقد ان وجود هذه القوات يقيم شيئا من التوازن في وجه السيطرة الالمانية على أوروبا ، ولم يدرك موسوليني ان الهزائم في الخارج وانحلال الروح المعنوية في الداخل قد افقداه وضع الحليف بالنسبة الى هتلر ، وكان لا يزال يتعلق بأهداب السلطة وحلمها ، ولهذا فقد عارض في طلب امبروزيو الملح ، وكان يخشى من احتمال قيامه بعمل شخصي متطرف .

ولما كان الملك الدستوري الحذر ، على اتصال مستمر منذ شهر شباط ، بالماريشال بادوليو الذي كان قد اقيل من منصبه بعد الكارثة اليونانية عام ١٩٤٠ ووجد فيه الملك اخيرا انه الشخص الذي يستطيع ان يعهد اليه بادارة شئون الدولة ، فقد تم وضع الترتيبات اللازمة لذلك ، وتقرر اعتقال موسوليني في السادس والعشرين من تموز ، ووافق امبروزيو على ايجاد العملاء الذين يتولون اعتقاله ، وقد استعان الجنرال بغباء ، بعناصر من الحرس الفاشي القديم الذين كانوا يبحثون عن امكانية تجديد شباب الحزب ، ورأوا دعوة أكبر هيئة للحزب وهي المجلس الفاشي الاعلى الذي لم يجتمع منذ عام ١٩٣٩ ، الوسيلة لمواجهة الدوتشي بانذار نهائي ، وقاموا في الثالث عشر من تموز بزيارة موسوليني واقنعوه بدعوة المجلس الاعلى الى اجتماع رسمي يعقد في الرابع والعشرين من شهر تموز .

الا ان موسوليني غادر روما في التاسع عشر من تموز يرافقه الجنرال امبروزيو بطريق الجو لمقابلة هتلر في منزل له في فيلتربيه على مقربة من ريميني ، وقد أطال الفوهرر الحديث عن وجوب بذل مجهود اضخم واكبر ، وقال ان السلاح السري الجديد سيصبح جاهزا للاستعمال ضد بريطانيا في الشتاء القادم ، وأضاف أن واجبنا الدفاع عن ايطاليا « وان تصبح صقلية بالنسبة للعدو كما كانت ستالينغراد بالنسبة الينا » .

وحث امبروزيو رئيسه على ان يقول لهتلر بصراحة ان ايطاليا لا تستطيع المضي في الحرب ، ولكن الديكتاتور الايطالي لم يفه بشيء ، ودخل موظف ايطالي ثائر قاعة الاجتماع اثناء حديث هتلر عن الوضع يقول ان روما تتعرض في هذه اللحظة لغارة جوية عنيفة من الاعداء ، وقد وعد هتلر بارسال امدادات اخرى الى صقلية ، وعاد موسوليني الى روما لا يحمل شيئا جديدا ، وعندما اقترب بطائرته شاهد سحبا عالية من الدخان الاسود تتصاعد من مئات العربات المحترقة في محطة قطارات ليتوريو ، وفي الحال ذهب لزيارة الملك فرآه « عابسا وشديد العصبية » وقال الملك ان الموقف خطير ، وليس في وسعنا ان نستمر لمدة اطول ، بعد ان اصبحت صقلية الآن في ايدي الأعداء ورد موسوليني بانه يأمل في اخراج ايطاليا من المحور في الخامس عشر من ايلول .

وفي هذا الوقت وصل الى روما دينوغراندي الفاشي المخضرم ؛ ووزير الخارجية السابق ، والذي عارض في اعلان بلاده الحرب على بريطانيا ، وزار زعيمه القديم في الثاني والعشرين من تموز ، وابلغه صراحة ، بأنه يعتزم التقدم باقتراح لتأليف حكومة انقاذ وطني ، واعادة الملك الى صلاحياته كقائد أعلى للقوات المسلحة . ولما اجتمع المجلس في الساعة الخامسة من مساء اليوم الرابع والعشرين من تموز ، اقترح غراندي ، دعوة الملك الى تولي زمام السلطة والخروج من عزلته ، وتحمل مسئولياته وألقى الخطاب الذي وصفه موسوليني بأنه خطاب عنيف من رجل وجد اخيرا متنفسا لحقده العميق الدفين ، وسارع تشيانو صهر موسوليني الى تأييد غراندي واتضح للجميع ان هناك فتنة سياسية توشك ان تقع ، وعندئذ طلب الحاضرون الاقتراع حول هذا الاقتراح ، وفعلا بدأت عملية الاقتراع ، وقد كتب موسوليني يقول : « كان في وسع كل انسان ان يعرف موقف كل عضو من الاعضاء حتى قبل الاقتراع ، فقد كانت هناك جماعة من الخونة تفاوضت مع التاج وهناك أيضا فريق من الجهلة الذين لم يكونوا يدركون خطورة الاقتراع ولكنهم أدلوا بأصواتهم على كل حال » وقد وافق تسعة عشر عضوا على اقتراح غراندي بينما عارضه سبعة ، وامتنع عضوان عن التصويت ، ولذلك فقد قال موسوليني : « لقد اثرتم ازمة ضد العهد فليكن ما اردتم » وانتهى الاجتماع .

وفي اثناء ذلك ، كان قد اعد أمر اعتقال موسوليني في هدوء وصمت حيث كان قد بعث الدوق اكوارون وزير البلاد بتعليماته الى امبروزيو الذي اوعز الى وكلائه الموثوق بهم في الامن العام بتنفيذ الخطة .

وقضى موسوليني صباح الاحد الخامس والعشرين من تموز في مكتبة ، وقام بزيارة بعض الاحياء التي عانت من الغارة الجوية الاخيرة ، وطلب مقابلة الملك فسمح له بهذه المقابلة في الساعة الخامسة مساء ، وعندما وصل الى المكان الذي يقيم فيه الملك ، راى في كل مكان تعزيزات جديدة من رجال الكاربينيري ، وكان الملك في ملابس الماريشالية يقف في مدخل الدار ، ودخل الرجلان الى غرفة الجلوس وقال الملك : « لم يعد هناك اي جدوى يا عزيزي الدوتشي فقد تمزقت ايطاليا شر ممزق ، وانهارت معنوية الجيش والجنود لا يريدون ان يمضوا في القتال ، وقد أصبحت الآن في هذه اللحظة الرجل الذي يكرهه الايطاليون جميعا ، وانا اعتقد ان الرجل الذي يصلح الآن لتولي المسئولية هو الماريشال بادوليو » فرد موسوليني قائلا : انك تتخذ قرارا خطيرا ، لان قيام الازمة في هذه اللحظة سيحمل الشعب على الاعتقاد بأن السلام اصبح متوقعا ، طالما ان الرجل الذي أعلن الحرب قد طرد من منصبه ، وستعتبر الازمة نصرا للحلفاء ولا سيما ستالين وعلى كل حال اتمنى حظا حسنا للرجل الذي سيتحمل المسئولية .

وعهد الملك في ذلك المساء الى بادوليو بتاليف حكومة من القادة العسكريين وكبار الموظفين ، واذاع الماريشال في المساء الانباء الى العالم ، وبعد يومين نقل الدوتشي بأمر من الماريشال بادوليو الى السجن في جزيرة بونزا .

وهكذا انتهى عهد موسوليني الديكتاتوري في ايطاليا والذي دام واحدا وعشرين عاما ، ارتفعت فيه ايطاليا من مهاوي الخطر البلشفي الذي كان يهددها عام ١٩٢٩ الى مركز في اوروبا لم تكن ايطاليا قد بلغته من قبل ، وكان موسوليني قد بعث في حياتها القومية حافزا جديدا ، وبنى لها امبراطوريتها الافريقية ، وشيد لها الكثير من الاعمال العامة المهمة ، وكان قد تغلب بعزيمته وحدها عام ١٩٣٥ على عصبة الامم ، وعلى خمسين دولة تتزعمها دولة واحدة وأكمل احتلاله للحبشة ، وكان نجاحه وانتصاره يلقى التأييد لدى عدد كبير من الايطاليين ، الا أن غلطته الكبرى كانت في اعلانه الحرب على فرنسا وعلى بريطانيا العظمى بعد انتصار هتلر في عام ١٩٤٠ ، ولو لم يرتكب هذا الخطأ لحافظ على ايطاليا في موقف الدولة التي تحقق التوازن والتي ينشد ودها الفريقان وهكذا مضى قدما في طريق الدمار .

وفي هذه اللحظة اقترف هتلر غلطة كبرى في ميدان الاستراتيجية والتوجيه الحربي ، فقد كان عليه بعدما تبين له من احتمال انسحاب ايطاليا من صفه وبعد التقدم الكبير الذي حققته روسيا ، والاستعدادات الواضحة التي تقوم بها بريطانيا والولايات المتحدة لعبور القناة ، ان يعمد الى تركيز جيشه القوي وتنميته كقوة احتياطية مركزية ، وكان في وسعه بهذه الطريقة ان يستخدم المزايا الرفيعة للقيادة الالمانية وقواتها المسلحة ، وأن يستفيد في الوقت نفسه من الوضع المركزي الذي يحتله ، الا انه حاول الاحتفاظ بكل ما كسبه ، فوزع قوات هائلة في البلقان وايطاليا ، ولو احتفظ بقوة احتياطية مركزية قوامها ثلاثون او اربعون فرقة من خيرة الجنود واقدرهم على الحركة ، لتمكن من ان يوجه ضربته الى اي من خصومه الذين يتقدمون نحو بلاده ، وان يخوض معركة فاصلة له كل الامل في كسبها والفوز فيها ، وكان في وسعه مثلا ان يقاتل البريطانيين والامريكيين في اليوم الاربعين او الخمسين من نزولهم في نورماندي في العام التالي بقوات جديدة متفوقة وكانت الغلطة التي ارتكبها في توزيع قواته ، هي العامل الذي مكننا من تنفيذ الهجوم الرئيسي المباشر في اوضاع تتيح لنا آمالا فسيحة وتحقق لنا نصرا عظيما .

ولما عاد هتلر من اجتماعه الاخير بموسوليني ، كان واثقا من ان الابقاء على ايطاليا في الحرب لا يمكن ان يتم الا عن طريق تطهير الحزب الفاشي وتشديد الضغط الالماني على القادة الفاشيست ، ولكن في الخامس والعشرين من تموز بدأت تصل الى مقر قيادة هتلر تقارير مزعجة من روما واتضح في المساء ان موسوليني اما ان يكون قد استقال او اقيل ، وان الملك اختار بادوليو ليخلفه في الحكم ، وتبين اخيرا ان القيام بأية عملية ضد الحكومة الايطالية الجديدة يتطلب سحب عدد

من الفرق من الجبهة الشرقية ، في الوقت الذي يحتمل فيه أن تقوم روسيا بهجوم في اية لحظة ، ووضعت الخطط لانقاذ موسوليني واحتلال روما ، ودعم الفاشية الايطالية كما وضعت خطة اخرى لمواجهة احتمال توقيع بادوليو الهدنة مــع الحلفاء ، وذلك بالاستيلاء على الاسطول الايطالي واحتلال الموانىء والمواقع المهمة في ايطاليا كلها ، والسيطرة على الحاميات الايطالية الموجودة في البلقان .

وفي السادس والعشرين من تموز ، حث هتلر مستشاريه علــى ان يعملوا فورا لا يتغلب عليــه الانجليز والامريكيون ويضيعوا علــى الالمان ثمرة انتصاراتهم وقال : انه يجب أن نعيد الحزب الفاشي الى الحكم ، والا فاننا سنتعرض لخطر ضياع ايطاليا نهائيا وانتقالها الى جانب الانجلو سكسونيين .



موانـىء مركبـة

بالنسبة لما طرأ على الموقف من تحسن مرموق في توجيه العمليات الحربية ضد صقلية للتغلب عليها واحتلالها ، خصوصا بعد ان تطورت الاوضاع في ايطاليا على النحو الذي ذكرناه في الفصل السابق ، فقد ازداد لدي الشعور بالحاجة الى الاجتماع بالرئيس روزفلت لعقد مؤتمر للبحث في هذه التطورات ، ولما كان الرئيس يرى ان يكون مكان عقد المؤتمر في مدينة « كويبك » بكندا ، وقد رحب المستر مكنزي كينج رئيس وزراء كندا بذلك فقد استقر الراي على عقد المؤتمر بها ، وقد اشترط الرئيس الا تدعى كندا للاشتراك فيه ، حتى لا يكون ذلك حافزا للبرازيل وغيرها من الدول الامريكية على المطالبة بالاشتراك فيه وكذلك استراليا وغيرها من دول الممتلكات المستقلة .

وفي الرابع من آب ابحرنا على الباخرة « الملكة ماري » حيث كان معي اكثر من مائتي شخص بالاضافة الى خمسين جنديا من البحرية الملكية ، ولما كانت الموضوعات التي سنبحثها في المؤتمر تشمل الحملة في البحر الابيض المتوسط التي كانت قد بلغت ذروتها ، وكذلك الاعداد لعملية عبور القناة عام ١٩٤٤ وادارة دفة الحرب بصورة عامة في المحيط الهندي ، واسهامنا في الصراع ضد اليابان ، ولما كنا سنبحث ايضا في مختلف الشئون المتعلقة بالعمليتين الحربيتين في الهند والشرق الاقصى ، فقد صحبت معي ثلاثة من ضباط الازكان الذين اوفدهم الجنرال مورجان ، وكذلك مدير العمليات الحربية في قيادة الجنرال ويفل ، وأخذت معي أيضا ضابطا شابا هو الزعيم وينجيت الذي كان قد أبرز كفاية ملحوظة في قيادة القوات غير النظامية في الحبشة وفي معارك الادغال في بورما ، وقد شرع يشرح لي نظريته في طريقة التغلب على اليابانيين في حرب الادغال عن طريق انزال جماعات من الجو وراء خطوط العدو لتهديدها ، وقد استهوتني هذه الفكرة كثيرا ورغبت في ان يقوم بنقلها الى رؤساء اركان الحرب ايضا .

ولما كنت أعرف أن الرئيس روزفلت يرحب بمقابلة الشباب الباسل فقد اخذت معي ايضا قائد الجناح جاي جيبسون الذي كان قد عاد قبل قليل من حملته الرائعة التي دمر فيها سدي الموهن والايدر في المانيا ، وهما السدان اللذان يزودان حوض الروهر الصناعي بالقوة الكهربائية ، كما جاءت معي زوجتي وابنتي ماري التي عملت كمرافق عسكري لي .

وفي اثناء الرحلة كنت ادرس مع رؤساء اركان الحرب مختلف النواحي المتعلقة بالمشكلات التي سنبحثها مع اصدقائنا الامريكيين ، وفي صباح ذات يوم ، جاءني الزعيم ماكلين مع ضابطين آخرين من

اركان حرب الجنرال مورجان ، وفتحوا أمامي خريطة كبيرة واخذوا يوضحون عليها في سرد دقيق مقنع الخطة التي اعدت لعملية عبور القناة والهبوط في فرنسا ، وكانت هذه المرة الاولى التي استمع فيها الى خطة كاملة بجميع دقائقها وتفاصيلها المتعلقة بالارقام وحمولة السفن والمبنية على اساس دراسة طويلة اعدها ضباط يمثلون البلدين .

وقد ضاق مجال الاختيار وانحصر في موقعين ، اما نورماندي او خليج كاليه ، وكان الاخير يضمن لنا احسن تغطية جوية ممكنة ، ولكن كانت خطوط العدو الدفاعية في هذه المنطقة أمنع منها في أي مكان آخر ، ولما كان الجنرال مورجان ومستشاروه يؤيدون فكرة غزو الساحل النورماندي ، وهي الفكرة التي كان يحملها مونتباتن منذ البداية ، فليس هناك شك في أن هذا القرار كان سليما ، لان نورماندي كانت هي المكان الافضل بالنسبة لان الخطوط الدفاعية فيها ليست من المناعة الى الحد الذي هي عليه في خليج كاليه ، كما ان الشواطىء كانت مناسبة وصالحة لنزول القوات الغازية الكبيرة فيها ، ولانها ايضا كانت بعيدة الى حد ما عن قوة العدو الرئيسية وفي وسعنا ان نعزل ميناء شربورج ونستولي عليه بسرعة ، اما بريست ففي وسعنا ان نلتفت حولها وان نحتلها فيما بعد .

ولما كنت افكر منذ عهد بعيد في موضوع سفن الانزال وفي معدات انزال الدبابات وذلك ببناء ارصفة عائمة فوق سطح البحر ، وكان العمل قد مضى قدما في اعداد كل هذه المعدات ، على اثر مذكرة وجهتها الى اللورد لويس مونتباتن قائد العمليات المشتركة ، وذلك في الثلاثين من ايار عام ١٩٤٢ ، وقد قلت فيها :

« يجب ان تقوم هذه الارصفة مع التيار ، وعلينا ان نتغلب على مشكلة المرسى ، ومن الواجب ان يكون في البواخر السنة جانبية وجسور متحركة هي من الطول بحيث تستطيع الوصول الى مراسي الارصفة العائمة ، أرجو أن تجدوا لي افضل حل لهذه المشكلة ، وارجو الا تناقشوا القضية فان المتاعب نفسها هي التي ستتولى النقاش » .

واتجه الراي فيما بعد الى خلق مناطق صناعية من الماء المحصن من التيارات الهوائية وذلك بوساطة حواجز للماء توضع على سفن خاصة وتنقل الى المكان المعين بقوتها الذاتية ثم يجري اغراقها وفقا للخطة الموضوعة في المكان المحدود ، وقد اقترح هذه الفكرة الكومندر هيوز هاليت في حزيران عام ١٩٤٣ ، وقد وضع مخطط شامل لبناء ميناءين صناعيين كاملين يمكن سحبهما واعدادهما للعمل بعد بضعة ايام من بدء عملية الانزال الاصلية ، كما أنه في وسع قطع الانزال ان ترسو عليها وأن تفرغ حمولتها .

وقد اقتنعت الآن بالفوائد العظيمة التي يمكن ان نحصل عليها من استخدام هذه الموانىء والتي تضمن هبوط جيوش كبيرة تعدادها مليون من الجنود وقد تزاد الى المليونين مع كل ما تحتاج اليه من معدات حديثة واجهزة وذلك عند مهاجمة قطاع الهافر ــ همبورج ، وبناء على ذلك فقد وضع مصممو المشروع ورؤساء اركان الحرب البريطانيين

ثلاثة افتراضات ، وافقت عليها تمام الموافقة كما وافق عليها اصدقاؤنا الامريكيون ، وكما قبلها الروس ايضا وهي :

١ ــ يجب ان يكون هناك هبوط ملحوظ في قوة الطائرات الالمانية المقاتلة في شمالي اوروبا الغربي قبل ان يبدأ الهجوم .

٢ ــ يجب الا يكون هناك في شمالي فرنسا عند شن الهجوم اكثر من اثنتي عشرة فرقة المانية متحركة ، وان يتمكن الالمان في بحر الشهرين التاليين من اعداد اكثر من خمس عشرة فرقة اخرى .

٣ ــ يجب تذليل مشكلة تموين قوات ضخمة في وجه التيارات المائية الشديدة في قناة المانش لفترة طويلة ، ولضمان هذه النتيجة يجب علينا أن نتمكن من بناء ميناءين كبيرين على الاقل .

ولما كنت راضيا عن تمكني من تقديم هذا العرض الشامل الى الرئيس مدعما بتأييدي الكامل فسيقتنع به اصدقاؤنا الامريكيون ، ولذلك فقد عملت على حشد اعظم الخبراء في هذه الشئون من كل من لندن وواشنطن في « كويبك » لوضع الحلول لمختلف المشكلات الفنية .

كما دارت لي احاديث اخرى مع رؤساء اركان الحرب حول مختلف القضايا المتعلقة بحرص الهند والشرق الاقصى ، واستعراض كل ما يتعلق بالقيادة العليا البريطانية المواجهة لليابان ، وبدا لي ان سير العمليات الحربية على نطاق واسع ضد اليابان يتطلب ايجاد قيادة عليا للحلفاء مستقلة كل الاستقلال ، وقد وافقني رؤساء اركان الحرب على رأيي ، واعدوا مذكرة بشأنها لكي يبحثوها مع زملائهم الامريكيين في « كويبك » وقررت ان اقترح اسم الاميرال مونتباتن لتولي القيادة العليا على الرئيس في اول فرصة ممكنة ، ولما عرضت الامر على الرئيس وافق عليه .

هذا وقد وصلنا الى هاليفاكس في التاسع من شهر آب ومنها انتقلنا الى القطار الذي اوصلنا الى « كويبك » وفي السابع عشر من آب وصل الرئيس ومعه هاري هوبكنز ، كما جاء ايدن وبراندن براكن طائرين من انجلترا واثناء اجتماعاتنا ، تواردت الينا الانباء عن مساعي ايطاليا لعقد الصلح .

وقررنا أن نبدأ في بحث عملية « السيد الاكبر » اي عبور القناة على ضوء المخططات التي اعدها الجنرال مورجان والتي بحثها رؤساء اركان الحرب وهي تتلخص فيما يلي :

« تكون هذه العملية ، اول مجهود تقوم به القوات البرية والجوية البريطانية والامريكية ضد المحور في اوروبا وذلك في اليوم الاول من ايار عام ١٩٤٤ .

توزيع الموارد المتيسرة بين عملية « السيد الاكبر » والعمليات الاخرى في البحر المتوسط بالقوات التي خصصت لها في المؤتمر السابق الذي عقدناه في واشنطن في شهر ايار الماضي ، الا اذا قررت رياسة اركان الحرب المشتركة خلاف ذلك .

ولما كانت الولايات المتحدة قد حصلت على القيادة العليا في شمالي افريقية فقد اتفقت مع الرئيس على ان يتولى الجنرال بروك رئيس

اركان حرب القوات البريطانية قيادة عملية « السيد الاكبر » ولما كان من المقرر ان تبدأ هذه العملية بقوات بريطانية وامريكية متساوية ، ولما كان مقر القيادة في بريطانيا نفسها ، فقد كان هذا الترتيب هو الافضل .

اما بالنسبة الى الشرق الاقصى ، فقد كان الخلاف الرئيسي ، بين رؤساء اركان الحرب البريطانيين والامريكيين ، منصبا على ان بريطانيا كانت تطالب بمركز لائق في الحرب ضد اليابان ، منذ اللحظة الاولى التي تتم فيها هزيمة المانيا وكنت أحث اصدقائي في لجنة رؤساء اركان الحرب على ان يطالبوا بهذه النقطة اذ ان كل ما كنت اخشاه في هذه المرحلة من الحرب ، ان يقول الناقدون الامريكيون « ان انجلترا قد اخذت منا اقصى ما نستطيعه لمساعدتها على هزيمة هتلر ، وستقف في منأى عن الحرب ضد اليابان تاركة ايانا وحدنا في المعركة » ولكننا ازلنا هذه الفكرة تماما عندما اجتمعنا في « كويبك » وعلى الرغم من عدم اتخاذ قرار في صدد العمليات الفعلية التي ستتخذ ، الا أننا قررنا ان نركز جهودنا الرئيسية في عمليات هجومية تستهدف « اقامة اتصال بري مع الصين وتحسين الطرق الجوية والمحافظة عليها » .

كما استقر الرأي على ان نعمل على الوصول الى هزيمة اليابان في بحر اثني عشر شهراً من انهيار المانيا .

اما بالنسبة للحرب في البحر الابيض المتوسط . فقد عقد ايزنهاور في العاشر من آب مؤتمراً عسكريا لقادته العسكريين ، ليتشاوروا في كيفية نقل الحملة الى ايطاليا .

ولما كان لالمانيا ست عشرة فرقة في شمالي ايطاليا تحت قيادة روميل وفرقتان بالقرب من روما ، واربعة اخرى في الجنوب تحت قيادة كيسلرنج ، كما ان في امكانها تعزيز هذه الفرق بعشرين فرقة اخرى كان قد تم سحبها من روسيا لاعادة تنظيمها في فرنسا .

ولما لم يكن في وسعنا حتى في مدة طويلة ان نجمع مثل هذا العدد من الفرق ولو ان لنا الآن السيطرة على الجو والبحر ، وكان الهجوم الذي تركزت عليه الافكار الآن يعتبر مغامرة خطرة وجريئة ، وذلك بقصد الاستيلاء على ميناءي نابولي وتورنتو ليمكن استخدامهما .

ولما كان هدفنا الاول احتلال المطارات وخصوصا القريب منها من روما وكذلك المطارات الموجودة في فوجيا لصلاحيتها للقاذفات الثقيلة وكذلك المطارات الكائنة في مونتيكو وفينو ، فقد قرر الجنرال ايزنهاور ، ان يبدأ الهجوم في اول شهر ايلول من جهة مضايق مسينا وانزال بعض القوات في كالابريا بقصد احتلال نابولي ، وانزال فيلق آخر من البريطانيين والامريكيين على شواطىء خليج ساليرنو المتازة ، حيث كان هذا الخليج هو الحد الاقصى الذي كان في استطاعة طائراتنا المقاتلة العاملة من مطار صقلية ان تحميه توطئة لزحف قواتنا شمالا لاحتلال نابولي .

ولما كانت رياسة اركان حرب القيادة المشتركة قد طلبت الى انا والرئيس ان نخول لايزنهاور احلال موضوع سردينيا وكورسيكا المرتبة الثانية من ناحية الاولوية ، وكان هذا هو ما سعيت اليه منذ زمن بعيد ، فقد وافقنا كما وافقنا على ان تنزل الطائرات فرقا من الجنود لاحتلال المطارات الواقعة في جنوبي روما .

غـزو ايطاليـا

انتهى مؤتمر « كويبك » في الرابع والعشرين مـن شهر آب ، وطار زملاؤنا كل الى مقره في مختلف الجهات ، وقررت أن أقضي بضعة أيام من الراحة في مزرعة للماشية يملكها العقيد كلارك على بعد خمسة وسبعين ميلا من كويبك وتقـع وسط الجبال بجوار بحيرة الجليد الكبرى ، ولاعد في الوقت نفسه الخطاب الذي تقرر أن أذيعه في الحادي والثلاثين من آب ، وفي هـذه المدة شهدت اجتماعا للوزارة الكندية وحدثت أعضاءها بكل ما لا يعرفونه عن المؤتمر وسير الحرب ، وقد أتيح لي شرف تأدية اليمين كعضو في المجلس الخاص التابع للوزارة الكندية وعدنا الى كويبك في التاسع والعشرين من آب وقد شهدت اجتماعا آخر للوزارة الكندية ، وفي اليوم الحادي والثلاثين أذعت حديثي الى الشعب الكندي والى العالم المتحالف معنا ، قبل سفري الى واشنطن ، ولما عدت الى البيت الابيض تحدثت الى الرئيس في مختلف الشئون وجاء الاميرال باوند ايضا ليبحث معنا احدى النقط البحرية . وقد وجه اليه الرئيس عدة اسئلة عن سير الحرب بصفة عامة ، وقد آلمني ان أراه وهو الموثوق به ، قد فقد ما يمتاز به من دقة في سرد الحقائق التي كانت اعظم مزاياه ، وقد تبين أن ذلك راجع الى اصابته بنوبة مفاجئة سببت له شللا في جانبه الايمن ، والتي بسببها قدم استقالته وقد قبلتها في الحال ، وابرقت الى الاميرالية معينـا نائب الاميرال سيفريت ليتولى القيادة بدلا منه .

ولما كانت الاحداث تتوالى سراعا في ايطاليا ، اثناء محادثاتنا في كويبك وكنت أتابع مع الرئيس سير مفاوضات الهدنة السرية مـع حكومة بادوليو ، فقد تعمدت اطالة مدة اقامتي في الولايات المتحدة ، لاظل على اتصال وثيق بأصدقائنا الامريكيين في هذه اللحظة الدقيقة ، وفي يوم وصولي الى واشنطن جاءتنا أول أنباء رسمية بموافقة بادوليو على الاستسلام للحلفاء .

وفي الثالث مـن ايلـول وقـع الجنـرال كاستيلانو الشروط العسكرية لاستسلام ايطاليا وذلك في غابة زيتون علـى مقربة مـن سيراقوزه ، وفي فجر اليوم التالي عبر الجيش الثامن مضايق مسينا ونزل في ايطاليا .

هذا وقد أوفدنا الجنرال الامريكي تيلور في السابع مـن ايلول في مهمـة سرية ليرتب مـع رياسة أركـان الجيش الايطالي تسليمنا المطارات الواقعة حول العاصمة ليلة التاسع من ايلول ، الا انـه في ذلك الوقت طلب الجنرال كاستيلانو حماية الحلفاء لايطاليا ، بسبب

وجود قوات كبيرة من الالمان مسيطرة على المطارات الايطالية ، ولان الجيش الايطالي كان في وضع معنوي سيىء ويفتقر الى العتاد والذخائر ، مما كان له أسوأ الأثر ، وحينئذ طلب الجنرال تيلور مقابلة الماريشال الايطالي ، وكان كل شيء في ذلك الوقت معلقا في كفة القدر لان القادة الايطاليين كانوا يخشون أن يؤدي اعلان الاستسلام الى احتلال الالمان الفوري لروما ، والى نهاية حكومة بادوليو ، فلما قابله في صباح اليوم الثامن من ايلول ، رجاه في تأجيل اذاعة شروط الهدنة لان المطارات اصبحت في أيدي الالمان ، ولذلك فقد ابرق الجنرال تيلور الى القيادة العليا في الجزائر بانه لا يستطيع ضمان سلامة مطارات روما ، ولذا فقد تقرر العدول عن عمليات الهبوط من الجو في هذه المطارات .

الا ان الجنرال ايزنهاور صمم على اعلان شروط الهدنة في الحال ورفض طلب بادوليو ، متبعا اياها بالبيان الذي اصدره الماريشال بادوليو بعد ساعة واحدة من روما ، وهكذا تم استسلام ايطاليا .

ولكن القوات الالمانية بدات في تطويق روما ، وتحصن بادوليو والاسرة المالكة في مقر وزارة الحربية ، ومنها نقلوا في خمس سيارات الى ميناء بسكارا على بحر الادرياتيك ، وكان في انتظارهم طرادان ، ابحرت عليهما العائلة المالكة وبادوليو وأعضاء حكومته وكبار الموظفين الى ميناء برنديزي فوصلوا اليها صباح يوم ١٠ ايلول ، حيث شرعوا في اقامة حكومة ايطالية معادية للفاشية في المناطق التي يحتلها الحلفاء .

وبعد مغادرة الفارين روما ، وصل اليها الماريشال كافيليا بطل معركة فيتوريو فينيتو في الحرب الاولى ، وحمل على عاتقه مفاوضة القوات الالمانية التي تحاصر روما ، ووقع معها هدنة عسكرية ، وبذلك اصبحت الفرق الالمانية لها كامل الحرية في التجول داخل المدينة .

وبعد ذلك غادرت القوات الرئيسية للاسطول الايطالي ميناءي جنوا وسبيزيا في رحلة بحرية الى مالطة لتستسلم للحلفاء ، وذلك تنفيذا لتعليمات الحلفاء ، وقد تعرضت هذه القوات اثناء سيرها على مقربة من ساحل كورسيكا الغربي لهاجمة الطائرات الالمانية ، فأصيبت بارجة القيادة « روما » وانفجرت وغرق كل من عليها بما فيهم القائد العام للاسطول الايطالي الاميرال برجاميني ، كما اصيبت البارجة « ايطاليا » باضرار جسيمة ايضا ، وواصلت بقية قطع الاسطول سيرها تاركة بعض القطع الصغيرة لانقاذ الناجين ، وقد استقبلها الاسطول البريطاني في عرض البحر ورافقها الى مالطة ، كما غادرت ايضا مجموعة اخرى من الاسطول الايطالي ميناء تورينتو في التاسع من ايلول فوصلت الى مالطة صباح الحادي عشر من ايلول وقد ابرق الاميرال كاتنجهام الى الاميرالية يقول « ان اسطول البوارج الايطالية يرسو الآن تحت حماية مدافع قلعة مالطة » .

وهكذا سارت الامور بالنسبة للحلفاء سيرا مرضيا ، فقطع الجيش الثامن مضايق مسينا ولم يلق اية مقاومة واحتل ريجيو ، ثم بدأ زحفه

على طرق كالابريا الجبلية الضيقة ، وابرق الينا الجنرال اليكساندر في السادس من ايلول يقول : « ان الالمان يقاتلون في آخر معركتهم ويخربون ويحرقون المدن » وفي هـذا الوقت كانت وحدات الحلفاء البحرية من مختلف الاشكال تقطع المضيق بين صقلية والبر الايطالي تنقل الرجال والعتاد ، ولم يتعد القتال بعض المناوشات البسيطة .

وتلقيت من الجنرال اليكساندر ليلة الثامن من سبتمبر ، رسالة تبشرني ببدء الهجوم عندما كنت اغادر كويبك عائدا الى الوطن ، وقد بعثت اليه بالرد التالي : « آمل ان تكون مراقبا لكل ما يدور في المعركة التي يتوقف عليها كل شيء الآن ، كما يجب الا نضن بأي شيء على معركة نابولي الحاسمة » وكان رده مطمئنا وسريعا ، ويقول : « شكرا جزيلا على عرضك المساعدة ، واننا نبذل كل شيء لنجعل من هذه العملية عملية ناجحة وسيتقرر مصيرها في الايام القليلة القادمة » وقد شعرت بشيء من الارتياح عندما علمت بأن الاميرال كاتنجهام لم يتردد في المجازفة ببوارجه والدنو بها من الساحل لمساعدة الجيش حيث بعث بالبارجتين « دورسبايت » و « فاليانت » للاشتباك في المعركة ، وقد اصيبت لسوء الحظ البارجة « دورسبايت » بعـد ظهر السادس عشر مـن ايلول بنوع جديد من القنابل المنزلقة التي لم نكن حتى الآن قـد سمعنا عنها .

وبينما كنا لا نزال في عرض المحيط نشق طريقنا بالتواء ، عائدين الى الوطن وجهت قواتنا ضربة حاسمة الى ميناء تورنتو ، مما أمن لبوارج الاسطول الملكي الدخول بجراة في هذا الميناء ، كما امن نزول قواتنا البرية على شاطىء ساليرنو دون ان تلقى اية مقاومة ، ولـم تتعد خسارتنا طرادا واحدا أصيب بلغم فغرق في البحر ، ولا زلت احتفظ بالعلم البريطاني الذي رفعه اليكساندر على تورنتو والذي كان اول اعلام الحلفاء التي خفقت فوق القارة الاوروبية .

ومضت معركة ساليرنو في طريقها ، وبعد قتال مرير عانينا فيه مخاوف ومخاطر كثيرة ، فشل الالمان في قذفنا الى البحر ، وادرك كسلرنج انه فاشل لا محالة ، وركز جناحه الايمن على التلال القائمة وراء ساليرنو ، ليؤمن سحب قواته الى الوراء ، وسرعان ما زحف الجيش الثامن بقيادة مونتغمري فاتصل بالجيش الخامس الذي كان قد لحق به التعب والانهاك ، وتقدم الفيلق البريطاني العاشر والى يمينه الفيلق الامريكي السادس ، دافعين امامهما قوات العدو المتراجعة حول فيزوف ، فعبرا آثار مدينتي بومبي وهيراقليوم ودخلا نابولي في اليوم الاول من نوفمبر ، وبذلك تم لنا الانتصار .



جمود في البحر المتوسط

١

وبعد عودتي من هاليفاكس بأيام قليلة ، ارسلت برقية الى الجنرال ايزنهاور ، احدد فيها نسبة المجهود الذي يجب ان يكرس لمشروعاتنا المختلفة ولا سيما فيما يتعلق منها بالمراكز الحساسة ، أقول :

١ – لما كنت الح على ضرورة العمل في اتجاهات مختلفة ، فمن الضروري ان أعرض عليك « الاوليات » التي احددها في فكري لهذه الاهداف المرغوب فيها بصورة عامة .

٢ – علينا ان نكرس اربعة اخماس جهودنا في اعداد قوتنا في ايطاليا لانهاء السيطرة عليها ، وان نكرس تسعة اعشار مجهودنا للاطمئنان على مصير كورسيكا التي ستنتهي منها قريبا الى الادرياتيك ، اما العشر الباقي فيجب ان يركز على رودس ، ويتوقف هذا كله بالطبع ، على العوامل المحدودة لمجهودنا ، واعني بها قطع الانزال ، وسفن الهجوم مع الوحدات البحرية الخفيفة .

٣ – ابعث اليك بهذا على اعتبار انه توجيه اولي يدلك على ما افكر فيه ، لاني لا اريد منك ان تشعر باني احاول الضغط على جميع الاتجاهات دون فهم القيود والمغارم التي تعاني منها .

وقد رد ايزنهاور في اليوم التالي بالبرقية التالية :

« اننا ندرس ما لدينا من موارد بعناية ، لنعطي للشرق الاوسط كل ما يحتاج اليه من عون في هذا المشروع ، واعتقد انه في وسعنا ان نضمن أقل ما نحتاج اليه من متطلبات في هذه المنطقة .

وعندما يستطيع مونتغمري ان يتقدم بقواته الى الامام ، لدعم ميمنة الجيش الخامس ، فان الامور ستسير بسرعة في جبهة نابولي ، اما الآن فنحن في وضع يشبه كل وضع يسود بعد المراحل المبكرة لاية عملية مشتركة ، اذا تمددت قواتنا من ناحية ادارية وتكتيكية ، ونحن نعمل بجهد لتحسين الموقف ، وسنتلقى انباء طيبة قبل مضي وقت طويل » .

ولكن هذا الرد لم يشر اشارة واضحة للنقاط التي اثرتها في رسالتي ، والتي اعتبرها أهم جزء فيها ، وهي المتعلقة بتوزيع قواتنا لمواجهة المشروعات الفرعية وهي مشروعات كثيرة .

وقد ادى استسلام ايطاليا ، الى اتاحة الفرصة لكسب جزر بحر ايجه التي كنا ننظر منذ امد بعيد اليها كأهداف نتطلع الى احتلالها حيث كانت قلاع رودس ولينوس وكوس محصنة وتحتل مرتبة عالية

بين اهدافنا ، وكانت رودس تعتبر مفتاحا لهذه المجموعة بالنظر الى مطاراتها الجيدة التي نستطيع منها ان نحمي الجزر الاخرى التي قد حتلها لاستكمال سيطرتنا البحرية على هذه المياه يضاف الى هذا ان القوات الجوية البريطانية العاملة في مصر وبرقة تستطيع ان تقوم حماية مصر ، بطريقة افضل ، اذا تقدم بعضها الى مطارات رودس واحتلتها ، ولا ريب انه بعد ان سيطرنا على جزر بحر ايجه ، اعتبرنا هذا العمل حاسما بالنسبة الى تركيا ، التي تأثرت تأثيرا عميقا بانهيار ايطاليا ، واذا تمكنا من استخدام بحر ايجه ومضايق الدردنيل ، فقد يصبح طريقنا البحري قصيرا الى روسيا ، ولن نعود في حاجة الى القوافل القطبية الكثيرة الخطورة والباهظة التكاليف ، أو الى طريق التموين الشاق الطويل عبر الخليج العربي .

ولما شعر الالمان بالخطر الشديد المخيف الذي توقعوه منا على جناحهم الجنوبي الشرقي ، حث ممثلو الجيش والبحرية في مؤتمر عقد في مقر قيادة الفوهرر في الرابع والعشرين من أيلول — زعيمهم على وجوب الجلاء عن كريت وبعض جزر بحر ايجه ، قبل ان يفوت الاوان ، وأشاروا الى القوات الامامية التي تركزت في شرق البحر الابيض المتوسط استعدادا للهجوم وأكدوا ضرورة تجنب فقد القوات والمواد الحربية التي قد تلعب دورا مهما حاسما في الدفاع عن القارة ، ولكن هتلر رفض الانصياع الى هذه الآراء ، واصر على عدم الجلاء عن كريت وجزر الدوديكانيز بوجه خاص ، لما يترتب عليه من آثار سياسية وقال : « ان موقف حلفائنا في الجنوب الشرقي وموقف تركيا ، تقررهما الثقة في قوتنا ، ولا ريب ان التخلي عن هذه الجزر سيخلق اثرا سيئا للغاية » وقد برهنت الاحداث على صحة حكمه في النضال دفاعا عن جزر بحر ايجه فقد احرز مكاسب ضخمة بأقل ما يمكن من التكاليف بالنسبة للوضع الاستراتيجي الرئيسي ، فلقد كان مخطئا في البلقان ، ولكنه كان مصيبا في بحر ايجه .

الا انه في هذه الاثناء تحسنت اوضاعنا ولم تحل نهاية شهر ايلول حتى كنا نحتل جزر كوس وليروس وساموس ، ووضعنا فيها حاميات الا انه لم يكن في وسعنا بالنسبة لقلة البواخر ان نؤمن ارسال اسلحة ثقيلة وسيارات الى هذه الجزر ، وكانت جزيرة كوس مهمة للغاية من الناحية الاستراتيجية لانها كانت تضم مطارا تستطيع طائراتنا المحاربة أن تعمل منه وسرعان ما اعددناه للخدمة وانزلنا الى الجزيرة اربعة وعشرين مدفعا للدفاع عن المطار ، واصبحت الجزيرة طبعا اول هدف للهجوم المضاد من العدو ، وفي صباح الثالث من تشرين الاول هبط المظليون الالمان في المطار وتغلبوا على السرية الوحيدة التي كانت تدافع عنها . وتم عزل بقية سرايا الفوج في شمال الجزيرة بحركة انزال بحرية قام بها العدو ، ولم يتمكن اسطولنا من وقفها وسقطت الجزيرة في أيدي العدو .

وابرق الى ويلسون في الثاني والعشرين من ايلول ، يحدد اقل ما يحتاج اليه من مطالب للقيام بمحاولة جديدة ضد رودس ، وقد قرر استخدام الفرقة الهندية العاشرة وجزءا من لواء مدرع وكان

في حاجة الى بعض القوات الحارسة والى بعض قوات الانزال التي تقصف بمدافعها مواقع الانزال ، وثلاث بواخر لانزال الدبابات ولحمل السيارات وسفينة مستشفى ، وعدد من طائرات النقل لحمل فوج من المظليين ، وقد أزعجني عجزنا على دعم هذه العمليات ، فأبرقت الى الجنرال أيزنهاور طالبا عونه ، وقد استطاعت المساعدات التي أرسلها الينا أن تحرز نجاحا مذهلا .

ولما كان الالمان قد استعادوا زمام المبادرة الآن ، حيث نقلوا عددا كبيرا من طائراتهم الى بحر ايجه لاحباط الخطة التي كنت حزمت أمري عليها فقد عرضت القضية على الرئيس روزفلت في السابع من تشرين الاول ، ولكني تألمت أشد التألم عندما تلقيت منه برقية تكاد تشبه الرفض، وتركتني هذه البرقية في وضع حرج ، أواجه الضربة المتوقعة التي لم يعد منها مناص ، وقد بعثت الى الرئيس روزفلت بالبرقية التالية :

« لا أريد أن ارغم ايزنهاور على تحويل قواته مما يترتب عليه تحديد امكانياته في تطوير العملية الايطالية ، تطويرا ناجحا ومبكرا يضمن لها الحصول على خط دفاعي امين الى الشمال من روما .

وانني اعارض في اي تحويل للقوى ، قد يؤدي الى ما يرى ايزنهاور الى تهديد وضع سلامته الراهنة في ايطاليا ، وهو وضع يجري اعداده بمنتهى البطء على ضوء الاعتبارات المترتبة على قوة خصمه ، الذي يتمتع بتفوق ملحوظ في القوات البرية والفرق المدرعة .

واني لارى ايضا ضرورة عدم القيام بأي تحويل للقوى او المعدات يؤدي الى التأثير على خططنا لعملية « السيد الاكبر » اي « غزو اوروبا » ويوافقني على رأيي رؤساء اركان الحرب الامريكيون وقد بعثت بصورة هذه البرقية الى ايزنهاور » .

وبعد ذلك قررت ان اطير الى تونس حيث يجتمع الآن كافة القواد العسكريين العاملين في مؤتمر حربي .

ولكن رد الرئيس روزفلت قضى على كل ما تبقى لدي من آمال ، فقد أعرب عن رأيه في ان حضوري هذا المؤتمر ، سيكون غير مناسب ، ولهذا فقد الغيت الرحلة ، وفي الوقت نفسه ، وصلت الانباء تقول ان هتلر قرر تعزيز جيشه في ايطاليا وان يخوض معركة رئيسية الى الجنوب من روما ، وكانت هذه المعلومات كافية لقلب الميزان ضد ارسال النجدات اللازمة للهجوم على رودس ، الا انني ظللت مقتنعا بأنه كان في وسعنا ادخال احتلال رودس ضمن الاطار العسكري لمخططنا ولكني على كل حال أذعنت .

ولما لم يكن في وسعي ــ وما زالت أمامنا قضايا خطيرة للغاية معلقة في كفة الاقدار ــ أن اغامر بأي تصدع في علاقاتي الشخصية بالرئيس روزفلت .

ولما كان احتلال روما لم يتم الا بعد ثمانية اشهر ، وقد استخدمنا من البواخر عددا يساوي عشرين ضعفا لما كنا في حاجة اليه لاحتلال

رودس في خلال اسبوعين ، طيلة الخريف والشتاء لنقل قواعد القاذفات الثقيلة من امريكا وبريطانيا الى ايطاليا ، فقد ظلت رودس شوكة في جانبنا ، ولما رأت تركيا هذا الجمود غير العادي من جانب الحلفاء على مقربة من سواحلها غدت أقل استجابة لنا وحرمت علينا استخدام مطاراتها .

ولما نفذت القيادة الامريكية وجهة نظرها ، تحتم على البريطانيين ان يدفعوا الثمن ، على الرغم من اننا جاهدنا للحفاظ على مواقعنا في ليروس ، الا ان مصير قوتنا هناك اصبح محتوما ، وسارعت حامية ساموس المؤلفة من لواء كنت الملكي الثاني ، الى ليروس في المراحل الاخيرة ، ولكن المعركة كانت قد انتهت وسقطت النجدة بدورها فريسة للعدو ، لانها كانت تفتقر الى العون الجوي ، وهكذا سقط هذا اللواء من جنودنا في قبضة العدو ، وانتهت في الوقت الحاضر جميع آمالنا في بحر ايجه ، وحاولنا فورا ان نجلي جميع حامياتنا الصغيرة من ناموس وغيرها من الجزر ، وان ننقذ الناجين من ليروس ، فتمكنا من انقاذ نحو ألف جندي بريطاني ويوناني مع عدد من الاسرى الايطاليين والالمانيين ولكن خسائرنا البحرية كانت بالغة ، فقد غرقت لنا ست مدمرات ، وغواصتان ، كما أصيبت أربع طرادات واربع مدمرات بأضرار وقد اشترك معنا في هذه المحنة الاسطول اليوناني الذي لعب دورا عظيما طيلة مراحل القتال .

اما عملية « السيد الاكبر » اي « غزو اوروبا » فقد كان لي فيها فضل كبير حيث زودت ايزنهاور بأربع فرق بريطانية من مصر من خيرة الجنود واحسنهم تدريبا ، بالاضافة الى الفرق التي كان من المقرر ان نزوده بها في البداية كما جهزناها بموارد رئيسية لم تكن تتوقعها ، وبدونها كان من المحتمل ان تحل كارثة شاملة بالحملة كلها .

وفي هذا الوقت غير هتلر رأيه بالنسبة لاستراتيجية ايطاليا عملا بنصيحة كسلرنج واصدر أوامره الى قواته بالقتال في جنوب ايطاليا وقد اختار خطا يحاذي نهر سانجور على جانب الادرياتيك عابرا سلسلة جبال ايطاليا الى مصب نهر كاراجليانو الى الغرب ، وهكذا تبدل الوضع في ايطاليا تبدلا كبيرا في غير صالحنا لان هتلر عزز هذه القوات بقوات كبيرة أخرى ، وكان الحلفاء على النقيض من ذلك ولم تتمكن الفرق الاضافية الاربع التي بعثت بها من سد الثغرة ، مما أدى الى اطالة الحرب في ايطاليا ، ومع هذا فلم يحل هذا كله دون ان نبدأ عملية « السيد الاكبر » بنجاح في السادس من حزيران وبقوات كافية .

القوافل القطبية

انتهى عام ١٩٤٢ بعمل جريء قامت به المدمرات البريطانية التي ترافق احدى القوافل الى شمال روسيا في المياه القطبية ، مما ادى الى ازمة في القيادة العليا الالمانية ، وطرد الاميرال ريدر من الاشراف على الشئون البحرية كما قامت قافلتان اخريان مؤلفتان من اثنتين واربعين سفينة برحلات خطرة بين شهر تشرين الثاني وشهر آذار ، اي في الاشهر التي يكون فيها الجو مظلما في القطب الشمالي ، وقد وصلت منها اربعون سفينة ، ولما انتهت فترة الظلام وابتدأ الضوء يسطع اصبح من السهل على العدو ان يهاجم القوافل ، وكان قد تركز ما تبقى من الاسطول الالماني بما فيه البارجة تيربيتز في المياه النرويجية ، فأخذ يؤلف خطرا كبيرا ومستمرا يهدد معظم الطريق ، كما كانت معركة الاطلنطي مع الغواصات تتجه نحو ازمة عنيفة ، وكان العبء على مدمراتنا اكثر مما تطيق وتحتمل ، ولذلك فقد اقترحت الاميرالية في شهر نيسان وقف ارسال المؤن الى روسيا من هذا الطريق حتى يعود الظلام في الخريف .

وبعد ذوبان الثلوج في الربيع ، اخذ الفريقان يجمعان شمل قواتهما استعدادا للكفاح الرهيب ، وكان الروس قد أصبحوا الآن متفوقين في البر والجو وتمكنت المدفعية الروسية من تحطيم دبابات « النمر » الجديدة التي كانوا قد علقوا عليها الكثير من الآمال في النجاح ، كما انهالت الضربات الروسية اثناء المعارك الثلاث في كورسك وأوريل وخاركوف ، مما سبب خسائر فادحة لالمانيا .

ولم يأت شهر ايلول ، حتى كان الالمان يتراجعون على طول جبهتهم الغربية من منطقة موسكو حتى البحر الاسود ، كما لم يستطيعوا الصمود على نهر الدينيبر ، وخصوصا بعد ان قطع الطريق على الحامية الالمانية القوية في شبه جزيرة القرم ، وسقطت كييف في السادس من تشرين الثاني ، ولم يحل شهر كانون الاول حتى كانت الجيوش الالمانية في أواسط روسيا وجنوبيها قد ارغمت على التراجع الى الوراء مسافة مائتي ميل وفشلت في الاحتفاظ بخط نهر الدينيبر .

ولما كانت روسيا في حاجة ماسة الى امدادها بما تحتاج اليه جيوشها من عتاد وذخيرة فقد استدعى مولوتوف سفيرنا في موسكو وطلب اليه سرعة استئناف ارسال القوافل ، واشار الى ان الاسطول الايطالي في البحر الابيض قد زال من الوجود ، وأكد ان السكة الحديدية الايرانية لا تستطيع ان تحمل ما فيه الكفاية وقال ان الحكومة الروسية تصر تبعا لذلك على استئناف ارسال القوافل بسرعة فائقة .

وعندما اجتمعنا في لندن في التاسع والعشرين لدراسة جميع هذه الموضوعات عرضت امامنا حقيقة مناسبة ، فقد تمكنت غواصاتنا من مهاجمة البارجة تيربيتز وعطلتها عن العمل ، كما ان البارجة لوتزار كانت قد ارتحلت الى البلطيق وهكذا فقد تحسن الوضع بالنسبة لنا في المياه القطبية لفترة بضعة شهور على الاقل ، ولهذا بعث الى ستالين بالرسالة التالية :

« يسرني غاية السرور ان ابلغك اننا نعد العدة لابحار مجموعة من اربع قوافل الى شمال روسيا في اشهر تشرين الثاني وكانون الاول وكانون الثاني وشباط على ان تتألف كل منها من خمس وثلاثين سفينة بعضها امريكي والبعض الآخر بريطاني » .

وقد اصدرت اوامري في الحال باتخاذ الاجراءات اللازمة لارسال هذه القوافل الاربع ولو ان ما كان لدينا من بحارة اقل مما كنا نحتاج اليه ، ولماكان البحارة يشكون من سوء معاملة روسيا لهم ، فقد طلبت الى ستالين ان يعالج هذه الاوضاع لانه كان لا يسمح لهم بالنزول الا في زورق روسي وبحضور موظف سوفيتي كما كان لا يسمح لاي واحد بالانتقال من سفينة حربية بريطانية الى سفينة تجارية بريطانية الا بعد اعلام السلطات السوفييتية وينطبق هذا الاجراء على الاميرال البريطاني .

وقد رد علي ستالين يقول : ان السلطات السوفييتية قد منحت رجال القوات المسلحة البريطانية والبحارة البريطانيين امتيازات وتسهيلات كثيرة وان ليس لدي اعتراض على ان تتولى السلطات البريطانية نفسها اعمال الرقابة على البريد الشخصي لهذه القوات في الموانيء الشمالية على شرط المعاملة بالمثل .

وعلى اثر ذلك أعدت الترتيبات اللازمة لاستئناف سير القوافل ، وقد بدات القافلة الاولى في شهر تشرين الثاني وتبعتها الثانية في شهر كانون الاول وبلغ مجموعهما اثنتان وسبعون سفينة وصلت كلها بسلام .

هذا وقد قدر للقافلة المتجهة الى شمال روسيا في شهر كانون الاول ان تشتبك في معركة بحرية ناجحة مع البارجة الكبيرة شارنهورست في مياه النرويج وكانت ترافقها خمس مدمرات ، وكانت قوة الحراسة على القافلة تتألف من اربع عشرة مدمرة وثلاثة طرادات ، وقد اصيب في هذه المعركة كل من شارنهورست والطراد البريطاني نورفولك ، وبعد ذلك توقف الالمان وانسحبوا جنوبا .

وعندما علمنا في نيسان عام ١٩٤٤ ان البارجة تيربيتز قد تم اصلاحها واخذت تتحرك في البلطيق هاجمتها طائراتنا من الحاملتين « فيكتوريوس » و « فيريوس » بالقنابل الثقيلة ، كما اخذت طائراتنا التي تقوم بمهاجمتها من قاعدة في شمال روسيا بتوجيه الضربة الحاسمة اليها فأغرقتها واغرقت نصف بحارتها البالغ عددهم ١٩٠٠ رجل دون ان تصاب الا طائرة واحدة بأضرار ، وبذلك اصبح في

ميسور البوارج البريطانية الثقيلة ان تنطلق الآن حرة الى الشرق الاقصى .

وقد خسرنا طيلة الحرب احدى وتسعين باخرة تجارية في الطريق القطبي تبلغ ٨ر٧٪ من مجموع السفن المرسلة الى روسيا و ٨ر٣٪ من البواخر الفارغة العائدة كما خسر الاسطول التجاري ٨٢٩ شخصا من رجاله ، بينما دفع الاسطول الملكي ثمنا اغلى ، حيث غرق طرادان وسبع عشرة سفينة حربية اخرى وغرق معها ١٨٤٠ جنديا وضابطا .

طهـران ـ الافتتـاح

عندما عدت الى الوطن من مؤتمر كويبك ، فكرت في اجتماع يضم رؤساء الحكومات الثلاث ، لما له من اهمية كبرى بالنسبة لعملية عبور القناة ودخولنا اوروبا في عـام ١٩٤٤ ، واختيار قائد اعلـى لهذه العملية ، ولما كنت قد اتفقت مع الرئيس في مؤتمر كويبك على ان يتولى امريكي قيادة العملية ، فقد اتفقنا على اختيار الجنرال مارشال لتولي هذه القيادة ، وقد كان من المقرر ان تكون القوات البريطانية معادلة للقوات الامريكية في مستهل عملية « السيد الاكبر » وان يكون العدد الموجود منها في ايطاليا ضعف عدد القوات الامريكية ، كما يكون عددها ثلاثة اضعاف القوة الامريكية في البحر الابيض ، ولما كنت اشعر بأهمية الاجتماع مع الروس بعد ان اتحدت آراؤنا تجاه المشاكل البارزة المتعلقة « بالسيد الاكبر » وبموضوع القيادات العليا ـ كنت ارغب في ان تمر الاجراءات في ثلاث مراحل ، اولها ـ اتفاق انجليزي ـ امريكي واسع النطاق في القاهرة ، وثانيها ـ اجتماع ذروة لرؤساء حكومات دول الحلفاء الرئيسية الثلاث في طهران ، وثالثها ـ عند العودة الى القاهرة ، وقد وافق روزفلت على المجيء الى القاهرة اولا على ان يأتي اليها ايضا مولوتوف ووزير خارجية الصين .

وقد ابحرت في الثاني عشر من تشرين الثاني من ميناء بليموث مع اركان حربي في رحلة قدر لها ان تبعدني عن انجلترا اكثر من شهرين ، ووصلت الى الاسكندرية في اليوم الحادي والعشرين من الشهر ومنها طرت الى القاهرة في اليوم نفسه واقمت في منزل مجاور للاهرامات حيث وجدت ان الجنرال شيانج كاي شك والسيدة قرينته قد وصلا من قبل ، وفي صباح اليوم التالي وصل الرئيس روزفلت وتقرر ان يكون فندق « مينا هاوس » مقرا عاما للمؤتمر ، وأيضا لاجتماع رؤساء اركان الحرب البريطانيين والامريكيين .

وعقد رؤساء اركان حربنا المشتركون جلسة في الرابع والعشرين من تشرين الثاني برياسة الرئيس روزفلت ، لم يشترك فيها الوفد الصيني لبحث العمليات الحربية في البحر المتوسط واوروبا ، واستهل الرئيس الاجتماع بالتحدث عن الاثر الذي قد تتركه على عملية « السيد الاكبر » اية عملية اخرى قد نقوم بها اثناء ذلك في البحر الابيض المتوسط بما في ذلك مشكلة دخول تركيا الحرب الى جانبنا ، وقلت انني اعتقد أن برنامجنا يجب ان يستهدف محاولة احتلال روما في تشرين الثاني ورودس في شهر شباط ، وان نستأنف ارسال المؤن الى اليوغوسلافيين . وان نعيد فتح بحر ايجه على ضوء نتيجة محاولة جديدة نقوم بها مع تركيا وان نمضي في جميع استعداداتنا « للسيد الاكبر » بمنتهى السرعة .

وكان المستر ايدن قد وصل من لندن وانضم الينا ، فتحدث عن الفوائد التي سنجنيها من دخول تركيا الحرب ، حيث سيضطر البلغاريون الى تركيز قواتهم على الحدود ، وعلى سحب قواتهم التي تقدر بعشر فرق من يوغوسلافيا واليونان ، مما يحتم على الالمان احلال قوات المانية بدلها كما سيصبح في امكاننا مهاجمة آبار الزيت في بلويستي ، كما ستقطع تركيا معدن الكروم عن المانيا ، كما ان هناك فوائد اخرى ، وهو ان دخول تركيا الحرب ، قد يؤدي الى تعجيل التفسخ بين المانيا والدول التابعة لها ، ولكن الوفد التركي لم يتأثر بجميع هذه الحجج والبراهين ، فقد ذكر اعضاؤه ان منح القواعد في الاناضول للحلفاء سيكون بمثابة تدخل في الحرب ، مما يستفز الالمان على الانتقام من استامبول وانقره وازمير ، ورفض الاتراك قبول وجهة نظرنا ولكنهم وعدوا بعرض وجهة النظر البريطانية على حكومتهم .

وكانت عملية « السيد الاكبر » قد وضعت مخططاتها بتفصيل دقيق واسهاب ، لكي تبدأ في شهر ايار او حزيران او تموز على الاكثر من عام ١٩٤٤ كما ان هناك الجيش الانجليزي ـ الامريكي الضخم الذي يعمل الآن في ايطاليا والذي يجب علينا ان نمده بقوات جديدة لكي يتقدم شمالا ليحتل المطارات الواقعة في شمال العاصمة والتي نستطيع ان نشن منها غاراتنا الجوية على المانيا واذا قدر لهذه العمليات ان تلقى مقاومة من العدو فانها ستجتذب قوات المانية ضخمة مما سيعطي للايطاليين الفرصة للخروج بانفسهم من المأزق .

كما لم اكن اعارض في هذا الوقت في عملية انزال قوات في جنوب فرنسا على ساحل الريفييرا ، على ان تستهدف العملية مرسيليا وطولون ، ثم تزحف القوات البريطانية والامريكية شمالا على طول حوض الرون ، كعملية مساعدة لعملية الغزو الرئيسي عبر القناة ، فاذا قرر الالمان المقاومة في هذه الجبهة فسنرغمهم على سحب عدد كبير من فرقهم من الجبهة الروسية .

أما بالنسبة الى حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي ، فالقوة الجوية المحتشدة للدفاع عن مصر يمكنها ان تؤدي واجبات اخرى اذا اعتمدت على قواعد امامية ، ولو تمكنا من احتلال رودس لامكننا ان نسيطر سيطرة كلية على بحر ايجه ، ولوجدنا اتصالا بحريا مباشرا مع تركيا ، واذا تمكنا من جهة اخرى من اقناع تركيا بالدخول في الحرب ، او مد حيادها على الاقل الى اقصى حد ممكن واقراضنا المطارات التي شيدناها لها امكننا ان نسيطر على بحر ايجه وفي مثل هذه الحالة لا يصبح احتلال رودس امرا ضروريا ، ولامكننا ايضا ان نسيطر على البحر الاسود بغواصاتنا وقواتنا البحرية الخفيفة وان نمد ذراعنا اليمنى الى روسيا ناقلين اليها المؤن التي تحتاج اليها جيوشها بطرق اقل تكاليف واكثر سرعة بدلا من طريقي القطب الشمالي والخليج الفارسي .

ولما كنا على موعد مع الماريشال ستالين على الاجتماع به في طهران فقد طرنا اليها انا والرئيس ومستشارونا ، وعقدنا الجلسة الاولى

في دار السفارة السوفييتية في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني ، وكان مولوتوف والماريشال فورشيلوف هما اللذان يرافقان ستالين ، وبحثنا جميع الخطط الحربية سواء في روسيا او اوروبا واتفقنا على ما يجب عمله ، وبعد العشاء ، انتحيت بستالين واقترحت عليه ان نتحدث بعض الوقت عما سيقع بعد ان نكسب الحرب ، وقد انضم الينا ايدن ، فقال ستالين ، دعونا ندرس اولا أسوأ ما يمكن ان يحدث ، فقد خيل اليه ان الفرصة ستتاح لالمانيا لكي تعود الى ما كانت عليه ، وستتمكن من شن حرب جديدة في وقت قصير ، وكان يخشى بعث الروح الوطنية الالمانية ولما سألته عن الوقت الذي يقدره لذلك قال : « في بحر خمسة عشر عاما او عشرين عاما » وكان من رأيه ان ندرس القيود الواجب علينا ان نفرضها على طاقة المانيا الصناعية ، فالالمان شعب قدير دائب على العمل ومجد وكثير الموارد وفي استطاعته ان يستعيد قوته بسرعة وسهولة ، فقلت ان من الواجب فرض بعض أجراءات للاشراف عليها ، واني اؤيد وجوب حرمانهم من الطيران المدني والحربي ومن نظام الاركان العامة . فقال ستالين يسألني : وهل تستطيع ان تمنع صانعي الساعات ومعامل الاثاث من صنع اجزاء القنابل ؟ : فقلت على العموم يجب علينا ان نؤمن سلامة العالم لخمسين سنة قادمة عن طريق نزع سلاح المانيا ومنعها من التسلح والاشراف على مصانعها ، وخطر الطيران عليها ، وكل هذا يتوقف على استمرار صداقة بريطانيا وامريكا وروسيا .

وكان تعليق ستالين : « ان كل ما ذكرته حسن نافع ولكنه غير كاف » .

هذا وقد عقد الرئيس بعد ظهر اليوم التالي اجتماعا آخر مع ستالين ومولوتوف بحثت فيه عدة قضايا هامة ، بينها بصفة خاصة مشروع المستر روزفلت لحكم عالم ما بعد الحرب ، وكان من رأيه ان هذا الحكم يجب ان يعهد به الى « رجال الشرطة الاربعة » وهم الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والصين ، ولم تكن استجابة ستالين مؤيدة ، اذ قال ان شعوب أوروبا الصغيرة لن ترحب « برجال الشرطة الاربعة » وهو لا يعتقد بأن الصين ستكون قوية جدا عندما تنتهي الحرب ، وانها حتى لو كانت قوية فان الدول الاوروبية سترفض قبول الصين كدولة تفرض عليها ارادتها وتنفذ رغباتها واقترح ستالين ايضا كحل آخر ان تكون هناك لجنة لاوروبا واخرى للشرق الاقصى ، وان تضم اللجنة الاوروبية بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة ودولة اوروبية اخرى .

وبعد ذلك عقدنا اجتماعنا الثاني ، وذكرت ستالين بالشروط الثلاثة التي يتوقف عليها نجاح عملية « السيد الاكبر » واول هذه الشروط وجوب تخفيض قوة المانيا من الطائرات المحاربة في شمال بغربي اوروبا في الفترة الواقعة التي تبدأ من اليوم حتى الهجوم تخفيضا مرضيا ، وثاني هذه الشروط ان الاحتياطي الالماني في فرنسا والبلاد المنخفضة يجب الا يكون اكثر من اثنتي عشرة فرقة كاملة ، والشرط

الثالث ان يعجز الالمان طيلة الستين يوما الاولى بعد بدء العملية عن نقل اكثر من خمس عشرة فرقة من الفرق للدرجة الاولى من الجبهات الاخرى ، ولتحقيق هذه الشروط يجب علينا ان نرغم الالمان على الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من قواتهم في ايطاليا ويوغوسلافيا واذا دخلت تركيا الحرب فسيكون ذلك عونا اضافيا ، ولذلك يجب علينا ان نواصل الاشتباك مع العدو وفي الجبهة التي نستطيع الآن محاربته فيها ، واذا تمكنا من مقاتلتهم طيلة أشهر الشتاء في البحر الابيض المتوسط ، فان هذا سيسهم اعظم الاسهام في خلق الاوضاع التي تحتاج اليها لنجاح عملية « السيد الاكبر » .

وسأل ستالين : ماذا سيحدث لو كانت لدى الالمان ثلاث عشرة فرقة او اربع عشرة فرقة متحركة في فرنسا واكثر من خمس عشرة فرقة متوافرة في جبهات اخرى ، فهل يعني هذا العدول عن عملية « السيد الاكبر » فقلت له : « لا . . لا بالطبع لا . . » .

وقبل ان نفترق وجه الي ستالين سؤالا آخر قائلا : ــ هل تعتقد ان لدى اركان الحرب البريطانيين اعتقادا جازما بنجاح العملية ؟ قلت ، اعتقد ذلك بشرط ان تتوافر الشروط الثلاثة عندما تبدأ العملية ، وعند ذلك سيكون واجبنا المقدس ، ان نتدفق عبر القناة ضد الالمان وان ندفع بكل ما لدينا من قوة وبعد ذلك افترقنا .

مؤتمـر طهـران

ولما كنت قد بلغت التاسعة والستين من عمري في الثلاثين من تشرين الثاني وكان هذا اليوم زاخرا بالذكريات وكان لدي كثير من الاعمال الهامة ، فقد قضيته في تصريفها ، وبالنظر الى ان الرئيس كان دائما على اتصال فردي بستالين وقد تجنب في الوقت نفسه الاجتماع بي على انفراد منذ تركنا القاهرة ، فقد قررت أن أعمل على الاجتماع بستالين اجتماعا شخصيا مباشرا ، وكانت قد تكونت لديه فكرة خاطئة عن أني وأركان الحرب البريطانيين نريد وقف عمليـة « السيد الاكبر » اذا استطعنا ، لاننا نريد غزو البلقان بدلا من فرنسا « ورأيت من واجبي ان انزع هذا الفهم الخاطىء من ذهن ستالين » .

وبما ان الموعد الحقيقي لعملية « السيد الاكبر » يتوقف على تحركات عدد قليل من قطع الانزال والتي ليست لنا بها حاجة لاية عملية تجري في البلقان ، ولما كان الرئيس قد تعهد بالنيابة عنا ، بالقيام بعملية ضد اليابانيين في خليج البنغال ، ولو انه الغى هذا التعهد لتوفر لنا العدد الكافي من القطع لانزال فرقتين في وقت واحد وتنفيذ العملية كما هو مقرر في ايار ، وهو الموعد المحدود الذي كنت قد اتفقت مع الرئيس على بدء الغزو فيه ، وقد تمكنت أيضا بعد عودتنا للقاهرة من اقناع الرئيس بالعدول عن مشروع البنغال وصممت على ان يعرف ستالين الحقائق الاساسية اللازمة واننا قد اتفقنا انا والرئيس على ان يكون شهر ايار هو موعد عملية « السيد الاكبر » على ان يبلغه الرئيس روزفلت ذلك بنفسه كرغبته .

وعندما أعلن ستالين تصريحه الخطير قبل يومين بأن روسيا ستدخل الحرب ضد اليابان بعد استسلام هتلر ، اقترحت فورا على الامريكيين ان يعدوا قطعا كثيرة للقيام بالعمليات التي يطلب الينا القيام بها في المحيط الهندي للمساعدة في عملية « السيد الاكبر » وفي مثـل هذه الحالة ستتوافر القطع اللازمة لجميع العمليات .

وليس ثمـة مـا يدعو الى الاعتقاد بأننـي متراخ في موضوع « السيد الاكبر » فقد اردت ان احصل على ما احتاج اليه في البحر المتوسط ، وكان من الواجب أن نسوي الامور بين رؤساء أركان الحرب وكنت آمل أن يتم ذلك في القاهرة قبل مجيئنا الى طهران ، ولكن سوء الطالع ان تشيانج كاي شك كان هناك وان المشكلات الصينية احتلت اكثر من نصف وقتنا ومع ذلك فاني على ثقة من ان قطع الانزال ستتوافر لجميع العمليات .

اما الاعدادات لعملية « السيد الاكبر » فستكون في نهاية شهر

ايار او حزيران على النحو التالي : ست عشرة فرقة بريطانية مع القوات اللازمة لادارة الفيالق وقوات قطع الانزال والمدافع المضادة للطائرات وهو ما يربو على نصف مليون جندي بالاضافة الى قوات الاسطول الملكي اللازمة لعملية النقل ولحماية الجيش . هذا بخلاف قوات السلاح الجوي العاملة في الوطن والمؤلفة من نحو اربعة آلاف طائرة ، كما بدىء في نقل القوات الامريكية الى انجلترا بمعدل مائة وخمسين الف جندي شهريا ، وكان لهزيمة الغواصات في الاطلنطي الفضل الاكبر في تسهيل عملية النقل هذه ، هذا وقد كنت أؤيد القيام بالهجوم على جنوبي فرنسا في نفس الوقت الذي تقوم فيه عملية « السيد الاكبر » حتى نرغم العدو على ابقاء قواته في ايطاليا .

وهنا قال ستالين انه يود ان يوجه نظري الى ان الجيش الاحمر يعتمد كل الاعتماد على نجاح غزونا لشمالي فرنسا ، واذا لم تبدأ العمليات في شهر ايار عام ١٩٤٤ ، فسيعتقد الجيش الاحمر انه لن تقع اية عمليات طيلة هذا العام . كما انه اذا لم يتغير الوضع في المسرح الاوروبي في عام ١٩٤٤ ، فسيكون من الصعب جدا على الروس ان يواصلوا القتال لانهم تعبوا من الحرب وهذا هو السبب الذي دعاه لان يعرف ما اذا كانت عملية « السيد الاكبر » ستتحقق في الموعد المقرر أم لا ، لكي يتخذ ما يراه للحيلولة دون انتشار حالة التذمر والتمرد في الجيش ، وقد اكدت له ان العملية ستتم حتما بشرط الا يقابلنا العدو في فرنسا بقوات اكبر مما يستطيع البريطانيون والامريكيون انزالها ، لانه اذا تيسر للالمان ان يواجهوا جيوشنا بثلاثين او اربعين فرقة فانني اعتقد ان قواتنا لن تكون قادرة على الصمود امامها . فقال ستالين انه لو تمكن من ان يعرف بأن الغزو سيقع في شهر ايار او حزيران ، فانه سيعد العدة لتوجيه ضربات الى المانيا في هذا الموعد ، وفي هذه الحالة لن تتوافر لالمانيا القوات اللازمة لجبهة فرنسا ، فرددت عليه بانني لا أستطيع ان اكشف عن الموعد دون موافقة الرئيس .

وعليه فقد توجهنا أنا وستالين لمقابلته ، وقد أبلغه الرئيس اننا اتفقنا على شن حملة « السيد الاكبر » في شهر ايار ، وقد أثلج هذا الخبر الماريشال ستالين ، وقال من سيتولى قيادة عملية « السيد الاكبر » ؟ فقلت له ان الرئيس لم يستقر على رأي بعد ، ولكني واثق من انه سيكون الجنرال مارشال ، فسر سرورا عظيما لهذا النبأ .

ولما كنا جميعا متفقين واستقر رأينا على جميع العمليات ، فقد شعرت باحساس قوي من التضامن والزمالة الطيبة .

وتراءى لي ان جميع السحب قد انقشعت ، وبالفعل فان ثقة ستالين بالرئيس ، اقيمت على اساس من الاحترام وحسن النية كما انها لم تصب بوهن طيلة المدة التي قضيناها في العمل المشترك .

وبلغت محادثاتنا الطويلة الشاقة في طهران نهايتها في الاول من شهر كانون الاول وتقرر أن يبدأ الغزو عبر القناة في شهر ايار بشرط

ان تكون التيارات البحرية ملائمة وكذلك احوال القمر ، كما تقرر ان يعزز بهجوم روسي قوي في الوقت نفسه .

وكان علينا ان نجدد بذل جهودنا القوية لحمل تركيا على الدخول في الحرب الى جانبنا لما تنطوي عليه هذه الخطوة من اهمية في بحر ايجه والبحر الاسود ، ولكن هذه الجهود كلها منيت بالفشل .

هذا وقد اصبحت النواحي السياسية اقرب الى الخيال ، وكان من الواضح انها تعتمد على نتائج المعارك العظيمة التي كان من المقرر ان تدور وعلى اوضاع كل من الحلفاء بعد تحقيق النصر ، ولم يكن من المناسب في طهران بالنسبة للديمقراطيات الغربية ان تقيم خططها على اسس من الشكوك في موقف روسيا ساعة النصر ، وعند زوال جميع الاخطار ، ولما كان ستالين قد وعد بدخول الحرب ضد اليابان فور الانتهاء من هزيمة هتلر ، وكان امل الغد يتركز في الاسراع بنهاية الحرب ، فقد تقرر اقامة جهاز عالمي يحول دون نشوب حرب اخرى ، ويقوم على اساس القوة المشتركة للدول العظمى الثلاث .

وبالطبع لم تكن الطريقة التي سيعامل بها المنتصرون المانيا موضوع بحث نهائي في هذه المرحلة ، وانما كانت موضع عرض تمهيدي لمشكلة سياسية واسعة النطاق ، لاننا كنا لا نزال في كفاح رهيب ضد القوة النازية الجبارة وكانت تشغلنا اهوال الحرب واخطارها ومختلف عواطف الزمالة بين الحلفاء ، والعقاب للعدو المشترك ، وكانت مشروعات الرئيس تقضي بتجزئة المانيا الى خمس دول مستقلة ذاتيا ، والى مقاطعتين تظلان تحت اشراف الامم المتحدة اكثر قبولا لدى ستالين من اقتراحي الذي يقضي بعزل بروسيا وتأليف اتحاد تعاوني دانوبي او اتحاد لجنوب المانيا مع آخر لحوض الدانوب .

لاننا كنا جميعا نخشى خشية كبيرة من وجود المانيا موحدة ، ولما كان لبروسيا تاريخها العظيم الخاص بها ، فقد كان من الممكن في رايي ان نعقد معها صلحا شريفا حازما ، وان نجد في الوقت نفسه ما كان يدعى في الماضي بالامبراطورية النمساوية المجرية ، التي كثيرا ما قيل عنها انها « اذا لم توجد فمن الواجب ان تخترع » وذلك ضمانا لقيام منطقة واسعة الارجاء يسودها السلام والصداقة .

ومع هذا فما ان انتهت الحرب ، حتى وقعت تغييرات عظيمة ملأى بالكوارث فالحدود البولندية ، لا توجد الا في عالم الخيال ، وها هي ذي بولنده ، تقع مرتعدة الاوصال في قبضة الشيوعية الروسية ، وقد قسمت المانيا حقا تقسيما مخيفا ، حيث قسمت الى مناطق محتلة عسكريا ، مما لا يسع الانسان الا القول بأن هذه المأساة لا يمكنها ان تستمر .



القيـــادة العليـــا

عدت من طهران الى القاهرة في اليوم الثاني من كانون الاول ، كما وصل الرئيس في المساء . وقد استأنفنا مباحثاتنا الودية حول اوضاع الحرب بصفة عامة ، كما استعرضنا نتائج مباحثاتنا مع ستالين ، كما قرر رؤساء اركان الحرب ان يستمروا في محادثاتهم المشتركة والتي تتناول جميع العمليات التي اتفقنا على القيام بها ، وكان الاميرال مونتباتن قد عاد الى الهند ، بعد ان قدم مشروعه المعدل عن العملية البرية المائية على جزر اندمان ، والتي ستشترك فيها جميع القطع ذات القيمة الحيوية ، التي بعثنا بها اليه من البحر الابيض المتوسط ، كما أردت ايضا ان اقوم بمحاولة اخيرة للحصول على تأييد الامريكيين للعملية البديلة ضد جزيرة رودس .

ولذلك فقد اجتمعت أنا والمستر ايدن بالرئيس في اليوم التالي وبحثنا في نقط الخلاف القائمة بيننا بالنسبة للوعد الذي قطعه الرئيس للجنرال تشايانج كاي شيك قبل مؤتمر طهران ، بشن هجوم مبكر عبر خليج البنغال ، لان هذا الهجوم كان كافيا للقضاء على كل أمل وخطة لاحتلال رودس ، والتي يتوقف عليها الى حد كبير دخول تركيا الحرب الى جانبنا ، وعندما أثار رؤساء اركان حربنا هذا الموضوع في المؤتمر العسكري رفض رؤساء اركان الحرب الامريكيون البحث فيه نسبة لان الرئيس قد اتخذ قراره فيه ولا مجال للاختيار .

ولما عقدنا اول اجتماع لنا في الرابع من كانون الاول بعد عودتنا من طهران قال الرئيس انه يود ان يسافر في اليوم السادس من الشهر ، وطلب الى المختصين اعداد جميع التقارير لموافقة الفريقين نهائيا عليها ، قبل مساء الخامس من الشهر .

ولما كان لا يزال أمامنا قضايا على جانب كبير من الاهمية وتحتاج الى الحل بالاضافة الى الحادثين الحاسمين اللذين وقعا في الايام القليلة الماضية ، أولهما : ان ستالين أعلن ان السوفييت سيعلنون الحرب على اليابان في الوقت الذي تتحقق فيه هزيمة المانيا ، وهذا يضمن لنـا قواعد افضل بكثير من تلك التي يمكن لنا الحصول عليها في الصين ، كما يحتم علينا تركيز جهودنا لننتهي مـن عملية « السيد الاكبر » في أسرع وقت ممكن حتى ننتهي من امر المانيا ، فقد رأيت انه من الواجب على اركان الحرب ان يدرسوا ، كيفية تأثير هذا على العمليات في المحيط الهادي وجنوب شرقي آسيا .

اما الحادث الثاني : البالغ الاهمية ، فهو قرارنا بعبور القناة في شهر ايار ، والذي كنت أود من ناحيتي ان يكون الموعد شهر تموز ،

وهذه المهمة تفوق غيرها من المهام الاخرى شأنا وخطورة ، حيث اننا سنقذف في القريب العاجل الى أتون المعركة بمليون امريكي وخمسمائة او ستمائة الف بريطاني ولكي نعطي للعملية اقصى ما يمكن من الآمال في النجاح ، فقد رأيت أن يكون نزولنا في الريفييرا ، « وقد اطلقنا عليها أسم عملية السندان » على اقوى نطاق ممكن ، كما رأيت انه من الضروري ان تتخذ كل الخطوات الممكنة للعمل في اي مكان آخر لنحول بين الالمان وبين تركيز قوات كبيرة ضد رؤوس جسورنا .

ولذلك فقد تم الاتفاق بيني ـ وبين الرئيس على النقاط التالية :

١ ـ يجب الا نقوم بأي عمل يعرقل عملية « السيد الاكبر » .

٢ ـ يجب الا نقوم بأي عمل يعرقل عملية « السندان » .

٣ ـ ان نتخذ جميع السبل لكي نوفر قطعا للانزال تعمل في شرق المتوسط في حالة دخول تركيا الحرب .

٤ ـ يجب ابلاغ الاميرال مونتباتن بأن يبذل جهده في خليج البنغال بالقوات التي سبق لنا تخصيصها له .

وقد اقترحت ، تعليقا على النقطة الرابعة ، بأنه قد يصبح من الضروري سحب بعض القوات والموارد من مونتباتن لتقوية عمليتي « السيد الاكبر » و « السندان » ولكن الرئيس قال انه لا يستطيع الموافقة على اقتراحي ، واضاف قائلا اننا ملزمون ادبيا بمساعدة الصين وانه تبعا لذلك ، ليس على استعداد للعدول عنها الا اذا كان السبب قويا وواضحا . وقلت للرئيس بأن هذا السبب القوي ، قائم في مغامرتنا العظيمة التي سنقوم بها في فرنسا ، هي لا تزال تقوم على اساس ثلاث فرق ، على حين اننا أنزلنا في صقلية في اليوم الاول تسع فرق . وعلى هذا يتبين ان اهمية هذه العملية الرئيسية ما زالت تقوم حتى وقتنا هذا على اسس ضيقة .

كما عاودت الحديث عن هجوم الريفييرا ، وبينت وجهة نظري بأنه يجب ان يقوم على اساس قوة هجومية لا تقل عن فرقتين ، لان هذا يؤمن لنا القيام بعملية التفاف في ايطاليا ، واحتلال رودس اذا تقرر دخول تركيا الحرب فورا ، وأشرت في الوقت نفسه الى ان عمليات جنوب شرق آسيا يجب ان تقرر على ضوء علاقتها بالاهمية البالغة لعملية « السيد الاكبر » وقلت انني مندهش من الطلب الذي وجه الى الاميرال مونتباتن لاحتلال جزر اندمان ، وانه على ضوء وعد ستالين بأن تدخل روسيا في العمليات الحربية ، تكون عمليات جنوب شرق آسيا قد فقدت الكثير من قيمتها ، ومع هذا فقد ابدى الرئيس رغبته في عدم موافقتي على العدول عن هذه العملية ، كما طلبنا الى رؤساء الاركان البحث في التفاصيل .

وفي اليوم الخامس من كانون الاول اجتمعنا سويا وقرأ الرئيس التقرير الذي أعدته هيئة اركان القيادة المشتركة عن العمليات في المسرح الاوروبي ووافقنا عليه .

كما انه بعد ان تشاور الرئيس مع مستشاريه بالنسبة لمشروع جزر اندمان قرر التخلي عنها وارسال برقية للجنرال تشيانج كاي شيك يبلغه فيها بالعدول عن مشروع جزر اندمان وهكذا فقد انتهت الازمة .

ولما كان من اهم اهداف اجتماعنا في القاهرة ، استئناف المحادثات مع القادة الاتراك ، وكنت قد ارسلت الى الرئيس اينونو برقية من طهران اقترحت فيها عليه ان يجتمع بنا في القاهرة ، كما كان قد تم الاتفاق على ان يحضر فيشنسكي الاجتماعات ، ووصل الوفد التركي الى القاهرة في الرابع من كانون الاول واجتمعنا سويا في الليلة التالية بالرئيس اينونو الذي أبدى تحفظا شديدا تجاه الجهاز الحربي الالماني ، الا انني شددت الضغط عليه هذه المرة ، وأكدت له ان انسحاب ايطاليا من الحرب زاد من فوائد دخول تركيا فيها وقلل من الاخطار التي ستتعرض لها ، ولذلك فقد ابدى الرئيس التركي رغبته في عرض الموضوع على البرلمان التركي وسافر مع بقية اعضاء الوفد في الحال ، وفي هذه الاثناء قررنا أن يجتمع الخبراء البريطانيون لتنفيذ المرحلة الاولى من اقامة قوة للحلفاء في تركيا الا انه لم يكد يحل عيد الميلاد حتى كنت قد اصبحت ميالا الى ابقاء تركيا على الحياد .

هذا وقد ابلغني الرئيس في اليوم السابق لسفره من القاهرة انه لا يستغني عن الجنرال مارشال في واشنطن ، وانه يقترح تسمية ايزنهاور قائدا لعملية « السيد الاكبر » بدلا منه ، وازاء هذا الاصرار فقد تولى ايزنهاور قيادة الغزو .

وبعد ذلك غادر الرئيس القاهرة في اليوم السابع من كانون الاول ، كما غادرتها ايضا في اليوم الحادي عشر بالطائرة الى تونس لقضاء ليلة هناك في ضيافة الجنرال ايزنهاور ، ثم اغادرها في اليوم التالي الى مقر قيادتي اليكساندر ومونتغمري في ايطاليا الا انني شعرت في اليوم التالي لوصولي الى تونس بأعراض الحمى وبظواهر تشير الى عودة ذات الرئة ، فلم اواصل رحلتي الى ايطاليا وبقيت ملازما الفراش في تونس ، واستعملت العقار الجديد « أم. اند. بي » الذي كان له اثر السحر في تخفيف حدة المرض وبذلك لم اتخل في اية لحظة عن ادارة دفة الامور .

ولما كانت مهمتي العاجلة بوصفي وزيرا لدفاع بريطانيا ومسئولا امام وزارة الحربية ، ان اقترح تعيين قائد بريطاني لجبهة البحر المتوسط ، فقد تقرر اسناد هذا المنصب الى الجنرال ولسون ، كما تقرر ان يتولى اليكساندر قيادة الحملة الايطالية جميعها ، كما كان يفعل في أيام الجنرال ايزنهاور ، وتقرر أيضا ان يكون الجنرال ويفرز الامريكي نائبا للجنرال ولسون في البحر المتوسط ، وان يكون قائد القوات الجوية تيدر ، نائبا للجنرال ايزنهاور في قيادة عملية « السيد الاكبر » وان يتولى مونتغمري القيادة الفعلية لقوات الغزو عبر القناة ، الى ان يتمكن القائد الاعلى من نقل مقر قيادته الى فرنسا وتولى القيادة الفعلية بنفسه ، وقد تمت هذه الترتيبات بالاتفاق بيني وبين الرئيس وبموافقة وزارة الحرب .

ولما كنت اشعر بأننا قد وصلنا الى احدى ذرا الحرب ، وكانت عملية اعداد « السيد الاكبر » من اهم الاحداث والواجبات في التاريخ ولما كان من اهم عناصر النجاح في العمليات الحربية وجود الانسجام التام في المجهود الحربي عن طريق التناسق بين عمليتي الغزو من ايطاليا وعبور القناة ، حتى يؤدي كل جزء من اجزاء القوة المقاتلة دوره الكامل طول الوقت ، وكنت واثقا من ان شن الحملة في ايطاليا في النصف الاول من عام ١٩٤٤ ستكون خير معوان للعملية الضخمة في عبور القناة ، وهي العملية التي تتركز عليها جميع العيون ، فقد كان من الواجب بحث كل مادة ضرورية لهذه العملية ، وكان علينا ان نعمل على استخلاص عشرين قطعة انزال من هذه العملية لغيرها ، وقد بدت لي هذه العملية في منتهى البساطة ، فجميع البواخر التي نملكها ستستخدم لتنقل الى انجلترا كل ما يمكن للولايات المتحدة اعداده من الرجال والعتاد ، وفي وسع القوات الضخمة التي لم نستطع نقلها بطريق البحر ان تحتل ايطاليا بسهولة ، وان تصل فورا لتعمل في جبهة المانيا الداخلية او أن نجتذب قوات المانية ضخمة من الجبهة التي كنا سنهاجمها عبر القناة في الايام الاخيرة من شهر ايار او اوائل شهر حزيران .

هذا وقد ادت فترة الجمود التي اضطرت اليها قواتنا بسبب المقاومة الالمانية العنيفة على طول الجبهة المتدة ثمانين ميلا من البحر الى البحر الى تفكير الجنرال ايزنهاور في القيام بهجوم جناحي بري بحري بفرقة واحدة الى الجنوب من نهر التيبر على روما ، في الوقت الذي تشرع فيه جيوشه بهجوم عام على طول الجبهة ، وأدى توقف جيوشنا الى شعور كل واحد بأن الحاجة العسكرية تتطلب نزول اكثر من فرقة واحدة . وكنت بالطبع أؤيد دائما فكرة العملية التي أسميها « مخلب القط » وقد لاقت هذه الفكرة تأييدا كبيرا من جانب المحترفين ، واضحى ايزنهاور ملتزما بها من ناحية المبدأ ، كما كان اليكساندر الذي يتولى قيادة الجيوش في ايطاليا يرى ان هذه العملية صحيحة وضرورية ، كما كنت على ثقة من ان رؤساء اركان الحرب البريطانيين سيؤيدون هذه الخطة ، وقد أبرقوا الي في الثاني والعشرين من كانون الاول بعد ان عرفوا وجهة نظري هذه يقولون ، اننا على اتفاق تام معك بأن هذا الركون الراهن لا يمكن ان يستمر والحل كما تقول ، يقوم في استخدام قواتنا البرية والبحرية لتضرب مؤخرة العدو وجناحه وتمهد الطريق لزحف سريع على روما وان هذه الخطة الجديدة ستعني العدول عن احتلال رودس ، كما اقترحوا اثارة المسألة مع رياسة اركان الحرب المشتركة على اساس العمل على ضوء هذا المخطط فورا .

ولذلك فقد عقد في صباح يوم عيد الميلاد مؤتمرا في قرطاجنة ، شهده ايزنهاور واليكساندر وبيدل سميث والجنرال ولسون وتيدر والاميرال جون كاتنجهام وغيرهم من كبار القادة ، وقد اتفقنا جميعا على ان نطلب ما لا يقل عن فرقتين .

وعندما انتهت مباحثاتنا ، أرسلت البرقية التالية الى الرئيس

كما بعثت بأخرى مماثلة الى الوطن ، وقد حرصت كل الحرص على بيان الحقائق بصراحة :

« ولما كنا قد احتفظنا بست وخمسين قطعة من قطع الانزال في البحر الابيض المتوسط ، هذه المدة الطويلة ، فمن غير المعقول ان ننقلها الآن في الاسبوع الذي نستطيع فيه ان نسدي خدمة حاسمة ، وهل هناك شيء اكثر خطرا من أن نترك المعركة الايطالية في حالة جمود مستمر طيلة ثلاثة اشهر اخرى ؟ وليس في وسعنا ان نتقدم الى الامام مخلفين وراءنا عملا لم نكمل الا نصفه ، ولهذا فقد اتضح للحاضرين ان الواجب يتطلب النزول الى انزيو بفرقتين على الاقل ، حوالي العشرين من كانون الثاني ، وقد صدرت الاوامر الى الجنرال اليكساندر لاعداد العدة اللازمة لهذا النزول ، واذا لم ننتهز هذه الفرصة فعلينا ان نتوقع فشل حملة البحر المتوسط في عام ١٩٤٤ ، ولهذا فانني آمل بان توافق على تأجيل عودة الست والخمسين قطعة من قطع الانزال مدة ثلاثة اسابيع ، وان توعز الى جميع السلطات المختصة بأن تتيقن ان عملية « السيد الاكبر » لن تتأثر بهذا الاجراء » .

وقد تلقيت في اليوم الثامن والعشرين من كانون الثاني ، برقية من المستر روزفلت بالموافقة على تأجيل قطع الانزال ، على شرط ان تظل عملية « السيد الاكبر » هي العملية المسيطرة ، وان تنفذ في الموعد الذي اتفق عليه في القاهرة وطهران ، وكان هذا مبعث سروري الممزوج بالدهشة وقد ابرقت الى الرئيس ، اشكره على هذا القرار الرائع الذي يعيد الى صفوفنا الوحدة الشاملة ازاء هذا المشروع العظيم .

وكانت برقية الرئيس اشبه ما تكون بالمعجزة ، وعرفت انني لست مدينا بها الى حسن نية الرئيس وحده ، بل الى عقل الجنرال مارشال الموزون ، وقد قامت هيئة اركان الحرب في الوطن ولا سيما في الامبراطورية بجهود عظيمة لتحقيق مشروع « مخلب القط » وبعث الى اليكساندر في اليوم نفسه بخطته ، وبعد ان تشاور مع الجنرال مارك كلارك والجنرال بريان روبرتسون ، قرر استخدام فرقتين احداهما امريكية والاخرى بريطانية ، كما تقرر توزيع السلاح المدرع وقوات المظلات والفدائيين على اساس المناصفة ، وعهد بالعملية كلها الى قيادة قائد فيلق امريكي ، وبات من المحقق ان تبدأ العملية في العشرين من كانون الثاني ، على ان يقوم اليكساندر بهجوم كبير على كاسينو قبل الموعد بعشرة ايام لاجتذاب الاحتياطي الالماني من المؤخرة ، على ان يتلو ذلك الزحف العظيم المباشر من الامام بوساطة الجيوش الامامية ، واصبح كل شيء يسير سيرا مرضيا يدعو الى الارتياح ، ولهذا فقد قررت العودة الى الوطن في الرابع عشر من كانون الثاني .



محنــة اليونــان

لما كانت يوغسلافيا منذ احتلها هتلر في نيسان عام ١٩٤١ أصبحت مسرحا لاحداث مخيفة ، وكان الملك بطرس قد لجأ الى انجلترا ومعه عدد من وزراء الامير بول وغيرهم من رجال الحكومة ، حيث بدأت حرب العصابات العنيفة بقيادة الجنرال ميخائيلوفيتش الذي التف حوله من تبقى من الطبقة المختارة في يوغسلافيا ولما كان الالمان يتأثرون من اعمال العصابات بقتل مجموعات من الاهالي يتردد عددهم بين اربعمائة وخمسمائة شخص ، مما جعل ميخائيلوفيتش ينكمش كما اضطر بعض قادته الى اجراء مصالحات محلية مع القوات الالمانية والايطالية لكي يبقوا احرارا في بعض المناطق الجبلية على الا يقوموا بأية حركة ضد العدو .

ولم يمر وقت طويل حتى قامت حركة الانصار بقيادة المارشال تيتو ، فأخذ يحرض الاهالي على القيام بالاضرابات السياسية في ساحل المانيا تنفيذا لسياسة الكومنترن ، وتكونت عصابات كثيرة منهم تحت قيادته ممن لا يرهبون القتل في سبيل وطنهم ، وكانوا يتسلحون بالاسلحة التي يغنمونها من ضحاياهم الالمان، وما كانت الاعمال الارهابية التي يقوم بها الالمان باعدام الرهائن لتحول بينهم وبين اعمالهم ، حيث انزلوا بالالمان خسائر كبيرة وأصبحوا سادة مسيطرين على مناطق واسعة ، واشتبكوا في معارك عنيفة مع انصار ميخائيلوفيتش الذين كانوا يساومون الالمان على سلامتهم ، والذين كانوا يزودون الالمان بالمعلومات عن حركتهم .

وقد كنت اتابع هذه الاحداث باهتمام ، وكانت طائراتنا تلقي ببعض المؤن القليلة لهؤلاء الثوار ، لانه لم يكن في مقدورنا ان نقدم اية معونة فعلية لهم ، الا ان قيادتنا في الشرق الاوسط كانت مسئولة عن عمليات هذا المسرح وكانت تحتفظ بجهاز من العملاء وضباط الارتباط من اتباع ميخائيلوفيتش الذي كان يمثل في هـذا الوقت الحكومة اليوغوسلافية في القاهرة كما كان يمثل حركة مقاومة الالمان .

وفي شهر ايار عام ١٩٤٣ ، قررنا ايفاد جماعة صغيرة من الضباط البريطانيين وصف الضباط لعمل اتصال مع هؤلاء الانصار اليوغسلافيين على الرغم من الصراع القاسي الذي كان دائرا في ذلك الوقت بينهم وبين انصار تيتو الذي كان يشن حربه كشيوعي لا ضد الالمان فقط ولكن ضـد الملكية الصربية ايضا والتـي يمثلها ميخائيلوفيتش وانصاره (الشيتنيك) وقد هبط الرئيس الكابتن ديكن وهـو احـد عمداء جامعة اكسفورد بالمظلة ليكون ممثلا لنا عند تيتو ، كمـا تبعته بعثات بريطانية اخرى وفي شهر حزيران ، بعث الينا رؤساء اركان الحرب يقولون : استنادا على المعلومات التي توافرت لديهم والتي كانت تبعث

بها البعثات البريطانية من يوغسلافيا ان الشيتنيك اصبحوا متفاهمين مع المحور في مقاطعتي الهرسك والجبل الاسود .

ولما كان يهمني هذا الحصول على نتائج المقاومة المحلية للمحور في يوغسلافيا فقد طلبت معلومات وافية عنها ، وعقدت جلسة لرؤساء أركان الحرب في داونِنج ستريت في الثالث والعشرين من حزيران وأكدت في اثناء الحديث الاهمية الكبيرة التي أعلقها ، على بذل كل عون ممكن للحركة اليوغسلافية المناهضة للمحور ، والتي كانت ترهق المحور بثلاث وثلاثين فرقة في هذه المنطقة ، وكانت هذه القضية من الاهمية بمكان عظيم ، حتى انني طلبت الى اللجنة ان تزيد عدد الطائرات لامداد الثوار بما يلزمهم ولمساعدتهم .

كما قررنا قبل أن أسافر الى كويبك ، ان امهد الطريق لعمل آخر في البلقان وذلك بتعيين ضابط كبير يتولى رياسة بعثة كبيرة لكي تعمل مع الانصار في الميدان ، ولكي يبعث الي بتوصياته مباشرة عما يراه لمساعدة الانصار ، ولما كان المستر فيتزروي ماكلين عضو البرلمان رجلا جريئا ومغامرا ، فقد قررت ان يتولى رياسة هذه البعثة ، ولما هبط هو ورجاله بالمظلات في يوغسلافيا في شهر ايلول عام ١٩٤٣ ، وجدوا ان الوضع هناك قد اكتسب طابعا ثوريا ، وفي هذه الاثناء كانت أنباء استسلام ايطاليا قد وصلت الى يوغسلافيا ، عن طريق اذاعة البيانات الرسمية ، وعلى الرغم من اننا لم نبعث بأية تعليمات ، فان تيتو كان قد قام بخطوات جريئة ومثمرة ، فلم تمض اسابيع قليلة حتى كان قد نزع السلاح من ست فرق ايطالية ، وقد تمكن اليوغسلافيون من تسليح ثمانين الف رجل بهذه المعدات الايطالية واحتلوا معظم سواحل الادرياتيك ، وبذلك توافرت لنا الفرصة الطيبة لتقوية وضعنا في الادرياتيك بالنسبة للجبهة الايطالية ، واخذ جيش الانصار الذي تزايد عدده الى مائتي الف رجل يقاتل على طريقة حرب العصابات ويشتبك في عمليات واسعة النطاق ضد الالمان الذين واصلوا بدورهم اعمالهم الانتقامية العنيفة بشدة متزايدة .

وفي هذا الوقت دب النزاع بين تيتو وميخائيلوفيتش وانصاره المتخاذلين ، مما دعا قوة تيتو العسكرية النامية بشكل متزايد ان تثير قضية الوضع النهائي للملكية اليوغسلافية ولحكومة المنفى ، وقد بذلت محاولات مخلصة في كل من لندن ويوغسلافيا للوصول الى تسوية عملية بين الفريقين وكنت أؤمل أن يستخدم الروس وساطتهم في هذه القضية وخصوصا بعد المحاولة التي قام بها ايدن في موسكو في تشرين الاول عام ١٩٤٣ ولكن الروس لم يظهروا اية رغبة في هذا الشأن ، ولذا فقد فقدت الامل في الوصول الى تسوية عملية بين الفريقين المتنازعين ، كما أبرقت الى الرئيس روزفلت اقول : ان القتال يتخذ شكلا مخيفا ، ويقوم الالمان بأعمال ثأرية دموية ويعدمون الرهائن بالجملة ، ونحن نأمل في تهدئة الخلافات اليونانية قريبا ، اما الخصومة بين تيتو وبين جماعة ميخائيلوفيتش فعميقة الجذور .

وفي نهاية تشرين الثاني عقد تيتو مؤتمرا سياسيا اعلن فيه قيام حكومة مؤقتة لها وحدها السلطة في تمثيل الشعب اليوغسلافي ، كما جرد

الحكومة الملكية في القاهرة من جميع حقوقها ومنع الملك من العودة الى البلاد الا بعد تحريرها ، ولما كان ميخائيلوفيتش قد اصبح شخصية غير مرغوب فيها ، وكان لزاما علينا ان نحافظ على اتصالنا العسكري بتيتو ، فقد تحتم علينا اقناع الملك باقالة ميخائيلوفيتش من منصبه كوزير للحربية كما سحبنا نحن في اول كانون الاول تأييدنا الرسمي لميخائيلوفيتش واستدعينا البعثات البريطانية التي كانت تعمل في المناطق التي يشرف عليها .

هذا وقد بحثنا القضية اليوغسلافية في مؤتمر طهران ، وعلى الرغم من ان دول الحلفاء الثلاث قررت تقديم أقصى ما يمكن من العون للانصار فان دور يوغسلافيا في الحرب لم يكن امرا يستحق اهتمام ستالين .

* * *

عندما عدت من طهران الى القاهرة ، قابلت الملك بطرس وابلغته عما أعرفه عن قوة حركة الانصار واهميتها كما ابلغته أنه قد أصبح من الضروري فصل ميخائيلوفيتش من الوزارة ، وكان امل الملك الوحيد هو العودة الى بلاده والوصول الى ترتيب مؤقت مع تيتو قبل ان يشدد الانصار قبضتهم على البلاد ، وقد أبدى الروس استعدادهم للعمل في سبيل الوصول الى حل وسط ، هذا وقد ابرق المستر ستيفنسون سفير بريطانيا لدى الحكومة الملكية اليوغسلافية الى وزارة الخارجية يقول : « يجب ان تقوم سياستنا على ثلاثة عوامل جديدة ، اولها أن الانصار هم الذين سيتولون حكم يوغسلافيا ، ثانيها ، ان هؤلاء الانصار لهم اهمية عسكرية قصوى بالنسبة لنا بحيث يتحتم علينا دعمهم الى أقصى حد ، ثالثها ، ان من المشكوك فيه ان نستمر في اعتبار الملكية عنصر توحيد في يوغسلافيا » وقد وافق وزير الخارجية على هذا الرأي ، ولكن الصراع السياسي حول القضايا اليوغسلافية ظل مستمرا شهرين آخرين في اوساط حكومة المنفى في لندن .

اما في اليونان فقد ادى انسحاب الحلفاء منها في نيسان عام ١٩٤١ الى احتلالها بدولتي المحور ، كما ادى انهيار الجيش وانسحاب الملك وحكومته الى المنفى ، الى بعث الخلافات الحادة في السياسة اليونانية كما كانت الانتقادات القاسية توجه الى الملكية في داخل الوطن وفي الدوائر اليونانية في الخارج ، لأنها سمحت بدكتاتورية الجنرال منكساس هذا بالاضافة الى المجاعة الشديدة التي حلت بالبلاد في الشتاء والتي لم يخفف من حدتها الا المعونات التي بعثت بها جمعية الصليب الاحمر ، وأدت المجاعة التي غمرت جميع البلاد الى تطوع اعداد كبيرة في حركات المقاومة وقد تسلحوا بالاسلحة التي كانت أخفيت في الجبال عند استسلام الجيش ، واعلنت الهيئة التي اطلقت على نفسها اسم جبهة التحرير الوطني والتي تألفت في خريف عام ١٩٤١ ، عن قيام جيش التحرير الوطني في نيسان عام ١٩٤٢ وفي الوقت نفسه التف بقايا رجال الجيش اليوناني التي كانت في جبال أبيروس وجبال المنطقة الشمالية الغربية حول شخص يدعى العقيد نابوليون زيرفاس ، وانضم اليه بعض الاهالي من سكان الجبلين ، وكان القادة الشيوعيون هم الذين يسيطرون على جبهة التحرير الوطني وجيشها ، اما انصار زيرفاس

انوا جمهوريين في عواطفهم ، ولكنهم مع مضي الزمن انقلبوا الى خصوم الشيوعية وحدها ، ولم يكن اي منهما يبدي شعور العطف للحكومة الملكية في لندن او يحاول الاتصال بها .

ولما كنا قد قررنا مهاجمة خط الامداد الالماني الممتد عبر اليونان الى بيريه ، وهي القاعدة المهمة في الطريق الالماني الى شمال افريقية وذلك في اثناء قيامنا بمعركة العلمين ، فقد انزلنا اول بعثة بريطانية بالمظلات بقيادة المقدم مايرز ، فاتصلت في الحال بالعصابات اليونانية وتم نسف جسر رئيسي على الطريق الحديدي الاساسي المؤدي الى أثينا ، كما قام العملاء اليونان بأعمال تدميرية جريئة ضد ملاحة المحور في بيريه ، وعززنا البعثات البريطانية في الصيف التالي بقوات جديدة ، اشتركت مع العصابات اليونانية في نسف جسر آخر على السكة الحديدية الرئيسية الموصلة الى اثينا مما اضطر القيادة الالمانية الى ارسال فرقتين الى اليونان كان من المقرر ارسالهما الى صقلية ، وكانت هذه العمليات آخر اسهام حربي قامت به العصابات اليونانية .

كما بدأت العناصر الثلاثة المختلفة ، وهي جيش التحرير الوطني « ايلاس » الذي يبلغ تعداده عشرين الفا ، والذي يسيطر عليه الشيوعيون وعصابات زيرفاس التي سميت (ايديس) والتي يبلغ عددها خمسة آلاف ، والسياسيون الملكيون المجتمعون اما في القاهرة او لندن حول الملك جورج الثاني ، بعد ان تبينت ان النصر اصبح شبه مضمون للحلفاء ، بدأت تتصارع فيما بينها لنيل السيطرة السياسية ، وعندما استسلم الايطاليون في شهر ايلول عام ١٩٤٣ تمكنت (ايلاس) من الاستيلاء على ما كان لديهم من الاسلحة والمعدات ، وبذلك حققت لنفسها التفوق العسكري .

ولما كان من المحتمل جلاء الجيش الالماني من البلقان بعد ان وصلت الجيوش السوفييتية الى حدود رومانيا ، واصبح في الامكان عودة الحكومة الملكية الى البلاد بمساعدة بريطانيا ، فقد قرر زعماء جبهة التحرير الوطني القيام بانقلاب شيوعي .

وكان هذا العمل يعد تحديا مباشرا لسلطة الحكومة الملكية في المستقبل ونذيرا بنشوب ثورة في القوات اليونانية المسلحة في الشرق الاوسط وفي دوائر الحكومة اليونانية في الخارج ، كما قامت جماعة من ضباط الجيش والبحرية والطيران بزيارة رئيس الوزراء المسيو تسوديروس في القاهرة يوم واحد وثلاثين من ايار وطالبته بالاستقالة ، كما أعلن اللواء اليوناني الاول العصيان على ضباطه .

وفي هذه الاثناء وصل الملك الى القاهرة ، في الثاني عشر من نيسان واصدر بيانا ، اعلن فيه عزمه على تأليف حكومة تمثل الشعب ويكون معظم اعضائها من اليونانيين الموجودين في اليونان ، واتخذت الخطوات السرية لنقل عدد من الممثلين من ارض اليونان وبينهم المسيو باباندريو زعيم الحزب الديموقراطي الاشتراكي ، وقد تولى رئاسة الوزارة ، وفي شهر ايار عقد مؤتمر يمثل جميع الاحزاب في احد مصايف جبل لبنان وشهده زعماء اليونان ، اتفق فيه على اقامة حكومة في القاهرة تمثل فيها جميع الاحزاب تحت رئاسة باباندريو .

احتـلال انزيـو

بعد ان استسلمت ايطاليا في شهر ايلول عام ١٩٤٣ ، [illegible] لجنة من الساسة الذين نحاهم موسوليني عن السلطة [illegible] ممثلي الهيئات التي تعارض الحكم الفاشي ، لمقاومة الا[illegible] روما ، وفي هذا الوقت كان موسوليني قد اعتقل في [illegible] نقل منها فيما بعد الى لامادالينا الواقعة على مقربة من [illegible] وخوفا من ان يقوم الالمان بحركة خاطفة امر بادوليو [illegible] الى قرية جبلية صغيرة تقع على قمة عالية في ابروزي [illegible] الا انه في صباح اليوم الثاني عشر من ايلول [illegible] رجال المظلات الالمانيين من طائرة انزلاق على [illegible] اعتقل فيه موسوليني واركبوه طائرة المانية تولت [illegible] حيث عقد اجتماعا مع هتلر ، وبحثا معاً في طريقة [illegible] الايطالية في المناطق التي لا تزال القوات الالمانية تحتلها [illegible] في الخامس عشر من ايلول تأليف حزب فاشي جمهوري جديد [illegible] اقامة حكومة في الشمال الايطالي ، عرفت باسم حكومة جمهورية [illegible] وذلك بعد ان اتخذ له مقر قيادة على شواطىء بحيرة جاردا .

وكان من نتائج استسلام ايطاليا المباغت ان وقعت جيوشها [illegible] البلقان في كمين بين قوات عصابات المقاومة المحلية وبين الالمان [illegible] للانتقام حيث ابيدت الحامية الموجودة في كورفو والبالغ عددها [illegible] آلاف تقريبا ، وكذلك ابيدت القوات الموجودة في جزيرة [illegible] الا ان الحاميات الموجودة في بحر ايجه تمكنت من الفرار [illegible] صغيرة الى مصر ، كما انضمت وحدات من الايطاليين في البانيا [illegible] الساحل الدماسي وفي داخل يوغسلافيا الى جماعة الانصار [illegible] تيتو بتشكيل الجزء الاكبر من فرقتين ايطاليتين من فرق « غاريبالدي » في الجبل الاسود وكان مجموع ما خسرته الجيوش الايطالية في البلقان وبحر ايجه ما يقرب من اربعين الف جندي .

كما غرقت ايطاليا في اهوال الحرب الاهلية ، واخذ ضباط الجيش الايطالي وجنوده المقيمون في المناطق الشمالية التي يحتلها الالمان ينظمون وحدات من الانصار للعمل ضد الالمان وضد [illegible] الذين ما زالوا على ولائهم للدوتشي ، واخذ هؤلاء الانصار يتصلون [illegible] الحلفاء في جنوب روما ومع حكومة بادوليو ، بغية تنظيم المقاومة الايطالية للاحتلال الالماني ، وكانت المساعدات التي يبذلونها [illegible] الذين داهمتهم الهدنة وهم في معسكرات الاسر في شمال ايطاليا [illegible]

جمئة الاعمال المهمة التي كانوا يتولونها ، وبسبب هذه المساعدة تمكن عشرة آلاف اسير من مجموع الاسرى البالغ عددهم ثمانين الفا مـن الهرب من معسكرات الاعتقال .

ولما راى موسوليني ان « جمهورية سالو » اخذت تتداعى قدم الى المحاكمة في القلعة القديمة في فيرونا في نهاية عام ١٩٤٣ ، جميـع قادة العهد الفاشي القديم الذين كانوا قد اقترعوا ضده والذين امكن اعتقالهم في المناطق الايطالية التي يحتلها الالمان ، وقد حكم عليهم جميعا بالاعدام بما فيهم الكونت تشايفو زوج ابنته ايدا ، وقد نفذ فيهم حكم الاعدام في شهر كانون الثاني عام ١٩٤٤ .

اما من ناحيتنا فقد اخذنا نعد العدة لعملية « الحصباء » وهو الاسم الرمزي الذي اطلقناه على عملية «انزيو» وذلك في اوائل كانون الثاني واشتبكت قوات الجيش الخامس في قتال عنيف مع القوات الالمانية لاختراق خط جوستاف الذي كانت كاسينو مركزه الاساسي ، وهو خط دفاعي حصين ، تتخلله مراكز مراقبة على قمم الجبال ، كان العدو يسيطر بنيران مدافعه منها علـى جميع الوديان وما يقع فيها مـن حركات ، مما ارغم قواتنا على الارتداد .

وفي هذه الاثناء سارت قوافلنا المتجهة الى انزيو في عرض البحر تحت حماية الطائرات التي قامت بغارات على مطارات العدو وبالاخص على مطار بيروجيا قاعدة طائرات الاستطلاع الالمانية ، وكنت ارقب بقلق بالغ نتيجة هذه العملية المهمة ، حتى جاءتني الانباء ، بأن الفيلق السادس الذي يتألف من الفرقة الامريكية الثالثة والفرقة البريطانية الاولى بقيادة الجنرال الامريكي لوكاس ، قد نزل الى البر في شواطىء انزيو في صباح الثاني والعشرين من الشهر واستغرقت عمليات جس النبض في اتجاه شيشتيرنا وكامبوليوني طيلة يومي ٢٢ و ٢٣ كانون الثاني، كما نزل ايضا جماعتان من الفدائيين البريطانيين والامريكيين مع حشد هائل من المعدات والاسلحة على الشاطىء ، ولكن الفرصة التي بذلنا كل هذه المجهودات الهائلة في سبيل الحصول عليها قد ضاعت بسبب ما قام به الجنرال كيسلرنجمن رد سريع وهجوم شامل على قواتنا ، وقد وصلتني انباء خطيرة من الجنرال اليكساندر بأنه هو والجنرال كلارك غير راضيين عن سرعة التقدم ، ولكن هجماتنا استمرت على مواقع العدو في كاسينو ، ولم يضعف الخطر الذي يهدد جناح كيسلرنج من عزيمته على مقاومة هجماتنا ، وتصميمه على الاحتفاظ بمواقعه تنفيذا للامر الصادر اليه من هتلر ، والذي قال فيه :

« يجب الاحتفاظ بخط جوستاف بأي ثمن ، بالنظر الى النتائج السياسية التي يمكن ان تنجم عنـه ، وان الفوهرر يتوقع كفاحا شديدا في سبيل كل شبر من الارض » .

ولو اننا حققنا تقدما مرضيا في البداية حيث اجتزنا نهر أبيدو المار ببلدة كاسينو ، ثم هجمنا نحو الجنوب في اتجاه جبل الدير الا ان الالمان صمدوا صمودا عنيدا ولم يأت اول شباط حتى كانت قوة هجومنا قد

ضعفت وجئنا بفيلق نيوزيلندي يضم ثلاث فرق من جبهة الادرياتيك وبدأنا في الخامس عشر من شباط هجومنا الرئيسي الثاني بقصف الدير نفسه ، وقد ظهر ان هذا الجبل عائق دفاعي مهم جدا ولم تكن النتيجة مجدية ، كما عهد الى الفرقة الهندية الرابعة التي حلت محل الامريكيين بالهجوم ، وقاموا فعلا بمحاولات يائسة في ليلتين متتاليتين لاحتلال اكمة بين المواقع التي يوجدون فيها وبين الجبل الذي يقوم عليه الدير ولكنها منيت بالفشل ، وفي ليلة الثامن عشر من شباط قاموا بمحاولة ثالثة ودار بينها وبين العدو قتال عنيف قتل فيه جميع رجالنا الذين توصلوا الى الالمان وخسرت قواتنا خسائر بالغة مما اضطرها الى التوقف ، وهكذا فشل الهجوم المباشر على كاسينو .

وقد قال الجنرال ويلسون في تقريره « اغلق المحيط ، واصبحت قواتنا في داخله عاجزة عن التقدم » فعلى الرغم من ان الجنرال لوكاس قد حصل على المباغتة التي كنا نريدها الا انه فشل في استغلالها والاستفادة منها ، وكان هذا مثبطا للعزائم عندنا وفي الولايات المتحدة ، وقد كنا في الظاهر لا نزال اقوى من الالمان في قوتنا المحاربة ، ولكن السهولة التي كانوا ينقلون بها قطعهم من مكان الى آخر والسرعة التي كانوا يسدون فيها الثغرات الخطرة التي في جبهتهم الجنوبية كانتا ظاهرتين مؤثرتين كل التأثير ، ووضح ان كل هذا يبين لنا حقائق ليست في مصلحة عملية « السيد الاكبر » .

كما بدات المحاولة الرئيسية المنتظرة للقذف بنا الى البحر ، عندما استخدم العدو اكثر من اربع فرق يدعمها نحو اربعمائة وخمسين مدفعا في هجوم مباشر من كامبوليوني نحو الجنوب تنفيذا لامر هتلر باخلاء الشاطيء في بحر ثلاثة ايام ، ولكن الخط الذي كان حتى الآن يفرض العراقيل شاء في اللحظة الاخيرة ان يولينا بعنايته ، فقبل ان تنتهي الايام الثلاثة المقررة توقف الهجوم الالماني ، وفي الحال قمنا بهجوم عام تؤيدنا نيران شديدة من مدفعيتنا وغارات طائراتنا ودار قتال عنيف بلغت خسائر الفريقين فيه حدا هائلا ولكننا كسبنا المعركة .

وفي اوائل شهر آذار توقف الفريقان عن الحركة بسبب رداءة الطقس بعد ان فشلنا في اختراق جبهة الالمان الرئيسية في كاسينو كما فشل الالمان في القذف بنا الى البحر على انزيو .

ولو ان انزيو لم تعد مصدر قلق لنا ، الا ان الحملة في ايطاليا في مجموعها ابطأت في سيرها ، وكنا نأمل ان نتمكن من طرد الالمان الى الشمال من روما ، كما نتمكن من القيام بعملية انزال قوات ومعدات على شاطيء الريفيرا الفرنسي لتكون عونا لنا في عملية الغزو عبر القناة الا انه قد تبين ان علينا ان نسير بالحملة في ايطاليا شوطا بعيدا قبل ان نبدأ في عملية غزو القناة .

ولما كانت الحاجة ملحة تتطلب انهاء فترة الجمود التي تسود جبهة

كاسترو ، فسرعان ما بدات الاستعدادات لمعركة كاسينو الثالثة ، ولكن رداءة الطقس حالت دون بدء الهجوم حتى الخامس عشر من آذار ، حيث بدانا الهجوم بالقاء اكثر من الف طن من قنابل الطائرات والف ومائتي طن من قذائف المدافع حتى يتيسر لمشاتنا التقدم ، وعندما هبط الظلام كان الجزء الاكبر من البلدة قد اصبح في ايدينا ، ولكن المعركة استمرت في خرائب كاسينو حتى الثالث والعشرين من الشهر وهي تتردد بين مد وجزر من الهجمات والهجمات المضادة ، ولكننا على كل حال أفلحنا في تثبيت راس جسر على نهر رابيدو ، مما كان له كبير الاهمية في الاندفاع الذي قمنا به في شهر كانون الثاني الماضي ، عبر الحوض الأدنى لنهر كاريجيليانو ، وعندما جاء دور المعركة الحاسمة الظافرة فيما بعد ، تمكنا من احتلال انزيو ، وقد دل هذا العمل الذي قامت به جيوشنا في ايطاليا ولا سيما في ضربة انزيو ، على اننا سننجح في عملية « السيد الأكبر » .

عملية السيد الاكبر

لما كنت شديد الرغبة في اشراك الولايات المتحدة معنا في هجوم مباشر عبر القناة على جبهة الالمان البحرية في فرنسا ، ولما كنت ايضا غير مقتنع بأن هذه الخطة كانت الوحيدة التي تضمن الفوز في الحرب ، وكنت اعرف انها مغامرة محفوفة بالاخطار وكثيرة المتاعب ، وكانت الاثمان الغالية التي دفعناها من الارواح البشرية والدماء في اثناء الحرب العظمى الاولى ، لا تزال منقوشة في ذاكرتي ، وكنت لا ازال اعرف ان الحصون المبنية من الاسمنت المسلح والفولاذ والمسلحة بالقوة النارية الحديثة والتي يدافع عنها رجال مدربون اكمل تدريب ، لا يمكن التغلب عليها الا بعنصر المباغتة. فقد ظل الجنرال مورجان واركان حربه من القوات الحليفة المشتركة يعملون طوال اشهر الصيف عام ١٩٤٣ في اعداد الخطة ، وكان من رأي الجنرال ايزنهاور والجنرال مونتغمري ان يكون الهجوم بقوة كبيرة وعلى جبهة اوسع ليكسبا بسرعة رأس جسر ذا حجم كاف لتعزيز القوات التي تنزل الى البر ، وكان من المهم ايضا الاستيلاء على ارصفة شربورج ، وطالبا ان يكون الهجوم بخمس فرق بدلا من ثلاث ، وقد تقرر اخذ قطع الانزال اللازمة لفرقة واحدة من الفرقتين الاضافيتين من عملية « السندان » اما البواخر اللازمة للفرقة الثانية فيمكن ايجادها من تأجيل عملية السيد الاكبر حتى فترة القمر في حزيران .

وقد اخذت جميع الفرق تجري تدريباتها النهائية ، وبالطبع لم يمر هذا النشاط عرضا ، فقد كان لنا غاية في ان يلاحظ المراقبون الاعداء ذلك من خليج كاليه ، كما كنا في هذه الفترة نجري عملية استطلاع جوي مستمرة لنكون على علم بما يدور في القناة ، كما كانت تقوم بعض الجماعات برحلات عدة في زوارق صغيرة لسبر بعض الاغوار على الشاطىء ومعرفة العقبات الجديدة واختبار طبيعة الساحل وذلك في جنح الظلام .

ولما كان اختيار يوم الغزو وساعته امرا دقيقا ومعقدا ، كما ان جميع الشروط المرغوب فيها ما كانت لتتوافر الا ثلاثة ايام في كل شهر قمري ، وكانت الايام الثلاثة التي حددها الجنرال ايزنهاور هي الخامس والسادس والسابع من حزيران فقد اتفق على ان يكون اليوم الخامس من حزيران هو بدء الغزو ، واذا لم يكن الطقس ملائما في اي من هذه الايام الثلاثة فان العملية كلها ستتأجل شهرا كاملا انتظارا للقمر .

ولما كان حشد القوات المهاجمة والتي كان يبلغ تعدادها (١٧٦) الف جندي وعشرين الف سيارة وعدة الوف من اطنان الذخائر ، التي تقرر نقلها في اليومين الاولين مهمة كبيرة للغاية ، فقد بدا نقل الجنود من جميع

مراكزهم في انحاء بريطانيا الى المقاطعات الجنوبية كما جمعت فرق الجو الثلاث وهي التي تقرر هبوطها في نورماندي قبل بدء الهجوم البحري في اماكن قريبة من المطارات التي ستستقل الطائرات منها .

ولما كان من غير المعقول ، ان تظل جميع هذه التحركات في البر والبحر خافية عن عيون العدو واهتمامه ، وكانت هناك اهداف مغرية لطائرات العدو فقد اتخذنا الاحتياطات اللازمة كافة لمواجهة ذلك ، وأعددنا اكثر من سبعة آلاف مدفع مضاد للطائرات والصواريخ واكثر من الف منطاد لحماية هذه الحشود الهائلة من الرجال والسيارات .

وقبل ثلاثة اسابيع من ابتداء الغزو ، عقدنا مؤتمرا ثانيا في لندن ، في مقر قيادة مونتغمري شهده الملك والمارشال سمطس ورؤساء اركان الحرب البريطانيين وقواد الحملة وعدد كبير من اركانهم ، وكان قد أعد خريطة كبيرة لنورماندي وشواطئها ومداخلها ، ليتمكن كبار الضباط الذين يشرحون خطة العملية والطرق الموصلة للاماكن التي يشيرون اليها ، وانتهت الجلسة بعد أن القى الملك والجنرال مونتغمري وضباط الاركان خطاباتهم .

هذا وقد لاحظنا ان العدو يعد نجدات من القوات البحرية الخفيفة في شربورج والهافر كما ابدى نشاطا كبيرا في عمليات زرع الالغام في القناة، وعندما حل يوم الغزو وهو الخامس من حزيران ، منعنا جميع الاشخاص الذين تقرر أشتراكهم في الحملة من مغادرة بواخرهم او معسكراتهم او نقاط تجمعهم على الساحل ، كما احتجز البريد بأنواعه ، واخذنا ندرس التقارير عن حالة الطقس ، وقد عرفنا ان الطقس سيكون سيئا للغاية ، وهذا امر كبير الاهمية بالنسبة لغارات الطائرات التي ستمهد للانزال ، وطال امد التأجيل الى ما بعد السابع واصبح من غير الممكن الحصول على الجمع بين القمر والمد قبل مضي نحو اسبوعين . وكانت في هذه الاثناء قد صدرت التعليمات الى جميع الجنود بالاستعداد ، ولكن لما كان من الواضح انه ليس في وسعنا الاحتفاظ بهم على ظهر هذه البواخر الصغيرة الى امد غير محدود ، كما انه كان في مثل هذه الحالة لا يمكن ان تحول دون تسرب الانباء ووصولها الى العدو في حالة حدوث تأجيل طويل وعليه فقد اصدر الجنرال ايزنهاور امرا بتأجيل العملية وعادت جميع البواخر والسفن المحملة بالجنود والعتاد الى مكان تجمعها الاصلي .

ولكن خبراء الارصاد الجوية عادوا واكدوا وجود تحسن مؤقت محدود . وكان على ايزنهاور ان يواجه الخيار الخطير بين امرين . اما تقبل الاخطار او تأجيل الهجوم مدة اسبوعين على الاقل ، ولكنه على ضوء نصائح قادته قرر بجرأة وحكمة كما اثبتت الايام. ان يمضي قدما في العملية وتقرر ان يقع الغزو في اليوم السادس من حزيران ، وبعد ان تتابعت الاحداث تبين لنا ان هذا القرار قد بررته الاحداث وكان سببا في ان قبضنا على ناصية المباغتة مع ما تنطوي عليه من فوائد ، وكان من حسن حظنا ان ضباط الارصاد الجوية الالمان ، كانوا قد أبلغوا قيادتهم العليا ان الغزو الخامس والسادس من حزيران في حكم المستحيل بسبب رداءة

الطقس التي قد تستمر عدة ايام ، وعلى ذلك فقد مضت العملية الكبيرة في طريقها بدقة متناهية . وتقدم اعظم اسطول غزو في التاريخ متجها الى ساحل فرنسا تتقدمه كاسحات الالغام وتحرسه من جميع جهاته القوات البحرية الجوية الحليفة .

وكانت شبكة الدفاع حول جميع شواطئنا محكما وتعمل في منتهى الدقة والنشاط كما كان أسطول الوطن يقظا ومتربصا لاية حركة قد تقوم بها السفن الحربية الالمانية ، كما كانت الدوريات الجوية تراقب شواطىء العدو من النرويج حتى القناة ، وفوق المداخل الغربية وخليج بسكاي ، وفي هذه الاثناء جاءتني انباء مثيرة عن احتلال قواتنا لروما .



الاستيلاء على رومـا

لقد توقف زحف الحلفاء في ايطاليا لمدة شهرين بسبب ما لاقته قواتنا من صعاب في جبهتي انزيو وكاسينو ، في أثناء القتال الذي دار هناك وقد تحتم علينا ان نعيد تنظيمها ، وان ننقل الجزء الاكبر من الجيش الثامن ومن ناحية الادرياتيك لكي يتأهب الجيشان للهجوم القادم . وفي هذه الاثناء كان الجنرال ويلسون يستخدم كل ما لديه من قوات جوية ليعرقل حركات العدو ، ويلحق به افدح الخسائر ، كما اشتركت قوات الحلفاء الجوية في مهاجمة مواصلات العدو البرية املا في قطعها . لكي ترغم القوات الالمانية على الانسحاب بسبب افتقارها الى المؤن ، وكذلك تحطيم الجسور والقناطر وغيرها من الاماكن الحساسة لتوقف سير القطارات الى الشمال من روما ولكن العملية فشلت . وتمكن العدو من المحافظة على طرق امداده ، باستخدام الملاحة الداخلية ونقل شحناته بالسيارات بدلا من القطارات ، ولكنه عجز عن جمع كميات كبيرة من المؤن والذخائر تكفي قواته للاستمرار في القتال لمدة طويلة ، وظهر الضعف في صفوفه في اثناء القتال العنيف الذي نشب في الايام الاخيرة من شهر ايار . مما حقق لنا الاتصال بجيوشنا المنفصلة ، كما تحقق لنا الاستيلاء على روما في اسرع مما كنا نتوقع . كما مني سلاح الجو الالماني بخسائر فادحة.

وقد كان الجيش الخامس بقيادة الجنرال كلارك يضم في هذا الوقت سبع فرق بينها اربع فرق فرنسية ويحتل الجبهة الممتدة من البحر الى نهر ليري ، كما كانت جبهة الجيش الثامن الذي يقوده الجنرال ليز . مكملة الخط عبر كاسينو الى الجبال والذي يضم اثنتي عشرة فرقة وقد تجمع للحلفاء بذلك ثمان وعشرون فرقة ، مقابل ثلاثة وعشرين فرقة للالمان . وكانت خطواتنا التضليلية تذهل كيسلرنج مما دعاه الى توزيع قواته على مساحة شاسعة ، وبذلك لم يكن لديه في الجبهة الممتدة بين كاسينو والبحر ، حيث تقرر ان توجه ضربتنا اليها اربع فرق ، وقد بدأ الهجوم في مساء اليوم الحادي عشر من ايار ، عندما اطلقت مدافعنا البالغ عددها الفي مدفع قذائفها على العدو وعززها في الصباح قصف جوي شديد قامت به طائراتنا وبذلك تم لنا في اليوم الثامن عشر من ايار التغلب على العدو وتطهير كاسينو بصورة نهائية .

كما كانت هناك ست فرق يقودها الجنرال الامريكي تروسكوت قد احتشدت في راس شاطيء انزيو اندفعت في هجومها مع الجيش الثامن ، ولم يمض يومان حتى اتصلت بالفيلق الأمريكي الثاني .
وبذلك تحطمت المقاومة الالمانية في مساء اليوم الثاني من حزيران ،

وفي اليوم الرابع من حزيران دخلت طلائع الفرقة الثامنة والثمانين الى ساحة البندقية في قلب العاصمة (روما) .

وفي اليوم السادس من حزيران عام ١٩٤٤ ، أعلنت في مجلس العموم تحرير مدينة روما على أيدي جيوش الحلفاء تحت قيادة الجنرال اليكساندر كما بعثت الى ستالين أعلمه بذلك وبسير عملية « السيد الاكبر » نحو غايتها ، وقد رد علي يقول :

« تلقيت رسالتك عن النجاح الذي حققتموه في بداية عملية « السيد الاكبر » مما بعث السرور الى نفوسنا والامل في انتصارات اخرى ، هذا وسيبدأ حوالي منتصف هذا الشهر هجوم الصيف بالنسبة للقوات السوفييتية كما اتفقنا في مؤتمر طهران ، على أن تتطور العمليات الهجومية خلال شهر تموز الى هجوم عام تشنه الجيوش السوفييتية في جميع انحاء الجبهة » .

وبعد ايام ابرق الي ستالين يقول :

« لقد اصبح واضحا ان النزول الذي خطط له على نطاق واسع ، قد نجح نجاحا كاملا ، ولا استطيع أنا وزملائي الا الاعتراف بأن تاريخ الحرب لا يعرف عملية اخرى مماثلة من حيث تطوراتها وتصوراتها الواسعة وتنفيذها العبقري .

ومن المعروف جيدا أن نابليون قد فشل فشلا معيبا في اجتيازه القناة بالقوة ، وهتلر المجنون الذي ظل يتبجح عامين كاملين بأنه سيعبر المانش ، لم يستطع ان يحزم امره حتى على مجرد الاشارة بأنه سيحاول تنفيذ وعيده ولم يتمكن سوى حلفائنا من ان يحققوا بشرف الخطة العظيمة في عبور المانش ، ولا ريب في ان التاريخ سيسجل هذا العمل على انه عمل من أعظم الاعمال » .

وأبلغنا الجنرال مونتغمري في العاشر من حزيران بأنه قد اصبح ثابت الاقدام على الشاطىء بحيث يستطيع تقبل الزيارات ، فقمت ومعي الجنرال سمطس وبروك لزيارته على ظهر احدى المدمرات كما استقل الجنرال مارشال والاميرال كينج وضباط أركان حربهما مدمرة اخرى ليكونوا معنا في هذه الزيارة ، ونزلنا الى البر واخذت السيارة تطوف بنا المنطقة المحدودة التي يحتلها في نورماندي وعدنا بعد ذلك على المدمرة « كيلفن » .

وبعد عودتي ، بعثت بالرسالة التالية الى الرئيس شرحت له فيها جميع القضايا ومن بينها بالطبع الزيارة التي ينوي الجنرال ديغول القيام بها لفرنسا والتي أعددت لها العدة دون استشارة الرئيس ، قلت له فيها :

« لقد قضيت يوما ممتعا على الشاطىء الفرنسي وفي الداخل ، وهناك كتلة ضخمة من البواخر تنتشر على مسافة تتعدى الخمسين ميلا على

طول الشاطىء ، وتقوم الموانىء الاصطناعية بحماية هذه البواخر . وفي وسعي ان اقول ان كل عنصر من هذه الموانىء كان ناجحا في حد ذاته ، وسنصبح عما قريب عاملا مهما في تأمين الملاذ الامين ضد الطقس السيء ، ويبدو أن قوة سلاحنا الجوي وقوة وسائلنا في مقاومة الغواصات قد ضمنت لنا حدا كبيرا من الحماية وبعد ان قمنا بواجبات كثيرة منهكة اطلقنا نيران مدافعنا من مدمراتنا على الرغم من اننا كنا على بعد ستة آلاف ياردة ولكن العدو لم يكرمنا برد تحيتنا » .



تحرير باريس

ولنبين الآن مما توضح لنا ما كانت عليه اوضاع وخطط العدو ، فقد كان الماريشال روتشندادت يتولى قيادة (جدار الاطلنطي) وتحت امرته ستون فرقة تتولى العمل في القطاع الممتد من الاراضي المنخفضة حتى خليج بسكاي ، ومن مارسيليا الى نهاية الساحل الفرنسي الجنوبي ، وكان رومل يتولى القطاع الساحلي الممتد من هولندا الى اللوار وكان جيشه الخامس عشر المؤلف من تسع عشرة فرقة على حين كان جيشه السابع المؤلف من تسع فرق مشاة وفرقة مدرعة في نورماندیا نفسها ، اما الفرق العشر المدرعة الموجودة في الجبهة الغربية كلها فكانت منتشرة من بلجيكا الى بوردو ، ومن الغريب ان الالمان وقد اصبحوا في مركز المدافع فقد ارتكبوا الاخطاء التي ارتكبها الفرنسيون عام ١٩٤٠ عندما وزعوا اقوى سلاح يمكن لهم الاعتماد عليه في الهجوم المضاد .

ومن الغريب ان هذا الهجوم الضخم جاء مباغتا للعدو ، ففي صباح الخامس من حزيران كان رومل عد غادر مقر قيادته لزيارة هتلر في بحتسجادن عندما حلت الضربة بقطاعه وكان رونشتادت يعتقد بأن ضربتنا الرئيسية ستوجه من مضايق دوفر ، ولكن يظهر ان هتلر واركان حربه كانوا قد ابلغوا تقارير تشير الى ان نورماندیا ستكون ميدان المعركة الرئيسي ، وظلت تساوره الشكوك حتى بعد نزولنا ، واضاع يوما كاملا قبل ان يقرر ارسال اقرب فرقتين مدرعتين الى الجبهة لتعزيزها لانه كان في رأيه ان عملية الانزال في نورماندیا لم تكن الا مجرد عملية اولية وفرعية ، ولم يرسل القوات الاحتياطية من الجيش الخامس المرابط في خليج كاليه جنوبا لتشترك في المعركة الا بعد ان انقضى ستة اسابيع على يوم الغزو .

ومع ذلك فقد قاتلت جيوش العدو بعناد واصرار ولم يكن من السهل التغلب عليها ، ولكن على الرغم من جميع الصعوبات التي لاقيناها، فقد حققنا تقدما طيبا باستثناء فشلنا في احتلال كاين ، التي كانت ذات اهمية عظيمة بالنسبة لنا ، ولان مونتغمري كان قد قرر ان يقيم بوساطة القوات الامريكية فيها نقطة ارتكاز يساريه ضخمة تدور منها المعارك ولان ارضها كانت تصلح لاقامة اماكن لهبوط الطائرات فيها ، كما كانت هذه البلدة مهمة ايضا بالنسبة للالمان ، لان اختراق الجبهة فيها يجبر جيشهم السابع باكمله على الانسحاب في اتجاه جنوبي شرق اللوار ويفتح ثغرة بينه وبين الجيش الخامس عشر من الشمال ، كما يتفتح الطريق في الوقت نفسه الى باريس .

وقد تمكن الحلفاء في الحادي عشر من حزيران من اقامة جبهة متصلة واندفع الامريكيون شرقا وغربا تؤيدهم الطائرات المقاتلة ، وبعد

قتال عنيف توقفوا عند ابواب الخطوط الدفاعية لمدينة شربورج في الثاني والعشرين من حزيران .

وفي هذه الاثناء وقعت احداث اخرى وراء الميدان اثرت على مستقبل المعركة تأثيرا حاسما ، ففي ليلة الثالث عشر من حزيران سقطت على لندن اولى القنابل الطائرة ، وكانت هذه القنابل تنطلق من سواحل فرنسا الشمالية من اماكن بعيدة عن جيوشنا النازلة الى البر ، ولو كنا احتللنا هذه الاماكن في وقت مبكر لارحنا السكان المدنيين في لندن من تعرضهم لهذه الغارات الجوية الفظيعة .

وفي اليوم التاسع عشر من حزيران عقد هتلر مؤتمرا في مارجيفال على مقربة من سواسون ، شهده رونشتادت وروميل ، وبين له القائدان وجوب سحب الجيش السابع بانتظام قبل ان يتعرض للدمار الى نهر السين حيث يستطيع ان يخوض بالاشتراك مع الجيش الخامس عشر معركة حاسمة ومتحركة ولكن هتلر لم يذعن لرأيهما ، وأصر كما سبق ان اصر في روسيا وايطاليا على وجوب القتال عن كل شبر من الارض .

هذا وقد تم لنا في الستة الايام الاولى من بدء الهجوم تثبيت اقدامنا وأنزلنا (٣٢٦) ألف رجل و (٥٤) ألف سيارة و (١٠٤) آلاف طن من العتاد والذخائر ، كما اقمنا جهازا هائلا للتموين ، كما أعددنا ميناء « بورت آن باسان » ليكون الميناء الرئيسي للامداد بالبترول في المنطقة كلها وفي هذه الاثناء هبت عواصف شديدة استمرت اربعة ايام فحالت دون نزول اية قوات او معدات جديدة الى الساحل كما الحقت اضرارا كبيرة بحواجز الماء ، وأفلتت قطع عائمة كثيرة . فاصطدمت بحواجز المياه وبالسفن الراسية في مرافئها وتحطم الميناء الموجود في المنطقة الامريكية وقد تسببت في تعطيل تقدمنا في الميدان ، واقام البريطانيون في الاسبوع الاخير من حزيران رأس جسر لهم في جنوب كاين ولكن المحاولات التي بذلت لتوسيعه جنوبا وشرقا منيت بالفشل .

وفي السابع عشر من شهر تموز ، وقع حادث مهم للغاية ، حيث اصيب روميل بجراح بالغة من جراء هجوم طائراتنا المحاربة من ارتفاع منخفض على سيارته ولكنه بعد أن شفي من جراحه لقي حتفه فيما بعد بأمر من هتلر ، كما نحي رونشتادت عن قيادة الجبهة الغربية كلها ليخلفه فيها فون كلوجه ، وهو قائد أظهر تفوقا عظيما في الجبهة الروسية كما وقعت في العشرين من تموز محاولة اخرى فاشلة لاغتيال هتلر ، بوساطة قنبلة زمنية وضعها الكولونيل فون شتوفنبرج ، وقد قتل عدد من الضباط الذين كانوا حاضرين ولكن الفوهرر برغم الصدمة الشديدة والجراح التي أصيب بها نهض هاتفا «من يقول ان الله لا يرعاني بحمايته» .

وفي الثامن عشر من تموز هجم الجيش البريطاني بثلاثة فيالق تقدمها قصف جوي هائل ، حال بين سلاح المانيا الجوي وبين التدخل في المعركة وتقدمنا الى الشرق من كاين ، الى ان حالت الغيوم الملبدة في السماء بين طائراتنا وبين الحركة الفعالة ، مما سبب تأخرا في عملية الاقتحام في القطاع الامريكي لمدة اسبوع .

وفي هذه الآونة صدرت الاوامر بالغاء الحظر الذي كانت القيادة العليا الألمانية قد فرضته على جيشها الخامس عشر والتي كانت محتفظة به وراء نهر السين ، كما توجهت فرق جديدة لتعزيز الجيش السابع الذي لحق به الاجهاد ، وقد تمكنت طائراتنا من عرقلة نقل هذه الفرق بالسكة الحديد .

وحانت اخيرا لحظة الهجوم الامريكي العظيم بقيادة الجنرال برادلي ففي الخامس والعشرين من تموز ، اندفع الفيلق السابع جنوبا من سان لو وانضم اليه الفيلق الثامن المرابط الى ميمنته في اليوم التالي ، تؤيدهما قاذفات القنابل الامريكية ، كما اندفعت القوات المدرعة تجرف في طريقها كل شيء مستهدفة نقطة كوتانس ، ذات المركز الحساس ، فقطعت طريق النجاة بالنسبة للالمان على طول ساحل نورماندیا الغربي ، وأصبحت جميع مراكز الالمان الدفاعية الى الغرب من نهر فير في حالة من الشلل والاضطراب ومضى الزحف مندفعا للامام ، وتم احتلال افرانسس في الحادي والثلاثين من تموز ، وتلتها الزاوية البحرية التي فتحت الطريق الى شبه جزيرة بريتاني وقام الكنديون في الوقت نفسه بهجوم من كاين جنوبا في اتجاه طريق ناليز ولكنه لقي مقاومة فعالة من اربع فرق مدرعة .

وفي هذا الوقت تم تشكيل الجيش الامريكي الثالث بقيادة الجنرال باتون وشرع يعمل في ميدان القتال ، وقد اوفد هذا الجيش فرقتين مدرعتين وثلاث فرق من المشاة الى الجنوب والغرب ، لتطهير جزيرة بريتاني ، بمساعدة حركة المقاومة الفرنسية التي كانت تضم ثلاثين ألف رجل ، وقد تم الاستيلاء على شبه جزيرة بريتاني .

وبعد ان تم تطهير بريتاني ، شرعت بقية جيش باتون في الزحف شرقا في الخطاف الطويل « الذي سيصل بها الى الثغرة الواقعة بين باريس واللوار وهبوطا مع السين في اتجاه روان » ودخلت قواتنا بلدة لافال في السادس من آب وفي السابع منه بلدة ليمانز ، ولكن الصعوبة الكبرى كانت من تموين الامريكيين الزاحفين في مساحات طويلة شاسعة وكان من الواجب في هذه اللحظة نقل كل شيء الى شواطىء الانزال الاساسية ومنها الى الطرف الغربي من نورماندیا عبر افرانش حتى تصل المؤن الى الجبهة ، وهكذا اصبحت افرانش بمثابة عنق الزجاجة، وقد حانت فرصة مغرية للالمان ليشنوا عليها هجوما مضادا واستحوذت الفكرة على خيال هتلر ، فأصدر أوامره بأن تقوم القوات بالهجوم على مورثان ، لتشق طريقها منها الى افرانشن . ولتقطع بذلك طرق مواصلات باتون ، واجمع القادة الالمان على استنكار هذا الهجوم الجديد ، لادراكهم ان معركة نورماندیا قد انتهت بفقدها ، ولكن هتلر اصر على رايه وفي السابع من آب شنت خمس فرق مدرعة وفرقتان من المشاة هجوما عنيفا على مورثان من ناحية حتى وصلتها ثلاث فرق اخرى لمساعدتها وصد العدو . ومضت قوات الحلفاء تندفع في طريقها مهاجمة الالمان المكتظين في الجيب الضيق الطويل ، وتمكنت بفعل المدافع من ان تنزل بها خسارة هائلة ، وصمد الالمان بعناد واصرار محاولين انقاذ ما يمكن انقاذه بوساطة قواتهم المدرعة ،

وتحول المنظر الى مذبحة وانطبق الفكان في العشرين من آب وقد تمكن شطر كبير من قوات العدو من الخلاص من الطوق والنجاة ، الا ان ما لا يقل عن ثمان فرق المانية قد تمت ابادتها في هذه المعركة .

كما تمكن الجيش الامريكي الثالث من تطهير بريتاني والاسهام في نصر فاليه الرائع ، بدفعه ثلاثة فيالق في اتجاه الشرق والشمال الشرقي من ليمانز ، وقد وصلت في السابع عشر من آب الى اورليان وشاراد ودرو . ثم اندفعت في اتجاه شمالي غربي للقاء القوات البريطانية الزاحفة على روان .

وكان ايزنهاور الذي تولى القيادة العليا الآن عازما على تجنب خوض معركة لاحتلال باريس ، ولما كانت ستالينغراد ووارسو قد برهنتا على ما في الهجمات الجيبية من مفازع ومخاوف ومن انتشار روح الوطنية بين المدافعين ، فقد قرر تطويق العاصمة وارغام الحامية التي بها اما على الاستسلام او الهرب ، وحانت في العشرين من آب ساعة العمل ، وكان الجنرال باتون قد عبر نهر السين على مقربة من سانت ووصل جناحه الايمن الى فونتينبلو ، واعلنت الحركة السرية الفرنسية الثورة واضرب رجال الشرطة وسيطر الوطنيون الفرنسيون على مراكز قيادة الشرطة ووصل احد ضباط المقاومة الفرنسية الى مركز قيادة باتون حاملا تقارير هامة وقد نقلت هذه التقارير الى الجنرال ايزنهاور في ليمانز ، كما التحقت الفرقة الفرنسية المدرعة الثالثة بقيادة الجنرال ليكليرك والتي كانت قد هبطت الى البر في نورمانديا في اول آب بجيش الجنرال باتون . وأدت دورا مهما في التقدم ووصل ديغول في اليوم نفسه فأكد له القائد الاعلى للحلفاء ، انه عندما يحين الوقت وطبقا للاتفاقات السابقة ، ستكون قوات ليكليرك اول القوات التي تدخل باريس ، وما ان وصلت الى ايزنهاور انباء عن وقوع قتال في شوارع العاصمة حتى قرر ان يعمل فورا وأصدر امره الى ليكليرك بالزحف على باريس .

وفي الرابع والعشرين من آب تحرك الاندفاع الرئيسي بقيادة العقيد بيلوني من اورليان في اتجاه باريس ، ووصلت طليعة الدبابات في تلك الليلة بوابة اورليان ، ودخلت الى الساحة القائمة في مدخل دار الامانة ، وفي صباح اليوم التالي ، كانت قوات بيلوني المدرعة تحتل ضفتي السين وعند الظهر تم تطويق مقر قيادة الجنرال الالماني فون شوليتز في « قصر موريس » وجيء بفون شوليتز امام ليكليرك ، وتم التوقيع على شروط تسليم حامية المدينة ، ودخل ديغول في السادس والعشرين من آب العاصمة سيرا على قدميه الى الشانزليزيه ومنها الى ساحة الكونكورد حيث استقل ورفاقه السيارات صاعدين الى نوتردام ، وبعد فترة قصيرة جرى الاحتفال الرسمي بتحرير باريس وفقا للخطة الموضوعة .

وفي الثلاثين من آب عبرت قواتنا نهر السين من عدة جهات وكانت خسائر العدو هائلة ، فقد بلغت اربعمائة الف رجل وأكثر

من نصفهم وقعوا في الاسر ، والفا وثلثمائة دبابة وعشرين الف سيارة والفا وخمسمائة مدفع ميدان ، وقد مزق الجيش الالماني السابع وجميع الفرق التي أرسلت لنجدته وكتب الجنرال ايزنهاور في تقريره الرسمي يقول : « لولا التضحيات العظيمة التي قدمتها الجيوش الانجليزية والكندية في معارك كاين وفاليه الوحشية ، لما كان في امكاننا ان نحقق الزحف الرائع بوساطة قوات الحلفاء الاخرى في المناطق الثانية » .



ايطاليا والنزول في الريفييرا

لما كان تحرير نورماندیا من الاحداث العظيمة في الحملة الاوروبية لعام ١٩٤٤ ، ولكنه لم يكن الا احدى الضربات الموجهة الى المانيا النازية ، وكان الروس في الشرق يتدفقون على بولندا والبلقان ، على حين كانت جيوش اليكساندر في الجنوب « اي في ايطاليا » تضغط في اتجاه نهر البو ، فقد كان من المحتم الآن اتخاذ القرارات في صدد حركتنا المقبلة في البحر الابيض المتوسط ، وانه لما أسجله مع المزيد من الاسف ، ان هذه القرارات تسببت في اول خلافات مهمة في الخطط الاستراتيجية العليا بيننا وبين حلفائنا الامريكيين .

من ذلك اننا كنا قد وعدنا بتنفيذ عملية « السيد الاكبر » وكانت مهمتنا الاولى هي انجاح تلك العملية ، ولما كنا لا نزال نحتفظ بقوات قوية في البحر الابيض المتوسط ، فقد صممنا على ان تحتل هذه القوات روما ، التي كنا نحتاج الى مطاراتها لقصف المانيا الجنوبية ، وان نتقدم في شبه الجزيرة الى خط بيزا — ريميني ، وان نرغم هناك اكبر عدد من قوات العدو على البقاء ، كما كنا قد اتفقنا على عملية ثالثة وهي عملية النزول في جنوب فرنسا ، وكان الخلاف يكاد ينشب على هذه العملية بالذات ، لان الامريكيين كانوا قد اصروا على وجوب القيام بهجوم حقيقي تشنه عشر فرق على الاقل ، وقد ايدهم ستالين في هذا الراي ، وقد اضطررت لقبول هذا الراي لكي امنع تحويل هذه القوات الى بورما .

وهكذا فقد كان سقوط روما شرطا اساسيا للقيام بعملية « السندان » وأيضا في الوقت نفسه تبدأ عملية « السيد الاكبر » والى ان يتحقق ذلك لم يكن في وسع اليكساندر الاستغناء عن أي جزء من قواته .

ومع هذا فقد اخذنا عددا من احسن فرقنا في ايطاليا للاشتراك في عملية « السيد الاكبر » الرئيسية ، قبل انتهاء عام ١٩٤٣ ، ولهذا فقد لحق الضعف بقوة الجنرال اليكساندر ، على حين تقوى كيسلرنج ، حيث بعث الالمان بنجدات الى ايطاليا فأوقفت احتلال انزيو ، كما أخرت دخولنا روما حتى قبيل يوم الغزو في نورماندیا ، وادى هذا القتال غير الحاد الى اشغال عدد مهم من قوات العدو الاحتياطية كان في الامكان نقلها الى فرنسا ، مما ساعد عملية السيد الاكبر في مراحلها الحرجة المبكرة ، ومهما يكن ، فان تقدمنا في البحر الابيض المتوسط قد اضطرب الى حد كبير ، ولهذا فقد بعث الجنرال ولسون في الحادي والعشرين من آذار يقول : « ان عملية (السندان) لا يمكن القيام بها قبل نهاية تموز ، ثم عاد فأجل الموعد الى منتصف شهر

آب ، واعلن ان خير طريقة لمساعدة عملية « السيد الاكبر » تقوم على التخلي عن مهاجمة الريفييرا والتركيز على ايطاليا .

وعندما سقطت روما في الرابع من حزيران ، تحتم علينا اعادة النظر في المشكلة قبل ان تبدأ عملية « السندان » .

وكان من راي الجنرال ايزنهاور تقوية الهجوم على شمال غربي اوروبا بجميع الوسائل والامكانيات المتيسرة ، ووافق رؤساء اركان الحرب الامريكيون ايزنهاور على خطته . كما ايدهم الرئيس روزفلت وقال ان التقدم تجاه ممر بوبليانا قد يشغل عددا من الفرق الالمانية ولكنه لا يؤدي الى سحب اي منها من فرنسا وحث على ضرورة القيام بعملية السندان على حساب جيوشنا في ايطاليا ، الا ان رؤساء الاركان البريطانيين اتخذوا موقفا مغايرا تماما ، وكانوا يفضلون ان يرسلوا قوات من ايطاليا بطريق البحر الى ايزنهاور بدلا من النزول في الريفييرا ، كما اعلنوا ان القيام بعملية « السندان » ستؤثر على القوات الباقية لدى الجنرال اليكساندر ، بحيث لا يمكنه القيام باي نشاط جديد .

ولما لم يكن في الامكان التوفيق بين هذه الآراء التي يتمسك بها كل من الفريقين ، فقد ابرقت الى الرئيس في الثامن والعشرين من حزيران اقول : « ان هذه الازمة بين رؤساء اركان حربنا كفيلة بأن تؤدي الى اخطر النتائج ، وغايتنا الاولى هي مساعدة الجنرال ايزنهاور بأسرع ما يمكن ، ولكننا لا نعتقد ان تحقيق هذه الغاية ينطوي بحكم الضرورة على تدمير جميع الجهود العظيمة التي قمنا بها في البحر الابيض المتوسط تدميرا كاملا ، واني لارجو رجاء حارا ان تدرس هذه القضية بنفسك دراسة تفصيلية كما ارجو ان تتذكر حديثك معي في طهران عن موضوع ايستريا » .

وكان رد المستر روزفلت مقتضبا وجافا ، فقد كان مصمما على استقلال عملية « السيد الاكبر » الى اقصى حدود الاستقلال ، وتحقيق تقدم في ايطاليا مع القيام بهجوم مبكر على جنوب فرنسا ، وقد ايد ستالين نفسه عملية « السندان » وقال ان العمليات الاخرى في البحر الابيض المتوسط ليست بذات اهمية ، ولذا فقد اعلن روزفلت انه لا يستطيع ان يتخلى عن هذه العملية ، واضاف يقول :

« ان اهتمامي واماني يتركزان على هزيمة الالمان امام ايزنهاور وانا واثق بانه ستتوافر لنا في ايطاليا حتى بعد سحب القوات اللازمة بعملية « السندان » الموارد الكافية لمطاردة كيسلرنج الى الشمال من خط بيرزا — ريميني ، والضغط الشديد على جيشه لارغامه على الاحتفاظ بقواته الراهنة هناك ، كما انني لا استطيع ان اقتنع بأن الالمان سيدفعون الثمن بزج عشر فرق اضافية بقصد الاحتفاظ بشمال ايطاليا كما يقدر الجنرال ويلسون .

كما انه في وسعنا ان نسحب فورا كما يؤكد الجنرال ويلسون خمس فرق : ثلاث منها امريكية وفرقتان فرنسيتان من القوات العاملة في ايطاليا حاليا لتقوم بعملية « السندان » ، وستؤيد من الاحدى

والعشرين فرقة الباقية بالاضافة الى عدد من الالوية المتفرقة للجنرال اليكساندر تفوقه البري .

ولكن اعتراضات المستر روزفلت على النزول في شبه جزيرة ايستريا والاندفاع نحو فيينا عن طريق ممر بوبليانا ، قد اقامت الدليل على تزمت الخطط العسكرية الامريكية وعدم مرونتها من ناحية وعلى شكوكه فيما سماه بحملة « في البلقان » من ناحية اخرى ، وادعى ان اليكساندو وسمطس ، اللذان يؤيدان وجهة نظري « لمدة اسباب طبيعية وانسانية للغاية » يميلان الى تجاهل اعتبارين حيويين للغاية اولهما ان العملية تمس « الاستراتيجية العظمى » وثانيهما ، انها قد تطول الى حد كبير ، واننا قد لا نستطيع توزيع اكثر من ست فرق من فرقنا ، وكتب يقول : « لا استطيع الموافقة على استخدام القوات الامريكية ضد ايستريا وفي طريق البلقان ، كما لا استطيع ان ارى الفرنسيين يوافقون على استخدام قواتهم في مثل هذه الخطة ، كما لا استطيع ايضا ان اصمد لاعتبارات سياسية لاية « صدمة » قد تصيبنا في عملية « السيد الاكبر » ولا سيما اذا عرف ، اننا قد حولنا قوات ضخمة الى حد ما الى البلقان .

لكنني على كل حال قررت الاذعان مؤقتا ، واصدرت امري في الثاني من تموز الى الجنرال ويلسون ، باعداد العدة لشن هجوم على جنوب فرنسا في الخامس عشر من شهر آب ، وقد بدات الاعدادات فورا ، وهنا يجب على القارىء ان يعلم اننا بدلنا اسم عملية «السندان» « بعملية التنين » مخافة ان يكون العدو قد فهم معنى الكلمة الاولى .

وعندما وقع تبدل ملحوظ في ميادين القتال في نورمانديا في اوائل شهر آب ، وكانت هناك تطورات كبيرة متوقعة ، فقد قمت في السابع من الشهر بزيارة الجنرال ايزنهاور في مقر قيادته على مقربة من بورتسماوث وبسطت له آخر امل لي في وقف الهجوم على جنوب فرنسا .

لكنني لم استطع زحزحته عن موقفه او التأثير عليه ، وقد تلقيت في اليوم التالي برقية من الرئيس يقول فيها : « لقد تبينت بعد الدرس أن علينا ان نشن عملية « التنين » طبقا لمخططنا السابق في اسرع وقت ممكن ، ولي كل الثقة في نجاح العملية ، لانها ستكون عونا كبيرا لايزنهاور في طرد الالمان من فرنسا .

ولذلك قررت في الحال ان اذهب الى ايطاليا ، لارى القادة والجنود ، كما كنت شديد الرغبة للقاء تيتو ، الذي كان في امكانه ان يأتي بسهولة الى ايطاليا من جزيرة فيز ، التي كنا نتولى حمايته فيها ، كما كان في وسع المسيو باباندريو رئيس وزراء اليونان وبعض زملائه الآخرين أن يفدوا من القاهرة ، لكي نضع معهم الخطط لمساعدتهم في العودة الى اثينا ، عندما يبارحها الالمان ، ولما وصلت الى نابولي بعد ظهر الحادي عشر من آب اوضح لي الجنرال ويلسون ان الترتيبات قد اتخذت لعقد مؤتمر في الغد بين تيتو وسوباجيك رئيس وزراء حكومة

الملك بطرس الجديدة في لندن ، وكان الرجلان قد وصلا الى نابولي فعلا .

هذا وقد اجتمعت بالماريشال تيتو في المكان الذي انزل فيه في غرفة كبيرة تملأ جدرانها خرائط جبهات القتال وبعد ان تحدثنا طويلا ، اشرت الى شبه جزيرة ايستريا على الخريطة ، فأيد الماريشال مشروعنا بمهاجمتها ووعد بتقديم كل عون ، واتفقنا على بذل كل جهد ممكن لتقوية يوغوسلافيا حربيا ، وعلى رأب الصدع بينه وبين الملك بطرس .

وبعد ذلك طرت الى جزيرة كورسيكا في اليوم الرابع عشر من آب ، لمشاهدة عملية انزال القوات في الريفييرا ، وأرى لزاما علي ان ادون هنا باختصار كل ما حدث :

فقد تم تأليف الجيش السابع بقيادة الجنرال باتش للقيام بالهجوم وكان يضم سبع فرق فرنسية وثلاث فرق امريكية مع فرقة اخرى من البريطانيين والامريكيين الذين نقلوا بالطائرات ، تؤيدها نحو ست بوارج وواحد وعشرين طرادا ومائة مدمرة ، وكان تفوقنا الجوي كبيرا ، كما كان هناك نحو خمسة وعشرين الف فرنسي مسلح من قوات المقاومة في جنوب فرنسا على استعداد للثورة ، وبدأ الهجوم في صباح الخامس عشر من آب بين كان وهايير ، وكانت الخسائر طفيفة نسبيا ، ولم يأت اليوم الثامن والعشرون من آب حتى كان الامريكيون قد تجاوزوا فالانس وجرينوبل ، ولم يبذل العدو اية مقاومة جدية لوقف الزحف ، وكانت قوة الحلفاء الجوية تنزل بالالمان افدح الخسائر وتحطم مواصلاتهم ، على حين كانت مطاردة ايزنهاور لهم من نورماندیا مستمرة ولا سيما بعد أن وصلت قوات الحلفاء الى نهر السين عند فونتنبلو في العشرين من آب ، وبعد خمسة ايام كانت قواتنا قد تجاوزت ترويه ، وكانت العناصر الباقية من الجيش الالماني التاسع عشر قد اخذت تتراجع تاركة وراءها نحو خمسين الف اسير في ايدينا ، كما تم احتلال ليون في اليوم الثالث من ايلول ، وبيزانسون في الثامن منه ، كما حررت قوات المقاومة ديجون ، وبذا قد تلاقت قوات « السيد الاكبر » و « التنين » في اليوم الثامن من ايلول في بلدة سوميرنون ، وقد تم في المثلث الواقع في جنوب فرنسا الغربي عزل بقايا الجيش الالماني الاول وعددها عشرون الف جندي استسلموا بدون مقاومة ، الا اننا دفعنا في مقابل ذلك ثمنا باهظا للغاية .

هذا وقد بعثت الى الرئيس من نابولي البرقية التالية لانبئه عن حقيقة الموقف بشكل لا لبس فيه :

« ان احاديثك الي في طهران عن ايستريا لا تغيب عن بالي قط ، واني لواثق من ان وصول جيش قوي الى تريستا وايستريا في مدى اربعة اسابيع او خمسة سيكون له اثر بالغ الاهمية ، ولا ريب في ان جماعة تيتو سيكونون في انتظارنا في ايستريا ، وليس في وسعي ان اتصور ماذا سيكون عليه موقف المجر اذ ذاك . ولكننا سنكون على الاقل في وضع يمكننا من استغلال الاوضاع العظيمة » .

وبعد عودتي للوطن تلقيت الرد التالي من الرئيس روزفلت :

« انني اشاطرك الثقة في ان قوات الحلفاء في ايطاليا كافية لاداء المهمة الملقاة عليها ، وان قائد المعركة سيواصل الضغط بقوة وعزم مستهدفا تحطيم قوات العدو .. اما بالنسبة الى استخدام قواتنا الموجودة في ايطاليا في المستقبل ، فهذه مسألة يمكننا بحثها فورا ، وبالنظر الى أوضاع الفوضى التي تسود الالمان في جنوب فرنسا ، فاني آمل ان تتصل قواتنا في الشمال والجنوب في وقت اسرع مما كان منتظرا في السابق .

وسنرى ان هذين الاملين لم يتحققا لان الجيش الذي انزلناه في الريفييرا والذي كلفنا انزاله هذا الثمن الباهظ بالنسبة الى عملياتنا في ايطاليا ، وصل متأخرا للغاية ، وبذلك لم يستطع ان يقدم العون لصراع ايزنهاور الرئيسي في الشمال ، وفي الوقت نفسه مني جيش اليكساندر بالفشل بعد أن كاد ينجح ، مما سبب تأخير تحرير ايطاليا ثمانية اشهر ، كما حيل بيننا وبين زحف جناحنا الايمن في اتجاه فيينا ، وباستثناء ما حققناه في اليونان ، فان قدرتنا العسكرية على تحرير جنوب اوروبا الشرقي قد ضاعت وتلاشت .

ولما كان كيسلرنج قد تلقى نجدات جديدة حتى اصبح عدد القوات الالمانية العاملة تحت امرته ثمانية وعشرين فرقة كما تمكن من تجميع فرقتين جاء بهما من قطاعين هادئين وشرع في هجمات مضادة ، اذا اضيفت الى مشكلات تموينا فوق الممرات الجبلية ووعورة الارض ، فقد اثمرت في وقف زحفنا ، الا انه على الرغم من الخسائر الفادحة التي منينا بها فقد تحقق لنا بعدها الظفر ، وبدأ المستقبل زاهيا مشرقا ، لان جيوش الحلفاء في ايطاليا ظلت تواصل الضغط لكي تحول بين العدو وبين وصول المساعدات اليه ، ولكنه بعد منتصف شهر تشرين الثاني استحال علينا القيام بأي هجوم رئيسي ، ولم تستطع جيوشنا تحقيق النصر الذي تستحقه والذي كادت تحصل عليه في الخريف الا عندما حل الربيع الجديد .

انتصارات الروس

كان النضال الروسي يفوق في نطاقه الى حد كبير جميع العمليات العسكرية التي سردتها في الفصول السابقة ، ولما كان العدو قد مني بنكسات متتالية في مطلع شتاء عام ١٩٤٣ ، فقد صمموا على الا يتيحوا له فرصة للاستراحة ، حتى انهم في منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٤ شنوا عليه هجوما في جبهة طولها مائة وعشرون ميلا تمتد من بحيرة ايلمان الى لينينغراد وتمكنوا من اختراق الخطوط الدفاعية التي اقامها العدو امام المدينة والى الجنوب من هذه الجبهة ، كما انهم صدوه في نهاية شهر شباط الى شواطىء بحيرة بيبوس ، بعد ان تحررت لينينغراد نهائيا ، وقد اصبح الروس بهذا الانتصار يقفون على حدود دول البلطيق كما ارغموا الالمان ايضا على التراجع من غرب كييف الى حدود بولندا ، كما واصلوا طيلة شهر آذار ضغطهم على طول الجبهة ، حتى ارغموا العدو على التراجع من جومر الى البحر الاسود ، ولم يتوقف هجوم الروس حتى تم دحر الالمان وتحطيم الجيش السابع عشر واسترداد ساستبول .

وقد اثارت هـذه الانتصارات العظيمة قضايا ذات اهميـة بالغة وخصوصا بعد ان أطل الجيش الاحمر الآن على اواسط اوروبا وشرقها كما اثارت كثيرا من التساؤلات ، عن مصير بولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان ايضا التي ضحينا من اجلها بالكثير وعملنا المستحيل لمساعدتها وهل ستدخل تركيا الحرب الى جانبنا ؟ وهل ستحاط يوغسلافيا بالفيضان الروسي ؟ ولما كانت أوروبا قد بدات تتطور بعد الحرب ، فقد أصبح من الضروري اعداد ترتيب سياسي سريع بالنسبة لها مـع السوفييت .

لذلك فقد قام السفير السوفييتي في لندن بزيارة وزارة الخارجية في الثامن عشر من أيار للبحث في الاقتراح الذي كان المستر ايدن قدمه للسوفييت وذكر فيه أن في وسع الاتحاد السوفييتي أن يعتبر المشكلات الرومانية مؤقتا من القضايا الخاصة به ، على ان يترك مشكلات اليونان لنا لنعالجها ، ولما كان الروس على استعداد لقبول هذا الاقتراح ، فقد ارادوا ان يعرفوا اذا كنا قد استشرنا الولايات المتحدة بخصوصه فاذا اتضح اننا استشرناها فليس لديهم مانع من الموافقة عليه ، ولذلك فقد بعثت في الحادي والثلاثين من ايار ببرقية الى المستر روزفلت قلت فيها :

« آمل في ان تتمكن من ان تمنح هذا الاقتراح بركتك : ونحـن بالطبع لا نريد تقسيم البلقان الى مناطق نفوذ ، وعند الموافقة عليه ، يجب ان توضح تماما ، انه لا ينطبق الا على اوضاع الحرب ، والا يؤثر على حقوق الدول العظمى الثلاث ومسئولياتها ، التي ستمارسها فرادى في اية تسوية سلمية بالنسبة الى أوروبا كلها ، كما أن هذا الترتيب لا يؤثر

على كل حال ، على التعاون الراهن القائم بيننا وبينكم ، في تخطيط سياسة الحلفاء تجاه هذه الدول وتنفيذها ، ونحن نشعر ان هذا الترتيب المقترح ، سيكون وسيلة نافعة في الحيلولة دون اي خلاف في السياسة بيننا وبينهم في البلقان » .

وقد أثار هذا الاقتراح اعصاب المستر هل وزير الخارجية الامريكية لانه كان يوافق على ايجاد مناطق نفوذ لاي كان ولا حتى قبول فكرتها ، ولذلك فقد أبرق الرئيس الي في الحادي عشر من حزيران يقول :

« نحن نقر باختصار ، بأن من حق الحكومة العسكرية المسئولة في اي ارض أن تتخذ القرارات التي تتطلبها التطورات العسكرية ، ولكننا على يقين من ان مثل هذا الاتفاق المقترح ، سيقوي الميل الطبيعي لتوسيع هذه القرارات لتشمل آفاقا اخرى غير عسكرية ، كما انه سيؤدي حتما الى اشتداد الخلاف بينكم وبين الروس، بسبب تقسيم منطقة البلقان الى مناطق نفوذ ، على الرغم من التصميم المعلن لان يكون هذا في نطاق المسائل العسكرية فقط ، كما اننا نعتقد ان المحاولات يجب أن تبذل عوضا عن ذلك ، لاقامة جهاز استشاري يتولى ازالة سوء التفاهم ، والحد من الاتجاه الى تنمية مناطق النفوذ الخاصة » .

وقد ازعجتني هذه الرسالة، فبعثت الى الرئيس في اليوم نفسه اقول : « ان العمل سيقف تماما اذا تحتم على كل انسان أن يستشير الآخر في كل موضوع أو اجراء قبـل اتخاذه ، فالاحداث في البلقان ستسبق في سرعتها دائما الاوضاع المتغيرة في المنطقة ، ويجب أن يكون هناك من يملك سلطة التخطيط والعمل ، اما قيام لجنة استشارية فسيكون بمثابة عائق ، نتخطاه دائما في حالات الطوارىء ، عـن طريق الاتصال المباشر بيني وبينك او بين كل منا وبين ستالين .

ولننظر الآن الى ما وقع في عيد الفصح ، لقد تمكنا من السيطرة على الوضع بالنسبة لتمرد القوات اليونانية طبقا لآرائك الشخصية ، لانني كنت قادرا على اصدار الاوامر الدائمة الى القواد العسكريين الذين كانـوا في البداية يؤيدون فكـرة الصلح والتفاهم ، ويعارضون في استخدام القوة ، او حتى في مجرد التهديد باستخدامها ، وقد تحسن الوضع في اليونان تحسنا كبيرا ، كما ان الروس على استعداد للسماح لنا بتولي الشئون اليونانية ، وهذا يعني ان في امكان جيوش اليونان الوطنية نفسها ان تسيطر على جبهة التحرير الوطنية وعلى كل ما تبينته من النوايا السيئة ، واذا كان من المحتم علينا في مثل هذه المصاعب ان نستشير دولا اخرى ، وان يجري تبادل البرقيات بشكل ثلاثي او رباعي ، فان النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحالة ان تسود حالة الفوضى والعجز .

ويبدو لي أنه بالنظر الى اعتزام الروس القيام بغزو رومانيا بقوات كبيرة والى رغبتهم في مساعدتها على استعادة جزء من ترانسلفانيا من المجر ، على شرط ان يبدي الرومانيون اخلاصا لمجهودها ، وهو ما قد

يفعلونه ، فان من الخير أن نحذو حذو السوفييت ، ولا سيما ، انه لا يوجد لنا او لكم اية قوات هناك ، وان في وسعهم تحقيق ما يريدون هناك على اي حال ، ولهذا فاني اقترح بأن توافق على تجربة الترتيبات التي حددتها في رسالتي في الحادي والثلاثين من ايار لمدة ثلاثة اشهر ، على ان تعود الدول العظمى الثلاث الى اعادة النظر فيها بعد انتهاء هذه المدة » .

وقد وافق الرئيس على هذا الاقتراح في الثالث عشر من حزيران ، ولكنه أضاف يقول ، انه يجب علينا ان نحرص اشد الحرص على ان نوضح بكل جلاء اننا لا نقيم في عملنا هذا مناطق للنفوذ ، وقد وافقته على رأيه وبعثت اليه بالرد التالي :

« انني شاكر لكم اجزل الشكر ، وقد طلبت الى وزير الخارجية ان ينقل هذه المعلومات الى مولوتوف ، وان يوضح له ان السبب الذي حملنا على تحديد فترة الاشهر الثلاثة ، هو رغبتنا في الا يكون هناك اي مجال للتفكير بأننا نعني اقامة مناطق نفوذ لما بعد الحرب » .

وقد أبلغت هذا لوزارة الحرب ، واتفق على ان يقوم وزير الخارجية بابلاغ الحكومة السوفييتية موافقتنا على هذا الاقتسام العام للمسئولية ، وتم تنفيذ ذلك في التاسع عشر من حزيران ، لكن الرئيس لم يكن مرتاحا للطريقة التي عملنا بموجبها ، فقد تلقيت منه رسالة يقول فيها :

« لقد ازعجنا ، ان يقوم رجالك بالتحدث الينا في هذا الموضوع بعد ان تم الاتفاق عليه مع الروس » .

ولما كانت رسالته هذه تفيض بالالم وفيها معنى التأنيب فقد ارسلت اليه الرد التالي :

« ان روسيا هي الدولة الوحيدة التي تستطيع ان تفعل شيئا في رومانيا كما يقع العبء اليوناني من الناحية الاخرى على كاهلنا ، وقد حملنا هذا العبء منذ ان خسرنا نحوا من اربعين ألف رجل في محاولة غير مجدية لمساعدة اليونان في عام ١٩٤١ ، بالاضافة الى أنكم قد سمحتم لنا بأن نعمل ما نريد مع تركيا ، ومع ذلك فقد كنا نستشيركم دائما في القضايا السياسية ، واعتقد اننا كنا على اتفاق بصدد الاتجاه الذي نسير فيه ، وقد يكون من السهل على ان انزلق من ناحية المبادىء العامة الى اليسار ، وهو ما غدا مألوفا الآن في السياسة الخارجية . وان اسمح للامور بأن تسوء ، فيجد ملك اليونان نفسه مضطرا للنزول عن العرش وتفرض جبهة التحرير الوطني حكما من الارهاب في البلاد . مرغمة القرويين وغيرهم من ابناء الطبقات الاخرى على تأليف أفواج للسلامة والامن تحت اشراف الالمان لمنع البلاد من الوقوع في الفوضى . والطريقة الوحيدة التي تمكنني من الحيلولة دون ذلك هي اقناع الروس بان يوقفوا دعمهم لجبهة التحرير ودفعهم للامام بكل ما لديهم من قوة . كما قمت ايضا بالاجراءات اللازمة لاحقق وحدة يوغسلافيا ، بالجمع بين قوات تيتو وقوات الصربيين مع جميع من يؤيد الحكومة الملكية التي اعترفنا بها معا ، وكنا نطلعك في كل مرحلة على الطريقة التي حملنا بها هذه

الاعباء الثقيلة التي نتحملها الآن وحدنا ، وليس أسهل هنا أيضا من القذف بالملك وحكومته الى الذئاب تنهشهما ، ومن السماح للحرب الاهلية بأن تندلع في البلاد ، مما يثلج صدور الالمان ، وانني اجاهد لاستخلص النظام من الفوضى في كل من البلدين ، ولاركز كل الجهود على مقارعة العدو المشترك ، كما انني أواصل اطلاعك على كل ما أعمله ، وكل أملي في ان انال ثقتك ومساعدتك في الميادين كلها » .

وجاء هذا الرد من الرئيس روزفلت لكي يضع حدا لهذا الجدل بين الاصدقاء :

« يبدو لي ان كلا منا قام متهاونا بعمل من جانب واحد في اتجاه نتفق معا الآن على انه نافع ومفيد ، ومن المهم ان نكون متفقين دائما في جميع القضايا التي تتعلق بمجهودنا الحربي » .

وقد رددت عليه اقول : « في وسعك ان تثق في انني سأتطلع دائما الى الاتفاق معك حول جميع الامور قبل العمل وفي اثناء القيام به وبعده » .

ومع ذلك فقد ظلت المتاعب تترى ، فعندما ادرك ستالين الشكوك الامريكية في الموقف ، أصر على استشارتهم مباشرة ، ولم نتمكن في النهاية من الوصول الى اتفاق اخير حول تقسيم المسئوليات في البلقان ، كما بعث الروس في أوائل شهر آب بطريق التهريب بعثة من ايطاليا الى جيش التحرير الوطني (ايلاس) المنبثق من جبهة التحرير الوطني والذي يعمل في شمالي اليونان ، وعلى ضوء تردد الحكومة الامريكية وسوء نية الروس ، تخلينا عن محاولتنا للوصول الى تفاهم كلي ، الى أن التقيت بستالين في موسكو ، بعد مضي شهرين ، وتمت في اثنائها امور كثيرة في الجبهة الشرقية .

ففي فنلندا اقتحمت جيوش سوفييتية خط مانرهايم وأعادت فتح السكة الحديدية بين لينينغراد ومورمانسك ، وأجبروا الفنلنديين قبل نهاية شهر آب على طلب الهدنة ، وبدأ هجومهم الرئيسي على الجبهة الالمانية في الثالث والعشرين من حزيران ، ولم تحل نهاية تموز حتى كانت الجيوش الروسية قد وصلت الى نهر النيمن بين جوردنو وكوفينو ، أما الخسائر الالمانية فكانت ماحقة ، اذ زال من الوجود نحو من خمس وعشرين فرقة المانية ، كما تم تطويق عدد مماثل في كورلاند ، وفي السابع عشر من تموز ، مر في شوارع موسكو سبعة وخمسون الف اسير الماني الى جهة لا يعلمها الا الله .

كما انه وقع في الثالث والعشرين من آب انقلاب عسكري في بوخارست أعده الملك الشاب ميخائيل وقد اخلصت الجيوش الرومانية أشد الاخلاص لملكها ، اذ لم تمض ثلاثة أيام حتى كان قد تم نزع سلاح القوات الالمانية التي لم تنسحب في اتجاه الحدود الشمالية وجلا الالمان عن بوخارست في الاول من ايلول ، ولما دخلت الجيوش الروسية رومانيا اكتسحت البلاد بأكملها واستسلمت الحكومة الرومانية ، وكذلك تم

اخضاع بلغاريا ، كما انتشرت الجيوش الروسية غربا ، فزحفت من وادي الدانوب مخترقة ترانسلفانيا وجبال الالب في اتجاه الحدود المجرية على حين كان جناحها الايسر قد اصطف على حدود يوغسلافيا للزحف غربا في اتجاه فيينا .

أما في بولندا فقد وقعت مأساة تتطلب منها شرحا أوفى : ففي نهاية شهر تموز ، وقفت الجيوش الروسية امام نهر الفستولا ، وكانت جميع الدلائل تشير الى انه لن يمضي وقت طويل حتى تكون بولندا بأسرها في ايدي الروس ، وتحتم على قادة جيش المقاومة السرية البولندية وهم الذين يدينون بالولاء لحكومة بولندا التي في لندن ، ان يقرروا موعد القيام بثورة عامة ضد الالمان للاسراع في تحرير بلادهم ، وقد خولت حكومة لندن القائد العام الجنرال بور ـ كوموريسكي تحديد موعد الثورة واعلانها ، وبدات الفرصة مواتية فعلا ، عندما حملت الانباء في العشرين من تموز قصة المؤامرة على هتلر ، وقد تبعها بسرعة اختراق الحلفاء لجبهة نورمانديا ، كما عبر الروس نهر الفستولا في اليوم نفسه واندفعت دورياتهم الامامية في اتجاه وارسو ، ولم يبق اي شك في ان الالمان باتوا على وشك الانهيار العام .

ولذلك فقد قرر الجنرال بور تبعا لذلك القيام بثورة عامة وتحرير العاصمة وكان لديه اربعون الف رجل ، وتألفت في الوقت نفسه لجنة شيوعية لتحرير الوطن في شرقي بولندا ، وفي التاسع والعشرين من شهر تموز ، وجه الحزب الشيوعي البولندي نداء من اذاعة موسكو الى اهالي وارسو ، يطلب اليهم ان يشتبكوا مع الالمان الآن ، وكانت الدبابات الروسية قد اخترقت خطوط الالمان الدفاعية الى الشرق من العاصمة ، كما اصبحت الجيوش الروسية على بعد عشرة اميال من المدينة ، فلم يمض اكثر من خمس عشرة دقيقة على نشوب الثورة حتى كانت المدينة كلها قد اشتبكت في معركة ضارية ، وهكذا بدات معركة المدينة .

ولما وصلت الانباء الى لندن في اليوم التالي ، اخذنا ننتظر بلهفة وقلق المزيد منها ، وقد سكتت الاذاعة السوفييتية وتوقف النشاط الجوي الروسي عندما شرع الالمان في الرابع من آب يهجمون من المراكز المنيعة داخل العاصمة ومن ضواحيها وأصبح الثائرون يواجهون الآن خمس فرق المانية حشدت في المنطقة بصورة عاجلة ، كما جيء بفرقة هيرمان جورنج ايضا من ايطاليا وبفرقتين من رجال الحرس فيما بعد .

فأبرقت الى ستالين اقول :

« تلبية لنداء عاجل من الجيش السري البولندي ، قررنا ان ننزل ـ اذا ساعدتنا الاحوال الجوية ـ نحو ستين طنا من المعدات والذخائر في الاحياء الغربية الجنوبية من وارسو ، حيث يقال : ان الثورة البولندية تشتبك مع الالمان في قتال عنيف ، وهم يطلبون في الوقت نفسه المساعدة الروسية التي تبدو قريبة منهم .

وقد تلقيت من ستالين ردا جافا يقول فيه :

« تسلمت رسالتك ، وأعتقد ان المعلومات التي نقلها اليك البولنديون مبالغ فيها كل المبالغة ، ولا توحي بالثقة مطلقا ، لانه ليس لديهم مدافع ولا دبابات ولا طائرات ، ولا أستطيع ان اتصور كيف يمكن لهذه الفصائل ان تستولي على وارسو التي حشد الالمان للدفاع عنها اربع فرق من فرق الدبابات بينها فرقة هيرمان جورنج ؟ »

هذا وقد استدعى فيشنسكي ليلة السادس عشر من آب سفير الولايات المتحدة في موسكو لزيارته ، وأوضح له ، انه رغبة منه في تجنب أي احتمال لسوء الفهم ، يود ان يتلو على مسامعه البيان المذهل التالي :

« لا تستطيع الحكومة السوفييتية بالطبع ان تعترض على قيام الطائرات الانجليزية او الامريكية بالقاء السلاح على مقاطعة وارسو اذ ان هذا الامر يهم الانجليز والامريكيين وحدهم ، ولكن الحكومة السوفييتية تعارض مصرة في هبوط الطائرات الامريكية او الانجليزية بعد القائها الاسلحة على وارسو في الاراضي السوفييتية وذلك لان الحكومة السوفييتية لا تريد ان ترتبط بصورة مباشرة او غير مباشرة « بمغامرة وارسو » .

وبعد مضي اربعة ايام بعثت هذا النداء المشترك بالاتفاق مع الرئيس روزفلت الى ستالين :

« اننا نفكر في الراي العام العالمي ، وما سيلحق به من صدمة ، اذا تخلينا عمليا عن المكافحين ضد النازية في وارسو ، وأعتقد ان من واجبنا نحن الثلاثة ان نبذل كل ما في وسعنا لانقاذ اكبر عدد ممكن من ارواح الوطنيين فيها ونحن نأمل انك ستلقى المساعدات والذخائر من الجو على الوطنيين البولنديين في وارسو او انك ستوافق على مساعدة طائراتنا في اداء هذا العمل بكل الطرق الممكنة ولا ريب في ان عامل الوقت مهم للغاية .

وكان هذا هو الرد الذي تلقيناه منه :

« تلقيت رسالتك التي اشتركت فيها مع المستر روزفلت بصدد وارسو وواجب ان اوضح آرائي تمام الايضاح :

ستعرف هذه الحقيقة ان عاجلا او آجلا ، عن تلك المجموعة من المجرمين الذين شرعوا في مغامرة وارسو ، رغبة منهم في اغتصاب السلطة ، وقد استغل هؤلاء المجرمون سذاجة اهل وارسو وحسن نواياهم ، فقذفوا بالعزل من اهلها امام دبابات الالمان ومدافعهم وطائراتهم ، وقد نشأ وضع لا يخدم البولنديين لتحرير وارسو ، بل يخدم الهتلريين الذين يقتلون اهل وارسو بصورة وحشية .

وكان هذا الوضع الناشيء ضارا بالجيش الاحمر من الناحية العسكرية بقدر ما هو ضار بالبولنديين انفسهم ، لانه وجه اهتمام

الالمان بشكل متزايد نحو وارسو ، وقد واجهت القوات السوفييتية هجمات المانية مضادة وهي تقوم ببذل كل ما في وسعها لتحطيم هذه الهجمات التي يقوم بها الهتلريون ، وليس ثمة شك في ان الجيش الاحمر سيحطم الالمان ويحرر المدينة لاهلها ، وسيكون هذا العمل خير مساعدة فعالة يمكن للجيش الاحمر ان يقدمها الى البولنديين » .

وكانت معركة وارسو قد وصلت في هذه الاثناء الى ذروتها حيث صب رجال الدبابات جام غضبهم وسخطهم ومرارة خيبتهم على الابنية المجاورة لهم ، فأشعلوا فيها النيران كما اشعلوا النار في جثث الموتى التي تملأ الشوارع ، كما دفن بعضهم في حدائق البيوت الخلفية والساحات العامة ، وصارت المواد الغذائية قليلة ولكن المدينة لم تصل الى حد المجاعة ، وقد جف الماء في الانابيب ، وضاعف اسقاط المؤن من الجو من رفع الروح المعنوية لدى الاهالي وشد من عزائمهم .

وكنت آمل أن يساعدنا الامريكيون في اتخاذ عمل جذري ، ولكن المستر روزفلت عارض في ذلك .

ولما كانت قضية وارسو من الاهمية بمكان عظيم فقد اجتمع مجلس وزرائنا ليلة الرابع من ايلول ، لبحثها ، وكنت أود أن أقول للروس : « اننا نعتزم ارسال طائراتنا للهبوط في اراضيكم ، بعد القاء حمولتها في وارسو ، فاذا أسأتم معاملتها فسنوقف ارسال قوافلنا اليكم منذ هذه اللحظة » .

ولا ريب اننا لو كنا اتخذنا هذه الخطوة لكانت مجدية ، فقد كنا نتعامل مع رجال في الكرملين تتحكم الارقام في اعمالهم دون عواطفهم وكان وقف القوافل عنهم في هذه اللحظة الحرجة من زحفهم العظيم كفيلا بأن يترك في عقولهم آثارا لا تقل عما تتركه اعتبارات الشرف والانسانية والايمان الكريم في الناس العاديين الآخرين ، ولهذا فقد بعثت وزارة الحرب بالبرقية التالية الى ستالين ، وكانت هذه هي الخطوة المثلى التي رأينا من الحكمة القيام بها .

« تود وزارة الحرب من الحكومة السوفييتية ان تعلم ان الرأي العام في هذه البلاد متأثر أعمق التأثر بالاحداث الجارية في وارسو ، وبالآلام المرعبة التي يتحملها البولنديون ، ومهما كانت الأخطاء التي ارتكبت في بداية الثورة في وارسو ، صحيحة او غير صحيحة ، فان شعب وارسو نفسه لا يمكن ان يعتبر مسئولا عن القرار الذي اتخذ ، ولا يستطيع شعبنا ان يفهم لماذا ضن بالمساعدة المادية من الخارج على البولنديين في وارسو واصبح الكل عندنا يعرفون ان مثل هذه المساعدة لا يمكن ارسالها لان حكومتكم ترفض السماح للطائرات الامريكية بالهبوط في المطارات التي في ايدي الروس ، واذا قدر للبولنديين في وارسو ان يسحقوا بعد هذا كله على ايدي الالمان ، وهو أمر بات متوقعا خلال يومين او ثلاثة كما قيل لنا ، فان الهزة التي سيصاب بها الرأي العام عندنا ستكون اكثر مما يحتمل ويطاق .

واحتراما منا للمارشال ستالين وللشعوب السوفييتية التي نود مخلصين ان نعمل معها في السنوات المقبلة ، تود وزارة الحرب مني

ان اوجه نداء آخر الى الحكومة السوفييتية لتقدم كل ما في وسعها من طاقة في هذا الصدد ، وان تؤمن هبوط الطائرات الامريكية في مطاراتكم تحقيقا لهذا الغرض .

ولهذا فقد شرع الكرملين في تغيير اسلوبه في العاشر من ايلول كما بدات قذائف المدفعية السوفييتية تتساقط على الضواحي الشرقية من وارسو ، وشقت القوات البولندية الشيوعية بأمر من الروس طريقها الى حدود العاصمة ، واخذت الطائرات السوفييتية تلقي المؤن على العاصمة ، ولكن معظم المظلات لم تتفتح فتحطمت الصناديق التي بها المؤن واخذت المجاعة تسيطر على المدينة .

وقد ادت المحاولات التي بذلتها مع الامريكيين للحصول على مساعدتهم دورها ، فحلقت مائة واربع قاذفات ثقيلة في الثامن عشر من ايلول فوق العاصمة ، والقت فوقها المؤن ولكن النجدة جاءت متأخرة ، وجاءني ميكولاجيك في الثاني من تشرين الاول ليقول لي : ان القوات البولندية في وارسو على وشك الاستسلام للالمان . والتقطنا في لندن آخر اذاعة صدرت عن المدينة الباسلة ونصها الآتي :

« انها الحقيقة البشعة ، لقد عوملنا أسوأ مما عومل به اتباع هتلر ، عوملنا أسوأ من ايطاليا ورومانيا وفنلندا ، واننا لنبتهل الى الله العادل القدير ، ان ينزل عقابه بأولئك الذين عرضوا الشعب البولندي لظلم مروع ، وأن يقتص من جميع المسئولين عما لحق بنا من عذاب » .

« مثل هذا الشعب الذي استطاع حشد هذا القدر من البطولات انما هو من الخالدين ، ولقد انتصر الذين قضوا نحبهم ، اما الذين عاشوا فسيمضون في القتال ، وسينتصرون ، وسيقيمون الدليل من جديد على أن بولندا ستظل حية طالما أن هناك بولنديين بين الاحياء .

ولا يمكن لانسان ان ينسى ابدا هذه الكلمات ، فلقد استمر الصراع في وارسو اكثر من ستين يوما ، وسقط في ميدان النضال اكثر من خمسة عشر الفا من أربعين الفا من الرجال والنساء كانوا يؤلفون جيش المقاومة السرية وأصيب اكثر من مائتي الف من سكان العاصمة ، كما كلف اخماد الثورة الالمان اكثر من عشرة آلاف قتيل وسبعة آلاف مفقود وتسعة آلاف جريح .

وعندما دخل الروس المدينة بعد ثلاثة اشهر لم يجدوا شيئا غير الشوارع المحطمة والجثث التي لم تدفن ، وهكذا كان تحرير الروس لبولندا التي يحكمونها الآن ، ولكنها لن تكون نهاية القصة على كل حال .

التقدم في بورما

اما الموقف في جنوب شرقي آسيا فانه يختلف كل الاختلاف عن مثيله في اوروبا ، حيث كان اليابانيون يحتلون منذ اكثر من ثمانية عشر شهرا ، قوسا دفاعيا يضم المناطق الجديدة التي احتلوها ، وكان هذا القوس يمتد من الجبال التي تغطيها الغابات في شمالي بورما وغربيها ، حيث كانت قواتنا البريطانية والهندية تشتبك معها في قتال عنيف يمتد الى جزر اندامان وجزيرتي سومطره وجاوه . ومن هناك في انعطاف نحو الشرق الى غينيا الجديدة .

وقد اقام الامريكيون قواعد الطائرات البعيدة المدى في ارض الصين لمهاجمة اليابان نفسها ، كما كانت تقوم بتدمير مواصلات العدو البحرية بين اليابان وجزر الفيلبين ، وكذلك تقوم ايضا بنقل المعدات للقوات الصينية بطريق الجو فوق جبال هملايا وكانت هذه عملية شاقة ومتعبة جدا ، وقد طلب منا الامريكيون أن نعيد احتلال شمالي بورما بسرعة لتأمين الطريق الى الصين ، لاننا كنا نؤيد بقاء الصين في الحرب واستخدام اراضيها كقواعد جوية لطائرات الحلفاء ، ولكنني لم تستهوني فكرة القيام بحملة واسعة النطاق في شمالي بورما لان هذا المكان كان أسوأ ميدان لكي نقاتل فيه اليابانيين ، كما ان شق الطريق الذي طلبه الامريكيون ليصل ليدو بالصين كان عملا في ذاته منهكا ، وكان لا يمكن اتمامه الا بعد ان تكون الحاجة اليه قد انتهت وحتى لو تم اتمامه في الوقت المناسب لاستعماله في تزويد القوات الصينية بالمعدات والسلاح فان ذلك لا يغير شيئا من طاقتها ، ولا ريب في ان الحاجة الى تقوية القواعد الجوية الامريكية في الصين ستخف تدريجيا كلما تقدمت قوات الحلفاء في المحيط الهادي ومن ناحية استراليا ، واحتلت مطارات تقربها من اليابان .

وقد كنت افضل ابقاء اليابانيين في مركز الدفاع في بورما وان نخترق القوس الدفاعي العظيم من الجزر التي تؤلف الطرف الخارجي لجزر الهند الهولندية ، حيث كان في وسع جبهتنا الهندية في هذه الحالة ان تتقدم الى خليج البنغال لتشتبك مع العدو عن طريق استخدام العمليات البرمائية في كل مرحلة من هذه المراحل .

هذا وقد بدات الحملة في كانون الاول عام ١٩٤٣ عندما اجتاز الجنرال ستاويل بفرقتين صينيتين ، الحاجز المائي من ليدو الى الادغال التي تحت سلسلة الجبال الرئيسية ، وقد قاومته الفرقة اليابانية الثامنة عشرة المشهورة ولكنه واصل التقدم حتى توغل مسافة اربعين ميلا ، كما قام فيلق بريطاني في الجنوب بالزحف على طول ساحل

اراكان على خليج البنغال ، وتمكنا في الوقت نفسه بمساعدة الطائرات القاذفات اللهب من احراز شيء من التفوق الجوي ، ومع هذا فقد توقف زحفنا في شهر شباط فجأة .

اما اليابانيون فقد اخذوا يعدون خططهم منذ شهر تشرين الثاني ، حيث ضاعفوا قواتهم في بورما من خمس فرق الى ثمان ، كما فكروا في غزو شرقي الهند ، لرفع علم الثورة ضد البريطانيين ، وكانت الضربة الاولى التي فكروا فيها هي القيام بهجوم في أراكان نحو ميناء شيتا جونج ، لكي يرغمونا على سحب قواتنا الاحتياطية كما تمكنوا من وقف زحف فرقتنا الخامسة على الساحل ، ثم تسللوا بفرقة اخرى داخل الادغال حول فرقتنا السابعة التي كانت في الداخل ، وقد تمكنوا في بضعة ايام من تطويق هذه الفرقة ، كما هددوا بقطع طريق الساحل وراء فرقتنا الخامسة وظلت قواتنا تتلقى الغذاء والماء والعتاد بطريق الجو مدة اسبوعين .

ولم يكن هذا كل شيء ، فقد تلقينا اشارات واضحة تؤكد ان جبهتنا الوسطى في اجهال ستتعرض للهجوم ، وكنا بدورنا نستعد للزحف نحو نهر شندوين . واعدت قوات الشنديت المشهورة التي يتولى قيادتها الجنرال وينجيت لتوجيه ضرباتها الى خطوط تموين العدو ومواصلاته ، كما بدأنا في الخامس من اذار نقل لواءين آخرين من القوات البريطانية وجنود الجوركا (من الهنود) تعززها وحدة من الفدائيين الجويين الامريكيين تحملها ٢٥٠ طائرة ، وبعد ان اجتمعت هذه القوات في مكان واحد شرعت في هجومها فقطعت مواصلات السكة الحديدية الى الشمال من ايندأد ، ولكن ضربة العدو الرئيسية سقطت على جبهتنا كما توقعنا حيث شرعت ثلاث فرق يابانية في الهجوم في الثامن من شهر آذار ، كما سحب الجنرال سكوينز فيلقه الرابع المؤلف من ثلاث فرق ايضا الى هضبة امبهال ، ليخوض معركة في أرض يختارها هو ، وكرر اليابانيون الخطة التي اتبعوها نفسها في أراكان ، وركزوا خطتهم من اجل الاستيلاء على مستودعاتنا الضخمة في امبهال ، كما كان هدفهم ان يقطعوا الطريق الى ويمابور والسكك الحديدية ايضا ، وذلك لقطع طريق تموين قوات الجنرال ستلويل ، والجسر الامريكي الى الصين ، وقد اضطررنا لايقاف عملياتنا الحربية على ساحل أراكان ، كما سحبنا الفرقة الهندية لمساعدة الفرقة الخامسة في امبهال ، ونقلنا الفرقة السابعة الى ديمابور ، بقيادة الجنرال ستوبفورد .

ولما كانت بلدة كوهيما تسيطر على مفترق الطرق وعلى المضيق المؤدي الى وادي آسام ، فقد شن اليابانيون هجوما عنيفا عليها استخدموا فيه فرقة كاملة وكانت حاميتنا تتألف من فوج من قوة كنت الملكية ولواء من قوة نيبال ولواء من قوات آسام ، وأيضا كل جندي يستطيع حمل السلاح من الناقهين في المستشفيات ، وقد اضطرت قواتنا الى التراجع الى منطقة صغيرة ثم حوصرت في تل واحد .

هذا وقد اشتد القتال حتى بلغ ذروته في ايار سنة ١٩٤٤

وقد حوصرت قواتنا البالغ عددها ستين الف جندي بريطاني وهندي بكل معداتهم الحديثة في دائرة في سهل امبهال وايقنت ان كل شيء يتوقف الآن على طائرات النقل ، فأبرقت الى مونتباتن في الثاني والعشرين من حزيران أقول :

« اعرب رؤساء اركان الحرب عن قلقهم بصدد الوضع في امبهال ، ولا سيما بالنسبة الى احتياطي الذخائر والمؤن ، ونحن نخولك ان تطلب ما تشاء من الطائرات اللازمة للمحافظة على الوضع ، سواء أكانت من الطائرات التي تنقل المعدات الى الصين ام من اي مصدر آخر ، ومن الواجب اعتبار طائرات هاملابا (السنام) احتياطيا دائما ، تسحب منه ما تحتاج اليه في كل وقت اذا اقتضت الضرورة ، حتى لا يبقى لك أي عذر اذا فشلت في مسعاك ، ويجب عليك ان تحافظ على مهام منصبك خصوصا في هذه المرحلة الحرجة الخطيرة » .

وقد جاء منه الرد التالي :

« كان الوضع في الاسبوع الثالث من شهر حزيران حرجا جدا ، الا انه بعد وصول الفرقة البريطانية الثانية والفرقة الهندية الخامسة امكننا ان نفتح الطريق الى القوة المحاصرة في امبهال ، وبدأت القوافل سيرها في الحال » .

وهكذا انتهت قصة غزو اليابان للهند ، بعد ان خسر اليابانيون اكثر من ثلاثة عشر الف قتيل ، واذا ما اضفنا اليهم اولئك الذين فقدوا أرواحهم بسبب اصاباتهم بجراح قاتلة ، او من جراء الجوع او المرض ، أمكن القول ان خسائرهم بلغت خمسة وسبعين ألف رجل .

وعندما بلغت الرياح الموسمية ذروتها توقفت العمليات الحربية ، وفي اثناء ذلك ، تم تعزيز قوات الشنديت ، وكانت اربعة من ألويتها الخمسة تشق طريقها شمالا بجوار السكة الحديدية في اندار ، لتحول بين وصول النجدات الى العدو ، ولتدمر كل ما تلقاه في طريقها من مستودعات الا أنه على الرغم مما اوقعته هذه القوات من اضطراب في مؤخرة العدو ، فان القوات اليابانية لم تحاول ان تسحب جنودا من جبهة امبهال ، كما لم تسحب الا لواء واحدا من جبهة ستلويل ، وكذلك جاءت الفرقة الثالثة والخمسون من جبهة سيام ، ولكن محاولتهم منيت بالفشل ، حيث واصل ستلويل تقدمه المستمر فاحتل متكينا في الثالث من آب ، كما استمر العمل في تمهيد الطريق الطويلة الممتدة من شمالي آسام لايصالها بالطريق الاساسي الممتد من بورما الى الصين ، وبذلك تيسر انشاء خط انابيب للزيت طوله ٧٥٠ ميلا يمتد من كلكوتا .

وعلى الرغم من هذه الانتصارات ، فقد ظللت اواصل حث حلفائنا على وجوب الاستمرار في القتال في الاحراج الى اجل غير مسمى ، كما كنت راغبا في توجيه ضربة برمائية من خليج البنغال الى رانغون في قاعدة البر البورمي حتى اذا زحف الجيش الرابع عشر

آن ذاك من اواسط بورما امكننا فتح الطريق لهجوم نشنه على سومطر
وهكذا مضينا ببطء نخوض اعظم معركة برية مع اليابان وقعت -
الآن فاتصل الجيش الرابع عشر بالقوات الامريكية الصينية الزا-
من الشمال وامكن في منتصف شهر كانون الاول ان نقيم راس جسر
نهر شندوين استعدادا للزحف الرئيسي الى سهل بورما الاوسط
الا انه اعترضتنا مشكلات ادارية هائلة .

فهناك في جنوب شرقي الصين ، بدأ اليابانيون الزحف عل
شونكينج عاصمة تشيانج كاي شيك ، وايضا على كونمينج
وهي النقطة التي تسلم فيها المعدات التي تنقل بالطائرات الامريكي
وقد اهتم الامريكيون اهتماما بالغا بهذا التطور ، فقد اكتسح ال
مطاراتهم الامامية في الصين ، ولم تتمكن قوات شيانج كاي شيك
الصمود واستنجدت بفرقتين صينيتين من القوات العاملة في شـ
بورما ، كما طلبت الاستعانة بأسراب جوية امريكية جديدة خصو
طائرات النقل .

وكانت هذه الانباء سيئة للغاية ، ولكن لم يكن لنا مناص من قبول
ولو اننا كنا في حاجة ماسة الى هذه الطائرات لتموين الجيش الر
الذي كان يقوده الجنرال سليم بطريق الجو ، لعدم صلاحية الط
البرية في تموينه ، مما سبب تأخيرا خطيرا للحملة ، الا انه على الر
من كل هذه العقبات فقد تمكن الجيش الرابع من الاندفاع من الج
السهل الذي الى الشمال الغربي من مندلاي كما تمكن الجنرال سل
الذي خلف ستلويل في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٥ من اعادة فتح الطر
الى الصين .

وفي الشهر التالي عندما بدأت المعارك الحاسمة ، واجه الامي
مونتباتن صعوبات استراتيجية ، حيث كانت الاوامر قد صدرت ا
بأن يحرر بورما ثم يحتل الملايو ويفتح مضايق ملقا ، مع ادراكه
لن يستطيع الحصول على قوات جديدة لتحقيق جميع هذه الاهداف
وكانت مهمته الاولى ان يحتل السهل الاوسط في بورما ومد
رانغون قبل حلول الرياح الموسمية في اوائل شهر ايار ، وكان في وسـ
ان يختار بين عمليتين : اما ان يركز جميع قواته في معركة حاسـ
في سهل مندلاي ثم يتقدم بسرعة الى الجنوب او يستخدم جزءا مـ
في عملية برمائية ضد رانغون ، وكان كل شيء يتوقف على التمو
الجوي الذي تقوم فيه الطائرات الامريكية بدور بارز .

ولما كانت فكرة مساعدة الصين لا تزال تحتل الجزء البارز
السياسة الامريكية وكان من المحتمل ان تسحب طائرات اخرى
الطائرات التي تعمل معه ، مما يدمر خططه كلها ، فقد قرر الق
بعملية واحدة ضد قوات العدو الرئيسية الى الغرب من مندلاي ، ,
يتقدم في الوقت نفسه في اتجاه رانغون ، وقد تمكنت احدى فر
من احتلال راس جسر على الضفة المقابلة لنهر ايراوادي ، على
اربعين ميلا الى الشمال من مندلاي ، كما عبرت الفرقة العشرون
الثاني عشر من شباط النهر الى الجنوب والى الغرب من مندلاي

وسرعان ما انضمت اليها الفرقة البريطانية الثانية ، وعندئذ اقتنعت القيادة العليا اليابانية بأن المعركة الحاسمة اصبحت وشيكة الوقوع ، فسارعت الى ارسال النجدات الى الميدان التي اشتبكت مع قواتنا في قتال عنيف تمكن في أثنائه الجنرال سليم من عبور نهر ايراوادي بفرقته السابعة في الثالث عشر من شباط ، وتمكن من اقامة راس جسر فوق النهر ، وفي الحادي والعشرين من شباط انطلق لواءان مدرعان من الفرقة السابعة عشرة ولواء من الدبابات من راس الجسر فوصلت كلها الى ميكتيلا في الثامن والعشرين منه ، وكانت هذه البلدة هي المقر الاداري للجبهة اليابانية كلها ، كما كانت مركز مواصلاتهم ومطاراتهم ، وبعد قتال عنيف استغرق اسبوعا كاملا سقطت البلدة في ايدينا .

كما كان الجنرال سلطان يتحرك في الشمال ايضا فوصل في منتصف شهر آذار الى منتصف الطريق الممتد من الاشيو الى مندلاي ، ولكن شيانج كاي تشيك فرض التوقف على قوات الحلفاء ولم يسمح للفرق الصينية بمواصلة السير ، وأصر على سحبها ، واقترح على الجنرال سليم وقف زحفه بعد احتلال مندلاي ، وكان هذا ما خشيه مونتباتن حقا ، عندما أعد خطته قبل شهر ، وبالفعل فقد تمكن اليابانيون من نقل فرقتين من فرقهم الثلاث من هذه الجبهة ، وبعثوا بهما فورا الى جبهة الجيش الرابع عشر .

واستمرت معركتا مندلاي ومكيتيلا ناشبتين طوال شهر آذار ، ودخلت قواتنا مندلاي في التاسع من الشهر ، كما احتلت جبل مندلاي ولكن اليابانيين قاوموا بشدة ، وصمدت اسوار قلعة دوفرين امام الصواريخ العادية ، واخيرا تم اخراق هذه الاسوار بقنابل زنة الفي رطل ، وفي العشرين من آذار فر العدو من القلعة ، وواصلت بقية الفيلق الثالث والثلاثين طريقها الى ميكتيلا ، ولقيت مقاومة عنيفة ، لان القائد الياباني العام — على الرغم من تدخل الفرقة السابعة عشرة وراء جبهته — لم يبد اية علامة تشير الى رغبته في الانسحاب ، الا انه بعد ان يئس من المعركة بدأ ينسحب على الطريق الرئيسية الممتدة الى تونغو ورانغون مخترقا الجبال الى الشرق ، وكذلك توقف الجنرال سليم على طريق لاشيو ، كما انه لم يعد هناك اي امل في وصول الجيش الرابع عشر الى رانغون في اواسط نيسان .

ولما كان الجنرال سليم مصمما لا على الوصول الى رانغون فحسب ، بل ايضا على القاء شبكة مزدوجة في جنوبي بورما لاصطياد العدو فيها ، فقد اندفع الفيلق الثالث والثلاثون من ميكتيلا على طول نهر ايراوادي بسرعة فائقة فوصل الى بروم في الثاني من شهر ايار ، كما كان الفيلق الرابع يتقدم ايضا على الطريق والسكة الحديدية اللتين الى الشرق ، كما وصل رتل مدرع مع الالوية الآلية التابعة للفرقتين الخامسة والسابعة عشرة الى تونغو في الثاني والعشرين من نيسان ، على ان تكون قفزتها الثانية نحو بيغو لاحتلالها ، مما سيؤدي الى سد طريق النجاة على قوات العدو المرابطة في الطرف الاسفل من بورما ،

ولما وصلت قواتنا الامامية اليها في التاسع والعشرين من نيسان ، سقطت الامطار بشدة ، فتوقفت المطارات الامامية عن العمل ولم تستطع الدبابات والسيارات ان تتحرك على الطريق .

ولما كان اليوم الثاني من ايار هو موعد النزول البرمائي ايضا ، فقد ظلت قاذفات الحلفاء الثقيلة تقصف مدة يومين تحصينات العدو في مدخل نهر رانغون ، كما انزلت الطائرات في اليوم الاول من ايار فوجا من المظليين على خطوط العدو ، ووصلت ايضا سفن الفرقة السادسة والعشرين تؤيدها وحدات المجموعة الجوية ٣٣٤ في اليوم التالي الى مصب النهر .

ولما كان اليابانيون اعتقادا منهم باستحالة القيام بنزول برمائي في مثل هذا الوقت ، قد اخلوا مدينة رانغون واتجهوا الى الشمال للدفاع عن بيغو ، وحلقت طائراتنا عليها ووجدتها خالية من جيوش الاعداء ، انزلت اليها الملاحين بالطائرة فدخلوها دون مقاومة .

وفي الوقت نفسه سارعت القوات البرمائية الى الاتجاه شمالا ، نحو بيغو وبروم ، وهكذا انتهى الصراع الطويل الذي خاضه الجيش الرابع عشر ببسالة .

معركة خليج ليتي

اما حرب المحيطات ضد اليابان وهي التي تشتمل على سلسلة طويلة من مجموعات الجزر التي تمتد نحو الفي ميل فقد بلغت ذروتها ايضا ، كما وصلت قوة الحلفاء البحرية في المحيط الهادي الى مرتبة التفوق ، ولما كان العدو قد حصن عددا كبيرا من هذه الجزر وجهزها بأحدث المطارات بالاضافة الى قاعدة تروك البحرية الكبرى التي في الطرف الجنوبي من اليابان ، كما يلي هذه الدرع الواقية فرموزا والفلبين والصين وذلك لحماية طرق تموينه الامامية فقد اصبح من المتعذر علينا ان نقوم بغزو اليابان او قصفها من الجو ، قبل ان نحطم هذه الحلقة ، واحتلال جميع الجزر المنيعة المحصنة ، ولذلك فقد اتبع الامريكيون اسلوب الضفدعة في القفز ، حيث كانوا يحتلون الجزر الهامة منها .

ففي مستهل شهر حزيران سنة ١٩٤٤ اكمل الجنرال ماك ارثر احتلال غينيا الجديدة على حين واصل الاميرال نيميتز في الوسط الضغط على سلسلة الجزر المحصنة ، وكانا يهدفان من وراء ذلك الى جزر الفلبين والى تدمير الاسطول الياباني الذي كانت تأمل اليابان من ورائه احراز نصر بحري كبير ضد الحلفاء .

ورغبة منها في المحافظة على قوتها لهذه المغامرة الخطيرة والحيوية ، سحبت من قاعدة تروك القسم الاكبر من اسطولها ، وقسمته بين جزر الهند الشرقية وبين مياه اليابان نفسها ، الا انه في الوقت نفسه وجه الاميرال سبراونس ضربة بحاملات طائراته الى جزر الماريان ونزل في الخامس عشر من حزيران في جزيرة سيبان المنيعة ، مما اضطر الاسطول الياباني الى التدخل واتجه بسرعة نحو الشرق على مقربة من الفلبين ، كما هاجمت طائراته اسطول الحاملات الامريكية من جميع الاتجاهات حيث الحقت بالقوات الامريكية خسائر فادحة .

وفي العشرين من حزيران اشتبكت القوات البحرية الامريكية مع مثيلاتها من القوات اليابانية ، فأغرقت للعدو حاملة طائرات كما اغرقت الغواصات الامريكية حاملتين كبيرتين ايضا مما اضطر الاسطول الياباني الى الانسحا ب، وبذلك اصبحت جزيرة سيبان تحت ايدينا كما تم ايضا اجتياح جزيرتي جوام وتينيان في اليوم التاسع من تموز .

وفي نهاية الشهر كانت كل جزر الماريان في قبضة الامريكيين ، وكان سقوط جزيرة سيبان ضربة صاعقة للقيادة العليا اليابانية مما ادى الى زوال حكومة توغو ، اذ كانت بها قلعة منيعة جدا وممتازة ولكنها بسقوطها في ايدي الامريكيين تكون قد فصلت المناطق الدفاعية

الجنوبية واصبح في وسع القاصفات الامريكية الثقيلة ان تستخدم هذه القاعدة لمهاجمة اليابان نفسها ، كما اصبحت الطرق مفتوحة امام البوارج الاخرى للاشتراك في الهجوم ، ولو ان الاسطول الياباني كان لا يزال قويا فانه اصبح عاجزا عن خوض اية معركة شديدة دون الاستعانة بطائرات ترتكز الى قواعد ثابتة .

كما كانت حالة الجيش الياباني افضل قليلا ، الا أنه مع كثرته العددية كان منتشرا في الصين وفي جنوب شرقي آسيا وفي مختلف الجزر النائية ، وقد اصدرت القيادة العليا أوامرها بالقتال امام فورموزا والفلبين حتى النهاية كما قررت ان تدفع بالاسطول كله الى ميدان المعركة في شهر آب ولتضمن عدم انقطاع الزيت الذي يصلها من الهند الشرقية ، ولما كانت خطة حلفائنا حتى الآن تستهدف غزو الجزء الجنوبي من الفلبين اي جزيرة ميندناو ، فقد بدأت طائرات هالس تهاجم المطارات اليابانية في الجزيرة ، وفي جزيرة لوزن الشمالية الكبيرة ، فحطمت عددا كبيرا من طائرات العدو ، واكتشفت في اثناء المعارك الجوية ان الحامية اليابانية في ليبتي ضعيفة الى حد لم تكن تتوقعه ، وكانت هذه الجزيرة بين جزيرتي ميندناو ولوزون اللتين كانتا هدفي النزول الامريكي فقرر الاميرال نيمتز غزو جزيرة ليبتي فورا ، وقد وافقه الجنرال ماك ارثر .

وقد بدأ الامريكيون حملتهم في اليوم العاشر من تشرين الاول بغارات على المطارات التي بين اليابان والفلبين ، فأنزلوا بالعدو خسائر فادحة جدا ، وصمد اسطول حاملات طائراتهم للهجمات اليابانية .

ولما كانت جزيرة ليبتي بين جزيرتي الفلبين الكبيرتين وهما لوزون في الشمال وميندناو في الجنوب وتعتبر أهم هذه الجزر ، فقد استهدف الامريكيون احتلال هذه الجزيرة ، على حين صمم اليابانيون على موقفهم وتدمير الاسطول الامريكي ، ولذلك اصدر القائد الياباني العام اوامره في السابع عشر من تشرين الاول الى اسطوله بالابحار الى مضيق سوريغار للدفاع عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر الاخرى .

وقد اشتبك هذا الاسطول مع الاسطول الامريكي في موقعة ضارية تغلب فيها الاسطول الامريكي عليه واحتل جزيرة ليبتي بعد ان خسر فيها ثلاث حاملات طائرات وثلاث مدمرات وغواصة ، في حين غرقت للعدو ثلاث بوارج واربع حاملات طائرات وعشرون سفينة حربية ، ولم يبق له من سلاح فعال الا القاذفات الانتحارية ، مما ساعد على هبوط اكثر من ربع مليون امريكي في جزيرة ليبتي في نهاية شهر تشرين الثاني .

وقد واصل الجنرال ماك ارثر زحفه الرئيسي فاحتل دون مقاومة جزيرة ميندورو التي لا تبعد اكثر من مائة ميل عن مانيلا .

وفي التاسع من كانون الثاني ١٩٤٥ أنزل اربع فرق جديدة في خليج لينغاين الى الشمال من مانيلا مفتتحة صفحة جديدة في معركة الفلبين ، وعندما اندفع الامريكيون نحو مانيلا اخذت المقاومة اليابانية

تشتد ولكن القوات الامريكية هبطت في مكانين آخرين علـى الساحل الغربي واحاطت بالمدينة بعد ان خسر العدو من القتلى ستة عشر ألف جندي ، الا ان الطائرات الانتحارية اليابانية الحقت بنا خسائر فادحة حيث اغرقت ست عشرة باخرة امريكية في يوم واحد ، كما اصيب الطراد اوستراليا .

هذا وقـد تمكنت حاملات طائرات الاميرال هالسي في منتصف كانون الثاني من شق طريقها الى بحر الصين الجنوبي وتمكنت طائراتنا من الحاق أكبر الاضرار بهونغ كونغ .

وعلى الرغم من استمرار القتال في الجزر عدة اشهر اخرى تمكنت القوات الامريكية من السيطرة على بحار الصين الجنوبية ، وبذلك تم الاشراف على طرق تموين اليابان بالزيت والمواد الاولية الاخرى التي يعتمد عليها مجهودها الحربي .



تحرير أوروبا الغربية

في الاول مـــن ايلول ، تسلـــم الجنرال ايزنهاور القيادة العليـا للقوات البرية في شمالي فرنسا ، وهي مكونة من مجموعة الجيوش البريطانية الحادية والعشرين بقيادة المارشال مونتغمري ، ومجموعة الجيوش الامريكية الثانية عشرة بقيادة الجنرال برادلي ، وبذلك كان يسيطر على اكثر من سبع وثلاثين فرقة تضم اكثر مـــن نصف مليون رجل ، وكانت قوات العدو تبلغ سبع عشرة فرقة .

وكانت خطـــة الجنرال ايزنهاور تستهدف الاندفاع في الاتجـاه الشمالي الشرقي باقصى مـــا لديه من قوات لاجتياح مراكز اطلاق القنابل الطائرة الالمانية واحتلال انتويرب ، لانه مـــا لـــم تحتل قوات الحلفاء هذا الميناء الضخم لم يكن في امكاننا القيام بهجوم عبر الجزء الادنى من نهر الراين والاندفاع الى سهول المانيا الشمالية ، ولذلك فقد اتجهت جيوش مونتغمري الى ميناء انتويرب فاحتلت مدينة اميان واسرت الفرقة المدرعة الحادية عشرة قائد الجيش الالماني السابع في اثناء تناوله الفطور في اميان ، وواصلت اندفاعها الى مدن الحدود وهي اراس ودواي وليل ، وقد اخلى الالمان بروكسل فدخلتها فرقة الحرس المدرع الثالث في اليوم الثالث من ايلول ، كما اتجهت فرقة الحرس بعد ذلك شرقا الى لوفين .

وقبل التاسع من ايلول كانت قواتنا قد تمكنت من تطهير منطقة خليج كاليه ، بما فيها من مراكز اطلاق القنابل الطائرة ، وكذلك موانيء القنال وهي ديبب وبولون ودنكرك ، الا ميناء الهافر حيث ظلت حاميته المؤلفة من احد عشر الف رجل تقاوم بشدة واصرار على الرغم من قصفها بمدافع بحرية من عيار خمس عشرة بوصة ومن اكثر من عشرة آلاف طن من القنابل من الجو ، حيث استسلمت في الثاني عشر من ايلول ، كما احتلت الفرقة المدرعة البولندية مدينة غنت التي لا تبعد اكثر من اربعين ميلا عن انتويرب .

وبقيت امامنا القفزة الاخيرة نحو ارنهيم ، حيث كان الطقس السيىء قد حال دون ايصال الامدادات والمؤن والذخائر بطريق الجو ، وكانت الفرقة الاولى التي نقلت بالطائرات بالجو في وضع يائس ، فقد عجزت عن الوصول الى الجسر ، واصبحت محصورة في قطاع ضيق على الضفة الشمالية ، متعرضة لهجمات عنيفة ، وقد بذلت كل محاولة ممكنة من الضفة الجنوبية لانقاذها ، ولكن العدو كان قويا للغاية ، وقامت بهذه المحاولات فرقة الحرب والفرقة الثالثة والاربعون ولواء المظليين البولنديين ، ولكنها جميعها منيت بالفشل ، حتـــى اضطر

الماريشال مونتغمري الى اصدار اوامره الى مـن تبقى مـن الفرقة بالعودة .

وبعد ذلـك اتجهنا لتطهير مصب الشلوت وفتح ميناء انتويرب للملاحة حيث كانت فرقة مدرعة المانية ومدربة خير تدريب تتولى الدفاع عن جزيرة بريسكينز وقد اثبتت صلابتها ، كما دار قتال عنيف جدا لعبور قناة ليوبولد واحتلال جنوبي بيفيلاند ، وقد تمكنا في نهاية الشهر وبعد جهود عظيمة هائلة من الاستيلاء على البرزخ كله واسر نحو ١٢٥٠٠ الماني .

وهكذا اصبحت الطرق ممهدة للهجوم على وولشيرين ، ووجـه السلاح الجوي الملكي في اوائل تشرين الاول الضربة الاولى حتى تمكنت طائراتنا من فتح ثغرة عظيمة وقد اشترك في هذه العملية ثلاث وحدات من فدائيي البحرية . كما اشترك الاسطول البحري ايضا في الهجوم .

وعلى الرغم من الاصابات القاسية التي وقعت برجال الاسطول فقد تمكن من مواصلة اطلاق مدافعه حتى تمكنت وحدات الفدائيين مـن النزول الى السـاحل ، كمـا صبت مدافع الفيلق الكندي الثاني نيرانها القوية عبر الماء من شاطىء بريسكنيز على مدافع العدو القوية المثبتة في دعائم من الاسمنت المسلح ، وقد تمكنت وحدة الفدائيين الثامنة والاربعون من قتل واسر بقية رجال حامية الجزيرة ، ولم تمض بضعة ايام في قتال عنيف حتى كانت الجزيرة كلها في ايدينا .

كما واصل برادلي ، وضباطه المتحمسون ، اندفاعهم القوي على الجناح الايمن وراء باريس ، على رأس مجموعة الجيوش الامريكية الثانية عشرة ، فسقطت في ايديهم شارلروا ، ومونز ، ولييغ ، وتمكنوا خـلال اسبوعين مـن تحرير اللكسمبورغ بأسرها وجنوبي بلجيكـا ، ووصلوا في الثاني عشر من ايلول الى الحدود الالمانية ، كمـا اخترقوا خط سيغفريد على مقربة من آخن .

هذا وقد قامت القوات الجوية الاستراتيجية بدور بارز في زحف الحلفاء الى حدود فرنسا وبلجيكا ، ثم عادت في الخريف الى دورها الاساسي في قصف المانيـا مستهدفة مستودعات البترول واجهـزة المواصلات كأهداف محدودة ، كمـا ارغمت هجماتنا المستمرة الالمان على توزيع مصانعهم في نقاط متباعدة وقـد دفعت قواتنا الثمن غاليا لتحقيق هذا الهدف .

ولما كان الالمان يعتمدون على طرق مواصلاتهم الجيدة ، وقد تعطل اكثرها بسبب الغارات فقد تسبب ذلك في تكديس اكوام الفحم في المحطات لعدم وجود عربات الشحن التي تنقلها كما اضطر اكثر من الف قطار من قطارات الشحن للتوقف يوميا بسبب الافتقار الى الوقود ، وكذلك بدأت محطات القوة الكهربائية والمصانع ومعامـل الغـاز تغلق ابوابها وهبط انتاج البترول واحتياطيه هبوطا هائلا مما اثر لا على

حركة القوات العسكرية فحسب ، بل على النشاط الجوي وتدريب الطيارين .

وقد حذر سبير في شهر آب الفوهرر من شل الصناعة الكيماوية كلية بسبب الافتقار الى المنتجات الثانوية من مصانع الزيت الكيماوي ، واخذ الوضع يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وقال سبير : انه اذا استمر الوضع في التردي والتوقف في حركة القطارات فان النتيجة ستؤدي الى كارثة انتاجية ذات اهمية حاسمة .

ولهذا السبب فقد بدا هجومنا الجوي يحقق غاياته اخيرا .



الزيارة الى موسكو

لما كنت قد اتفقت مع الرئيس في اوائل فصل الصيف على تقسيم المسؤوليات بالنسبة لمختلف البلاد المتأثرة بحركات الجيوش ، وكانت الاوضاع قد تحسنت خلال الاشهر الثلاثة التي اتفقنا على ان يستغرقها الاتفاق ، فانه عندما حل فصل الخريف أخذ كل شيء في أوروبا الشرقية يسير في طريق الازمة والتوتر حيث كانت الجيوش السوفياتية تضغط بشدة على المسرح البلقاني ، واصبحت رومانيا وبلغاريا في قبضتها ، كما أصبح من المحتم ان تسقط بلغراد في قبضتها بعد قليل ، في حين كان هتلر يقاتل بعناد واصرار للاحتفاظ بالمجر .

ولما كان انتصار الحلفاء الاعظم قد اصبح قضية وقت ليس الا ، بعد البداية الناجحة لعملية « السيد الاكبر » فقد كان من الطبيعي أن تنمو اطماع الروس ، بعد ان رفعت الشيوعية رأسها وراء الجبهات الروسية المزمجرة ، لذلك شعرت بالحاجة الى اجتماع شخصي بستالين ، وان استغل العلاقات الطيبة التي تربطنا بالسوفيات للوصول معهم الى حلول مرضية للمشكلات الجديدة التي بدت بين الشرق والغرب ، وعلى الاخص مصير بولندا التي دخلنا الحرب بسببها وكذلك مصير اليونان الذي كان يؤثر علينا تأثيرا كبيرا ، وكانت حكومتاهما قد لجأتا الى لندن ، وكنا نشعر بمسؤولياتنا في اعادتهما الى بلديهما ، وكان هذا رغبة شعبيهما ايضا ، وكانت الولايات المتحدة تشاركنا في هذه المخاوف الى حد كبير ، ولو انها كانت غير مدركة لقوة النفوذ الشيوعي الذي تسرب قبل زحف الجيوش الروسية القوية ثم سار في ركابها .

وبالاضافة الى هذه القضايا الخطيرة التي اثرت على اواسط اوروبا كلها ، فان مشكلات التنظيم العالمي ، بدات تلقي بثقلها على تفكيرنا ، وكنا قد عقدنا من قبل مؤتمرا طويلا في « دومبارتون أوكس » على مقربة من واشنطن ، امتد بين آب وتشرين الاول ، حيث وضعت الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفياتي والصين المشروع الذي اصبح الآن معروفا لحفظ سلام العالم وامنه .

وقد كشفت المناقشات عن خلافات عدة بين الدول الكبرى الثلاث ، لان وفد الكرملين لم يكن راغبا في الاشتراك في هيئة دولية تتغلب فيها اصوات مجموعة من الدول الصغرى على صوته ، وقد كنت على ثقة من اننا نستطيع الوصول الى قرارات طيبة مع روسيا طالما اننا لا نزال في حرب مع عدو مشترك .

وقد هبطنا في مطار موسكو في التاسع من تشرين الاول ، وعقدنا اول اجتماع في الكرملين ، شهده ستالين ومولوتوف وايدن ، وقررنا ان نوجه الدعوة الى رئيس وزراء بولندا ووزير خارجيتها المسيو رومير والى المسيو غرابسكي ، للحضور الى موسكو فورا ، كما ابرقت كذلك الى المسيو ميكولاجيك لكي يحضر للتباحث مع الحكومة السوفياتية ومعنا ومع لجنة لوبلين البولندية ، واوضحت لهم أن رفضهم الحضور للاشتراك في المحادثات سعيني رفضا واضحا لنصيحتنا وسيؤدي من ثم الى تحللنا من كل مسؤولية تجاه حكومة بولندا التي في لندن .

وبينت لستالين ان الفرصة متاحة للعمل ، لكي تسوى جميع القضايا المتعلقة بالبلقان ، كما انه يجب علينا الا نقف متعارضين في اهدافنا تجاه قضايا بسيطة بالنسبة الى بريطانيا وروسيا ، وقلت له : ما قولكم في ان يكون لكم التفوق بنسبة تسعين في المائة في رومانيا وأن تكون لنا النسبة نفسها في اليونان وأن نكون متعادلين في يوغسلافيا ، وبينما كان المترجم ينقل ما قلته الى الروسية كتبت على ورقة صغيرة البيان التالي :

رومانيا :

روسيا	٩٠٪
الدول الاخرى	١٠٪

اليونان :

بريطانيا بالاتفاق مع الولايات المتحدة	٩٠٪
روسيا	١٠٪

يوغسلافيا :

روسيا	٥٠٪
بريطانيا وأمريكا	٥٠٪

المجـر :

روسيا	٥٠٪
بريطانيا وامريكا	٥٠٪

بلغاريـا :

روسيا	٧٥٪
الدول الاخرى	٢٥٪

ودفعت بالورقة الى ستالين ، فكتب عليها بقلمه بالموافقة ، واعادها الي ، وهكذا تم اقرار كل شيء في أسرع وقت ممكن ، امـا القضايا

الكبرى فقد ارجأناها لمائدة الصلح ، وهذا وقد بعثت الى الرئيس كتابا خاصا قلت فيه :

اری من الضرورة ان نحاول التفاهم بصدد البلقان ، لكي نتمكن من الحيلولة دون وقوع الحروب الاهلية في عدد من البلاد عندما اكون انا وانت الى جانب فريق من الناس ويكون ستالين الى الجانب الآخر ، وسأواصل اطلاعك على ما يجد في هذا الموضوع ، ولن يتقرر اي شيء باستثناء اتفاقات اولية تمهيدية بين بريطانيا وروسيا ، وانا واثق انك على هذا الاساس لن تعارض في ان نحاول الالتقاء فكريا مع الروس .

وبعد هذا الاجتماع استعرضت في مخيلتي علاقاتنا بروسيا بالنسبة لمناطق اوروبا الشرقية ، ورغبة مني في ايضاح افكاري ، أعددت كتابا الى ستالين في الموضوع مرفقة به مذكرة توضح تفسيراتنا للنسب المئوية التي اتفقنا عليها ولكنني لم ابعث بهذه الرسالة في النهاية ورأيت من الحكمة ان اترك الامور تسير وحدها .

غير انني قد بعثت الى اخواني في الوطن برسالة مؤرخة ١٢ من تشرين الاول عام ١٩٤٤ بينت فيها النسب المئوية التي اتفقنا عليها وتفصيل الاسباب التي دعت الى ذلك ، كما بينت انه سيعاد النظر فيها عندما تجتمع الدول العظمى بعد انتهاء الحرب على مائدة الهدنة او الصلح لاعداد تسوية اوروبية عامة .

ولما وصل البولنديون من لندن ، اجتمعنا في الثالث عشر من تشرين الاول في دار ضيافة الحكومة السوفياتية المعروفة باسم « سبيريدونوفكا » لنستمع الى ميكولاجيك وزملائه وهم يعرضون قضيتهم ، وكانت هذه المباحثات بمثابة تمهيد لاجتماع آخر يعقده الوفدان البريطاني والامريكي مع ممثلي لجنة لوبلين البولندية الشيوعية ، وقد ألححت على ميكولاجيك ليدرس قضيتين :

الاولى — الاعتراف واقعيا بخط كرزون ، مع اجراء تبادل في السكان واجراء محادثات ودية مع لجنة لوبلين لتأمين السبل لقيام بولندا متحدة ، وقلت : ان الخير كل الخير في تحقيق الوحدة الآن في هذه المرحلة الختامية من الحرب ، وطلبت اليهم ان يدرسوا هذا الموضوع بعناية في هذه الليلة ، وأكدت لهم انني والمستر ايدن سنكون تحت تصرفهم ، ولكنه من الضروري ان يتصلوا بلجنة لوبلين وان يقبلوا بخط كرزون كترتيب عملي على ان يعاد النظر في الموضوع كله في مؤتمر الصلح .

وعندما اجتمعنا في الساعة العاشرة مساء من تلك الليلة الى ما يسمى باللجنة البولندية ، اتضح لنا فورا ، ان البولنديين اعضاء لجنة لوبلين ليسوا سوى مخالب في ايدي روسيا ، وقد حفظوا الدور الذي يجب عليهم ان يمثلوه ، فمثلا قد تحدث الينا المستر بيرون زعيم اللجنة بقوله : « اننا نطالب هنا باسم بولندا بأن نكون جزءا من روسيا ، وهذه هي ارادة الشعب البولندي » كما تحدث زعيم آخر من زعماء لجنة لوبلين هو المسيو اوسوبكا موروفسكي باستفاضة واسهاب وكان

حديثه باعثا على الالم وقد كون المستر ايدن اسوأ فكرة عن الزعماء البولنديين الثلاثة ، ودام المؤتمر اكثر من ست ساعات ولكن النتائج كانت مخيبة للامل ، ومع مضي الايام لم يتحقق الا القليل في طريق تحسين العلاقات البولندية الروسية ، وكان بولنديو لندن على استعداد لقبول خط كرزون ، كخط للحدود بين روسيا وبولندا ، ولكن الروس اصروا على استعمال العبارة التالية « كأساس للحدود بين روسيا وبولندا » واصر كل من الفريقين على رأيه .

وقد كان ستالين معارضا في محاولة تأليف حكومة بولندية موحدة قبل تسوية مشكلة الحدود اولا ، وقال : انه اذا سويت مسألة الحدود فانه سيكون على استعداد لقبول تولي جيكولاجيك رياسة الحكومة الجديدة . وقد خيل الي أن صعوبات ليست بأقل حدة وعنادا ستنشب عند البحث في ادماج الحكومة البولندية في لجنة لوبلين ، لانهم كانوا يطمعون في تولي حكم بولندا ، ولذا فقد رأيت من الافضل طبقا للظروف الراهنة ، أن يعود كل من الوفدين البولنديين الى المكان الذي جاء منه ، وأحسست احساسا عميقا بالمسؤولية الملقاة على عاتقي وعاتق وزير الخارجية في محاولة وضع الاقتراحات لايجاد تسوية روسية ـ بولندية ، وانه مما لا ريب فيه ، أن فرضنا خط كرزون على بولندا سيثير علينا عاصفة من النقد .

ولما كان من الواضح ان الحكومة السوفياتية تعتزم مهاجمة اليابان فور سقوط هتلر ، وان هذا الهجوم سيؤدي الى تقصير امد الكفاح كله ، فانه مما لا ريب فيه ان الترتيبات التي اتخذناها بصدد البلقان ، كانت خير ما يمكن الوصول اليه ، واذا ما سارت هذه الاجراءات جنبا الى جنب مع عمليات عسكرية ناجحة فستؤدي حتما الى انقاذ اليونان ، ولم يكن لدي شك ايضا في أن اتفاقنا على اتباع سياسة مشتركة بنسبة الخمسين في المائة في يوغسلافيا كان احسن حل لمتاعبنا بالنسبة الى سلوك تيتو ، الذي جاء بعد ان عاش ثلاثة اشهر او اربعة في حمايتنا الى موسكو بصفة سرية ليشاورها دون اطلاعنا على المكان الذي سافر اليه ، ولا سيما بعد ان وصلت قوات روسية وبلغارية تحت القيادة الروسية الى بلاده لمساعدة جناحه الشرقي .

ولم يكن ثمة شك في اننا ضمن دائرتنا الضيقة ، كنا نتحدث انا وستالين بمنتهى الحرية والود ، وبشكل لم يسبق له ان ساد العلاقات بين بلدينا ، الا انني ازددت اقتناعا الآن بأنه ليس على كل حال الحاكم المطلق في بلاده ، وقد قلت لزملائي في الوطن : « ان هناك يدا خفية تلعب وراء ظهر الفارس » .

باريس

عندما تم الاتفاق على ان خير موعد اقوم فيه بزيارة باريس هو يوم الهدنة في الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٤ ، واعلن رسميا انني ساقوم بهذه الزيارة في ذلك التاريخ ، فقد وصلتنا تقارير عدة تقول ان المتعاونين مع الالمان سيحاولون الاعتداء على حياتي ، وبناء على ذلك فقد اتخذت الاحتياطات الوقائية اللازمة ، وهبطت في العاشر من تشرين الثاني في مطار اورلي ، حيث كان ديغول في استقبالي على راس ثلة من حرس الشرف ، ثم ركبت معه عربة مكشوفة ، فاجتزنا ضواحي باريس الى ان وصلنا الى « الكي دورسيه » حيث حللت مع زوجتي وابنتي ماري ضيوفا رسميين على الدولة ، وكان كل شيء على احسن ما يرام .

وفي اليوم التالي غادرنا باريس الى بيزانسون ، لكي يطلعني الجنرال ديغول على الهجوم الواسع النطاق الذي تقرر ان يقوم به الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال دي لاتردي تاسيني ، وقد وصلته قبل بدء المعركة بوقت طويل ، وكان من المقرر ان نزور مركز مراقبة على الجبال ، ولكن بالنظر الى الثلوج الغزيرة حيث كانت الطرق غير صالحة للسير تقرر تأجيل العملية كلها .

وفي المساء توجهت بالقطار الى ريمز فوصلتها في الصباح حيث قمت بزيارة للجنرال ايزنهاور وعدت في المساء طائرا الى نورفهولت .

ولم يكن الوضع في الجبهة الغربية في هذه الآونة مناسبا تماما ، فلقد كان هناك الكثير من الاعداد للزحف نحو نهر الراين ، الا ان جيش ديمبس الثاني في القطاع البريطاني تمكن من طرد العدو الى ما وراء نهر الموز ، اما في الجنوب فقد تلاقت قواتنا مع الجيش الامريكي التاسع واخذت تناضل زاحفة فوق ارض مشبعة بالمياه للوصول الى نهر الروهر ، وكان من المجازفة حتى الآن محاولة عبور هذا النهر ، لانه كان تحت سيطرة سدود ضخمة كانت لا تزال في قبضة العدو ، وكان في وسعه عن طريق فتح هذه السدود ان يعزل قواتنا التي على الضفة الاخرى ، وقد حاولت قاذفاتنا التي على الضفة الاخرى ، تحطيم هذه السدود ، واطلاق هذه المياه ولكن على الرغم من اصابتها اصابات مباشرة لم تفتح فيها اية فجوات مما اضطر الجيش الامريكي الاول في الثالث عشر من كانون الاول الى تجديد زحفه للاستيلاء عليها .

وفي هذا الوقت كان الجنرال باتون قد عبر نهر الموزيل في الجنوب من الاردين وزحف شرقا متجها الى الحدود الالمانية ، واضطر جيشه الى التوقف امام حصون منيعة من خط سيجفريد ، كان يدافع

عنهـا العدو بعناد واصرار ، والـى يمين هـذا الخط ، تمكـن جيش الجنرال وبغير السادس من شق طريقه نحو الفوج وثغرة بيلفورت ، كما تمكن الفرنسيون بعد معركة دامت اسبوعا ، من الاستيلاء على بيلفورت في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ، ووصلوا الى نهر الراين الى الشمال مـن بال ، وهنا التف الفرنسيون جنوبا حول الجناح الالماني في الفوج ، مما ارغم العدو على الانسحاب بسرعة ، ويسر دخول الحلفاء ستراسبورغ ، في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، كما طهر الجيش الامريكي السابع في الاسابيع التالية جميع المناطق الشمالية من الالزاس ، واستدار حول ميمنة الجيش الثالث ، ثـم عبر الحدود الالمانية واخترق خط سيغفريد على مقربة من ويسمبورغ .

ولكن هذه الانتصارات المهمة ، لم تكن لتخفي الحقيقة الواقعة وهي أن الحلفاء الغربيين منوا بانتكاسة استراتيجية حيث كنا قـد سجلنا قبل البدء بهذه الحركة الواسعة وجهة نظرنا في ان من الخطأ الهجوم في الجبهة كلها ، وعلى الرغم من خيبة الامل التي منينا بها .

هذا وقد بعثت برسالة الى الرئيس في السادس من كانون الاول أعربت فيها عن مخاوفي وقلت فيها : « لقد حان الوقت لاعرض عليك الوضع الحربي الحرج والمخيب للآمال الذي يواجهنا في نهاية هـذا العام ، فعلى الرغم مـن احرازنا بعض الانتصارات فقد ظلت هنـاك الحقيقة الماثلة ، وهي اننـا فشلنا حتما في الوصول الـى الاهداف الاستراتيجية التي حددناها لجيوشنا قبل اسابيع ، فلم نصل بعد الى الراين في طرفه الشمالي ، وهو أهم قطاع في الجبهة ، وسنقضي عدة اسابيع اخرى في معارك ضارية ، قبل ان نأمل الوصول الى الراين ، واقامة رؤوس جسورنا عليه وبعد ذلك علينا من جديد ان نستأنف الزحف داخل المانيا ، وما زال الالمان يحتفظون في ايطاليا بست وعشرين فرقة وهـو مـا يعادل ست عشرة فرقة كاملة التجهيز او نحوها على جبهتنا .

ولا ريب ان السبب الذي حال بين مجموعة الجيوش الخامسة عشرة وبين تسجيل نصر حاسم على قوات كيسلرنج ، هو التأخر الذي نجم عن اضعاف قواتنا لتأمين عملية « التنين » والنزول في جنوبـي فرنسا ، ولهذا لم نستطع عبور جبال الابنين ، قبل ان تغمر المياه حوض نهر البو ، هكذا لم نستطع لا في الجبال ولا في السهول استخدام ما لدينا من تفوق في سلاح المدرعات .

وبالنظر الى عناد المقاومة الالمانية في جميع الجبهات ، لم نقم بسحب الفرق البريطانية الهندية الخمس من اوروبا لنمكن مونتباتن من الهجوم علـى رانغون في شهر آذار ، ولهذا فقد بـدأ مونتباتن ـ وفقا لمـا اتفقنا عليه في كويبك ـ زحفا عاما في تجاه بورما من الشمال والغرب . واحرز تقدما مرضيا ، أمـا الآن وبالنسبة الـى الزحف الياباني في الصين ، بما سينطوي عليه من تهديد بالقتال لكومينج ، وربما لشونكنج ، وللجنرال لسمو شيانج كاي شيك ، فقد تقرر سحب فرقتين صينيتين او اكثر للدفاع عن الصين ، ولو ان هذه الخطوة كانت صائبة فقـد

كانت نتائجها مع ذلك بالغة الخطورة ، وهكذا انتكست جميع آرائي في توجيه ضربة ثقيلة عبر الادرياتيك او عبر خليج البنغال .

وعلى الرغم من جهودنا المشتركة يقوم هنا سؤال محدود تماما : « ترى ماذا في وسعنا ان نفعل ؟ » ويزداد قلقي من انهيار جميع الآمال في قيام اجتماع مبكر بين ثلاثتنا ، ومن التأجيل الذي لا نهاية له في عقد اجتماع بيني وبينك ، يحضره اركان حربنا ، لنبحث في مشكلاتنا الانكليزية الامريكية ككل ، ولهذا ارى لزاما علي ان اقول : انه اذا لم يتيسر لك الحضور بنفسك قبل شهر شباط ، فلتبعث برؤساء اركان حربك الى هنا في اسرع وقت ممكن ليكونوا على اتصال وثيق بجيوشنا الرئيسية وبالجنرال ايزنهاور ، لكي يكون عملنا المشترك مركزا تمام التركيز بصورة مماثلة لما وقع في حملاتنا عام ١٩٤٤ » .

وقد بدا لي ان الرئيس روزفلت ، على الرغم من شعوره الودي لم يكن يشاطرني مخاوفي ، فقد بعث الي يقول : « لقد كنت اشعر دائما بأن احتلال المانيا حتى الضفة اليسرى من الراين سيكون دائما عملية شاقة كما انني لم اشعر بالتفاؤل من سهولة اجتياز نهر الراين بجيوشنا المشتركة ، ومع ذلك فاني اعتقد ان خططنا الاستراتيجية الواسعة والمتفق عليها ، تسير وفقا للخطة المرسومة ، واذا كان قد طرأ بعض التأخير في الوقت الحاضر ، فانني ارى ان الاستمرار في المعارك ونتائجها موكولان الى قادتنا في الميدان الذين يتمتعون بكامل ثقتي » .

وكان من المقدر ان نتحمل الآن ضربة ثقيلة ، فبعد ستة ايام من ارسال هذه البرقية تعرضنا لازمة خطيرة ، فقد كان القرار الذي اتخذناه بتوجيه ضربتنا من آخن الى الشمال وعبر الالزاس في الجنوب ، قد جعل جبهتنا الوسطى ضعيفة كل الضعف ، اذ كان الفيلق الامريكي الثامن الذي يضم اربع فرق يتولى حراسة جبهة طولها خمسة وسبعون ميلا في الاردين ، وقد توقعنا الخطر ، وكانت النتائج خطيرة ، وكان من المحتمل ان تزداد في الخطورة ، فقد تمكن العدو بعد جهد رائع من حشد نحو سبعين فرقة في الجبهة الغربية بينها خمس عشرة فرقة مدرعة تشتمل على الجيش المدرج السادس الذي هو في منتهى القوة والاعداد .

كما ان الالمان ، كانوا قد اعدوا بالفعل خطة رئيسية ، فقد حشد رونشتادت جيشين مدرعين هما الجيش الخامس والسادس ومعهما الجيش السابع اي ما يقرب من عشر فرق مدرعة واربع عشرة فرقة مشاة .

وكان من المقرر ان تخترق هذه القوة الضخمة يقودها سلاحها المدرع جبهة الاردين الى نهر الموز ، وان تندفع شمالا وشمالا بغرب ، فتشطر خط الحلفاء شطرين وتحتل ميناء انتويرب وتقطع شريان الحياة على جيوشنا الشمالية ، وكان هتلر قد وضع هذه الخطة ولم

يكن ليقبل اي تبديل فيها ، مما قد يقترحه قادته الذين يشكون في سلامتها ، وحشدت بقايا القوة الجوية الالمانية للقيام بمجهود نهائي على حين عهد الى رجال المظلات والمخربين والوكلاء الذين يرتدون ملابس الحلفاء العسكرية باداء دورهم في المعركة المنتظرة .

وقد بدأ الهجوم في السادس عشر من كانون الاول ، بعد ... مدفعي شديد ، وهاجم الجيش الالماني المدرع السادس من ناحية جناحه الشمالي ميمنة الجيش الامريكي الاول الذي كان يتقدم في اتجاه سدود نهر الروهر ، وبعد معركة ظلت متارجحة من الزمن تمكنت قوات الحلفاء من وقف العدو ، كما تمكن الالمان في الجنوب من اختراق جبهتنا في قطاع ضيق ، وشن الجيش المدرع الالماني السادس هجوما اختراقيا جديدا في اتجاه الغرب والشمال الغربي على نهر الموز قبل مدينة ليبج ، وتمكن الجيش المدرع الخامس من اختراق جبهة الفيلق الامريكي وتوغل مسافة كبيرة في اتجاه نهر الموز .

وعلى الرغم من ان اتجاه العدو جاء مفاجئا لقيادة الحلفاء العليا من ناحية توقيته وثقله ـ قررت ان نعزز فورا « كتفي » منطقة الاختراق ، وان نحافظ على معابر الموز ، الى الشرق والجنوب من نامور وسارع ايزنهاور بوقف جميع هجمات الحلفاء ، واستقدم اربع فرق من القوات الامريكية الاحتياطية وست فرق اخرى من الجنوب ، وفرقتين محمولتين من الجو من انكلترا ، كما قذف الجيشان الامريكيان الاول والتاسع بكل ما لديهما من قوات احتياطية لتوسيع جناحيهما الدفاعي الى الغرب من ماليدي .

ولما كان الالمان قد شطروا جبهة مجموعة الجيوش الثانية عشرة التي يقودها الجنرال برادلي ، وحالوا بينه وبين ممارسة القيادة الفعلية من مقر قيادته في لكسمبورغ ، فقد عهد الجنرال ايزنهاور الى مونتغمري بالقيادة المؤقتة لجميع قوات الحلفاء في الشمال على حين عهد الى الجنرال برادلي بالاحتفاظ بمواقعه وشن هجمات مضادة على العدو من الجنوب ، كما قام ايضا باجراء تبديلات مماثلة في قيادة سلاح الجو التكتيكي .

ولما كانت القوات المدرعة الالمانية قد حرمت هدفها الرئيسي وهو نهر الموز ، فقد استدارت الآن بوحشية على باستون ، وتفوق العدو تفوقا هائلا في العدد على الفرقة الواحدة بعد المائة على الرغم من تعزيزها الا انها قد تمكنت من الصمود في البلدة اسبوعا آخر ، وعندما حلت نهاية شهر كانون الاول ادركت القيادة العليا الالمانية انها قد خسرت المعركة الا انها بذلت مجهودا آخر بطريق الجو حيث قامت في اليوم الاول من كانون الثاني عام ١٠٤٥ بهجوم مباغت عنيف وعلى ارتفاع منخفض على جميع مطاراتنا الامامية .

وعلى الرغم من ان خسائرنا كانت جسيمة فاننا عوضناها بطائرات جديدة فورا ، ولكن السلاح الجوي الالماني خسر اكثر مما يستطيع احتماله من خسارة في آخر هجوم قامت به المانيا في الحرب الثانية .

وكان هذا هو آخر هجوم شنه الالمان في الحرب ، ولو ان هذا الهجوم قد اقلقنا اشد القلق واخر زحفنا ، فاننا استفدنا منــه في النهاية ، فلم يكن في وسع الالمان ان يجدوا بديلا عن الخســائر التــي خسروها .

وعلى الرغم من ان معاركنا المقبلة على نهر الراين كانت عنيفة وقاسية ، فان هجوم الاردين الفاشل قد سهل مهمتها . ولا ريب في ان القيادة العليا الالمانية وهتلر نفسه قد خدعا عندما باغتهما ايزنهاور وقادتهم بهجومهم ، اما الفضل كل الفضل لنجاحنا فيعود الى ما ذكره مونتغمري في تقريره وهو « لقد كسبنا معركة الاردين بفضل ما يتمتع به الجندي الامريكي من روح حربية عالية » وفعلا قد قامت القوات الامريكية باكبر قسط في المعركة وتحملت اكبر قسط في الخسائر .

الميــلاد في اثينــا

لقــد اشتهر اليونانيون بأنهم مــن اكثر شعوب العالم اهتماما بالسياسة ، وانه مهما كانت اوضاعهم قاسية او كانت الاخطار التي تتعرض لها بلادهم خطيرة ، فانهم لا ينفكون عن الانقسام الى شيع واحزاب عدة ، يتولى قيادتها عدد من الزعماء يتخاصمون ويتشاحنون بحيوية وحماس .

ولما كنت قد طلبت الى رئيس اركان حرب القوات البريطانية ، اعداد التفاصيل المتعلقة ، بايفاد حملة بريطانية الى اليونان في حالة انهيار الالمان وذلك قبل ان اغادر ايطاليا في نهاية شهر آب ، فقـد تم اعدادها في اوائل ايلول ، واطلقنا على هذه العملية اسم « المـن » وفي الوقت نفسه كنا قد اتينا بالمسيو باباندريو رئيس الوزراء وزملائه الى ايطاليا واخذ يعمل مع ممثلي جبهة التحرير الوطني « ايام » ومع منافسيهم القوميين من جماعة الجيش الوطني الديموقراطي « ايديس » يساعده في ذلك المستر ماكميلان وزيرنا المقيم في البحر الابيض المتوسط ، والمستر ليبر سفيرنا لدى الحكومة اليونانية وتمكنوا جميعا من الوصول الى اتفاق شامل تم التوقيع عليه في السادس والعشرين من ايلول ، وقد نص الاتفاق على ان تضع جميع قوات العصابات في البلاد نفسها ، تحت اوامر الحكومة اليونانية التي وضعت نفسها بدورها تحت تصرف القائد البريطاني الجنرال سكوبي ، وقد قدر لهذه الوثيقة التي سميت باتفاق « سايبسترا » ان تسيطر على جميع اعمالنا في المستقبل .

وقد بدأ تحرير اليونان في شهر تشرين الاول ، وبعثنا بوحدات من الفدائيين الى جنوبي اليونان ، وتمكنت قواتنا في الساعات الاولى من صباح الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول من احتلال باتراس ، وكانت هذه اول موطىء قدم لنا منذ ان خرجنا ذلك الخروج المؤلم في عام ١٩٤١ .

ولما شرع الالمان في الجلاء عن اثينا ، في الثاني عشر من تشرين الاول ، هبط المظليون البريطانيون في اليوم التالي في مطار ميغارا ، القريب من العاصمة ، واحتلوا المدينة في اعقاب الانسحاب الالماني كما دخلت قواتنا البحرية ميناء بيريه يصحبها الجنرال سكوبي مع اكثر جنوده ، وكما وصلت ايضا الحكومة اليونانية بعد يومين يرافقها سفيرنا .

ولما كانت المؤن قد نفدت ، وكان المستر ايدن وهو في طريــق عودته من موسكو ، عرج على اليونان لزيارة اثينا ، وكان يرافقه في هذه الزيارة اللورد موين الوزير المقيم في القاهرة والمستر ماكميلان ، فقد بحث كل ما يمت الى موضوع الاغاثة واتخذت كل التدابير الممكنـة

لتأمينها ، كما بدأ رجال فرقة المهندسين البريطانيين في اصلاح طرق المواصلات التي لا غنى عنها ، وعندما حل اليوم الاول من تشرين الثاني كان الالمان قد انسحبوا من سلانيك وفلورينا ، وبعد عشرة أيام اجتازت آخر قواتهم الحدود الشمالية ، وبذلك تحررت اليونان بأسرها ، باستثناء بعض الجزر الصغيرة النائية والمعزولة والتي كانت الحاميات الالمانية لا تزال فيها .

ولما كانت الحكومة اليونانية لم تكن تملك القوات الكافية للسيطرة على البلاد وارغام « ايلاس » على احترام اتفاقية سابيسترا ، وانتشرت الفوضى وعمت البلاد ، وكان من المتوقع ان تقوم جبهة التحرير الوطني بثورة في كل لحظة ، فقد اصدرنا الاوامر الى الجنرال سكوبي في الخامس عشر من تشرين الثاني باتخاذ استعدادات مضادة كما تقرر اعلان مدينة اثينا منطقة عسكرية وكذلك اصدرت الاوامر الى جيش التحرير « ايلاس » بمغادرتها ، وفي هذا الوقت كانت الفرقة الهندية الاولى قد وصلت الى اليونان ، وكان من الواضح ان الطريقة الوحيدة لتجنب الحرب الاهلية انما هي في نزع سلاح افراد العصابات والقوات الاخرى ، واقامة جيش وطني جديد وقوة من الشرطة تعمل تحت الاشراف المباشر لحكومة اثينا .

وفي اليوم الاول من شهر كانون الاول استقال وزراء جبهة التحرير الستة واعلن الاضراب العام في اثينا في اليوم التالي ، واصدرت البقية الباقية من مجلس الوزراء مرسوما بحل العصابات ، كما نقل الحزب الشيوعي مقر رياسته من العاصمة ، ووجه الجنرال سكوبي رسالة الى الشعب اليوناني اكد فيها وقوفه الى جانب الحكومة الدستورية القائمة ، الى ان تتم اقامة الدولة اليونانية عن طريق انتخابات حرة ، كما وجهت رسالة مماثلة من لندن .

وفي اليوم الثالث من كانون الاول اصطدم انصار الشيوعيين الذين كانوا يسيرون في مظاهرة ممنوعة مع رجال البوليس وبدات الحرب الاهلية، ولذلك اصدر الجنرال سكوبي اوامره الى قوات جيش التحرير « ايلاس » بالجلاء عن اثينا وبيريه ، ولكن هذه القوات يؤيدها المدنيون المسلحون حاولت الاستيلاء على العاصمة بالقوة ، وعندما علمت ان الشيوعيين قد استولوا على معظم مراكز الشرطة وذبحوا كل الرجال الذين كانوا فيها ، ولم ينضموا اليهم ، وانهم اصبحوا على بعد ربع ميل من مقر الحكومة ، اصدرت اوامري الى الجنرال سكوبي والى خمسة آلاف جندي من البريطانيين الذين يعملون تحت امرته بالتدخل واطلاق النار على المعتدين الآثمين ، ولا ريب في ان وجود مثل هذه الاوامر في حيازته ، لا تقتصر على تشجيعه على القيام بعمل حاسم ، بل تمنحه التأكيد اللازم بأني ساكون الى جانبه في اي اجراء حازم قد يتخذه مهما تكن النتائج .

امـا وقد عرف العالم الحر الآن الكثير عن الحركة الشيوعية في اليونان وغيرها ، فان الكثير من القراء سيدهشون حتما من الحملات العنيفة التي تعرضت لهـا الحكومة البريطانية ، وتعرضت لها انـا شخصيا بصفتي رئيسها ، كما استنكرت معظم الصحف الامريكية ،

اجراءنا ، اشد الاستنكار . واصدرت وزارة الخارجية الامريكية التي كان يراسها المستر سبيتينوس ، بيانا انتقاديا واضحا ، وشهدت انكلترا نفسها غليانا وهيجانا شديدين ، ووجهت صحيفتا « التايمس » و « المانشستر غارديان » اللوم العنيف لما اسمتاه بسياستنا الرجعية اما ستالين فقد حافظ من جانبه بأمانة على اتفاقنا الذي عقدناه في شهر تشرين الاول .

كما شهد مجلس العموم اضطرابا شديدا ، وكانت هناك تيارات قوية من الآراء الغامضة ومن العطف والتأثر ، ولو كانت هناك حكومة اخرى لا تتمتع بما تتمتع بـه حكومتنا القوية من اسس ثابتة قوية لتهاوت محطمة منهارة ، ولم يقترع ضدنا الا ثلاثون فقط واقترع معنا نحو من ثلاثمائة ، وكانت مناسبة جديدة اظهر فيها مجلس العموم قوته المستمرة وسلطته .

وفي ذلك الوقت كانت القوات البريطانية تقاتل بشدة في قلب اثينا وقد حوصرت وتفوق عليها العدو عددا ، وكانت تشتبك في قتال من بيت الى بيت مع عدو يرتدي اربعة اخماس افراده الملابس المدنية ، وكان باباندريو ومن تبقى من وزرائه قد فقدوا كل سلطة ، كما رفض الملك اقتراحا باقامة مجلس وصاية يرأسه رئيس الاساقفة دامسكينوس الا ان سفيرنا المستر ليبر عاد فعرض الفكرة ثانية على الملك في العاشر من شهر كانون الاول ، ولكنه ظل معارضا لها ولم نكن في ذلك الحين نرغب في الضغط عليه لقبولها .

وكان قد وصل الى اثينا في هذا الوقت كل من الماريشال اليكساندر والمستر هارولد ماكميلان ، وصدر الامر بتحول الفرقة البريطانية الرابعة ــ التي كانت تنتقل من ايطاليا الى مصر ــ الى اليونان ، وادى وصولها في النصف الاخير من الشهر وفي الوقت المناسب الى قلب الاوضاع ، وان كان قتال الشوارع في اثناء ذلك ظل متأرجحا على نطاق واسع ، ولذلك فقد حذرني اليكساندر بضرورة الوصول الى تسوية في أسرع وقت ممكن ، وأكد ان خير سبيل لذلك يكون بتدخل رئيس الاساقفة ، وابرق الي يقول : « ما لم تقم بذلك فانني اخشى اذا استمرت مقاومة الثائرين على ما هي عليه الآن من شدة وعنف ان اضطر الى ارسال نجدات كبيرة اخرى من الجبهة الايطالية ولاضمن تطهير مقاطعة اثينا ــ بيريه ، وهي منطقة تضم خمسين ميلا مربعا من المنازل » .

فقررت ان اذهب الى اثينا لارى الامور بنفسي على مسرحها وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من كانون الاول ، وكنا قد اعددنا حفلة عائلية تضم عددا من الاطفال بمناسبة ليلة عيد الميلاد ، لكني شعرت بالحاجة الماسة الى ان اطير الى اثينا ، وان اتعرف على رئيس الاساقفة الذي يتوقف عليه وعلى شخصه الكثير ، واسرعت باعطاء الاوامر لاعداد طائرة لي في تلك الليلة في نور شهولت حيث كان ينتظرني المستر ايدن لكي نستقلها معا الى اثينا ، فهبطنا عند الظهر في مطار كالماكي ، وكان في انتظارنا الماريشال اليكساندر والمستر ليبر والمستر ماكميلان ،

فصعدوا الى الطائرة حيث قضينا ثلاث ساعات في مناقشات حادة استعرضنا فيهـا الموقف بكامله مـن نواحيه السياسية والعسكرية واتفقنا على الخطوات التي يجب ان نتخذها فورا .

وتقرر ان نمضي الليلة على ظهر الطراد اجاكس ، ولكي نستقبل فيه رئيس الاساقفة وبطانته ، فذهبنا الى حيث الطراد وعند وصول رئيس الاساقفة اجتمعنا به ، فتحدث بمرارة بالغة عن فظائع جيش التحرير « ايلاس » وعن اليد الاثيمة البشعة التي تقوم وراء جبهة التحرير « ايام » ، وعندما اصغيت اليه تبين لي دون شك ان الرجل يخشى الشيوعيين خشية كبيرة ، كما يخشى تدخلهم في الشؤون اليونانية وقال : انه قـد اصدر منشورا بطريركيا اعلن فيـه حرمان جيش التحرير « ايلاس » لاخذه ثمانية آلاف من الرهائن معظمهم من الطبقة الوسطى وبينهم عدد مـن الصربيين ، ولقتله عددا منهم كـل يوم ، واضاف انه سينقل هذه الانباء الى الصحافة العالمية ، اذا لم يقم جيش التحرير باطلاق سراح النساء فورا ، وقد اثر علي تأثيرا طيبا بصورة عامة ، لما يتميز به من ثقة في نفسه ، وفي النهاية قبل اقتراحنا بـأن يتولى رياسة المؤتمر الذي سيعقد في اليوم التالي والذي دعى جيش التحرير « ايلاس » لارسال ممثليه اليه .

وفي صباح اليوم التالي توجهنا الى السفارة ، حيث قابلت رئيس الاساقفة وقد وافق على كل مـا اقترحناه ووضعنا مخططا للمؤتمر الذي تقرر عقده بعد ظهر ذلك اليوم .

وفي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم انعقد المؤتمر برياسة رئيس الاساقفة وقد جلست عن يمينه ، وجلس المستر ايدن والماريشال اليكساندر عن يساره ، كما حضر المؤتمر المستر ماكفي السفير الامريكي والمسيو بيليـه وزيـر فرنسا المفوض والممثل العسكري السوفياتي ، وكذلك حضر الزعماء الشيوعيون الثلاثة الذين يمثلون جيش التحرير وكانوا يرتدون زي الميدان البريطاني ، وقد بدأت الحديث بقولي :

« من الخير ان نبذل كل مجهود لجعل اليونان عاملا من عوامل النصر وان نبدأ جهودنا الآن ، وليس من قصدنا ان نقف حائلا دون تفاهمكم وتشاوركم وسنترككم نحن البريطانيين ومن معنا من ممثلي الدول الحليفة لتتشاوروا وحدكم برياسة هـذا الوطن البارز جدا ، ولن نزعجكم الا اذا استدعيتمونا وكلي امل على كل حال ، في ان هذا المؤتمر الذي يبدأ هنا في اثينا سيعيد اليونان مرة اخرى الى شهرتها وقوتها بين الحلفاء وبين الشعوب المحبة للسلام في العالم ، وسيضمن سلامة الحدود اليونانية من اي خطر من الشمال وسيتمكن كل يوناني من ان يظهر نفسه وبلاده بأحسن مظهر امام العالم بأسره .

وبعد ان انتهينا من القاء الخطب الرسمية انسحبنا من المؤتمر وقد استغرقت المحادثات العنيفة بين الاحزاب اليونانية معظم ساعات النهار وبعد ذلك اجتمعت في الخامسة والنصف مساء اجتماعا اخيرا مع رئيس الاساقفة وعلى ضوء المحادثات التي اجراها مع ممثلي جيش التحرير « ايلاس » تقرر ان اطلب الى ملك اليونان تعيينه وصيا ، لكي

يشرع فورا في تأليف حكومة جديدة لا تضم الشيوعيين ، وتعهدنا لـه بأن تظل القوات البريطانية على استعداد ، الى أن يتم احد امرين : اما ان يقبل جيش التحرير الهدنة او تطهر منطقة أثينا من قواته ؛ وقلت له : اننا سنحاول الاحتفاظ بالقوات البريطانية في اليونان الى ان يتم تأليف الجيش اليوناني الوطني .

هذا وقد غادرت اثينا ومعي المستر ايدن الى لندن في التاسع والعشرين من كانون الاول وفي الحال عقدنا اجتماعا مع الملك وقد وافق جلالته في نهايته على الا يعود الى اليونان الا اذا دعي للعودة بارادة حرة ونزيهة ، كما وافق على تعيين رئيس الاساقفة وصيا على العرش ، وبذلك اصبح الجنرال بلاستيرس رئيسا للوزارة .

وبذلك انتهى القتال المستمر في اثينا بطرد الثائرين اخيرا من العاصمة كما اصبحت القوات البريطانية مسيطرة على جميع مقاطعة اثينا ووقعت الهدنة في الحادي عشر من كانون الثاني ، وفي الوقت نفسه تحررت اليونان من العبودية الشيوعية .

واذا ما قورنت احداث اليونان بما كان يدور حين ذاك في انحاء العالم حيث يقف نحو مـن ثلاثة ملايين رجل يتصارعون في الجبهة الغربية ، وحيث تنتشر قوات امريكية كبيرة في انحاء المحيط الهادي ضد اليابان ، بدت صغيرة تافهة ، ولكنها على كل حال ، كانت تقع في العصب الحساس لحرية العالم الغربي وسلطته وقانونه .

ومن الغريب انه عندما ينظر الانسان الى هذه الاحداث ، فانه لا شك يقر السياسة التي تبنيتها أنا وزملائي ، والتي قاتلنا باصرار من اجلها فقد رأيت بوضوح ان الشيوعية ستكون الخطر الذي يهدد الحضارة ، والتي يجب ان نواجهها بعد هزيمة النازية والفاشية .

واذا كانت اليونان قـد نجت من مصير تشيكوسلوفاكيا ، واذا قدر لها ان تعيش الآن كدولة من الدول الحرة ، فالفضل في ذلك لا يعود الى الاجراء الذي اتخذته بريطانيا في عـام ١٩٤٤ وحده ، بـل الى المجهودات الصامدة التي اصبحت بعد مدة بسيطة تعبيرا عن القوة المتحدة للعالم الناطق بالانكليزية .

مالطة ويالتا مشروعات للسلام العالمي

لما كانت جيوش هتلر قد سحبت داخل حدودها في نهاية شهر كانون الثاني عام ١٩٤٥ باستثناء بعض فلول منها واهية كانت لا تزال قابضة على المجر وعلى شمالي ايطاليا . فان الوضع السياسي مع ذلك على اية حال في شرقي اوروبا لم يكن مرضيا ، ولو ان الهدوء ساد اليونان ، وبدا أن حكومة ديموقراطية حرة ستقوم على اساس الانتخاب المباشر العام والاقتراع السري فان رومانيا وبلغاريا قد اصبحتا في قبضة الاحتلال العسكري السوفياتي كما كانت المجر ويوغوسلافيا تحتدم فيهما المعارك ، اما بولندا فعلى الرغم من تحررها من الالمان ، قد احتلتها روسيا ، مع ان الاتفاق غير الرسمي والمؤقت الذي عقدته مع ستالين في اثناء زيارتي في شهر تشرين الاول لموسكو ، لم يكن المقصود منه ، من ناحيتي على الاقل ، ان يتحكم او يؤثر في مستقبل هذه المناطق الواسعة بعد هزيمة المانيا .

وكان وضع اوروبا بعد الحرب وكيانها كله يتطلبان ضرورة اعادة النظر فيهما حتما ، وكذلك في الطريقة التي ستتبع في معاملة الالمان بعد هزيمتهم والمساعدة التي يمكننا ان نرجوها من الاتحاد السوفياتي في المرحلة الاخيرة لكي نهزم اليابان ، وبعد أن تتحقق لنا اهدافنا العسكرية ، اما الترتيبات والتنظيمات التي تستطيع دول الحلفاء الكبرى أن تقدمها لسلام العالم ولحسن تنظيمه ؟ هذا هو السؤال الذي كنت اردده في ذهني دائما .

ولما كانت المحادثات التي جرت في دومبارتون أوكس قد اسفرت عن خلافات جزئية ، كما انتهت ايضا المحادثات التي هي اضيق نطاقا والتي دارت بين لجنة لوبلين البولندية التي يرعاها السوفيات وبين مواطنيها القادمين من لندن الى نتيجة مماثلة ، مع انني عملت انا والمستر ايدن كل ما في وسعنا لانجاحها في اثناء زيارتنا للكرملين في تشرين الثاني عام ١٩٤٤ ، وعلى الرغم من الاتصالات غير المجدية التي دارت بين الرئيس روزفلت وستالين اعترف السوفيات في الخامس من كانون الثاني بلجنة لوبلين على اعتبار انها حكومة بولندا المؤقتة .

ولما كان الرئيس مقتنعا كل الاقتناع بضرورة عقد اجتماع آخر بالثلاثة الكبار ، وبعد الحاح شديد من جانبي ، وافق الرئيس ايضا على ان نعقد انا وهو مؤتمرا تمهيديا في مالطة ، ولعل القراء يذكرون المخاوف التي عبرت عنها للرئيس في برقيتي التي بعثت بها اليه في السادس من كانون الاول ، وكانت هذه المخاوف لا تزال تلازمني ، كما كان رؤساء اركان الحرب البريطانيون والامريكيون في حاجة الى التشاور قبل الاجتماع ، فغادرت نورثهلت في التاسع والعشرين من شهر كانون

الثاني عام ١٩٤٥ على طائرة ومعي ابنتي سارة وعدد من الموظفين الرسميين ، ووصلنا الى مالطة في الثلاثين من كانون الثاني .

كما وصلت السفينة الحربية الامريكية « كونيس » صباح اليوم الثاني من شباط عام ١٩٤٥ الى خليج فالينا ، وعلى ظهرها الرئيس روزفلت وصحبه ، وفي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ، عقدنا أنا والرئيس اول اجتماع في قمرته الخاصة ، واستعرضنا تقرير هيئة اركان الحرب المشتركة والمباحثات العسكرية التي كانت دائرة في مالطة منذ ثلاثة ايام ، وانتهزنا الفرصة بالطبع لاستعراض الوضع العسكري كله ، وفي ذلك الحرب ضد الغواصات ، والحملات المقبلة في جنوب شرقي آسيا والمحيط الهادي ، والوضع في البحر المتوسط .

وقد وافق برمين على سحب فرقتين من اليونان عندما يمكن سحبهما ، ولكنني اوضحت اننا لن نجد انفسنا مضطرين للقيام بذلك ، الا بعد ان يصبح للحكومة اليونانية جيشها كما تقرر سحب ثلاث فرق اخرى من ايطاليا لتعزيز قواتنا في شمالي اوروبا الغربي ، ولكنني اكدت انه ليس من الحكمة القيام بسحب عام للقوات البرمائية وقد كان من المهم ان نتتبع اي انسحاب لالمانيا من ايطاليا ، كما ابلغت الرئيس ان الواجب يحتم علينا احتلال اكثر ما يمكننا من النمسا ، اذ ليس من المرغوب فيه ان يحتل الروس مسافات اكثر من اللازم في اوروبا الغربية .

وقد اسفرت المباحثات عن نتائج مهمة واتفاقات حول مختلف القضايا العسكرية ، كما ان هيئة اركان الحرب المشتركة اصبحت على علم بجميع نقاط الاتفاق ، وعلى جميع وجهات نظرنا ، قبل الشروع في المحادثات مع اركان الحرب السوفيات ، والتي ستبدأ بعد ذهابنا الى هناك للاجتماع بهم .

هذا وقد اعدت الطائرات لنقلنا ولنقل رجال الوفدين الرسميين البريطانيين والامريكيين البالغ عددهم نحو سبعمائة رجل ، الى مطار ساكي في جزيرة القرم ، ولما وصلنا الى هناك انتقلنا بالسيارات الى يالتا .

وكان المقر السوفياتي في يالتا هو قصر يوسوبوف ، حيث كان ستالين ومولوتوف وجنرالاتهما يتولون ادارة دفة الحكم في روسيا والسيطرة على جبهتهم الهائلة التي يحتدم القتال فيها الآن من هذا المركز ، هذا وقد نزلنا في قصور فسيحة اعدت لكل منا ، وقد بذل مضيفونا كل جهد لضمان راحتنا ، وكانوا يهتمون بكل ملاحظة عارضة تصدر منا .

وقد بدأت الجلسة الاولى للمؤتمر بعد ظهر الخامس من شباط ، وتناول الحديث مستقبل المانيا ، وكنت بالطبع قد فكرت في هذه المسألة ، ووجهت الى المستر ايدن من حوالي شهر تقريبا الرسالة التالية .

« بالنسبة لمعاملة المانيا بعد الحرب ، اعتقد ان من السابق لاوانه تقرير مثل هذه الموضوعات الكبيرة ، اذ من الواضح انه عندما

تتوقف المقاومة الألمانية المنتظمة فان المرحلة الاولى ستكون ممثلة في اشراف عسكري قاس ، وقد يستغرق هذا الاشراف عدة اشهر او سنة او سنتين ، اذا ظلت المقاومة السرية الالمانية نشيطة ، ولهذا فاني اقترح مع كل المشاغل التي تنوء تحت اعبائها في الوقت الحاضر الا نسارع الى بحث هذه المشكلات المؤلمة التي قد تؤدي الى تصدع كبير .

واني لاوثر التركيز على القضايا العلمية التي ستحتل الصدارة في السنتين او السنوات الثلاث القادمة ، بدلا من ان نضيع وقتنا في مناقشات عن علاقات المانيا الطويلة الاجل بأوروبا ، ولهذا فهناك الكثير من الحكمة في ان يحتفظ الانسان بقراراته اطول مدة ممكنة ، حتى تتكشف جميع الحقائق والوقائع التي قد تصبح قائمة وعملية .

ولهذا فقد قلت لستالين ، عندما تساءل عن الطريقة التي ستجزأ بها المانيا : ان هذه القضية من التعقيد بحيث يتعذر حلها في خمسة ايام او ستة ، فمثل هذا الموضوع يتطلب دراسات عميقة في التاريخ وعلم الاجناس البشرية ، والحقائق الاقتصادية ، واستعراضا طويلا تقوم بـه لجنة تتولى دراسة مختلف الاقتراحات وتقدم رأيهـا فيهـا ، فهناك الكثير من المسائل التي يجب ان تدرس ، اذ ماذا سنعمل في بروسيا ؟ واي مناطق يجب ان تكون لبولندا والاتحاد السوفياتي ؟ ومن يتولى الاشراف على وادي الراين والمناطق الصناعية المهمة في الروهر والسار ؟ وارى أن تؤلف هيئة خاصة لدراسة هذه القضايا ويعرض تقريرها علينا قبل الوصول الى اية قرارات نهائية ، واقترح المستر روزفلت ان يعهد الى وزراء خارجيتنا باعداد خطة لدراسة هذه القضية على ان يتم اعدادها في اربع وعشرين ساعة وان يوضع المشروع النهائي لتجزئة المانيا خلال شهر وتركنا الموضوع عند هذا الحد .

واتفقنا على ان نجتمع في اليوم التالي لدراسة موضوعين مهمين جدا ، وهما مشروع دوميرتون اوكس لضمان الامن العالمي وموضوع بولندا .

هذا وقد انتهى مؤتمر دوميرتون اوكس كما سبق لي ان ذكرت دون الوصول الى اتفاق كامل بشأنه .

وقد قال ستالين : انه يخشى – على الرغم من ان الدول العظمى الثلاث متحالفة الآن ، وانه لن تقوم اية منها بأي عمل من اعمال العدوان يخشى ان الزعماء الثلاثة قد يختفون من المسرح في غضون عشر سنوات او نحوها وقد يتولى السلطة جيل جديد لم يمر بتجربة الحرب وقد ينسى كل ما مررنا به من محن ، ثم قال « اننا جميعا متفقون على الرغبة في احلال السلام لمدة خمسين عاما على الاقل ، ويقوم الخطر الاكبر في أن نتصارع بعضنا مع بعض ، فلو ظللنا على اتحادنا ، فلن يكون للخطر الالماني اية اهمية .

ولهذا يجب علينا أن نفكر في ضمان وحدتنا في المستقبل وان نؤمن بقاء الدول العظمى الثلاث ومعها الصين وفرنسا ان امكن في جبهة متحدة .

ومضى ستالين يقول : ولا يستطيع زملائي في موسكو ان ينسوا ما حدث في تشرين الاول عام ١٩٣٩ في اثناء الحرب الروسية الفنلندية ، عندما استخدمت الحكومتان البريطانية والفرنسية عصبة الامم ضدنا ، ونجحتا في عزلنا ، وفي طرد الاتحاد السوفياتي من العصبة ، ولذلك فانه يجب الحصول على ضمان بأن امورا كهذه لن تتكرر في المستقبل .

وقد تمكنا بعد الكثير من الجهد والايضاح من اقناعه ، بقبول مشروع امريكي يصبح فيه مجلس الامن عاجزاً عن اصدار اي قرار الا اذا اجمع عليه « الاربعة الكبار » واذا رفضت اية دولة منها اي مشروع فلا يجوز لمجلس الامن اقراره ، وهذا هو « الفيتو » .

وكنت من ناحيتي ارى ان اقامة اي جهاز عالمي يجب ان تكون على اساس اقليمي ، فهناك مناطق اقليمية رئيسية موجودة وتفرض هـذا الوجود ، كالولايات المتحدة واوروبا المتحدة وجامعة الشعوب البريطانية والاتحاد السوفياتي وامريكا الجنوبية ، وهنـاك مجموعات اخرى ، كالمجموعات الاسيوية والمجموعة الافريقية ، وفي الامكان تنمية هذه الفكرة عن طريق الدرس . وكان الهدف من فكرتي هو حل القضايا التي تدور حولها الخلافات المحلية الحادة في المجالس الاقليمية التي تبعث بعد ذلك بثلاثة او اربعة من ممثليها الى المجلس الاعلى ، الذي سيتألف من ثلاثين او اربعين شخصا من ابرز الساسة العالميين يكون كل واحد منهم مسئولا عن منطقة ومعالجة القضايا العالمية ايضا ، ولا سيما قضية الحرب ، أما دعوة جميع الدول صغيرها وكبيرها قويها وضعيفها الى الاشتراك على قدم المساواة في الهيئة المركزية « الجمعية العمومية » فهي اشبه ما يكون بتنظيم جيش لا تفريق فيه بين قيادته العليا وقادة فرقة وألويته ، ويكون كل ما حصلنا عليه من هذا الاجراء ، انما هو برج بابل جديد ، يتميز بشيء من المهارة في مناورات ما وراء الكواليس ، ولكن علينا ان نتحمل ، وان نصبر على اية حال .

روسيا وبولندا

لقد بحثنا موضوع بولندا في نحو سبعة اجتماعات من الاجتماعات الرسمية التي عقدناها في يالته ، وتمكنا بمساعدة وزراء خارجيتنا ومساعديهم ـ الذين عقدوا اجتماعات عدة وطويلة واحتدمت بينهم المناقشات الحادة ـ من الوصول اخيرا الى بيان رسمي ، يمثل وعدا منا للعالم واتفاقا بيننا على اجراءاتنا المقبلة ، ولكن فصول القصة المؤلمة لم تكتمل بعد ، كما لم تعرف جميع الحقائق الصحيحة تمام المعرفة ، الا ان ما دونته هنا يلقي ضوءا على الجهود التي بذلناها في المؤتمر قبل الاخير ، من مؤتمراتنا الحربية ، حيث كانت المشكلات والمتاعب قديمة ومتعددة وحتمية ، وكانت حكومة لوبلين البولندية التي يرعاها الروس والتي يطلقون عليها اسم حكومة « وارسو » تنظر الى حكومة لندن البولندية ، بشعور من العداء المرير ، وكانت العلاقات بينهما قد ساءت بعد اجتماع موسكو الذي عقد في تشرين الاول ، وكانت القوات الروسية تتدفق عبر بولندا ، وقد اسندت الى جيش المقاومة السرية البولندي مهمة قتل الجنود الروس ، واعمال التخريب والهجوم على مناطق المؤخرة وعلى طرق المواصلات ، ولم يكن في وسع الحلفاء الغربيين الحصول على معلومات او الوصول الى المنطقة ، وكان هناك اكثر من مائة وخمسين الف جندي بولندي يقاتلون ببسالة في ايطاليا ، وفي الجبهة الغربية لتدمير الجيوش تدميراً نهائيا ، وكان هؤلاء وغيرهم كثيرون في اوروبا يتطلعون بشوق الى تحرير وطنهم ، كما كانت الجالية البولندية الكبيرة في الولايات المتحدة تنتظر في شوق ولهفة الى تسوية نهائية بين الدول العظمى .

ويمكن تلخيص الموضوعات التي بحثناها فيما يلي :

كيف يمكن تاليف حكومة بولندية واحدة مؤقتة ؟

وكيف ومتى تجري الانتخابات الحرة ؟

وكيف تسوى الحدود البولندية في الشرق والغرب ؟

وكيف نؤمن مناطق المؤخرة وطرق المواصلات للجيوش السوفياتية الزاحفة ؟

ولا ريب في ان قضية بولندا ، كانت من اهم العوامل التي دعت الى عقد مؤتمر يالته ، وكانت من أهم القضايا الرئيسية التي أدت الى انهيار الحلف الاعظم ، وكنت من ناحيتي على ثقة ، في ان قيام بولندا ، قوية ، وحرة ومستقلة ، اهم بكثير من الحدود الاقليمية المعنية ، وقد

ذت أن يعيش البولنديون احرارا ، وان يحيوا الحياة التي يريدونها كما يشاءون ، ولا ريب في ان هذا هو السبب الذي دفعنا الى الحرب ضد المانيا في عام ١٩٣٩ ، وكاد هذا الثمن نفسه يكلفنا حياتنا لا كأمبراطورية ، بل كدولة ايضا .

ولذلك فانه عندما اجتمعنا في السادس من شباط عام ١٩٤٥ ، عرضت الموضوع على النحو التالي : اليس في وسعنا ان نخلق حكومة او جهازا حكوميا لبولندا يتولى ادارة البلاد بصورة مؤقتة الى ان يتم اجراء انتخابات حرة وكاملة يعترف بها الجميع ؟ واذا تمكنا من تحقيق ذلك فاننا نكون قد خطونا خطوة عظيمة نحو احلال السلام في المستقبل لاوروبا الوسطى .

وادعى ستالين ، في النقاش الذي تلا ذلك ، انه فهم موقفنا وذكر ان بولندا ، تمثل بالنسبة الى البريطانيين قضية كرامة ، ولكنها تمثل بالنسبة الى الروس قضية كرامة وسلامة معا ، حيث توجد خلافات كثيرة بين الروس وبينهم ، وهم يريدون القضاء على اسباب هذه الخلافات ، لان بولندا تقوم على حدود روسيا ، ولقد كانت دائما ممرا يجتازه اعداء روسيا لمهاجمتها وقد فعل الالمان هذا مرتين في بحر ثلاثين عاما ، لان بولندا كانت ضعيفة وتريد روسيا من بولندا ان تكون قوية تستطيع اغلاق هذا الممر بقوتها وحدها ، لان روسيا لا تستطيع اغلاقه من الخارج ، وهذه قضية حياة او موت بالنسبة الى الدولة السوفياتية .

اما بالنسبة الى الحدود ،فقد قال ستالين ان الرئيس روزفلت قد اقترح اجراء بعض تعديلات على خط كرزون ، وان تعطى « لوار » وبعض المناطق الاخرى الى بولندا ، وقد قلت ان مثل هذا العمل سيكون بادرة ترمز الى الشهامة ، الا ان ستالين اشار الى ان الروس لم يكونوا هم الذين اخترعوا خط كرزون فقد رسم كرزون وكليمنصو وممثلو الولايات المتحدة هذا الخط في مؤتمر الصلح لعام ١٩١٨ ، الذي لم تدع روسيا الى حضوره ، ولم يوافق لينين على هذا الخط .

وعندما عدنا الى الاجتماع في السابع من شباط ، ذكرت مستمعي بأنني قد حددت دائما تحرك الحدود البولندية غربا بقولي ، ان من حق البولنديين ان يكونوا احرارا في الحصول على اراضي في الغرب على الا تكون اكثر مما يستطيعون ادارته ادارة صحيحة ، ولو اخذت بولندا بروسيا الشرقية وسيليزيا حتى نهر الاودر ، فان هذا يعني نقل ستة ملايين الماني الى المانيا ، ومن الممكن ان يسوى الموضوع على هذا النحو .

وقال ستالين ان هذه المناطق خالية من الالمان لانهم فروا منها جميعا ، وقد رددت عليه قائلا ، ان السؤال هو ، هل يتسع للالمان ما تبقى من المانيا ؟ ولقد قتل ستة ملايين او سبعة ملايين الماني ، وقد يقتل مليون او مليونان كما اقترح ستالين قبل انتهاء الحرب ، ولذا فسيكون هناك مجال لهؤلاء المهاجرين الى حد ما ، وانا لا افزع من

مشكلة نقل السكان ، اذا كان في وسع البولنديين ان يديروا امر البلاد التي يستولون عليها ، ولكن هذه القضية تتطلب درسا ، لا كموضوع مبدأ ، ولكن كموضوع ارقام تجب معالجتها .

وقد وافق المستر روزفلت في الثامن من شباط ، على ان يكون خط كرزون هو الحدود الشرقية لبولندا ، ولكنه كان صلبا ودقيقا في موضوع الحدود الغربية ، اذ من الواجب ان تأخذ بولندا تعويضا على حساب المانيا ، ولكن ليس ثمة مبرر لامتدادها الى نهر المسيسبي الغربي ، وكان هذا رأيي دائما ، وكان علي ان أعيد التكلم في موضوعه عندما اجتمعنا في بوتسدام بعد خمسة أشهر .

وهكذا كنا متحدين في يالته ، من ناحية المبدأ ، بصدد الحدود الغربية وكان السؤال الوحيد ، هو اين يجب ان يرسم تماما هذا الخط ؟ وما يمكننا قوله في هذا الموضوع ، هو أنه يجب ان يأخذ البولنديون جزءا من بروسيا الشرقية ، وان يكونوا احرارا في الامتداد الى نهر الاودر ، ولكننا لم نكن على ثقة ، فيما اذا كان في وسعنا ان نمضي الى ابعد من هذا ، او ان نقول شيئا من هذا الموضوع في هذه المرحلة ، وبعد ثلاثة ايام قلت للمؤتمر ، انني قد تلقيت برقية من وزارة الحرب ، تعترض على اية اشارة الى الحدود على نهر المسيسبي الغربي ، لان مشكلة نقل السكان ستكون اضخم من ان تعالج .

ولهذا فقد قررنا ان ندخل الفقرة التالية في اعلاننا المشترك :

« يرى رؤساء الحكومات الثلاث ان حدود بولندا الشرقية يجب ان تسير مع خط كرزون ، مع بعض الانحرافات عنه في بعض المناطق التي لا تتجاوز خمسة كيلومترات او ثمانية لمصلحة بولندا ، وهم يعترفون ان على بولندا ان تتنازل عن بعض الاراضي في الغرب والشمال ، وهم يشعرون ان من الواجب تحري رأي الحكومة البولندية المؤقتة الممثلة للوحدة الوطنية ، في الوقت المناسب ، بالنسبة الى مدى هذه التساهلات وان يؤجل التخطيط النهائي لحدود بولندا الغربية الى مؤتمر الصلح » .

وظلت امامنا مشكلة تأليف الحكومة البولندية التي نستطيع الاعتراف بها جميعا ، والتي يرضى بها الشعب البولندي ، وقد بدأ ستالين الحديث بالاشارة الى أننا لا نستطيع تعيين حكومة بولندية الا اذا وافق عليها البولنديون انفسهم . وكان ميكولاجيك وغرابسكي قد وصلا الى موسكو ، في اثناء زيارتي الماضية لها ، وكانا قد اجتمعا مع حكومة لوبلين ، ووصلا معها الى حد من الاتفاق ، ثم غادرنا ميكولاجيك الى لندن على اساس انه سيعود ، ولكن زملاءه في لندن اخرجوه من رياسة الوزارة . لمجرد انه فكر في الاتفاق مع حكومة لوبلين ، وكانت حكومة لندن البولندية معادية تمام العداء لمجرد فكرة حكومة لوبلين ، وكانت تصفها بأنها شركة من المجرمين وقطاع الطرق وكانت حكومة لوبلين تضفي على حكومة لندن البولندية الاوصاف

نفسها وكان من الصعب الوصول الى حل في هذا الموضوع ، وقد قال ميكولاجيك :

« تحدثوا الى حكومة لوبلين ان شئتم ، فسأحملهم على المجيء اليكم هنا او في موسكو ، ولكنهم لا يقلون ديمقراطية عن ديغول ، وفي وسعهم ان يحفظوا السلام في بولندا وان يوقفوا الحرب الاهلية والهجمات على الجيش الاحمر ، ولكن جماعة لندن لا يستطيعون ان يفعلوا ذلك ، فعملاؤهم في بولندا قد قتلوا الجنود الروس وهاجموا مستودعات اسلحتهم للحصول على السلاح ، وكانت محطات اذاعتهم تعمل بدون ترخيص وبدون تسجيل » .

ومن المهم بالنسبة للجيش الاحمر ، ان تكون مناطق مؤخرته سليمة مأمونة وهو كرجل عسكري لا يستطيع ان يؤيد الا الحكومة التي تستطيع تأمين هذه المؤخرة .

ولما كان الوقت متأخرا في هذه الليلة ، فقد اقترح الرئيس روزفلت تأجيل الاجتماع الى اليوم التالي ، ولكنني رأيت من المناسب ان اقول انه طبقا لمعلوماتنا ، فانه لا يوجد اكثر من ثلث الشعب البولندي يؤيد حكومة لوبلين ، اذا سمح له أن يعبر عن رأيه في انتخابات حرة ، وأكدت لستالين اننا كنا نخشى دائما من وقوع اصطدام بين الجيش السري البولندي وحكومة لوبلين ، لما يسفر عنه من سفك دماء واعتقالات ونفي ، وان هذه الخشية هي التي تدفعنا الى الرغبة في الوصول الى ترتيب مشترك ، ومن الواجب حتما ان يعاقب المسؤولون عن مهاجمة الجيش الاحمر ، ولكن بالنسبة الى ما لدي من معلومات ، فانني لا استطيع ان اشعر ان من حق حكومة لوبلين ان تقول انها تمثل الشعب البولندي .

ولما كان الرئيس شديد الرغبة في انهاء النقاش ، فقد قال ، لقد كانت بولندا مصدرا للمتاعب اكثر من خمسمائة عام ، فرددت عليه قائلا ، وهذا وحده كاف ليدفعنا الى ان نعمل كل ما في وسعنا لانهاء هذه المتاعب ، ثم انفض الاجتماع .

هذا وقد وجه الرئيس في تلك الليلة رسالة الى ستالين ، حثه فيها على وجوب دعوة ممثلين عن حكومة لوبلين ، وممثلين آخرين عن حكومة لندن ، يأتون من انكلترا او من داخل بولندا نفسها للمجيء الى يالته ، والاشتراك في المؤتمر ، وان يحاولوا معا ، وبحضورنا ، الاتفاق على حكومة مؤقتة ، نستطيع الاعتراف بها جميعا ، لتتولى اجراء الانتخابات الحرة في اسرع وقت ممكن ، ولكن بدا أن هذا الاقتراح غير عملي ، فقد اطرى مولوتوف فضائل حكومة لوبلين ـ وارسو ـ وحمل علي مساوىء جماعة لندن وعيوبهم ، وقال ، اننا اذا حاولنا خلق حكومة جديدة ، فان البولنديين انفسهم قد لا يصلون الى اتفاق ابدا ، ولذا ، فانه من الافضل « توسيع » الحكومة القائمة ، وستكون هذه الحكومة على كل حال مؤقتة ، اذ ان هدفنا الوحيد جميعا ، هو اجراء انتخابات حرة في بولندا في اسرع وقت ممكن ، وسيتفق على

طريقة تدعيم الوزارة مع السفيرين البريطاني والامريكي في موسكو ، ولكونه راغبا في الاتفاق فانه يقبل اقتراح الرئيس روزفلت بدعوة بولنديين من غير رجال حكومة لوبلين ، ولما كان هناك احتمال بأن ترفض حكومة لوبلين التحدث الى بعضهم كميكولاجيك مثلا ، الا انه اذا ما بعثوا بثلاثة ممثلين وجاء ممثلان من اولئك الذين اقترحهم المستر روزفلت فان المحادثات قد تبدأ فورا .

وهنا قلت : ان هذه النقطة هي عقدة المؤتمر بالذات ، وان العالم كله يرقب تسوية هذه القضية ، واذا افترقنا من هنا وما زال كل منا يعترف بحكومة بولندية تختلف عن الاخرى ، فان العالم بأسره سيرى ان الخلافات الجوهرية ما زالت قائمة بيننا ، وستكون النتائج باعثة على الاسى ، وستحكم على اجتماعنا بالفشل الذريع ، واذا أطحنا بحكومة لندن ، وأيدنا حكومة لوبلين ، فسترتفع هناك ضجة عالمية ، وسيحتج علينا جميع البولنديين الذين يعيشون خارج بولندا .

ولما كان يعمل معنا جيش بولندي يضم مائة وخمسين الفا ، جمعوا من كل الرجال القادرين على حمل السلاح خارج بولندا ، وقد قاتل هذا الجيش وما زال يقاتل ببسالة ، فأنا لا استطيع ان اصدق بأن هذا الجيش سيرضى أبدا عن حكومة لوبلين ، واذا كانت بريطانيا العظمى ، ستنقل اعترافها من الحكومة التي اعترفت بها منذ بداية الحرب ، الى حكومة لوبلين ، فان هؤلاء الجنود سينظرون اليها على انها خانتهم .

ومضيت اقول : ولا ريب في ان الماريشال ستالين والمسيو مولوتوف يدركان تمام الادراك ، بأنني لم اكن راضيا عن اعمال حكومة لندن ، التي كنت ارى فيها الحمق في كل مرحلة من المراحل ، ولكن نقل اعترافنا رسميا من هؤلاء الذين كنا نعترف بهم حتى الآن ، الى هذه الحكومة الجديدة ، سيعرضنا الى اشد ما يمكن من النقد ، وسيقال ان حكومة جلالته ، قد سلمت تسليما كاملا في موضوع الحدود الشرقية ، كما فعلنا حقا ، واننا قد قبلنا وتبنينا الدفاع عن وجهة النظر السوفياتية ، وسيقال ايضا اننا فصمنا علاقاتنا كلية مع حكومة بولندا الشرعية ، التي اعترفنا بها طيلة السنوات الخمس الماضية من الحرب ، واننا لا نعرف شيئا عن حقيقة ما يقع في بولندا ، فنحن لا نستطيع دخول تلك البلاد ، ولا نستطيع ان نرى ، وان نسمع حقيقة الرأي العام فيها ، كما سيقال اننا نقبل كل ما تقول به حكومة لوبلين عن رأي الشعب البولندي ، وستتهم في برلماننا نفسه ، بأننا تخلينا عن قضية بولندا ، وستكون المناقشات التي ستتلو ذلك في البرلمان مؤلمة كل الايلام ، ومربكة لوحدة الحلفاء ، حتى ولو افترضنا اننا قد تمكنا من قبول اقتراحات صديقي المسيو مولوتوف .

واستطردت اقول : واعتقد ان هذه الاقتراحات ستقربنا الى الوصول الى حل ، فاذا تخلينا عن حكومة لندن البولندية ، فيجب ان نبدأ بداية جديدة من الطرفين على اسس متكافئة تقريبا ، فقبل ان نتوقف عن الاعتراف بحكومة لندن ، وقبل ان ننقل هذا الاعتراف

الي حكومة اخرى ، يجب ان نتأكد من ان هذه الحكومة الجديدة تمثل حقا الشعب البولندي ، وانا اوافق على ان هذه وجهة نظر واحدة ليس الا ، لاننا لا نعرف حقا ، جميع الحقائق وستزول جميع خلافاتنا حتما ، اذا جرت انتخابات عامة وحرة في بولندا على اساس الاقتراع السري ، والتصويت العام ، وحرية الترشيح ، واذا ما تحقق هذا ، فان حكومة بريطانيا ، ستحني رأسها اجلالا للحكومة التي تتمخض عنها مثل هذه الانتخابات ، ودون ان تكترث بحكومة لندن ، ولا ريب في ان الفترة التي تسبق الانتخابات هي التي تسبب لنا الكثير من القلق .

وقال مولوتوف : انه يأمل ان تسفر محادثات موسكو عن نتائج مجدية ، وستتاح الفرصة للبولنديين ليقولوا ما يريدونه ، وسيكون من الصعب معالجة الموضوع بدون وجودهم ، وقد وافقته على رأيه ، ولكنني قلت ان من المهم أن ينفض المؤتمر ، وقد ظهر بمظهر المتفق على شيء يجب ان نعمل جميعا بأناة للوصول اليه .

وهنا تدخل ستالين ، فتناول شكواي من اننا لا نتلقى اية معلومات ولا سبيل لنا للوصول الى هذه المعلومات .

فرددت عليه ، بأن لدي بعض المعلومات .

فقال : ولكنها لا تتفق مع معلوماتي ، ثم مضى يؤكد لنا ان حكومة لوبلين ، تحظى بتأييد الشعب ولا سيما بيروت وغيره من رجالها ، فهؤلاء الرجال لم يغادروا البلاد ابان الاحتلال الالماني لها ، ولكنهم ظلوا يعيشون في وارسو طيلة الوقت . ثم خرجوا من اماكن اختفائهم الى حيث يوجدون الآن وهو لا يعتقد انهم من العباقرة ، فقد تضم حكومة لندن رجالا اكثر منهم ذكاء ولكن الشعب لا يحبهم ، لانه لم يرهم معه يحتملون معه آلام الاحتلال الالماني ، في الوقت الذي كان يرى فيه اعضاء الحكومة المؤقتة ، ولكنه كان يتساءل : اين هم رجال حكومة لندن ؟ ولا ريب في ان هذه المشاعر ، حطمت نفوذ حكومة لندن ، وكانت السبب في أن يتمتع رجال الحكومة المؤقتة بمثل هذه الشعبية العظيمة مع انهم ليسوا من الرجال العظام ، واضاف يقول :

كما انه ليس في وسعنا ان ننسى كل هذه الامور ، اذا اردنا حقا تفهم المشاعر الصادقة للشعب البولندي ، وقال ان المستر تشرشل يخشى ان ينفض المؤتمر قبل الوصول الى اتفاق ، فماذا يمكن ان نفعل يا ترى ؟ فالحكومات المختلفة تملك معلومات متباينة ، وتبني على هذه المعلومات استنتاجات متفاوتة ، ولعل اول ما يجب ان نفعله ، هو ان ندعو البولنديين من مختلف المعسكرات والفئات ، وان نستمع الى ما يقولونه وقد حان الوقت الذي فيه يصبح في الامكان اجراء الانتخابات والى ان يتم ذلك فعلينا ان نتعامل مع الحكومة المؤقتة ، كما تعاملنا مع حكومة الجنرال ديغول في فرنسا ، وهي حكومة لم تنتخب ايضا ، وهو لا يستطيع ان يحدد ما اذا كان بيروت يتمتع بشعبية اكثر من ديغول او ان ديغول يتمتع بشعبية اكثر منه ، ولذا فلم لا نفعل الشيء نفسه مع بيروت كما فعلنا مع ديغول وان نعقد معه معاهدة مماثلة لتلك التي عقدناها مع الجنرال ؟ ولا ريب في ان اية حكومة تعمل في

بولندا ، لن تكون اقل ديموقراطية من حكومة ديغول ، واذا ما عالجنا الموضوع بدون اهواء وميول امكننا الوصول الى اتفاق مشترك . فالوضع ليس على النحو الذي صوره المستر تشرشل من الاسى ، وفي الامكان حل القضية ، اذا لم نعلق كبير اهمية على القضايا الثانوية وركزنا اهتمامنا على القضايا الجوهرية .

وتساءل الرئيس روزفلت : ترى متى يصبح في الامكان اجراء انتخابات ؟

فقال ستالين : في بحر شهر ، الا اذا وقعت كارثة في الجبهة ، وهو امر بعيد الاحتمال .

ووافقت على ان مثل هذا القول يزيل قلقنا ، وفي وسعنا ان نؤيد من صميم قلوبنا حكومة تنتخب انتخابا حرا ، ولكن يجب الا نطلب شيئا قد يؤدي في اي حال من الاحوال الى عرقلة العمليات الحربية ، فهي الهدف الاول والاهم ، واذا كان في الامكان الوقوف على راي الشعب البولندي في مثل هذا الوقت القصير او حتى في بحر شهرين ، فان الوضع يختلف آن ذاك كل الاختلاف ولن يكون في وسع اي انسان الاعتراض عليه .

وعندما عدنا للاجتماع في اليوم التاسع من شباط عام ١٩٤٥ ، تقدم مولوتوف باقتراح جديد : وهو ان يعاد تشكيل حكومة لوبلين ـ بدلا من « توسيعها » ـ على اسس ديموقراطية اكثر شمولا ، بحيث تضم زعماء ديموقراطيين من الذين يعيشون داخل بولندا نفسها او في خارجها وسيتشاور هو مع السفير البريطاني والامريكي في موسكو في الطريقة التي يتم بها تحقيق ذلك ، ومتى اعيد تنظيم حكومة لوبلين فستتعهد بأجراء انتخابات حرة في اسرع وقت ممكن ، وسنعترف بأية حكومة تنبثق عن تلك الانتخابات .

وقد قلت ان اقتراح مولوتوف لا بأس به ، ولكنني ارى من واجبي ان اوجه انذارا عاما ، وهو انه من حيث ان هناك جوا من الاتفاق ، فاني اشعر انه ليس في امكاننا ان نسمح للعجلة بالتدخل في تسوية مثل هذه القضايا الهمة ، وان نضيع ثمار مؤتمرنا ، لعدم رغبتنا في مد مؤتمرنا اربعا وعشرين ساعة اخرى ، ويجب الا نرتجل قراراتنا ارتجالا ، وقد تكون هذه الايام من اهم الايام في حياتنا .

هذا وقد اعلن المستر روزفلت ، ان الخلافات بيننا وبين الروس اصبحت شكليات ليس الا ، واكد انه يهمه كما يهمني جدا ان تكون الانتخابات حرة ونزيهة حقا ، وقلت لستالين : اننا نشعر بنقص معيب في معرفة حقيقة ما يدور في داخل بولندا ، ومع ذلك يطلب الينا ان نتخذ قرارات خطيرة تتناول مسؤوليات ضخمة ، فقد كنت اعرف مثلا ان هناك شعورا بالمرارة والالم بين البولنديين ، لما قيل لي ان حكومة لوبلين قد اعلنت بصراحة عن عزمها على محاكمة جميع افراد الجيش البولندي الداخلي وحركة المقاومة السرية كخونة ، ولو اني اولى قضية سلامة الجيش الاحمر المقام الاول من اهتمامي ، الا انني ارجو من ستالين

ان يدرس الصعوبة التي نواجهها ، فالحكومة البريطانية لا تدرك حقيقة ما يدور في بولندا ، الا عن طريق القاء بعض الرجال البواسل بالمظلات ، وخروج بعض اعضاء حركة المقاومة الداخلية ، واكدت له انه ليست لدينا وسائل اخرى للمعرفة ، وانما لا نود الحصول على معلومات بهذه الطريقة ، فهل يمكن اصلاح هذا الموضوع دون عرقلة حركات القوات السوفياتية ؟ وهل يمكن منح تسهيلات للبريطانيين والامريكيين ليروا بأنفسهم كيف تسوى المنازعات البولندية ؟

وقد ذكر تيتو انه عندما تجري الانتخابات في يوغوسلافيا فلن يعارض في حضور المراقبين الروس والبريطانيين والامريكيين ، لينقلوا الى العالم بشكل غير متحيز ان هذه الانتخابات قد جرت بصورة عادلة ونزيهة .

اما بالنسبة لليونان ، فان حكومة جلالته تتعهد بأن ترحب ترحيبا حارا بمجيء المراقبين الامريكيين والبريطانيين والروسيين ليتحققوا من ان الانتخابات ستتم كما يشتهي الشعب ، وهذا ينطبق ايضا على ايطاليا ، ومن المستحيل ان يبالغ المرء في تقدير اهمية اجراء الانتخابات بصورة نزيهة ، فمثلا : هل يستطيع ميكولاجيك ان يعود الى بولندا ، لينظم حزبه قبل الانتخابات ؟

فقال ستالين : هذا موضوع يدرسه السفراء مع المسيو مولوتوف عندما يجتمعون بالبولنديين .

فقلت : انه يجب ان اتمكن من ابلاغ مجلس العموم ان الانتخابات ستكون حرة ، وانه ستكون هناك ضمانات فعالة ، بأنها ستجري في جو من الحرية والنزاهة .

واشار ستالين : الى ان ميكولاجيك يمت الى حزب الفلاحين ، ولما لم يكن هذا الحزب من الاحزاب الفاشية ، فسيسمح له بالاشتراك في الانتخابات والتقدم بمرشحيه ، وقلت : ان هذا الامر سيتأكد اكثر واكثر اذا كان حزب الفلاحين ممثلا في الحكومة البولندية ، ووافق ستالين على وجوب ضم احد ممثلي الحزب الى الحكومة ، واضفت بأنني ارجو الا يكون في اي شيء قلته ما يدعو الى الاساءة .

ورد ستالين قائلا : يجب ان نسمع ما سيقوله البولنديون على اي حال ، واوضحت انني ارغب في ان احمل البرلمان على قبول موضوع الحدود الشرقية ، وانا اعتقد ، ان البرلمان قد يتساهل في هذا الموضوع اذا اقتنع بأن البولنديين قد تمكنوا من ان يقرروا لانفسهم ما يريدونه حقا .

فرد ستالين قائلا : ان بينهم عددا لا بأس به من الناس الطيبين ، وهم محاربون من خيرة الجنود ، وظهر بينهم عدد لا بأس به من العلماء والموسيقيين ولكنهم شعب مشاكس بطبعه .

فقلت : ان كل ما اريده ، هو ان يتمكن جميع الافراد من اسماع كلمتهم .

وقال الرئيس : يجب ان تكون الانتخابات فوق مستوى النقد ، وكل ما اريده هو نوع من التأكيد استطيع ان اقدمه الى العالم ، ولا اريد ان يشك اي انسان في العالم في نزاهة هذه الانتخابات ، والمسألة مسألة مبدأ .

واقترح المسيو ستيتينوس ، ان نكتب تعهدا خطيا بأن يؤكد السفراء الثلاثة في وارسو ، بناء على ملاحظاتهم ، ان الانتخابات جرت حقا في جو من الحرية والحيدة ، فقال مولوتوف : انني اخشى اننا اذا قمنا بذلك ، حملنا البولنديين على الشعور بأننا لا نثق فيهم ، وأرى من الخير ان نبحث هذا الموضوع معهم .

ولم اقتنع بهذا ، وقررت اثارة الموضوع مع ستالين في وقت آخر ، وقد حانت الفرصة في اليوم التالي ، عندما قابلته ومعي المستر ايدن بحضور مولوتوف ، وشرحت له من جديد ، ما نحس به من صعوبة لعدم وجود من يمثلنا في بولندا ، لكي يتمكن من ان ينقل الينا ما يدور هناك ، وقلت : ان هناك احتمالين اما أن نبعث سفيرا مع عدد من موظفي السفارة ، او نبعث بلفيف من المراسلين الصحفيين ، ولم يكن راغبا في ارسال الصحفيين .

وقد قلت له : انني سأسأل في البرلمان عن حكومة لوبلين ، وعن الانتخابات وان من الواجب ان اعرف ما هناك لاتمكن من الرد .

وقد قال ستالين : بعد الاعتراف بالحكومة البولندية الجديدة سيكون في وسعكم ارسال سفير الى وارسو .

فعدت أسأله : وهل سيكون حرا في التنقل داخل البلاد ؟

فقال ستالين : اما من ناحية الجيش الاحمر ، فلن يكون هناك تدخل منه واعدك بأنني سأصدر التعليمات اللازمة ، ولكن عليك ان تقوم بترتيباتك الخاصة مع الحكومة البولندية .

ولذلك فقد قررنا اضافة الفقرة التالية الى اعلاننا :

« وعلى ضوء ما تقدم ، فسينطوي الاعتراف على تبادل السفراء لكي تستطيع الحكومات المعنيات على ضوء تقاريرهم ، أن تعرف حقيقة الوضع في بولندا » .

وكان هذا هو ما امكن الحصول عليه .

وهكذا ، انتهت زيارتنا للقرم في اليوم الحادي عشر من شباط الا انه قد ظلت عدة قضايا خطيرة ــ كما هو المألوف في مثل هذه المؤتمرات ــ دون حل ، وقد وضع البيان الذي اصدرناه عن بولندا سياسة في خطوط عريضة ، لو قدر لها أن تتبع باخلاص وولاء وصدق لادت غرضها حقا حتى يحين موعد مؤتمر الصلح العام .

عبـور الرايـن

قرر الالمانيون ، على الرغم من الهزيمة التي لحقت بهم في الاروين ، ان يخوضوا معركة جديدة الى الغرب من الراين ، بدلا من الانسحاب عبر النهر ، ليستجمعوا قواتهم ، ويلتقطوا انفاسهم ، ولذلك فقد خاض الماريشال مونتغمري معركة طويلة وشاقة طوال شهر شباط ومعظم شهر آذار ، لان الخطوط الدفاعية الالمانية كانت قوية وقد أصروا على الدفاع عنها بعناد ، وقد كانت الارض موحلة بسبب فيضان نهري الراين والموز ، ولما كان الالمانيون ، قد حطموا فتحات السدود الكبيرة المقامة على الروهر ، فقد اصبح النهر غير صالح للعبور ، واستمر الحال كذلك حتى نهاية شهر شباط ، ومع ذلك فقد تراجعت ثماني عشرة فرقة المانية الى ما وراء النهر في اليوم العاشر من آذار ، مما مكن الجنرال برادلي من تطهير الارض الممتدة ثمانين ميلا والواقعة بين دسلدورف وكوبليتز بعد حملة سريعة وقصيرة .

وفي السابع من الشهر واتت الحلفاء فرصة سانحة ، فسارعوا الى اغتنامها ، فقد وجدت الفرقة المدرعة التاسعة التابعة للجيش الامريكي جسر السكة الحديد في ريماجن مدمرا جزئيا ولكنه ما زال صالحا للاستعمال ، فاندفع قائد الفرقة بطلائعه فوق الجسر وتبعته القوات الاخرى ، ولم يمر وقت طويل حتى كانت اربع فرق قد عبرت النهر وأقامت لها رأس جسر يمتد عدة اميال ، ولم يكن هذا الاندفاع جزءا من خطة ايزنهاور ، ولكنه برهن على انه عامل مساعد ممتاز ، مما اضطر الالمان الى تحويل قوات مهمة الى الشمال لصد الاندفاع الامريكي وتمكن باتون من قطع خطوط العدو حول تريبر وتحطيمها ، وبذلك تم تطويق المدافعين عن خط سيغفريد المخيف ، ولم تمض بضعة ايام حتى توقفت كل مقاومة منظمة للعدو في هذه الناحية .

وكنتيجة فرعية لهذا الانتصار ، قامت الفرقة الامريكية الخامسة بعبور نهر الراين على بعد خمسة عشر ميلا الى الجنوب من ماتينز .

وبعد معارك مستمرة دامت ستة اسابيع على جبهة طولها مائتان وخمسون ميلا ، اضطر العدو الى الانسحاب الى ما وراء الراين ، بعد ان مني بخسائر لا يستطيع تعويضها في الرجال والعتاد ، هذا وقد لعبت قوات الحلفاء الجوية دورا بارز الاهمية في هزيمة العدو ، وانزال الفوضى بقواته ، ووقتها تدخل سلاح الجو الالماني المنهار ، كما كانت الغارات المستمرة التي تشنها قاذفاتنا الثقيلة ، سببا في انقاص انتاج الزيت عند الالمان الى درجة كبيرة ، وفي تخريب مصانعه ومواصلاته ، بحيث ارغمتها تقريبا على التوقف .

وقد رغبت في ان اشهد مع جيوشنا عبور الراين ، وأخذت معي سكرتيري جوك كولفيل ومرافقي البحري تومي ، وطرنا الى مقر القيادة البريطانية ، على مقربة من فيناو ، وانتقلنا بعد ذلك الى عربة خرائط مونتغمري واطلعت على جميع الخرائط التي اعدتها مجموعة منتقاة من الضباط ، أوضحوا فيها جميع الخطط المتعلقة بهجومنا وتوزيع قواتنا ، وكان علينا ان نشق طريقا لنا عبر النهر في عشر نقاط على جبهة تمتد عشرين ميلا من رينسبرغ الى ريس ، وتقرر ان نستخدم جميع مواردنا ، حيث يوجد ثمانون ألف جندي يؤلفون مقدمة جيوش يبلغ تعداد رجالها مليونا على الاقل ، كما كان يوجد حشد كبير من القوارب والعوامات على اهبة الاستعداد ، وفي الوقت نفسه كان يقف الجنود الالمان على الطرف الثاني من النهر داخل خنادقهم ، وقد انتظموا وتسلحوا بأحدث معدات الحرب والقوة النارية .

وكنت طبقا لدراساتي او لاختباراتي في الحروب ، اشك في ان يصبح اي نهر حاجزا طبيعيا للدفاع ضد عدو متفوق ، ولهذا فقد كنت أعلق آمالا ضخمة على المعركة ، حتى قبل ان يشرح لي الماريشال الخطط التي وضعت لها ، يضاف الى ذلك انه اصبحت لنا السيادة المطلقة في الجـو .

هذا وقد اراد القائد العام ان يوضح لي بصورة خاصة طريقة انزال فرقتين محمولتين في الجو تضمان نحوا من اربعة عشر الف رجل مع مدافعهم ومعدات الهجوم ، وراء خطوط العدو ، وكان قد اعد لي مكانا فوق رابية لكي اراقب فيه من الصباح حركات الهبوط من الجو ، وعند الضحى سمعنا هدير الطائرات الهائل فوق رؤوسنا ورأينا اسرابها تندفع من الافق ، وتعود بعد ان تتم قصف مواقع العدو ، الا انني شعرت بالاسى عندما رأيت الطائرات في اثناء عودتها وبعضها يتصاعد منه الدخان والبعض الآخر ينبعث منه اللهب ، كما رأيت ايضا في هـذه اللحظة بقعا صغيرة تندفع عائمة نحو الارض ، مما سبب لي ألما قاسيا جـدا .

ثم اخذت اطوف بالسيارة في جولة طويلة من نقطة الى اخرى مارا بمختلف قيادات الفيالق ، وقد سارت الامور على ما يرام طوال ذلك اليوم ، وتركزت الفرق الاربع المهاجمة وهي الفرقتان الخامسة عشرة والحاديـة والخمسون البريطانيتان والفرقتان « الثلاثون والتاسعـة والسبعون الامريكيتان » تركزت عبر النهر واقامت رؤوس جسور بجوار النهر تمتد خمسة آلاف باردة ، كما كان ضرب اسلحة الحلفاء الجوية الذي لا يفوقه في العنف الا ما حدث يوم الغزو في نورمانديا ، يشمل ايضا القوات الجوية الاستراتيجية العاملة من بريطانيا والقاذفات الثقيلة العاملة من ايطاليا ، والتي توغلت الى مسافات بعيدة في المانيا .

وعندما عدنا في المساء الى غرفة الخرائط ، أتيحت لي فرصة رؤية اساليب مونتغمري في ادارة دفة المعركة ، حيث رأيت سلسلة متعاقبة من الضباط الشبان لا يتجاوز اعلاهم مرتبة الرائد ، يتوافدون واحدا بعد

الآخر بعد ساعتين ، وقد عاد كل منهم من احد قطاعات الجبهة ، وهؤلاء الضباط هم الممثلون الشخصيون المباشرون للقائد العام ، وفي وسعهم ان يذهبوا الى اية جهة يريدونها ، وأن يوجهوا اي سؤال الى القادة في الاماكن التي يذهبون اليها كما يبلغونهم اوامر القائد العام ، وعندما قدم كل منهم تقريره واجاب على اسئلة القائد العام الكثيرة والدقيقة والشديدة الاهتمام بكل شيء ، اتضحت القصة الكاملة لمعركة اليوم ، وكانت هذه خير طريقة للتثبت من الوقائع التي تسردها التقارير الواردة من مختلف القيادات والقادة ، والتي عهد الى الجنرال دي غوينغانير رئيس اركان حرب مونتغمري بقراءتها وفحصها ، واعتقد ان هذا النظام مفيد جدا ، وانه الوسيلة التي يستطيع القائد العصري بوساطتها ان يرى وان يقرأ ما يقع في كل جزء من اجزاء الجبهة .

وقد ذهبنا في اليوم التالي الموافق الخامس والعشرين من آذار لمقابلة ايزنهاور ، واجتمعنا به ، وكان معه حشد من القادة الامريكيين ، وبعد ان تحدثنا في مختلف الشؤون ، قال ايزنهاور ان هناك بيتا على الطرف الذي نقف عليه من الراين ، وهو يبعد نحو عشرة اميال من هنا ، ويمكن مشاهدة النهر والضفة الثانية منه بصورة واضحة ، واقترح ان نذهب الى ذلك البيت ، وقد وجدنا على مقربة من ضفتنا قاربا بخاريا صغيرا ، فقلت لمونتغمري دعنا نعبر به النهر لنلقي نظرة على الضفة الاخرى ، فوافق ، وبعد ان قام ببعض التحريات شرعنا في عبور النهر ومعنا اربعة من القادة الامريكيين وستة من الجنود المسلحين ، ونزلنا بمنتهى الهدوء على الجانب الالماني وسرنا هناك على الضفة نحوا من نصف ساعة دون ان يزعجنا احد .

وعندما عدنا طلب مونتي ، ان نذهب الى الجسر الحديدي في ويل لنرى بانفسنا ما يجري هناك ، فركبنا سيارة الى هناك حيث كان الالمان يردون على نيراننا بقذائف كانت تتساقط في مجموعات اربع على بعد نحو ميل منا ، كما سقطت عدة قذائف اخرى بين السيارات التي كانت خلفنا ، ولهذا فقد تقرر ان نبتعد عن هذا المكان ، وقد عدنا الى مقر القيادة ثانيا .

هذا ، وقد واصلت جيوشنا تقدمها ، وفي ختام الشهر ، كنا قد استولينا على مسطح كبير يمتد الى الشرق من نهر الراين ، استطعنا منه ان نشن عملياتنا الرئيسية الى داخل المانيا الشمالية ، اما في الجنوب فان الجيوش الامريكية على الرغم من مواجهتها مقاومة جدية الا انها تقدمت تقدما عظيما ، بفضل شجاعتها ، كما تم عبور الراين في اماكن اخرى الى الجنوب من كوبليتز وعند وورمز ، ووصل الجيش الامريكي الثالث في التاسع والعشرين من آذار الى فرانكفورت ، وتم تطويق حوض الروهر وحماته الذين يبلغ تعدادهم ثلاثمائة وخمسة وعشرين الفا ، وبذلك فقد انهارت جبهة المانيا الغربية بأكملها .

وعلى هذا الاساس ، فقد استعلمت عن الخطة الاستراتيجية التي

اعدتها قيادة الحلفاء العليا لتقدم الجيوش الانجلو ـ امريكية ، وأبرق الى الجنرال ايزنهاور يقول : ـ

أقترح ان نزحف شرقا ، لنلتقي مع الروس ، او لنقيم خطا عاما على نهر الألب ، وأرى ان هذا يتوقف على رأي الروس ، وان محور كاسيل ـ لايبزغ ، هو خير مكان للزحف ، اذ يضمن اجتياح تلك المنطقة الصناعية الهامة ، التي يعتقد بأن الوزراء الالمان قد انتقلوا اليها ، كما انه سيشطر القوات الالمانية شطرين ، ولن يقحمنا في مشكلة عبور نهر الالب ، وان هذه الخطة تستهدف تجزئة ما تبقى للعدو من قوات رئيسية في الغرب وتحطيمها .

هذا هو الاتجاه الاساسي لزحفنا ، واذا لم يتضح لنا ان تركيز جميع جهودنا على هذا الاتجاه ، لم يعد ضروريا ، فانني على استعداد لان أوجه جميع قواتي لاضمن نجاح هذا الهدف .

وعندما نتأكد من نجاح الاندفاع الرئيسي ، فانني اقترح القيام بتطهير الموانىء الشمالية ، وهي عملية تساعد على عبور نهر الألب من ناحية كييل ، وسيكون مونتغمري مسؤولا عن هذه العمليات ، وانا اعتزم زيادة القوات العاملة تحت امرته اذا رأيت ذلك ضروريا لاداء العمل المطلوب منه .

وعلمت ايضا ، ان ايزنهاور ، قد اعلن سياسته هذه في برقية مباشرة بعث بها الى ستالين في الثامن والعشرين من آذار ، اخبره فيها ، انه بعد عزل نهر الروهر ، سيندفع مباشرة على محور ويرفورت ـ لايبزغ ـ دريسدن ، ليلتقي بالجيوش الروسية ، وليشطر ما تبقى من قوات المانيا ، وسيقوم بتقدم فرعي آخر عبر ريفينسبرغ الى ليتر ، حيث يتوقع ايضا الالتقاء بالجيوش الروسية وليحول دون تركيز المقاومة الالمانية في الكمائن الموجودة في جنوبي المانيا .

وقد وافق ستالين في الحال على اقتراحات ايزنهاور ، وقال بأنها تتفق تمام الاتفاق مع الخطة التي وضعتها القيادة العليا السوفياتية ، واضاف ستالين يقول :

اما برلين فقد فقدت قيمتها الاستراتيجية السابقة ، ولهذا فان القيادة العليا السوفياتية تعتزم تحويل قوات ثانوية في اتجاه برلين ، ولكن الاحداث التالية كانت تتعارض تماما مع هذا البيان .

ولما كان هذا الموضوع مهما للغاية فقد ابرقت الى الرئيس في اول نيسان اقول : ـ

من الواضح انه اذا نحينا جانبا كل عائق ، وتجاهلنا كل انحراف ، فان الواجب يقضي على جيوش الحلفاء في الشمال والوسط ، ان تتجه الآن وبأقصى سرعة ممكنة نحو نهر الالب ، وهنا يكون المحور مرتكزا على برلين ، اما الجنرال ايزنهاور ، فبالنسبة الى تقديراته لمقاومة العدو والتي أعلق عليها بدوري اهمية عظمى ، يود الآن ان يوجه المحور نحو

الجنوب ليضرب في اتجاه لايبزغ ، وحتى في اتجاه دريسون في الجنوب البعيد ، وانني لاقول بمنتهى الصراحة ، ان برلين ما زالت على جانب كبير من الاهمية الاستراتيجية ، فلا شيء يمكن ان يؤدي الى التأثير نفسيا والايحاء باليأس لجميع قوات المقاومة الالمانية من سقوط برلين نفسها ، انها ستكون الدليل الاكبر على الهزيمة بالنسبة الى الشعب الالماني ، اما اذا تركت منفردة ليحاصر الروس ما تبقى من حطامها ، وليظل العلم الالماني خفاقا فوقها ، فانها ستبعث المقاومة والحيوية عند جميع الالمان الذين يحملون السلاح .

وهناك ايضا ناحية اخرى ، ارى من الجدير بنا ، ان نجعلها موضع الاعتبار ، فلا ريب ان الجيوش الروسية ستجتاح جميع اراضي النمسا ، وتدخل الى فيينا ، واذا كانوا هم الذين سيدخلون الى برلين ايضا ، أفلا يؤدي ذلك الى ان الانطباع الذي يحملونه بأنهم هم الذين اسهموا اسهاما أكبر في نصرنا المشترك ، سيتركز في عقولهم بشكل لا ضرورة له ، كما يؤدي هذا ايضا الى قيام حالة فكرية لديهم تثير لنا الكثير من المتاعب الخطيرة والقاسية في المستقبل ، ولهذا فاني ارى من الناحية السياسية ان علينا ان نسرع بالزحف شرقا الى المانيا باقصى سرعة ، حتى اذا وقعت برلين في قبضتنا فاننا نستولي عليها ، ويبدو لي ان هذا الرأي سليم من الناحية العسكرية ايضا .

ولكن حالة الرئيس الصحية ، كانت في هذا الوقت ، قد ساءت الى الحد الذي اصبح فيه ، الجنرال مارشال ، هو الذي يعالج هذه القضايا الخطيرة ، وان كنت لم اكن اعرف هذه الحقيقة ، وقد رد المسؤولون في الولايات المتحدة بما معناه ، ان خطة ايزنهاور تبدو متفقة مع الاستراتيجية المتفق عليها ومع توجيهات واشنطن ، فقد كان يوزع عبر الراين في الشمال اقصى ما يمكن استخدامه من قوات . اما المجهود الثانوي الى الجنوب ، فقد كان يحقق نجاحا بارزا ، ويجري استغلاله بقدر ما تسمح به ظروف التموين ، كما انهم على ثقة من ان عمل القائد الاعلى ، سيضمن الموانيء وكل ما ذكره البريطانيون بصورة اكثر حسما من الخطة التي يقترحها البريطانيون .

وقالوا ان معركة المانيا قد وصلت الى الحد الذي يجب ان يترك فيه الى قائد الميدان ، الحكم على الاجراءات التي يجب عليه ان يتخذها ، وان يقرر بنفسه هذه الاجراءات ، وليس من الحكمة في شيء ان نبعد انظاره بصورة متعمدة عن استغلال ما يبدو على العدو من ضعف ، فالهدف الوحيد يجب ان يكون النصر السريع الكامل ، وعلى الرغم من ان واشنطن تدرك وجود عوامل لا تعني القائد العام مباشرة ، الا انهم يرون ان مفاهيمه الاستراتيجية سليمة كل السلامة .

كما اكد لي ايزنهاور نفسه ، انه غير غافل مطلقا عن الاهمية العظمى في الزحف نحو الساحل الشمالي ، على الرغم من ان برقيتك التي ارسلتها الي والتي ترغبون فيها تحقيق اهداف ذات اهمية عظمى بالنسبة للسياسة

العامة ، واني لارى النقطة التي اشرت اليها في هذا الصدد بكل وضوح . كما انه لكي اضمن نجاح مجهود من المجهودات التي خططت لها ، فانني اركز جهودي اولا على الوسط ، لاحصل على الوضع الذي احتاج اليه ، وارى كما يبدو لي الآن ، ان الخطوة التالية التي يجب ان نقوم بها ، هي ان نسمح لمونتغمري بعبور نهر الالب ، وان نعزز قواته بما تقضي به الضرورة من قوات امريكية ليصل الى خط يضم لويبك على الشاطىء ، واذا كانت المقاومة الالمانية من الآن فصاعدا ، ستنهار حتما ، ففي وسعك الا ترى فرقا كبيرا في الزمن ، بين ما اراه من كسب موضع في الوسط ، وما تراه انت من عبور نهر الالب ، اما اذا كانت المقاومة الالمانية ستستمر ، فانني ارى من الضروري جدا ، ان اركز كل مجهود على حدة ، والا اسمح لنفسي بالتشتت والضياع في محاولة القيام بجميع المشروعات في وقت واحـد .

ومن الطبيعي ، انه اذا وقع الانهيار فجاة في اية لحظة وفي كل مكان مـن الجبهة فسنندفع الـى الامام بسرعة وستكون لويبك وبرلين بين اهدافنا المهمة .

وبعد ان شكرته قلت له انني لا ازال اعلق اهمية كبرى على دخول برلين وهي كما يبدو من رد موسكو ، مفتوحة امامنا ، اذ قالت في البرقية ، ان برلين قد فقدت اهميتها الاستراتيجية السابقة ، وانني ارى مـن الاهمية بمكان عظيم ان نلتقي بالروس في ابعد نقطة الى الشرق ، مهما كانت الاسباب ، اذ قد تحدث اشياء كثيرة في الغرب قبل ان يبدأ ستالين هجومه الرئيسي .

ورايت من واجبي ان انهي هذا النقاش ، وان اسجل اعتقادي بانه لا بد ان تكون قد تغلبت على واشنطن آراء اطول مدى واوسع افقا كما انه من الحق ان يقال ان التفكير الامريكي ، لا يهتم مطلقا بالقضايا التي تبدو ذات علاقة بالتوسع الاقليمي ، وقد اتضح لي أن نقاط الخلاف بيننا لم تكن كبيرة الاهمية بالنسبة الى قادة الولايات المتحدة ، ولكن هذه النقاط قد لعبت دورا مسيطرا في مصير اوروبا .

وفي وسعنا الآن ان نرى الفجوة المخيفة التي قامت بين اضمحلال قوة الرئيس روزفلت ، ونمـو قوة الرئيس ترومان وسيطرته علـى المشكلات العالمية ، ففي هذا الفراغ المحزن ، لم يكن في وسع رئيس في طريق الرحيل عن الحياة ان يعمل ، ولا في وسع رئيس جديد ان يعرف ، ولم يكن القادة العسكريون ، ولا رجال وزارة الخارجية يتلقون التوجيه الذي يحتاجون اليه ، فالاوائل حصروا انفسهم في مجالاتهم المهنية ، والآخرون لـم يفهموا القضايا الخطيرة التي تنطوي عليها الاحتمالات ، وهكذا فقد التوجيه السياسي الذي لا مندوحة عنه ، في اللحظة التي كان الجميع في اشد الحاجة اليه ، ووقفت الولايات المتحدة على مسرح النصر مسيطرة على مصير العالم ، دون ان يكون لها تصميم صادق او منسجم ، اما بريطانيا فعلى الرغم من قوتها الكبيرة جدا ،

فقد كانت عاجزة عن تقرير الامن بشكل حاسم وحدها ، ولم يكن في وسعي في هذه المرحلة ان افعل غير التحذير والرجاء .

وهكذا فقد اصبحت هذه الذروة من النجاح الظاهري الذي لا حدود له من اكثر اللحظات ألما وشقاء على نفسي ، وكنت اسير بين الحشود الهاتفة او اجلس الى المائدة التي ازدانت برسائل التهاني والتبريك ، وقلبي ينصهر بالالم كما كان عقلي واقعا تحت كابوس من المخاوف والقلق .

فلقد جاء تحطيم القوة العسكرية الالمانية معه بتبدل جوهري في العلاقات بين روسيا الشيوعية والديموقراطيات الغربية ، فبعد ان تحطم عدوهما المشترك ، الذي كان هو الرباط الوحيد الذي يشدهما ويوحد بينهما ، بدأت الاستعمارية الروسية والعقيدة الشيوعية في فرض سيطرتهما المطلقة التي لا تحدها قيود .

وما كنت لاكتب هذه القصة الآن ، بعد ان اتضح كل شيء في ضوء النهار الساطع ، لو لم اكن آن ذاك اعرف كل شيء ، واحس بكل شيء عندما كان كل ما حولنا غامضا ، وكان النصر الذي حققناه ، يضاعف من هذه الظلمة الداخلية في القضايا الانسانية ، وانني اترك للقارىء وحده ان يحكم لنا او علينا .

الستـــار الحديدي

بعد ان مرت عدة اسابيع على مؤتمر يالته ، اتضح لنا ان الحكومة السوفياتية لم تنفذ ما اتفقنا عليه ، حول زيادة عدد رجال الحكومة البولندية ، لتشمل جميع الاحزاب البولندية ، والفريقين المتنازعين ، كما رفض مولوتوف أن يعطي رأيا في البولنديين الذين ذكرنا اسماءهم ولم يسمح لاي منهم بالمجيء حتى ولا الى مؤتمر تمهيدي على مائدة مستديرة وكان قد عرض علينا ارسال مراقبين الى بولندا ، الا اننا عندما ابدينا استعدادنا لذلك ، افزعه قبول هذا العرض السريع ، واحتج بأمور عدة ، منها ، ان هؤلاء المراقبين ، قد يقللون من سمعة الحكومة البولندية المؤقتة في لوبلين ، ولذا فان محادثات موسكو لم تحقق اي تقدم ، وكان الوقت الى جانب الروس وانصارهم من البولنديين الذين اخذوا يشددون قبضتهم على البلاد بمختلف الوسائل ، والاساليب ، التي لم يكونوا راغبين في اطلاع العالم الخارجي عليها عن طريق المراقبين .

وفي احدى الامسيات ، عندمـــا كنت اتحدث في مجلس العموم عن نتائج جهودنا في مؤتمر يالته ، وقع اول نقض لاتفاقاتنا في رومانيا من جانب الروس ، مع اننا كنا قد التزمنا في الاعلان الذي اصدرناه عن اوروبا المحررة ، والذي وقعناه قبل مدة قريبة ، بأن تضمن انتخابات حرة قيام حكومات ديموقراطية في البلاد التي تحتلها جيوش الحلفاء .

ولكن فيشنسكي الذي وصل الى بوخارست فجأة في السادس والعشرين من شهر شباط ، طلب في اليوم التالي ، مقابلة الملك ميخائيل واصر على وجوب طرد الحكومة الممثلة لجميع الاحزاب والتي تم تأليفها بعـد الانقلاب الملكي في شهر آب عـام ١٩٤٤ والتي قامت بطـرد الالمان من رومانيا ، الا ان الملك يؤيده وزير خارجيته فيسويانو اجل هذه الطلبات حتى اليوم التالي ، وعندما قام فيشنسكي بزيارة الملك ثانية رفض طلب الملك السماح له على الاقل باستشارة زعماء الاحزاب السياسية ، وضرب بقبضة يده على المائدة ، وصرخ طالبا الاذعان الفوري ثم خرج من الغرفة بعد ان رد الباب وراءه بعنف ، وفي هذه الاثناء انتشرت القوات السوفياتية بدباباتها في شوارع العاصمة ، وتولت الحكم والادارة التي اختارها الروس في السادس من شهر آذار .

وقد ازعجتني هذه الانباء كل الازعاج ، لانها كانت دليلا على ما يجب ان ننتظره من احداث ، لكننا لم نستطع الاحتجاج ، لانني كنت قد وافقت انا والمستر ايدن في اثناء زيارتنا لموسكو في شهر كانون الاول الماضي علـى ان تكون لروسيا الكلمة الاولى في رومانيا وبلغاريا ، وان

تكون لنا الكلمة الاولى في اليونان ، وكان ستالين قد حافظ باخلاص ودقة على هذا الاتفاق ، طيلة الاسابيع الستة التي دار فيها القتال ضد الشيوعيين وضد جيش التحرير « ايلاس » في مدينة اثينا .

وقد كنت آمل ، بعد ان عاد الهدوء والسلام الآن في اليونان ، اننا سنتمكن في الاشهر القليلة القادمة من اجراء انتخابات حرة نزيهة واننا بعد ذلك سنتمكن من ضمان قيام دستور وحكومة طبقا لارادة الشعب اليوناني التي لا تعارض ولا تقاوم .

ولكن ستالين كان يسير في البلدين الآخرين الواقعين على البحر الاسود على سياسة مغايرة تماما لسياستنا ، بل ومتعارضة تماما مع كل فكرة ديموقراطية ، وكان قد اقر على الورق مبادىء يالتة ، وها هو يدوس عليها بقدمه في رومانيا ، وكنت اخشى انني اذا ضغطت عليه ، أن يرد علي قائلا : « انني لم اتدخل في عملكم في اليونان ، فلماذا لا تعطونني الفرصة نفسها في رومانيا » ، كما كنت اخشى بصورة خاصة ، ان تقوم هذه الحكومة بعمليات تطهير عمياء ضد العناصر المعادية للشيوعية في رومانيا على غرار ما هو متبع الآن في بلغاريا .

وهكذا اخذت السياسة السوفياتية تزداد وضوحا يوما بعد يوم ، كما اخذ يتضح لنا ما تجنيه من فوائد ، عن طريق سيطرتها المطلقة التي لا رقابة عليها ولا اشراف على بولندا ، حيث طلب الروس ان تمثل بولندا في المؤتمر المقبل الذي ستعقده الامم المتحدة في سان فرانسيسكو ، وان يقتصر هذا التمثيل على حكومة لوبلين ، وعندما رفضت الدول الغربية هذا الطلب ، رفض السوفيات السماح لمولوتوف بحضور المؤتمر ، وكان هذا التطور يهدد اي تقدم في سان فرانسيسكو بل ويهدد الفكرة نفسها بالفشل ، وقد اصر مولوتوف على ان بلاغ يالتة لا يعدو ان يكون مجرد اضافة عدد صغير آخر من البولنديين الى الحكومة القائمة من « الدمى » الروسية ، واحتفظ في ان يستعمل « الفيتو » ضد ماجولاجيك ، وضد غيره من البولنديين الذين نقترح اسماءهم .

وفي هذه الاثناء كانت تدور بين الحكومتين البريطانية والامريكية من ناحية وبين السوفيات من ناحية اخرى رسائل اكثر مرارة واهمية تتناول قضية مختلفة كل الاختلاف عن هذه القضايا ، فقد ادى تقدم الجيوش السوفياتية وانتصارات اليكساندر في ايطاليا ، وفشل الهجوم الالماني المضاد في الاردين ، وزحف ايزنهاور على الراين ، الى اقناع جميع الالمان ما عدا هتلر ، وافراد بطانته الاقربين ، بأن استسلام المانيا اصبح امرا لا مفر منه ولا مناص ، وكان السؤال الذي يتوارد في خواطرهم ، ترى لمن يجب ان نستسلم ؟ ولما كان لم يعد في وسع المانيا ان تخوض حربا في جبهتين ، كما كان الصلح مع السوفيات امرا محالا كما هو الظاهر ، فلم يبق امامهم الا الحلفاء في الغرب ، وكانوا يسائلون انفسهم ، الا يمكن والحالة هذه ان تعقد هدنة مع بريطانيا وأمريكا ؟ فلو تمكنوا من عقد هدنة مع الغرب ، فان في وسعهم ان يركزوا قواتهم لوقف الزحف الروسي ، وكان هتلر وحده الذي يعارض في

ذلك ، حيث قد انتهى الرايخ الثالث ، وعزم على ان يموت معه ، وقد حاول عدد من اتباعه اجراء اتصالات سرية مع الحلفاء الغربيين ، ولكن جميع اقتراحاتهم رفضت بالطبع ، وكان شرطنا الوحيد الاستسلام بلا قيد او شرط في جميع الجهات ، كما سمح في الوقت نفسه لقوادنا في الميدان بصلاحيات مطلقة لقبول اية استسلامات عسكرية من جانب قوات العدو التي تواجههم ، وقد ادت المحاولة الى ترتيب ذلك ـ في الوقت الذي كنا لا نزال نحارب فيه على حوض الراين ـ الى سوء تفاهم بين الروس وبين الرئيس الامريكي الذي وقفت الى جانبه .

وقد ادركت على الفور ، ان شكوك الحكومة السوفياتية قد تثار من جراء استسلام عسكري منفصل في الجنوب يمكن جيوشنا من التقدم دون مقاومة الى فيينا والى ما وراءها ، وحتى الى نهر الالب وبرلين ويضاف الى هذا ، انه لما كانت جميع الجبهات المحيطة بالمانيا جزءا لا يتجزأ من حرب شاملة ضد المانيا ، فان الروس سيتأثرون بطبيعة الحال ، من اي عمل قد يقع في اية جبهة من هذه الجبهات .

وصدرت التعليمات الى سفيرنا في موسكو ، بابلاغ الحكومة السوفياتية ثانية ، ان الغرض الوحيد من الاجتماعات ، كان للتأكد من ان الالمان كانوا يملكون الصلاحيات للتفاوض على استسلام عسكري ، وان النية متجهة الى دعوة المبعوثين الروس للمجيء الى مقر قيادة الحلفاء في سايبسترا ، وقد نفذ السفير هذه التعليمات ولكن مولوتوف سلمه في اليوم التالي ردا تضمن الآتي : ـ

« كانت المفاوضات تدور في بون « خلال اسبوعين ، من وراء ظهر الاتحاد السوفياتي الذي يحمل وحيدا عبء الحرب ضد المانيا » ، بين ممثلين للقيادة العليا الالمانية من ناحية وممثلين للقيادتين الانكليزية والامريكية من الناحية الاخرى » .

وقد اوضح السير ارشيبالد كلارك كير بالطبع ، ان السوفيات قد اساءوا فهم ما وقع ، وان هذه المفاوضات لم تكن اكثر من مجرد محاولة لاختبار وثائق اعتماد الجنرال وولف وصلاحياته ، ولكن تعليق مولوتوف كان جافا ومهينا ، فقد كتب يقول « اذن ففي مثل هذه الحالة ، لا ترى الحكومة السوفياتية مجرد سوء تفاهم ، بل ما هو أسوأ من ذلك » ، كما حمل على الحكومة الامريكية بالاسلوب نفسه .

ولهذا فقد رايت من الضروري اطلاع كل من مونتغمري وايزنهاور على رسالة مولوتوف .

وقد انزعج الجنرال ايزنهاور انزعاجا شديدا من هذه الرسالة وبان عليه الغضب من جراء ما اعتبره تهما غير عادلة ولا اساس لها من الصحة ، وقال انه كقائد عسكري ، مستعد لقبول اي استسلام غير مشروط من اية مجموعة من قوات العدو في جبهته ، مهما كان حجم هذه المجموعة ، سواء كانت سرية او جيشا بأكمله وانه يعتبر هذا الموضوع قضية عسكرية بحتة ، وان لديه السلطات الكاملة لقبول مثل

هذا الاستسلام ، دون ان ينتظر معرفة رأي اي انسان ، اما اذا ظهرت مسائل سياسية ، فانه على استعداد لاستشارة الحكومات المعنية فورا ، كما اعرب عن خشيته من ان اقحام الروس في موضوع احتمال استسلام قوات كيسلرنغ وهو احتمال يستطيع هو ان يبت فيه بنفسه ، في غضون ساعة ، قد يؤدي الى اطالة امد المحادثات ثلاثة اسابيع او اربعة ، مما لا ينتج عنه الا شيء واحد ، وهو الحاق خسائر فادحة بقواتنا ، وأوضح انه سيصر في حالة وقوع استسلام ، ان تضع جميع القوات العاملة تحت امرة القائد طالب الاستسلام اسلحتها ، وأن تقف دون اي عمل الى ان تتلقى اوامر جديدة ، بحيث لا تتاح لها الفرصة ، للانتقال عبر المانيا لمقاومة الروس مثلا .

وتلقيت في الخامس من نيسان ، من الرئيس روزفلت ، النصوص المذهلة للمخابرات التي جرت بينه وبين ستالين .

فقد كتب ستالين يقول : « لا شك في انك محق كل الحق ، انه بالنسبة الى القضية المتعلقة بالمفاوضات بين القيادة الانجلو ـ امريكية ، والقيادة الالمانية ، في مكان ما ببون او في غيرها ، فان جوا من الشكوك والمخاوف يستحق الاسف ، قد خلق بيننا » .

« وانك لتصر على ان اية مفاوضات لم تدر بعد ، وقد يقال انك لم تطلع على الموضوع تماما ، او لم يطلعوك عليه ، ولكن زملائي من العسكريين لا يساورهم ادنى شك في ان المفاوضات قد وقعت فعلا ؛ وانها انتهت بالاتفاق مع الالمان على اساس قيام القائد الالماني في « الجبهة الغربية » الماريشال كيسلرنغ بفتح جبهته ، والسماح للقوات الانجلو ـ امريكية ، بالتقدم شرقا ، في حين وعد الانجلو ، امريكيون الالمان مقابل ذلك بتسهيل بنود الصلح وتخفيفها .

« وكنتيجة لهذا ، فان الالمانيين في الوقت الحاضر ، قد توقفوا فعلا عن الحرب ضد انكلترا والولايات المتحدة ، في حين هم يواصلون في الوقت نفسه الحرب ضد روسيا ، حليفة انكلترا والولايات المتحدة » .

وقد اغضب هذا الاتهام الرئيس روزفلت ، ولم تكن صحته لتسمح له بأن يكتب رده بنفسه ، فقام الجنرال مارشال بصياغة الرد الذي وافق عليه روزفلت ، وجاء فيه :

« ثقة مني بأنك لا تشك في استقامتي الشخصية ، وتصميما مني على الحصول معك على استسلام غير مشروط من النازيين ، يدهشني أن اسمع بأن الحكومة السوفياتية قد تسلط عليها الاعتقاد بأنني قد توصلت الى اتفاق مع العدو ، دون ان احصل مقدما على موافقتك التامة ، وأود ان اقول اخيرا : انها ستكون من اشد مآسي التاريخ ايلاما ، اذا كنا في ساعة النصر الذي اصبح في متناول ايدينا ، ثم يقوم بيننا مثل هذا الجو من عدم الثقة ، والافتقار الى الايمان ، مما يؤثر حتما على كل ما قمنا به بعد هذه التضحيات الكبيرة في الارواح والاموال والموارد .

وأود ان اصارحك بأنني لا استطيع ان اكتم الشعور بالسخط الشديد على مخبريك ، ايا كانوا ، على مثل هذا التشويه اللئيم لتصرفاتي وتصرفات مساعدي الموثوق بهم » .

❋❋❋

هذا وقد توفي الرئيس روزفلت فجأة بعد ظهر الخميس الثاني عشر من شهر نيسان عام ١٩٤٥ ، وعندما تلقيت هذا النبأ شعرت وكأنني قد اصبت بصدمة قوية على راسي ، واحسست بشعور عميق يغمرني للخسارة الفادحة التي لا تعوض ، وقد اقترحت على مجلس العموم ان نفض جلستنا اليوم اكراما لذكرى الفقيد العظيم .

وكان اول خاطر جال في فكري ، ان اطير الى واشنطن لحضور المأتم ، وفعلا اصدرت اوامري باعداد الطائرة ، وقد ابرق الي اللورد هاليفاكس يقول : ان هوبكنز وستينيوس قد تأثرا اشد التأثر من فكرتي بالمجيء ، ووافقا بحرارة على قراري ، الذي قد ينتج عنه الكثير من الخير ، كما طلب اليه المستر ترومان ابلاغي انه قدر شخصيا كل التقدير ان تتاح له الفرصة للقائي في اقرب وقت ممكن . وان اظل بعد تشييع الجثمان يومين أو ثلاثة لنتحدث معا » .

ومع ذلك فقد تعرضت لضغط هائل ، بألا اغادر البلاد في هذه الفترة الحرجة والكثيرة المصاعب ، ووجدت نفسي مرغما على الاذعان لرغبات اصدقائي ، اما الآن وعلى ضوء ما حدث بعد ذلك فانني لآسف اشد الاسف على تخلفي عن تلبية اقتراح الرئيس الجديد ، لانه لم يسبق لي ان اجتمعت به ، وانني لاشعر بأنه كانت هناك نقاط عدة يكون الحديث الشخصي بصددها مهما كل الاهمية ، ولا سيما اذا دارت هذه الاحاديث في أيام عدة ، ولم ترتجل ، او تتخذ شكلا رسميا مختصرا ، كما بدا لي « أن من الغرابة بمكان عظيم ، ولا سيما في بضعة الاشهر الاخيرة » ان روزفلت لم يحاول ان يجعل خلفه المحتمل مطلعا تمام الاطلاع على الاحداث كلها ، كما لم يقحمه مطلقا في القرارات التي كانت تتخذ في ذلك الحين ، وقد

برهنت هذه السياسة على ضرر كبير لحق قضايانا ، فليس ثمة وجه للمقارنة بين ان يقرأ الانسان الحوادث فيما بعد ، وبين ان يعيش فيها ساعة اخرى ، فكيف يمكن للمستر ترومان ان يعرف جميع القضايا ذات الخطورة ، ونحن في ذروة الحرب وان يزنها ؟ ولقد دل ما عرفناه عنه فيما بعد على انه رجل جريء وذو عزيمة وقادر على اتخاذ اخطر القرارات واعظمها ، الا ان مركزه في الاشهر الاولى كان صعبا كل الصعوبة ، ولم يمكنه من اظهار مواهبه البارزة الى حيز التنفيذ .

استسلام المانيا

انتهت حملاتنا في البحر الابيض المتوسط ، بانتصار مشرف ، وقد تولى اليكساندر القيادة العليا في شهر كانون الاول خلفا لويكسون ، كما تولى مارك كلارك قيادة مجموعة الجيوش الخامسة عشرة ، وبالنسبة للجهود المضنية التي بذلتها الجيوش في ايطاليا ، فقد اصبحت في حاجة الى التوقف لفترة تعيد فيها تنظيمها وتجديد روحها المعنوية وقوتها الهجومية .

وكانت المقاومة الالمانية الباسلة والطويلة ، والتي كانت غير متوقعة على جميع الجبهات ، قد جعلتنا نحن والامريكيين مفتقرين الى العتاد المدفعي ، كما ارغمتنا تجاربنا القاسية ، في حروب الشتاء في ايطاليا على تأجيل الهجوم العام حتى الربيع ، الا ان قوات الحلفاء الجوية بقيادة الجنرال كانون ظلت تقصف خطوط تموين الجيوش الالمانية حتى تم اغلاق الطريق المهم الممتد من فيرونا الى ممر برنر حيث كان هتلر وموسوليني يعقدان اجتماعاتهما في اماكن عدة طوال شهر آذار ، وقد تسبب اغلاق هذا الطريق في تأخير نقل الفرقتين الالمانيتين اللتين تقرر ارسالهما الى روسيا اكثر من شهر .

وكان لدى العدو كميات كافية من العتاد والمؤن ، ولكنه كان في حاجة الى الوقود ، وكانت وحداته لا تزال كاملة وروحها المعنوية عالية على الرغم من هزائم هتلر في الراين وعلى نهر الادور ، ويبدو ان القيادة العليا الالمانية ما كانت لتخشى الكثير لولا سيطرتنا الجوية ولولا اننا كنا نتمتع بزمام المبادرة ونستطيع ان نوجه الضربة حيث نشاء ، بينما كان الخط الدفاعي الذي اختاره الالمان سيئا ، اذ جعلوا نهر اليو الواسع وراء ظهورهم ، وكان من الافضل للالمان لو تخلوا عن شمال ايطاليا كلها وانسحبوا الى الخطوط الدفاعية المنيعة في الجبال ، حيث كان في استطاعتهم ان يصمدوا امامنا بقوات قليلة ، وان يبعثوا بما يتوافر لديهم من قوات الى الجبهات الاخرى .

ولكن الهزيمة التي لحقت بالالمان في جنوبي نهر اليو كانت بمثابة كارثة . ولا ريب في ان كيسلرنغ قد ادرك ذلك ، وهو ما حمله على المفاوضات التي سجلناها في الفصل السابق ، ولكن هتلر كان دائما العقبة الكأداء ، بدليل انه عندما اقترح فيتينغهوف الذي خلف كيسلرنغ في الانسحاب التكتيكي ، جاءه الرد الصارم من هتلر وقد قال فيه : « ان الفوهرر يتوقع الآن كما توقع دائما ان تؤدي بثبات وصلابة مهمتك الراهنة في الدفاع عن كل شبر من اراضي شمال ايطاليا ، وهي الاراضي التي أوكل اليك أمر الدفاع عنها » .

وقد شرع الجيش الثامن في هجومه مساء التاسع من نيسان بالغارات

الجوية ومدافع الميدان ، ولم يحل اليوم الرابع عشر من نيسان حتى كانت الانباء الطيبة قد وصلت من جميع انحاء الجبهة ، وقد تمكن الجيش الخامس بعد قتال عنيف استمر اسبوعا من الخلاص من المنطقة الجبلية وعبور الطرق الرئيسية الممتدة الى الغرب من بولونا ، ثم اتجه شمالا . وفي اليوم العشرين من نيسان امر فيتينفهوف قواته بالانسحاب متحديا اوامر هتلر ، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت ، حيث استمر الجيش الخامس في اندفاعه نحو نهر البو ، ومهدت له الطائرات طريق تقدمه ، حيث قطع خط الرجعة على ألوف الالمانيين الذين وقعوا في الفخ وانقطعت بهم السبل فوقعوا اسرى ولم تتمكن هذه البقايا التي خلفت وراءها جميع معداتها الثقيلة قبل عبور النهر من اعادة تنظيمها ، فقد طاردتها جيوش الحلفاء الى سفوح الاريج ، في حين كان رجال المقاومة الايطالية ينزلون المصاعب بالعدو في الجبال والمناطق الخلفية .

وفي الخامس والعشرين من نيسان ، صدرت الاوامر لقوات المقاومة باعلان الثورة العامة وفي الحال شرعت تشن هجمات واسعة النطاق وتمكنت من السيطرة على مدن مهمة كميلانو والبندقية وغدت عملية الاستسلام في شمال غربي ايطاليا بالجملة ، كما سلمت حامية جنوة المؤلفة من اربعة آلاف جندي نفسها الى ضابط ارتباط بريطاني والى قوات المقاومة .

وفي هذه الاثناء ، جاء وولف الى سويسرا ثانية بعد ان منحه فيتينفهوف السلطات الكاملة ، كما وصل رسولان آخران مفوضان الى مقر قيادة اليكساندر ، ووقعا في التاسع والعشرين من نيسان وثيقة الاستسلام غير المشروطة بحضور بعض الضباط البريطانيين والامريكيين والروسيين ، كما انه في الثاني من ايار استسلم نحو من مليون الماني كأسرى حرب وانتهت ــ باستسلامهم ــ الحرب في ايطاليا كلها .

وهكـذا انتهت حملتنا التـي استغرقت عشرين شهرا ، وكانت خسائرنا كبيرة إلا ان خسائر العدو كانت اعظم .

وجاءت النهاية لموسوليني ايضا ، ويبدو انه ظل كهتلر محتفظا بأحلامه وخيالاته ، حتى اللحظة الاخيرة ، فقام في نهاية ايار بآخر زيارة لشريكه الالماني ، ثم عاد لمقر قيادته على شاطىء بحيرة جاردا ، وقـد انتعشت في خاطره احلام الاسلحة السرية التي ستؤدي الى النصر ، ولكن سرعة زحف الحلفاء من جبال الابنين قد قضت على هذه الاحلام .

وقرر موسوليني في الخامس والعشرين من نيسان ان يحل ما تبقى من قواته المسلحة وان يطلب الى كردينال ميلانو ورئيس اساقفتها ان يرتب اجتماعا له مع اعضاء اللجنة السرية العسكرية لحركة التحرر الوطني الايطالية ، ودارت المحادثات في قصر الكردينال في ظهر ذلك اليوم ولكن موسوليني خرج غاضبا منه ، وفي المساء سار موسوليني على رأس قافلة تضم معظم الباقين من زعماء الفاشية الى دار الشرطة في كومو ، بعد ان ارتدى معطفا وخوذة من التي يرتديها الجنود الالمان ، ولكن دوريات رجال

المقاومة اوقفت القافلة وتعرف افرادها على موسوليني فوضعوا ايديهم عليه ونقلوه الى السجن ، كما اعتقل آخرون من بينهم عشيقته السنيورة بيتاتشي ، وحمل الدوتشي وعشيقته في اليوم التالي بأمر من الشيوعيين في السيارة الى خارج البلدة وقتلا ، ونقل جثماناهما الى ميلانو ، حيث علقا من الاقدام على خطافات اللحم في محطة بنزين في « بياز الي لورينو » ، وهكذا كانت خاتمة الديكتاتور الايطالي .

وقد واصلت الجيوش النازية زحفها في المانيا بقـوة ، واخذت المسافات بينها تضيق يوما بعد يوم ، وكان ايزنهاور في اوائل شهر نيسان قد اجتاز نهر الراين وأخذ يندفع الى المانيا واواسط اوروبا ضد عدو كان لا يزال يقاوم بضراوة في بعض الجهات ، وان كان عاجزا عن وقف زحفنا المظفر ، وكانت بولندا خارج نطاق امكاناتنا وكذلك كانت فيينا ، التي ضاعت فرصتنا في الوصول اليها قبل الروس ، عن طريق زحف سريع من ايطاليا قبل ثمانية اشهر ، عندما ضوعفت قوات الجنرال اليكساندر ، لتمكين حركة الانزال في فرنسا من النجاح ، وكان الروس قد زحفوا على المدينة من الشرق والجنوب وامتلكوها .

وقد بدا لي انه ليس هناك ما يحول بين الحلفاء الغربيين وبين احتلال برلين ، وكان الروس على بعد خمسة وثلاثين ميلا منها ، وكان الالمان قد تحصنوا في خنادقهم على نهر الادور ، وكان من المتوقع ان تدور معارك شديدة للغاية قبل ان يتمكن الروس من عبور النهر واستئناف الهجوم ، وكان الجيش الامريكي التاسع من الناحية الاخرى قد عبر نهر الالب على مقربة من مجدبورج وغدا على بعد ستين ميلا من برلين وتوقف هناك . وبعد اربعة ايام شرع الروس في هجومهم واتموا تطويق برلين في الخامس والعشرين من نيسان ، مع ان ستالين كان قد ابلغ ايزنهاور ان ضربته الرئيسية الثانية ضد المانيا، ستشن في حوالي النصف الثاني من شهر ايار، ولكنه تمكن من الزحف قبل شهر من الموعد الذي حدده ، ولعل في تقدمنا السريع نحو نهر الالب ، التفسير الصحيح لزحف الروس بمثل هذه السرعة .

وفي الخامس والعشرين من نيسان عام ١٩٤٥ ، التفت طلائع قوات الجيش الاول الامريكي القادمة من ليبزيغ بالقوات الروسية على مقربة من تورغاو على نهر الالب ، وهكذا تم شطر المانيا الى شطرين ، ورأينا الجيش الالماني ينحل امامنا ، وسقط في الاسر اكثر من مليون الماني في الاسابيع الثلاثة الاولى من شهر نيسان .

ولما كان الجنرال ايزنهاور يعتقد بأن النازيين المتعصبين سيحاولون الدفاع عن جبال بافاريا وغربي النمسا ، فقد اتجه بالجيش الامريكي الثالث جنوبا ، ودخل جناح الجيش الايسر الى تشيكوسلوفاكيا ، فوصل الى بوديفوفيك وبيلسين وكارلسباد واصبحت براغ في متناول ايدينا . ولم يكن هناك ما يحول دون احتلالها من الناحية العسكرية ، وقد اقترحت على ترومان ان يقوم ايزنهاور باحتلال العاصمة التشيكية ، ولكن ترومان عارض الفكرة ، وبعد اسبوع ابرقت شخصيا الى ايزنهاور بذلك ، ولكنه

رد علي بأنه اذا تطلب الوضع فقد يجتاز الحدود الى الخط العام الممتد من كارلسباد الى بيلسين فبوديغوفيك ، وقد وافق الروس على ذلك ، وبعد ان تحركت قوات ايزنهاور الى الخط الجديد ، عارض الروس بشدة في ان يستمر الجيش الامريكي الثالث في زحفه حتى نهر فولتافا ، الذي يمر عبر مدينة براغ ، وهكذا توقف الجيش الامريكي ، في حين ظهر الجيش الاحمر على الضفتين الشرقية والغربية لنهر مولداو واحتل مدينة براغ ، في التاسع من شهر ايار ، اي بعد يومين من التوقيع على الاستسلام العام في ريمز .

ولما كان موضوع احتلال الحلفاء الرئيسيين لالمانيا قد درس دراسة عميقة في صيف عام ١٩٤٣ بالاتفاق مع رؤساء اركان الحرب ، فقد تقرر ان تحتل المانيا بأكملها اذا أريد نزع سلاحها بصورة فعالة ، اما اذا اريد التخلص منها بتقسيمها ثلاث مناطق احتلال رئيسية متساوية حجما ، فيجب ان يحتل البريطانيون الشمال الغربي ، والامريكيون الجنوب والجنوب الغربي والروس المنطقة الشرقية ، كما يجب ان تكون مدينة برلين منطقة مشتركة منفصلة يحتلها الحلفاء الثلاثة ، وتم الاتفاق على هذه التوصيات وقدمت الى المجلس الاستشاري الاوروبي الذي كان يتألف من السفير السوفياتي المسيو جوسييف والسفير الامريكي المستر وينانت والسير ويليام سترانغ من وزارة الخارجية البريطانية .

وبدا الموضوع في ذلك الوقت مجرد شيء نظري ، فلم يكن في استطاعة اي انسان ان يتكهن آن ذاك كيف ومتى ستنتهي الحرب ، وكانت الجيوش الالمانية لا تزال تحتل مناطق واسعة من روسيا ، وكان لا بد ان يمضي عام واحد على الاقل قبل ان تضع الجيوش البريطانية والامريكية اقدامها في اوروبا الغربية ، وعامان قبل أن تدخل هذه الجيوش المانيا ، وهكذا ظلت هذه الاقتراحات كغيرها موضوعة على الرف ، وكانت الفكرة السائدة في تلك الايام أن روسيا لن تستمر في الحرب بعد ان تستعيد حدودها السابقة ، وكان على الحلفاء الغربيين ان يبذلوا جهودا ضخمة لاقناع الروس بعدم التراخي في مجهودهم ، ولهذا فان موضوع الاحتلال الروسي لالمانيا لم يتبلور في افكارنا ولا في المحادثات البريطانية الامريكية ، كما لم يثر في اجتماع الكبار الثلاثة في طهران .

وعندما اجتمعنا في القاهرة في طريق عودتنا الى الوطن في تشرين الاول عام ١٩٤٣ ، أثار رؤساء اركان الحرب الامريكيون الموضوع ، ولكن لم تكن اثارتهم اياه بناء على طلب من روسيا ، وقد ظلت مسألة الاحتلال الروسي لالمانيا ، لا تعدو ان تكون امنية او خيالا ، كما انه قد قيل لي ان الرئيس روزفلت رغب في ان يغير وضع احتلال المنطقتين البريطانية والامريكية في المانيا ، لكي تكون طرق مواصلات القوة الامريكية في المانيا مستندة الى البحر مباشرة ولا تمر عبر فرنسا ، ولم نتوصل الى قرار ، وكان من رأي اركان حرب القيادة البريطانية ان الخطة الاصلية هي الافضل ، كما كان يشاطرهم زملاؤهم الامريكيون في هذا الرأي ، وقد توصلنا في مؤتمر كويبك في ايلول عام ١٩٤٤ الى اتفاق ثابت بيننا .

وعندما اقتنع الرئيس بهذا الرأي العسكري ، اشترط ان تتمكن الجيوش الامريكية من الحصول على منفذ قريب الى البحر ضمن منطقة الاحتلال البريطاني ، واتفقنا على ان بريمن وضاحيتها بريمن هافن ، تفيان بهذا الغرض وبمتطلبات امريكا ، وتقرر ان يعهد الى القوات الامريكية بالاشراف عليها .

وقد قبلت الخطة التي وضعناها في كويبك في مؤتمر يالته الذي عقدناه في شهر شباط عام ١٩٤٥ ، دون اية دراسة ، وتركنا البحث الشامل فيها الى معاهدة الصلح ، كما اقترحنا ايضا ان نتفق على مناطق الاحتلال في النمسا ، ووافق ستالين بعد جهود كبيرة بذلتها لاقناعه ، على ان تعطي للفرنسيين منطقة احتلال ضمن المنطقتين البريطانية والامريكية وان نعطي لها مقعدا في مجلس الاشراف الحليفي ، وكان مفهوما للجميع ان هذا الاتفاق على مناطق الاحتلال ، يجب الا يعرقل سير الحركات العملية لجيوش الحلفاء ، وان يكون في وسع اي جيش ان يحتل برلين او براغ او فيينا اذا وصل اليها قبل غيره ، وعندما افترقنا في شبه جزيرة القرم ، لم نفترق كحلفاء فحسب بل كأصدقاء ، نواجه عدوا ما زال قويا .

وشهد الشهران اللذان تليا ذلك الاجتماع تبدلا هائلا نفذ الى اعماق تفكيرنا ، حيث كان قد تقرر مصير المانيا الهتلرية ، حيث كان الروس يحاربون داخل برلين نفسها كما اضحت فيينا ومعظم اجزاء النمسا في أيديهم ، وأصبحت العلاقات بين روسيا وبين الحلفاء الغربيين في حالة سيئة من التوتر ، وظلت كل قضية تتعلق بالمستقبل قائمة لا حل لها بيننا ، وقد طرح الكرملين المنتصر الظافر جانبا ، كل ما اتفقنا عليه او تفاهمنا بشأنه في يالته ، وبرزت مخاطر جديدة لا تقل فظاعة عن تلك التي تغلبنا عليها ، على العالم الممزق المتعب .

وقد زاد قلقي لهذه التطورات المنذرة بالشر ، حتى قبل وفاة الرئيس روزفلت ، وكان هو بدوره ايضا قد احس بالقلق والاضطراب ، وقد سجلت في هذا الكتاب ما احس به من غضب بسبب اتهامات مولوتوف بشأن اتصالات برن . وعلى الرغم من زحف جيوش ايزنهاور الظافرة ، فقد وجد الرئيس ترومان نفسه في النصف الاخير من شهر نيسان ، يواجه ازمة ضخمة ، وكنت احاول منذ مدة ان ابصر الحكومة الامريكية بالتبدلات الهائلة التي اخذت تطرأ على المسرحين السياسي والعسكري .

وكان الجنرال ايزنهاور قد اقترح ، انه في الوقت الذي تعطى فيه الحرية للجيوش من الشرق والغرب ، بالزحف والتقدم دون اعتبار مناطق الاحتلال وان في وسع هذه الجيوش بعد ان يتم اتصالها في اية منطقة ، ان تنسحب الى ما وراء حدود مناطق الاحتلال المقررة ، كما تعطى الصلاحيات لتوجيه طلبات الانسحاب ولاصدار الاوامر المتعلقة بها ، الى قواد مجموعات الجيوش ، وبذلك تتم عمليات الانسحاب وفقا لمقتضيات العمليات الحربية ، وقد رأيت ان هذا الاقتراح سابق لاوانه ، وانه يتجاوز الاحتياجات العسكرية الفورية .

وعلى ضوء هذا الرأي وجهت رسالة في الثاني عشر من نيسان الى الرئيس الجديد المستر ترومان ، ولما كان الرئيس حديث عهد بكل هذه المشكلات التي تواجهنا ، فقد كان من الطبيعي بالنسبة له ، ان يلجأ الى مستشاريه ، ولهذا فقد احرزت الفكرة العسكرية المجردة ، تأكيداً وتأييدا اكثر مما تستحقه ، وقد ابرقت اليه اقول :

« انني على أتم استعداد للتقيد بمناطق الاحتلال ، ولكنني لا احب ان ارى قوات الحلفاء والقوات الامريكية ، ترغم على الرجوع في أية نقطة ، تلبية لطلبات سخيفة من قائد روسي محلي ، وارى ان يتفق على هذا بين الحكومات ، بحيث تتوافر لايزنهاور الفرصة ليقرر فورا وفي المنطقة نفسها ، الاجراء الذي يجب ان يتخذ وفقا لطريقته .

« ولما كان قد اتفق على مناطق الاحتلال بصورة عاجلة في كويبك في شهر ايلول عام ١٩٤٤ ، عندما لم نكن نتوقع أن تتمكن جيوش الجنرال ايزنهاور من احراز هذا التوغل العميق داخل المانيا ، وليس في الامكان تبديل هذه المناطق الا عن طريق الاتفاق مع الروس ، الا انه في الوقت الذي يتم فيه النصر النهائي في اوروبا ، يجب علينا ان نحاول فورا وفي اليوم نفسه اقامة مجلس الاشراف الحليف في برلين ، وان نصر على توزيع عادل للمواد الغذائية التي تنتجها المانيا على جميع اجزاء البلاد ، وقد كانت منطقة الاحتلال الروسي في الوقت الحاضر ، تنتج اكبر نسبة من المواد الغذائية في حين ان عدد سكانها كان ضئيلا ، بالنسبة لغيرها من المناطق ، كما لا يملك الامريكيون نسبة كافية من المواد الغذائية في مناطقهم تكفي لاهلها ، اما نحن البريطانيين المساكين ، فسنأخذ ما تبقى من حطام حوض الروهر والمناطق الصناعية الاخرى التي تعتمد مثلنا في الاوقات العادية على ما تستورده من كميات ضخمة من المواد الغذائية » .

ولما كان المستر ايدن في واشنطن ، فقد وافق تماما على آرائي التي بعثت بها برقيا اليه ، ولكن رد المستر ترومان ، لم يتقدم بنا خطوة واحدة الى الامام ، فقد اقترح ان تنسحب قوات الحلفاء ، من المناطق المتفق على احتلالها في المانيا والنمسا ، عندما تسمح الاوضاع العسكرية بهذا الانسحاب .

وكان هتلر يفكر في اثناء ذلك في المكان الذي يجب ان يقف فيه وقفته الاخيرة ، وكان حتى العشرين من نيسان لا يزال يفكر في مغادرة برلين « واللجوء » الى حصنه في الجنوب في جبال الالب البافارية ، وقد عقد في ذلك اليوم اجتماع شهده كبار القادة النازيين .

ولما كانت الجبهة الالمانية المزدوجة في الشرق والغرب ، قد اصبحت معرضة للانقطاع والانشطار شطرين بسبب اندفاع الحلفاء من الناحيتين فقد وافق على اقامة قيادتين منفصلتين ، وعهد الى الاميرال دونتس بأن يتولى المسؤولية العسكرية والمدنية في الشمال ، وأن يكون مكلفا باعادة مليوني لاجيء الماني من الشرق الى الاراضي الالمانية ، اما في الجنوب فقد تقرر أن يتولى الماريشال كيسلرنغ قيادة ما تبقى من الجيوش الالمانية ، كما تقرر ان يشرع في تنفيذ هذه المخططات عقب سقوط برلين .

وفي الثاني والعشرين من نيسان ، اتخذ هتلر قراره الاخير والخطير بالبقاء في برلين حتى النهاية ، وفي الحال أتم الروس تطويق العاصمة ، بعد ان فقد الفوهرر كل قدرة على السيطرة على الاحداث ، وقد اعلن لمن تبقى من الزعماء النازيين معه بأنه سيموت في برلين ، وكان غورنغ وهملر قد غادرا برلين بعد مؤتمر العشرين من نيسان ، وقد طافت برأسيهما افكار التفاوض لعقد الصلح واتجه غورنغ الى الجنوب ، وافترض ان هتلر قد تنازل عن سلطاته ببقائه في برلين وقد طلب منه تأكيدا رسميا بأن يكون خليفته ، وكان رد هتلر ، أن طرده من جميع مناصبه ، وبعدها وقع اسيرا هو ومائة من كبار قادة السلاح الجوي الالماني في ايدي القوات الامريكية .

ولم يبق مع هتلر من كبار شخصيات العهد الا جوبلز وبورمان حتى النهاية ، وكانت القوات الروسية ، قد بدأت تقاتل في شوارع برلين ، وفي الساعات الاولى من صباح التاسع والعشرين من نيسان كتب وصيته الأخيرة ، واستمر يؤدي أعماله العادية في الملجأ الموجود تحت دار المستشارية الى ان وصلته الانباء عن نهاية موسوليني ، وبعد ان تناول غداءه في اليوم الثلاثين صافح افراد حاشيته ، ثم انسحب الى غرفته الخاصة . وانتحر بمسدسه ، وكانت بجواره ايفا براون ــ التي كان قد تزوجها سرا ــ بعد ان تناولت السم وتم احراق الجثتين في باحة المستشارية ، وكانت نهاية مؤلمة للرايخ الالماني .

هذا ، وقد عقد من تبقى من القادة النازيين مؤتمرا اخيرا ، وحاولوا التفاوض مع الروس ، الا أن جوكوف طلب الاستسلام بلا قيد ولا شرط وفي الحال أختفى بورمان دون أن يترك اثرا ، وقتل جوبلز أولاده الستة بالسم ، ثم امر رجال حرسه باطلاق النار عليه وعلى زوجته ، ووقع من تبقى من رجال مركز قيادة هتلر اسرى في ايدي الروس .

وصلت الى الاميرال دونتس تلك الليلة البرقية التالية :ــ

« لقد عينك الفوهرر ، ايها الاميرال الاكبر ، خلفا له ، بدلا من ماريشال الرايخ السابق جورنغ ، وسيصلك الخطاب الرسمي ، اذ هو في الطريق اليك ، وعليك أن تتخذ فورا جميع الاجراءات التي يتطلبها الموقف ، بورمان » .

وكان دونتيس على اتصال بهملر ، وقد سيطرت الفوضى ، فأخذ يعد العدة لتنظيم امر الاستسلام .

اما هملر ، فكان قد ذهب الى الجبهة الشرقية واخذ يجري اتصالات شخصية موعزا بها مع الحلفاء الغربيين ، مؤملا الوصول الى صلح منفرد ، منذ عدة اشهر ، وقد جدد الآن المحاولة عن طريق الكونت برنادوت رئيس الصليب الاحمر السويدي ولكن عروضه رفضت كلها فاختفى ولم يسمع عنه شيء ، الى ان قبض عليه متنكرا وعند ذلك تناول قارورة من سم السيانيد فمات لتوه .

اما نهاية المسرحية في الشمال الغربي فكانت اقل اثارة ، فقد وصلت انباء الاستسلام في ايطاليا في الثاني من ايار ، وكانت قواتنا قد وصلت الى لوبيك الواقعة على البلطيق ، واتصلت بالروس ، فقطعت خط الرجعة على القوات الالمانية الموجودة في الدانمارك والنرويج ، ووصلنا في الثالث من ايار مدينة همبورغ دون مقاومة ، واستسلمت الحامية دون قيد او شرط ، وبعد ذلك وصل وفد الماني الى مقر قيادة مونتغمري في لونبرغ هيث ، برئاسة الاميرال فريدبرغ الذي حاول الوصول الى اتفاق باستسلام يشمل القوات الالمانية في الشمال التي تواجه الروس ايضا ، وقد وقع وثيقة الاستسلام لجميع القوات الالمانية في شمال غربي المانيا وهولندا والجزر وشلزويغ هولشتين والدانمارك .

وتوجه فريدبرغ الى مقر قيادة ايزنهاور في ريمز حيث انضم اليه الجنرال بودول في السادس من ايار ، الذي اصر على استسلام كامل ، وقد وقع فريدبرغ وثيقة الاستسلام الكلي في صباح السابع من ايار ، كما وقع عليها اللفتنانت جنرال بيدل سميث والجنرال بودل وشهد عليها قائدان « فرنسي وروسي » ، وبذلك اوقفت جميع الاعمال الحربية في منتصف ليل الثامن من ايار ، وتم التصديق الرسمي من قبل القيادة العليا الالمانية في برلين طبقا للترتيبات التي وضعها الروس في التاسع من ايار ، ووقع الوثيقة قائد عام القوات الجوية بندر بالنيابة عن ايزنهاور والماريشال جوكوف بالنيابة عن الروس والماريشال كاتيل بالنيابة عن المانيا .

وعندما اصدر دونتيس اوامره بالاستسلام كانت هناك تسع واربعون غواصة في عرض البحر ، وقد استسلم نحو من مائة غواصة في الموانيء ، في حين قام البحارة الالمان بتخريب نحو من مائتين وعشرين غواصة قبل الاستسلام . ولا ريب ان هذه الارقام تقوم دليلا على اصرار المانيا في جهودها وعلى مدى احتمال سلاح الغواصات الالماني ، كما خسر الالمان في ثمانية وستين شهرا من القتال سبعمائة وواحدة وثمانين غواصة.

وبعد استسلام العدو بلا قيد او شرط ، احس الظافرون والخاسرون على حد سواء ، براحة لا توصف ، اما بالنسبة الينا في بريطانيا والامبراطورية البريطانية ، اذ كنا الوحيدين الذين خضنا الحرب من اول يوم فيها حتى آخر يوم ، فلقد كان هناك معنى لانتهاء الحرب ، يفوق المعنى الذي يحمله بالنسبة لاقوى حلفائنا واكثرهم بسالة .

وعندما طلب الي ، ان اتحدث الى الامة وجهت اليها الكلمة التالية :

« كم كان بودي ان ابلغكم الليلة ، ان جميع متاعبنا ومشكلاتنا قد انتهت ولو كان في استطاعتي ابلاغكم ذلك لكان في امكاني ان انهي خدمتي التي استمرت خمس سنوات ، ولكن ارى لزاما علي ، ان احذركم كما حذرتكم من قبل عندما تسلمت هذه الاعباء ، بانه ما زال امامنا الكثير لنفعله ، وان عليكم ان تستعدوا لجهود اخرى بدنية وعقلية ولاحتمال تضحيات ثابتة في سبيل القضايا العظيمة ، فعليكم الا تضعفوا ولا تهنوا بأي شكل من الاشكال ، في يقظتكم وحذركم وانتباهكم ، ومع ان افراح

الاعياد ضرورية للروح الانسانية ، الا انه يجب ان تضفي عليها القوة والمرونة ، لكي يعود كل رجل وامرأة الى العمل الذي يجب أن يعمله .

فما زال علينا في القارة الاوروبية ان نتأكد من ان الاهداف النبيلة والبسيطة التي خضنا غمار الحرب من اجلها لن يكون مصيرها التجاهل في الاشهر التي تلي النصر ، وان كلمات الحرية والديموقراطية والتحرير لن تفقد معانيها الحقيقية كما فهمناها ، ولن يكون كبير جدوى من عقاب الهتلريين على جرائمهم اذا لم يقم حكم القانون والعدالة في اوروبا ، واذا قدر للحكومات الجماعية او البوليسية ان تحل محل الغزاة الالمان .

« وعلينا الا ننسى ابدا ان هناك اليابان على الرغم من قوتها المنهارة ، وضعفها ، تمثل مائة مليون من الناس ، لا يرى المحاربون منهم في الموت ما يفزع او يخيف ، وليس في وسعي في هذه الليلة ان احدد لكم الوقت او الجهود التي سنحتاج اليها لأرغام اليابانيين على اصلاح ما ارتكبوه بغدرهم وفظاعتهم ، فنحن ، مثل الصين التي أحتملت ما احتملته من اضرار فظيعة دون ان يطرأ عليها وهن او ضعف ، ونحن ملتزمون بأحكام الشرف ، وروابط الولاء الاخرى للولايات المتحدة ان نمضي في هذه الحرب العظيمة ، في ذلك الطرف النائي من العالم الى جانبها دون ضعف او تردد ، وعلينا أن نتذكر ان استراليا ونيوزيلندا وكندا كلها مهددة تهديدا مباشرا من هذه القوة الشريرة ، وهذه الدول من ممتلكاتنا المستقلة تهب لنجدتنا في أحلك ظروفنا ، وعلينا الا نترك اية مهمة تتعلق بسلامتها ومستقبلها غير ناجزة ، وسأكون غير جدير بثقتكم وبكريم عواطفكم اذا لم اواصل النداء لكم قائلا : الى الامام ، دون تردد ودون خوف ، ودون لين ودون هوادة ، الى ان تكملوا واجبكم كله ، والى أن يصبح العالم كله آمنا مطمئنا وخاليا من كل شائبة » .

بـــدء الانفصام

كان القلق من المستقبل ، وغيره من مشاعر الخوف تملأ جوانحي ، وانا انتقل بين الجماهير المحتفلة بالنصر الذي استحقوه عن جدارة ، بعد تلك المصائب التي اجتازوها ومروا بها وبدا لمعظمهم ان خطر هتلر قد اختفى بعد ان استسلم العدو الهائل ، الذي قاتلوه اكثر من خمس سنوات دون قيد او شرط ، وكل ما بقي هناك امام الدول الظافرة الثلاث ، هو ان تضع سلاما عادلا ودائما تحرسه منظمة عالمية ، لكي يدخل العالم في عصر ذهبي من الرخاء والازدهار .

ولكن كان هناك جانب آخر من الصورة ، فاليابان لم تستسلم بعد ، والقنبلة الذرية لم تخلق بعد ، وكان العالم يعيش في اضطراب وارتباك ، فقد اختفت تلك الوشيجة العظيمة من الخطر المشترك ، التي كانت تربط بين الحلفاء ، بين عشية وضحاها .

اما أنا فقد رأيت ان الخطر الشيوعي قد حل محل الخطر النازي، مع فارق واحد ، هو عدم وجود روح من التحالف والزمالة ضده ، كما اختفت ايضا في الوطن اسس الوحدة القومية التي قامت عليها الحكومة القومية ، في اثناء الحرب قوية ثابتة ، ولم يكن في وسعي ان اخلص عقلي من الخوف ، لان جيوش الديموقراطية الظافرة ستتفرق عما قريب ، مع ان اقسى التجارب والاختبارات واكثرها حقيقة ووقعا ما زالت امامنا .

وكان همي الاول منصرفا الى عقد اجتماع آخر للثلاثة الكبار ، وكنت آمل في ان يأتي الرئيس ترومان الى هذا الاجتماع عن طريق لندن لنلتقي ، اولا ، وكانت هناك كما سيرى القارىء ، آراء مخالفة تماما ، تضغط بها جهات ذات نفوذ في واشنطن على الرئيس الجديد ، وكان يقال ان على الولايات المتحدة ، ان تكون حريصة كل الحرص ، فلا تسمح لاحد بأن يجرها الى خلاف او عداء مع روسيا السوفياتية ، لان مثل هذا العداء سيحفز المطامع البريطانية على الظهور ، ويخلق هوة جديدة في اوروبا ، وعلى السياسة الامريكية من الناحية الاخرى ، ان تقف وسطا بين بريطانيا وروسيا ، كوسيط صديق او كحكم ، وان نحاول التقليل من خلافاتهما حول بولندا والنمسا ، وان تساعد على تهيئة الاوضاع والوصول بها الى سلم هادىء سعيد ، لتمكين القوات الامريكية من التركيز ضد اليابان ، ويبدو ان ضغط هذه الآراء على ترومان كان قويا للغاية ، ولم يكن في وسعي بطبيعة الحال ، ان اقدر القوى التي تعمل في الجهاز الحساس لاقرب حلفائنا الينا ، وان كنت قد شعرت بها ، وكان في وسعي فقط ان احس بالمظاهر الهائلة للاستعمارية الروسية السوفياتية وهي تقتحم طريقها في اراض لا حول لها ولا قوة .

وقد ابرقت للرئيس بعد ثلاثة ايام من استسلام المانيا اقترح عليه دعوة ستالين الى مؤتمر ، واضفت اقول : « وآمل حتى يعقد هذا المؤتمر املا كبيرا ، الا تنسحب الجبهة الامريكية عن الخطوط التكتيكية المتفق عليها الآن » . وقد رد الرئيس فورا ، بأنه يؤثر ان يصدر اقتراح الاجتماع عن ستالين ، وانه يأمل في ان يتمكن سفيرانا في موسكو من اقناعه بذلك ، كما اعلن المستر ترومان بعد ذلك ان علينا ان نذهب انا وهو الى المؤتمر منفردين ، تجنبا لاثارة الشكوك في نفس ستالين عن تكتلنا ضده واعرب عن امله في ان يزور انكلترا بعد انتهاء المؤتمر اذا سمحت له ظروفه وواجباته في امريكا بمثل هذه الزيارة ، وقد ادركت فورا ما تنطوي عليه هذه البرقية من اختلاف في وجهات النظر .

وقد بعثت الى الرئيس ترومان بالبرقية التالية وارى ان يحكم القارىء علي وعلى آرائي ، على ضوء ما ورد فيها :

« انني اشعر بقلق عميق ، من جراء الوضع في اوروبا ، وقد علمت ان نصف القوة الجوية الامريكية في اوروبا قد انسحب الى مسرح العمليات بالمحيط الهادي ، والصحف ملأى بأخبار تحركات الجيوش الامريكية العظيمة خارجة من اوروبا ، ومن المحتمل ان تمر جيوشنا وفقا لترتيبات سابقة ، في مرحلة مماثلة من التخفيض الواضح ، وسينسحب الجيش الكندي ، أما الجيش الفرنسي فضعيف ، ومن الصعب التعامل معه ، وفي وسع كل انسان ، ان يرى أنه بعد وقت قصير جدا ، ستختفي قواتنا المسلحة من القارة الاوروبية ، باستثناء قوات صغيرة سيحتفظ بها للسيطرة على المانيا .

ولقد سعيت دائما لتوثيق اواصر الصداقة مع روسيا ، ولكنني اشعر ، كما تشعر انت ، بالقلق العميق من سوء تصويرهم لقرارات يالته ومن موقفهم تجاه بولندا . ومن نفوذهم الطاغي في البلقان كله باستثناء اليونان ، ومن المشكلات التي يخلقونها في فيينا ، ومن الدمج بين السيطرة الروسية ، وبين البلاد التي تقع تحت احتلالهم او اشرافهم ، ومن الاساليب الشيوعية التي تتبع في بلادة عدة ، وفوق ذلك كله قدرتهم على الاحتفاظ بجيوش ضخمة على هذا النحو في الميدان الى مثل هذا الامد الطويل ، ويجوز لي ان أتساءل : ماذا سيئول اليه الوضع بعد سنة او سنتين عندما تذوب الجيوش البريطانية والامريكية من القارة ولا تكون الجيوش الفرنسية قد نظمت امرها بعد على نطاق واسع ، فلا تبقي لنا سوى بعض فرق معظمها فرنسي ، تواجه مائتين ، او ثلاثمائة فرقة آثرت روسيا الابقاء عليها في الخدمة الفعلية ؟ ..

ان ستارا حديديا يسدل الآن على الجبهة الروسية ، فنحن نجهل ما يدور وراء هذا الستار ، ولا يبدو ان هناك مجالا للشك في ان جميع المناطق الواسعة الى الشرق من خط لوبيك ــ تريستا ــ كورفو ، ستصبح بعد قليل في ايدي الروس ، ومن الواجب ان نضيف الى هذه المنطقة ، المساحات الشاسعة التي احتلتها الجيوش الامريكية بين ايزناخ ونهر الالب ، والتي ستنسحب منها بعد اسابيع ، لتأتي الجيوش الروسية

فتحتلها بعد انسحاب الامريكيين ، ولذلك فانه يجب على الجنرال ايزنهاور ان يتخذ اقصى ما يمكنه من الترتيبات للحيلولة دون فرار جماعي من جانب السكان الالمان في اتجاه الغرب عندما يشرع « الموسكوبون » في هذا الزحف الضخم الجديد الى اواسط اوروبا ، وهكذا فان الستار الحديدي سيعود ليسدل من جديد على مئات الاميال من الاراضي وهكذا سيقوم حزام عريض يفصل بيننا وبين بولندا ..

وفي هذه الاثناء سينحصر تفكير شعبينا في توقيع العقوبات على المانيا ، التي تحطمت وتدمرت ، وسيكون في وسع الروس بعد وقت قصير ان يتقدموا اذا شاءوا الى مياه بحر الشمال والمحيط الاطلنطي .

وأرى لزاما علينا ، ان نصل فورا الى تفاهم مع روسيا ، او نجد لنا معها حلا ، وذلك قبل ان تضعف جيوشنا ، أو تنسحب الى مناطق الاحتلال المتفق عليها سابقا ، ولا يمكن ان يتم هذا الا عن طريق اجتماع شخصي ، وأكون جد ممتن لو بعثت الي برأيك ومشورتك ..

وبالطبع يمكننا ان نفترض ان روسيا ستسلك سلوكا منزها عن الخطأ ، ومثل هذا السلوك سيضمن حتما احسن الحلول المناسبة ، واود ان اختصر رسالتي فأقول : ان قضية تسوية الامور مع روسيا ، قبل ان نخفض قواتنا ، هي من الاهمية بحيث تتضاءل امامها جميع القضايا » .

وفي الثاني والعشرين من ايار ابرق الي الرئيس يقول : انه قد اوفد المستر جوزيف ديفيز ، ليقابلني قبل انعقاد المؤتمر الثلاثي ، وليبحث معي بعض القضايا التي يؤثر عدم معالجتها عن طريق البرقيات .

وقد كان المستر ديفيز سفيرا لامريكا في موسكو قبل الحرب ، وكان من المعروف عنه انه من المؤيدين للنظام القائم ، وأعددت الترتيبات لاستقباله فورا ، وقد قضى معي ليلة السادس والعشرين في تشيكرز ، ودار بيننا حديث طويل ، وكان اهم ما قاله ان على الرئيس ان يجتمع بستالين اولا في مكان ما في اوروبا ، قبل ان يجتمع الي ، وقد ادهشني هذا الاقتراح كل الدهشة حقا ، كما لم يكن تعبير « التكتل » الذي استخدمه الرئيس في رسائله السابقة قد اعجبني ، عندما كان يصف اي اجتماع احب ان يعقده معي .

ولقد كانت بريطانيا والولايات المتحدة ترتبطان بوشائج من المبادىء والاتفاق على السياسات في نواح واتجاهات عدة ، وكنا معا على خلاف عميق مع السوفيات في العديد من القضايا المهمة ، ولذا فان عقد اي اجتماع بين الرئيس الامريكي ورئيس الوزارة البريطانية للبحث والنقاش على ضوء هذه الاسس المشتركة ، كما كان يجري دائما في ايام الرئيس روزفلت ، لم يكن ليستحق تسمية شبيهة بهذه التسمية التي تطلق على « التكتل » لمقاصد الشر وتأليف العصابات ، ومن الناحية الثانية ، فان تجاوز الرئيس الامريكي لبريطانيا العظمى ، واجتماعه برئيس الدولة السوفياتية التي كنا نحن والامريكيون متحدين تجاهها — ولم يكن في وسعي ، تحت أي ظروف ، ان اوافق عليه — يمكن اعتباره اساءة ، مهما

كانت غير مقصودة ، وعارضت في مجرد الفكرة القائلة بأن الخلافات القائمة هي بين بريطانيا وروسيا ، وأكدت ان الولايات المتحدة يجب ان تكون معنية بهذه القضايا عنايتنا بها ، وقد اوضحت هذه النقطة بجلاء للمستر ديفيز في حديثي معه ، وتجنبا لاي سوء فهم او تفسير في هذا الموضوع ، أعددت له وثيقة رسمية تضمنت وقائع الحديث الذي دار بيننا ، وقد قرأ الرئيس هذه الوثيقة بروح من الود والتفاهم .

ولما ابلغني الرئيس ترومان في الاول من شهر حزيران بأن الماريشال ستالين موافق على عقد اجتماع لمن يسميهم « الثلاثة » على ان يتم في برلين حوالي الخامس عشر من تموز ، فقد اجبته فورا باستعدادي للذهاب على رأس وفد بريطاني الى برلين ، ولكنني اكدت له ان الموعد الذي يقترحه متأخر جدا بالنسبة للقضايا التي تتطلب سرعة البت ، وقلت : اننا سنسيء الى الآمال التي يعلقها العالم علينا ، والى الوحدة العالمية ، كما ابرقت ايضا الى الرئيس اقول : —

انه على الرغم من انني اخوض معركة انتخابات حامية الوطيس ، الا انني لا ارى ان واجباتي في المعركة يمكن ان تقارن بالمهام المترتبة على اجتماع نعقده ثلاثتنا ، واذا لم يكن الخامس عشر من حزيران مناسبا ، فلماذا لا نجتمع في اليوم الاول او الثاني او الثالث من تموز ، وقد رد علي المستر ترومان يقول : انه بعد دراسة الاوضاع كلها تبين له ان الخامس عشر من تموز ، هو اقرب موعد يستطيع ان يحضر فيه الى الاجتماع ، كما ان ستالين لم يكن راغبا في عقد الاجتماع في موعد قريب .

وكان السبب الرئيسي الذي حداني للاسراع في الاجتماع ، هو ان يقع قبل انسحاب الجيش الامريكي من الخط الذي وصل اليه في القتال الى المنطقة التي خصصت للاحتلال الامريكي بموجب الاتفاق السابق ، وكنت اخشى أن تتخذ واشنطن قرارا بتسليم هذه المنطقة الهائلة التي تبلغ اربعمائة ميل طولا ومائة وعشرين ميلا عرضا ، وتضم عدة ملايين من الالمان والتشيكيين ، وان مجرد التخلي عن الارض سيوسع الفجوة بيننا وبين بولندا ، وسيقضي على كل سلطة او قدرة لنا على تغيير مصيرها ، فالموقف المتبدل الذي تقفه روسيا منا ، والخرق المستمر للاتفاق الذي توصلنا اليه في يالته ، ومحاولة القفز على الدانمارك التي احبطها مونتغمري لحسن الحظ في اللحظة الاخيرة ، والزحف في النمسا ، وضغط الماريشال تيتو المصحوب بالتهديد في تريستا ، كلها امور بدت لي ولمستشاري انها قد غيرت الاوضاع بالنسبة لتخطيط مناطق الاحتلال التي اتفقنا عليها قبل عامين ، واصبح من الواجب البحث في جميع هذه القضايا ككل الآن ، قبل أن تنسحب القوات البريطانية والامريكية وقواتهما الجوية بفعل التسريح ، ومطالب الحرب اليابانية الشديدة ، كما ان الوقت صالح الآن لتسوية عامة .

وكنت ارى ان التخلي عن قلب المانيا كلها ، « بل قلب اوروبا وحجر الزاوية فيها ، بمجرد عمل فردي من جانب واحد » قرار يعتبر على جانب كبير من الخطورة والارتجال ، واذا كان لا بد من هذا التخلي فيجب ان

يكون جزءاً من تسوية عامة ودائمة ، والا فاننا سنذهب الى بوتسدام وليست في ايدينا اوراق نساوم عليها ، وبذلك تتعرض جميع آمال السلام في اوروبا للخطر ، وكان كل ما في وسعي ان افعله ، هو ان ارجو الاسراع في موعد اجتماع الثلاثة ، فاذا فشلت في ذلك ، فاني اعمل على تأجيل الانسحاب الى ان يتم بحث جميع المشكلات دفعة واحدة على اسس متكافئة .

ترى كيف اضحت الحالة بعد ثماني سنوات ؟ لقد امتد خط الاحتلال الروسي في اوروبا من لوبيك الى لينز ، وأصبحت تشيكوسلوفاكيا كلها ضمن الاطار السوفياتي ، كما اصبحت دول البلطيق وبولندا ورومانيا وبلغاريا دويلات تابعة يحكمها نظام شيوعي جماعي ، وقد خرجت يوغوسلافيا على هذا النطاق ، ولم نتمكن الا من انقاذ اليونان وحدها ، وهكذا سمحنا في لحظة النصر باختفاء تلك الفرصة التي كانت خير فرصنا ، بل آخر فرصة لنا للوصول الى سلام عالمي دائم ، وقد ارسلت للرئيس في اليوم الرابع من حزيران البرقية التالية ، التي اعتقد ان هناك اليوم من يستطيع مناقشتها او عدم تأييدها قلت فيها : ــ

« اعتقد انك مدرك السبب الذي يحملني على التلهف لعقد اجتماعنا الثلاثي في موعد مبكر ، ولنقل انه الثالث أو الرابع من تموز ، وانني لانظر نظرة متشائمة الى احتمال انسحاب الجيش الامريكي الى خط الاحتلال في القطاع الاوسط ، بحيث تتقدم القوة السوفياتية الى قلب اوروبا الغربية ، وبحيث يسدل ستار حديدي بيننا وبين كل ما يقع الى الشرق من اراض ، وكنت آمل ان امثل هذا الانسحاب ، اذا كان لا بد منه يجب ان يصاحب تسوية الكثير من الامور العظيمة التي يقوم على اساسها السلام العالمي ، ولم تتم حتى الآن تسوية اي شيء مهم ، وأرى انني واياك نتحمل المسؤولية الكبرى بالنسبة الى المستقبل ، ولذا فما زلت آمل في تقديم موعد الاجتماع » .

وقد رد علي المستر ترومان في الثاني عشر من حزيران يقول : ــ ان الاتفاق الثلاثي المتعلق باحتلال المانيا والذي اقره الرئيس روزفلت بعد مشاورات تفصيلية ودرس طويل معي ، يجعل من المستحيل تأجيل انسحاب القوات الامريكية من المنطقة السوفياتية حتى تتم تسوية المشكلات الاخرى ، وليس في امكان مجلس اشراف الحلفاء ان يبدأ عمله الا بعد اتمام هذا الانسحاب ، كما ان الحكم العسكري الذي يباشره القائد الاعلى للحلفاء يجب ان ينتهي دون تأخير ، وان توزع مسؤولياته بين ايزنهاور ومونتغمري ، واضاف الرئيس يقول : ان مستشاريه قد افهموه بأن تأجيل الانسحاب الى ما بعد تموز ، سيضر بعلاقات أمريكا مع السوفيات ، ولذلك فهو يقترح أرسال رسالة الى ستالين ، كما اقترح ان نصدر الامر فورا الى جيوشنا بالانسحاب الى مناطق احتلالها المقررة .

وكان الرئيس على استعداد لاصدار امره الى القوات الامريكية للبدء في الانسحاب من المانيا في الحادي والعشرين من حزيران ، وأن يعد القادة العسكريون الترتيبات اللازمة لاحتلال المناطق المعينة لهم في برلين ، وأن

يؤمنوا حرية الاتصال عن طريق السكة الحديد والطرق العادية والجوية من فرانكفورت وبريمن بالنسبة للقوات الامريكية ، كما انه في الامكان استكمال الترتيبات في النمسا بصورة اسرع واكثر سهولة ، وذلك بجعل القادة المحليين مسؤولين عن تحديد مناطق احتلالهم في البلاد وفي العاصمة ، والا يعودوا الى حكوماتهم الا في القضايا التي يعجزون هم عن حلها .

وكانت هذه الرسالة بمثابة نذير شر مستطير لي ، ولكن لم يكن في وسعي غير الاذعان .

ويجب الا ننسى ان المستر ترومان لم يكن له شأن ولم يستشر في خطة تحديد مناطق الاحتلال الاصلية ، وكانت القضية بالنسبة اليه ، بعد تسلمه مدة الرياسة هي ، هل يجوز لـه ان ينقض سياسة اتفقت عليها الحكومتان البريطانية والامريكية في عهد سلفه العظيم ؟ وليس لدي شك ، في ان مستشاريه السياسيين والعسكريين قد ايدوه في موقفه وكانت مسؤوليته في هـذه اللحظة محصورة في ان يقرر مـا اذا كانت الاوضاع قد تبدلت بصورة جذرية بحيث يتطلب تبدلها اجراء مغايرا كل التغيير يمكن أن يتهم بنقض العهود والمواثيق .

وقد بدأت الجيوش البريطانية والامريكية في اليوم الاول من شهر تموز ، انسحابها الى المناطق المخصصة لها ، تتبعها جموع حاشدة من اللاجئين الالمان ، وبذلـك ثبتت روسيا السوفياتية اقدامها في قلب اوروبا ، وكان هذا اسوأ تاريخ في مستقبل الجنس البشري .

وبينما كانت جميع هذه الامور تسير على قدم وساق ، كنت مشغولا الى قمة رأسي في المعركة الانتخابية التي اشتد وطيسها في الاسبوع الاول من حزيران ، وكان هذا الشهر والحالة هذه ، من اقسى الفترات التي مرت علي ، حيث بدأت الرحلات المجهدة بالسيارة الى مدن انكلترا واسكوتلنده الكبيرة ، مع القاء ثلاث خطب او اربع كل يوم على جماهير كبيرة يبدو عليها الحماس ، واعداد اربع اذاعات حسنة الصيغة والاقناع مما كانت تستنزف كل وقتي وقوتي ، وكنت اشعر طيلة الوقت ان ما حاربنا من اجله في اوروبا قد بدأ ينهار ، كما ان الآمال في حلول سلمية دائمة ومبكرة ، اخـذت تنطوي ، وكنت اقضي الايـام في وسط الجماهير الصاخبة ، وعندما آوي في الليل الى القطار الذي جعلت منـه مركز قيادتي ، كان ينتظرني عدد لا بأس به من الموظفين وسيل لا ينقطع من البرقيات ، فاضطر الى قضاء ساعات طويلة اخرى في اعمال شاقة .

وقد سررت اخيرا بحلول يوم الاقتراع ، حيث تم اغلاق الصناديق وختمها بعد الانتهاء من الاقتراع ، وقد وضعت في اماكن امينة ، لكي تفتح بعد ثلاثة اسابيع ، بعد جمع الصناديق من جميع انحاء العالم التي توجد بها قواتنا .

ولهذا فقد قررت ان اقضي اسبوعا استمتع فيه بالراحة ودفء الشمس وحرارتها قبل موعد المؤتمر ، فسافرت الى بوردو مع زوجتي وابنتي ماري ، ونزلت في فيـلا جميلة وضعها تحت تصرفي الجنرال

بروتينيل في « هنداي » على مقربة من الحدود الاسبانية ، وكنت اقضي معظم ساعات الصباح كـل يوم في قراءة قصة رائعة لكاتب فرنسي عن تاريخ هدنة بوردو ، وقصة وهران المحزنة ، ومن الغريب انني استعدت ذكرياتي عن سنوات خمس سابقة ، وقد تعلمت من هذه القصة اشياء كثيرة لم اكن اعرفها في حينها ، كما كنت اخرج بعد الظهر ومعي لوحاتي وأدوات الرسم الى بعض الاماكن الجذابة على نهر نيف وخليج سان جان دي لوز فأصورها .

وقد اقتصر عملي الرسمي في هذه الفترة على تصريف بعض البرقيات التي تتناول مؤتمرنا المقبل ، وقد حاولت ما وسعني من جهد في أن ابعد الخلافات الحزبية عن تفكيري ، ومع ذلك يجب ان اعترف أن سر صناديق الاقتراع وما تضمه ، كان يطغي على تفكيري ، وما كنت لاستطيع ابعاد هذه الافكار عني ، الا عندما اعد لوحتي وأبدأ الرسم .

وقد احتفى بنا اهل الباسك ، احتفاء رائعا ، فلقد عانوا فترة طويلة من الاحتلال الالماني ، وكانوا سعداء باستنشاق نسيم الحرية من جديد ، ولم اكن في حاجة الى اعداد اي شيء للمؤتمر ، فقد كنت احمل في رأسي كل شيء ، ولما كان الرئيس ترومان قد ابحر على ظهر الطراد الامريكي اوغسطا ، وهو الطراد الذي استقله الرئيس روزفلت عند مجيئه لاجتماعنا في الاطلنطي عام ١٩٤١ ، فقد اخذت السيارة في الخامس عشر من تموز الى مطار بوردو ، حيث اقلتني طائرتي « سيدة الاجواء » الى برلين .

القنبلة الذرية

وصل الرئيس ترومان الى برلين في اليوم الذي وصلت فيه اليها ، وقد كنت متلهفا للتعرف عليه ، وكانت علاقاتي الودية معه على الرغم من بعض الخلافات ، قد اقيمت عن طريق المراسلة ، فقمت بزيارته في صباح اليوم التالي لوصولنا ، وقد تأثرت بما يبدو عليه من اشراق ودقة في التفكير ، وقدرة على الحسم في المواقف .

وقد قام كل منا منفردا بجولات في المدينة ، في اليوم التالي لوصولنا ، ولم تكن المدينة الا حطاما من الخرائب ، ولم يكن قد صدر بيان عن زيارتنا ولذلك فقد كانت الشوارع خالية الا من المارة العاديين ، الا انني رأيت حشدا من الناس في الساحة الواقعة امام دار المستشارية ، وعندما نزلت من السيارة ومشيت بين هؤلاء الناس ، هتف لي الجميع ، باستثناء رجل عجوز واحد ، هز رأسه هزة تنطوي على عدم الموافقة ، وكانت كراهيتي لهم قد زالت باستسلام المانيا ، وقد تأثرت تأثرا بالغا بمرآهم ، وبما يبدو على وجوههم من انهاك وتعب ، وعلى اجسامهم من ملابس رثة مهلهلة ، ودخلنا دار المستشارية ، وقضينا وقتا طويلا نجوب ابهاءها وقاعاتها المحطمة ، كما رأينا الملجأ الذي اعده هتلر لنفسه للاحتماء فيه من الغارات الجوية ، كما رأينا الغرفة التي انتحر فيها هو وزوجته .

وكان المسلك الذي اتبعه هتلر ، اكثر ملاءمة لنا من المسلك الذي كنت اخشى ان يتبعه ، فقد كان في وسعه في اي وقت من الاشهر الاخيرة من الحرب ان يطير الى انكلترا وان يسلم نفسه قائلا : « افعلوا بي ما تشاءون ، ولكن اتركوا شعبي الذي لم يكن له حول او طول » ، ولا ريب عندي في انه في مثل هذه الحالة كان سيشترك مع مجرمي نورمبرغ في مصيرهم ، لان المبادىء الخلقية للحضارة الحديثة تقضي بأن يعدم المنتصرون قادة الدول المنهارة في الحرب ، ولا ريب في ان مثل هذه المبادىء ستدفع القادة في اي حرب مقبلة الى المضي في القتال الى النهاية ، فمهما ضحوا بأرواح جديدة فان مصيرهم واحد ، وفي مثل هذه الحالة فان جماهير الشعب التي لا شأن لها في شن الحروب او انهائها هي التي تدفع الثمن الاضافي .

اما الرومان فقد كانوا يتبعون سبيلا مغايرا ، ولا شك في ان الفضل في انتصاراتهم يعود الى ما تميزوا به من رأفة بقدر ما تميزوا به من قوة .

وفي السابع عشر من تموز ، وصلت انباء هزت العالم بأسره ، فقد قام ستمسون بعد ظهر ذلك اليوم بزيارة مسكني ، وبسط امامي ورقة كتب

عليها « ولد الطفل بصورة مرضية » وتبينت من حديثه ان شيئا بارزا قد وقع ، واستمر يقول « أن هذه الجملة تعني أن التجربة التي اجريت في صحراء المكسيك قد نجحت ، وأن القنبلة الذرية اصبحت امرا واقعا » ، وعلى الرغم من اننا كنا نتابع هذا البحث مما يصل الينا من انباء متفرقة ، الا انني لم اعرف من قبل على الاقل بموعد التجربة الحاسمة ، كما انه لم يكن في وسع اي عالم مسؤول ان يتكهن بما قد يقع عندما تجري تجربة اول تفجير ذري ، هل هي عديمة الجدوى او انها مبيدة وقاتلة ؟

لقد عرفنا الآن انه قد تمت « ولادة الاطفال » بشكل مرض ، لكن ليس في وسع أي انسان حتى الآن تقدير النتائج العسكرية الفورية لهذا الاكتشاف ، كما لم يقم اي انسان حتى الآن بتقدير اي شيء عنها .

ووصلت في الصباح التالي ، طائرة تحمل وصفا كاملا لهذا الحدث العظيم ، في التاريخ البشري ، وجاء ستمسون بالتقرير الي ، وانني اشرح الآن القصة كما اتذكرها .

فقد فجرت القنبلة او ما يعادلها على قمة « بيلون » ــ عمارة فرعونية ارتفاعها مائة قدم ــ وقد اخليت منطقة دائرية نصف قطرها عشرة اميال من كل انسان ، ووقف العلماء ومساعدوهم وراء دروع ضخمة من الاسمنت المسلح ، وملاجيء تبعد نحوا من هذه المسافة ، وكان الانفجار مروعا ، فقد ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان الى مقربة من حدود المنطقة الجوية التي تحيط بأرضنا المسكينة ، وكان التخريب داخل دائرة قطرها ميل واحد كامل ، وهكذا بدت النهاية السريعة للحرب الكونية ولاشياء اخرى ايضا .

وقد دعاني الرئيس للتشاور معه بعد ذلك ، وكان معه الجنرال مارشال والاميرال ليهي ، وكنا قد وضعنا خططنا بالنسبة لليابان ، على اساس مهاجمة جزرها الاصلية بقصف جوي مرعب ، وبغزو تقوم به جيوش هائلة ، وكنا نتوقع مقاومة شديدة من اليابانيين الذين يقاتلون حتى الموت ، بتكريس رجال الساموراي ، لا في المعارك الحربية الضخمة فحسب ، بل في كل كهف وحفرة ايضا ، وتصورت منظر جزيرة اوكيناوا ، حيث آثر عدة الوف من اليابانيين بدلا من الاستسلام ، ان يقفوا في صف واحد ، وان يقضوا على انفسهم بالقنابل اليدوية بعد ان كان قادتهم قد اتموا طقوس الانتحار المعروفة بالهاراكيري .

ويعني القضاء على المقاومة اليابانية رجلا رجلا واحتلال بلادهم شبرا شبرا ، ضياع مليون امريكي ونصف هذا العدد من البريطانيين او اكثر منه ، هذا اذا تمكنا من ايصال هذه القوات الى بلادهم ، اما الآن فقد اختفى هذا الكابوس المرعب ، وطلعت امامنا صورة بدت لنا جميلة ومشرقة ، وهي ان تنتهي الحرب كلها بهزة او بهزتين عنيفتين ، وفكرت توي ، كيف يمكن لهذا الشعب الياباني الذي كنت دائم الاعجاب بشجاعته ، ان يرى في هذا الطيف من السلاح الغيبي او فوق الطبيعي ، ذريعة تحفظ له شرفه وتحرره من التزاماته بالموت حتى آخر رجل محارب .

وكان هناك شيء اهم ، وهو اننا لن نحتاج الى الروس ، اذ ان نهاية الحرب مع اليابان لم تعد تعتمد على تدفق جيوشهم ، لتوجيه الضربة الاخيرة والحاسمة ، ولم نعد في حاجة الى ان نطلب منهم منة او فضلا ، واصبح في وسعنا ان نواجه مشكلات اوروبا على حقيقتها ، ووفقا لمبادىء الامم المتحدة الواسعة ، وبدا اننا اصبحنا فجأة واقعين تحت سيطرة رغبة رحيمة في اختصار المذابح في الشرق ، وأمل اكثر اشراقا وسعادة في اوروبا ، وعلى اي حال ، لم يكن هناك ما نضيعه في النقاش ، في هل تستعمل القنبلة الذرية او لا تستعمل ؟ واتضح لنا ان تجنب مذبحة هائلة لا حدود لها ، وان الوصول بالحرب الى نهاية ، وبالعالم الى السلام ، وان مد يد الرحمة الى شعوبه المعذبة عن طريق غرض لقوة طاغية ، لا تكلف الا بعض انفجارات ، كلها امور جاءت بعد هذه الاخطار والمتاعب ، كمعجزة من معجزات الانقاذ .

وكانت موافقة بريطانيا المبدئية على استعمال هذا السلاح ، قد صدرت في الرابع من شهر تموز اي قبل اجراء التجربة ، اما القرار النهائي فقد اصبح الآن بين يدي الرئيس ترومان ، الذي يملك السلاح ولم يداخلني الشك قط فيما سيكون عليه هذا القرار ، وفي انه كان على حق في اتخاذه ، لكن الحقيقة التاريخية تظل قائمة ، ويجب الحكم على ضوئها في مستقبل الايام ، وهي ان القرار الذي اتخذ باستخدام القنبلة الذرية لارغام اليابان على الاستسلام ، لم يكن في يوم ما مصدر خلاف حيث كان هناك اتفاق اجماعي واوتوماتيكي ودون حاجة الى سؤال او نقاش حول المائدة التي كنا نجلس عليها . ولم اسمع اي اعتراض من اية جهة ، على ان الواجب يحتم علينا عدم استعمالها .

وكان السؤال الدقيق المعقد ، هو ماذا سنقول لستالين ؟ بعد ان اصبحنا في غير حاجة الى مساعداته في اخضاع اليابان ، وكان ستالين قد تعهد في مؤتمري طهران ويالته ، بأن تهاجم روسيا السوفياتية اليابان فور هزيمة الجيش الالماني ، وتحقيقا لهذا الوعد ، بدأت منذ اوائل ايار ، حركة نقل واسعة ومستمرة للقوات السوفياتية الى الشرق الاقصى على سكة حديد سيبيريا ، ورأينا الآن انا لسنا في حاجة الى هذه القوات ، وبذلك يكون ستالين قد فقد قوة المساومة ، التي كان قد استخدمها بنجاح مع الامريكيين في يالته ، الا انه كان على كل حال حليفا عظيما في الحرب ضد هتلر ، وقد شعرنا في هذه اللحظة ان من الواجب ابلاغه (الحقيقة الجديدة العظيمة) التي اصبحت تسيطر على الموقف دون ان نعطي له التفاصيل ، ولكن كيف ننقل اليه هذا النبأ ؟ أيكون النقل كتابة او شفويا ؟ وهل سيكون الابلاغ في جلسة رسمية او خاصة او في اثناء اجتماعاتنا اليومية او بعدها ؟ وقد اختار الرئيس اخيرا الوسيلة ، فقال ، أعتقد أن من الخير ان ابلغه النبأ بعد اجتماعاتنا ، وأن أقول له اننا توصلنا الى اختراع طراز جديد من القنابل يختلف عن النوع المألوف ، وسيكون ذا اثر حاسم في عدم استمرار اليابانيين في الحرب ، وقد وافقت الرئيس على هذا الاجراء .

كما استمرت في هذه الاثناء الهجمات المدمرة على اليابان من

الجو والبحر ، ولم تحل نهاية شهر تموز ، حتى كان الاسطول الياباني قد اختفى من الوجود تقريبا ، كما سيطرت الفوضى على الوطن ، وأخذ الديبلوماسيون المحترفون يميلون الى الاقتناع بأن الطريقة الوحيدة لانقاذ اليابان من التفكك الكلي ، هي ان يصدر الامبراطور امره فورا بالاستسلام ، ولكن السلطة كانت لا تزال في ايدي زمرة من العسكريين الذين صمموا على ان يقودوا البلاد كلها الى الانتحار الجماعي ، بدلا من قبول الهزيمة ، ولم يرهب الدمار الرهيب الذي يواجههم ، هذه الزمرة الحاكمة المتعصبة ، التي ما فتئت تؤمن بمعجزة من نوع ما : تقلب الوضع الى صالحهم .

هذا ، وقد بحثت مع الرئيس في محادثات طويلة عدة على انفراد او مع بعض مستشاريه ، ما يجب ان نفعله ، واشرت الى الثمن الباهظ في ارواح الامريكيين وفي ارواح البريطانيين ايضا ، اذا ما فرضنا على اليابان « الاستسلام بلا قيد ولا شرط » وتركت للرئيس ان يقرر ، ما يضمن لنا الحصول على كل ما نراه ضروريا للسلام والامن في المستقبل ، ويترك لليابانيين في الوقت نفسه بعض المظاهر للحفاظ على كرامتهم العسكرية ، مع التأكيد لهم بوجودهم القومي اذا ما قاموا بتنفيذ جميع الضمانات التي يطلبها المنتصرون ، وقد رد الرئيس علي باشمئزاز قائلا :
ــ انه لا يعتقد في وجود اي شرف عسكري لليابانيين بعد هجوم بيرل هاربور .

وقد تقرر اخيرا ان نوجه انذارا نهائيا الى اليابان ، نطلب فيه استسلام قواتها العسكرية بلا قيد ولا شرط فورا ، ونشرنا هذه الوثيقة في السادس والعشرين من تموز ، ولما رفض حكام اليابان العسكريون هذا الانذار ، اعد سلاح الجو الامريكي خططه تبعا لذلك ، لالقاء قنبلة ذرية على هيروشيما ، واخرى على ناجازاكي ، واتفقنا على ان نعطي للاهلين كل فرصة ممكنة ، وتم وضع الاجراء بالتفصيل وللتقليل الى اكبر حد ممكن من الخسائر في الارواح ، قامت الطائرات الامريكية في السابع والعشرين من شهر تموز ، بالقاء نشرات على احدى عشرة مدينة يابانية ، تحذرها فيها انها سوف تتعرض لقصف جوي هائل ، وهوجمت ست من هذه المدن في اليوم التالي ، كما حذرت الطائرات اثنتي عشرة مدينة اخرى في اليوم الحادي والثلاثين من تموز . وقصفت اربعا منها في اليوم الاول من آب ، ووجه الانذار الاخير في الخامس من شهر آب .

وفي اليوم السادس من آب القيت القنبلة الذرية الاولى على هيروشيما ، كما القيت في اليوم التاسع من آب القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناغازاكي ، وفي اليوم التالي وافقت الحكومة اليابانية ــ على الرغم من فتنة قام بها بعض العسكريين المتطرفين ــ على قبول الانذار ، على شرط الا يؤثر ذلك على سلطات الامبراطور كحاكم مطلق ، فدخلت اساطيل الحلفاء خليج طوكيو ، وتم في اليوم الثاني من ايلول توقيع وثيقة الاستسلام الرسمية على ظهر البارجة الامريكية «ميسوري» وكانت روسيا قد اعلنت الحرب على اليابان في الثامن من شهر آب ،

اي قبل اسبوع واحد من انهيارها ، ومع ذلك طالبت بجميع حقوق الدولة المحاربة .

ومن الخطأ الافتراض بأن القنبلة الذرية ، هي التي قررت مصير اليابان ، فقد كان المصير المحتوم بالهزيمة ينتظرها ، قبل القائها ، وقد فرضت هذا المصير قوة الحلفاء البحرية المتفوقة التي سكنت الحلفاء في الوقت نفسه من احتلال القواعد البحرية في المحيط ، لتشن منها الهجوم النهائي ، ولترغم الجيش الياباني في الوطن على الاستسلام ، دون ان توجه اليه اية ضربة ، فقد تحطمت بحرية اليابان ، حيث دخلت الحرب وهي تملك اسطولا من البواخر تزيد حمولته على خمسة ملايين ونصف مليون من الاطنان ، ثم زاد هذا الرقم من البواخر التي استولت عليها او بنتها ، ولكن نظام القوافل والحراسة الذي وضعته كان غير كاف وكان مفتقرا الى التنظيم ، وقد تم اغراق بواخر يابانية تزيد حمولتها على ثمانية ملايين ونصف مليون من الاطنان ، ذهب منها نحو خمسة ملايين ضحية للغواصات .

ولما كانت خيبة الامل ، هي الطابع الذي تميز به مؤتمرنا الثلاثي الاخير ، فلن احاول ان اشرح جميع القضايا التي اثيرت في مختلف الجلسات ، وان كانت لم تسو ولم تحل ، وسأكتفي بالحديث عما اعرفه بخصوص القنبلة الذرية ، وبتخطيط قضية الحدود الالمانية ــ البولندية ، لان هذه الاحداث لا زالت تعيش معنا حتى الآن .

فقد تم الاتفاق بيننا في مؤتمر يالته ، على ان تتقدم روسيا بحدودها الغربية مع بولندا الى خط كرزون ، كما كنا قد اعترفنا دائما لبولندا في حقها بدورها في الحصول على تعويضات مناسبة من الارض الالمانية ، وكان السؤال هو الى اي مدى ؟ والى اية مسافة في المانيا يجب ان تمضي بولندا في توسيع حدودها ؟ فقد اختلفنا حول تلك اكبر اختلاف ، وكان ستالين قد اراد توسيع حدود بولندا الغربية على طول نهر الاودر حتى نقطة التقائه بنهر النيسي الغربي ، وكان رؤساء الحكومات الثلاث ، قد تعهدوا علنا في يالته ، باستشارة الحكومة البولندية ، وبترك الموضوع للتقرير النهائي في مؤتمر الصلح ، وكان هذا خير ما استطعنا عمله ، ولكننا واجهنا في تموز عام ١٩٤٥ وضعا جديدا ، فقد وسعت روسيا حدودها الى خط كرزون ، وكان هذا يعني كما ادركت انا وروزفلت ، ان الملايين الثلاثة او الاربعة من البولنديين الذين يعيشون على الجانب الثاني من الخط ، يجب ان ينزحوا الى الغرب ، وواجهنا الآن امرا اسوأ من هذا ، فقد وسعت حكومة بولندا التي يسيطر عليها السوفيات حدودها لا الى النيسي الشرقي بل الى الغربي ايضا ، ويسكن الالمان معظم هذه المنطقة ، وعلى الرغم من ان عدة ملايين قد فروا غربا ، الا ان عددا كبيرا قد ظل في مكانه ، فماذا سنصنع بهؤلاء ؟ كما ان نقل اربعة ملايين بولندي امر سيىء في حد ذاته ، فهل يتحتم علينا ان ننقل ثمانية ملايين الماني او

اكثر ايضا ؟ وحتى لو امكننا تحقيق ذلك ، فليس هناك ما يكفيهم من الطعام في الاقسام المتبقية من المانيا لان معظم القمح الذي تنتجه المانيا في الاراضي التي اخذها البولنديون ، واذا حرمنا هذا القمح ، فاننا معشر الحلفاء الغربيين سنظل مسيطرين على مناطق صناعية خربة ، وشعب متضخم جائع ، وهنا يكمن خطر بالنسبة لسلام اوروبا في المستقبل اكبر من الخطأ الذي تمثله الالزاس واللورين ، او ممر دانزيغ ، وسيأتي يوم يطالب فيه الالمان باسترداد اراضيهم ، ولن يكون في وسع البولنديين ان يحولوا بينهم وبين استعادتها .

والآن يجب علي ان اتحدث عن الاتصالات الشخصية والاجتماعية التي خففت شيئا من حدة مناقشاتنا الجدية ، وكان على كل وفد من الوفود الكبيرة ان يقيم الولائم للوفدين الآخرين ، وقد وقع الدور على الولايات المتحدة اولا ، وعندما جاء دوري ، اقترحت ان نشرب نخب « زعيم المعارضة المقبل ايا كان الزعيم » وقد سر المستر اتلي الذي كنت قد دعوته الى المؤتمر ، تطبيقا لنظريتي في ان من واجب رئيس كل حكومة في اوقات الازمات ان يعد نائبا له يعرف كل شيء ، ويستطيع ان يحافظ على الاستمرار في حالة وقوع احداث ، كما كان العشاء السوفياتي رائعا ايضا ، واشتمل على حفلة موسيقية عزف فيها كبار الفنانين الروس ، وقد استمرت الحفلة الى ساعة متأخرة من الليل ، حتى انني اضطررت الى التسلل والذهاب .

وعندما انتهى اجتماعنا الرسمي في اليوم التالي ، اي في الرابع والعشرين من تموز ، ونهضنا جميعا ، رأيت الرئيس يتجه الى ستالين فيقف بجانبه ، ويأخذ الرجلان في حديث وليس معهما الا المترجمان ، وكنت واقفا على بعد خمسة ياردات تقريبا ، حيث كنت ارقب باهتمام بالغ الحديث الخطير التاريخي ، لاني كنت اعرف ما اعتزم الرئيس ان يقوله ، وكان يهمني ان اعرف مدى تأثير قوله على ستالين ، واني لارى الصورة امامي الآن وكأنها وقعت بالامس لقد بدا عليه السرور ، وقال : قنبلة جديدة ! لها قوة خارقة ! قد تكون حاسمة في تقرير الحرب كلها مع اليابان ! يا له من حظ سعيد ! كانت هذه الانطباعات التي حملتها تلك الساعة ، وكنت على ثقة من انه لم يقدر تماما أهمية ما قيل له ، وبدا لي ان القنبلة الذرية لم تلعب دورا في متاعبه وجهوده ، ولو كانت لديه اية فكرة ولو ضئيلة ، عن الثورة التي تحدث الآن في الشؤون العالمية بسبب هذا الاختراع لكان رد فعله مغايرا تماما ، ولم يكن اسهل عليه من ان يقول « شكرا لك على ابلاغك اياي نبأ قنبلتك الجديدة وبالطبع انا اعرف شيئا عن الحقائق المتعلقة بها ، فهل تسمح لي بأن ابعث بخبرائي في العلوم النووية لمقابلة خبرائك في صباح غد ؟ » ، ولكن وجهه ظل مرحا وطبيعيا ، ولما انتهى الحديث بين الزعيمين ، استفهمت من الرئيس ، عن كيفية سير الامور ؟ فرد علي بقوله ان ستالين لم يوجه اليه اي سؤال .

وعاد المؤتمر للاجتماع في اليوم الخامس والعشرين من تموز ، وكان هذا آخر اجتماع حضرته ، وقد اثرت من جديد موضوع بولندا ،

وقلت ان حدودها الغربية لا يمكن ان تقرر دون ان نأخذ بعين الاعتبار مشكلة المليون وربع المليون من الالمانيين الذين يعيشون في المنطقة ، وهنا اكد الرئيس بأن اية معاهدة للصلح لا يمكن ان تبرم دون موافقة مجلس الشيوخ الامريكي ومشورته ، وعلينا اذن ان نجد حلا ، يستطيع ان يوصي به معتذرا للشعب الامريكي ، فقلت اننا اذا سمحنا لبولندا بأن تكون دولة الاحتلال الخامسة في المانيا دون ان نتخذ الترتيبات لتوزيع المواد الغذائية ، التي تنتج في المانيا بصورة عادلة على الشعب الالماني كله ، ودون ان نتفق على التعويضات وغنائم الحرب ، فان مؤتمرنا يكون فاشلا ، لان جذور المشكلات لا تزال قائمة امامنا ، ولم نصل حتى الآن الى اتفاق بشأنها ، فقال ستالين ، ان الحصول على الفحم والمعادن من الروهر اهم بكثير من المواد الغذائية وقلت ان هذه المعادن يجب ان تتم مقايضتها بالمؤن من المنطقة الشرقية ، والا فان المعدنين لن يستطيعوا استخراج الفحم والمعادن وكان رد ستالين ، انهم قد الفوا في الماضي استيراد المواد الغذائية من الخارج وفي وسعهم ان يواصلوا استيرادها ، فسألته ، اذن كيف يمكن لهم أن يدفعوا التعويضات ؟ فرد قائلا ، « ما زال هناك شحم كثير على جسم المانيا » ورفضت ان اقبل فكرة المجاعة في الروهر لأن البولنديين يريدون الاحتفاظ بجميع المناطق التي تنتج القمح في الشرق ، وقلت ان بريطانيا نفسها تفتقر الى الفحم ، فقال ستالين ، « اذن فليشتغل الاسرى الالمان في مناجمكم ، ان هذا ما افعله انا الآن » واضاف قائلا : وما زال هناك اربعون الف الماني في النرويج وفي وسعك ان تأخذهم من هناك ، وقلت ، اننا نصدر الفحم الذي نحتاج اليه الى فرنسا وهولندا وبلجيكا ، فلماذا يبيع البولنديون الفحم الى السويد في حين تحرم بريطانيا نفسها الشيء الذي تحتاج اليه لمساعدة البلاد المتحررة ؟ فرد ستالين قائلا : ــ ولكنها تبيع الفحم الروسي وما زال موقفنا اصعب من موقفكم ، فقد خسرنا اكثر من خمسة ملايين رجل في الحرب ، ونحن في اشد الحاجة الى الايدي العاملة ، وعدت الى نقطتي اثيرها من جديد ، سنرسل الفحم من الروهر الى بولندا او الى اي مكان آخر ، بشرط ان نحصل بدلا منه على المواد الغذائية لعمال المناجم الذين ينتجون الفحم » .

وهنا توقف ستالين لحظة ليفكر ، وقال : ــ ان القضية كلها تحتاج الى المزيد من الدرس ، فوافقته على ذلك ، وقلت انني لا اريد الا الاشارة الى المتاعب التي نواجهها ، وهذا بالنسبة الي هو كل ما يهمني .

وبما انه لا يمكنني ان اتحمل مسؤولية تتجاوز النتائج التي توصلنا اليها في مؤتمر بوتسدام ، فقد اثرت في المؤتمر جميع النقاط التي لم نتفق عليها وتركتها معلقة ، وهكذا فقد تكدست مجموعة ضخمة من القضايا التي لم نصل الى اتفاق بصددها ، وكنت اعتزم اذا ظهرت نتائج الانتخابات في بلادنا في صالحنا ، وعدت الى الحكم ، كما كان متوقعا ، ان اشتبك مع السوفيات في حطام مكشوف لتقرير هذه القضايا ، فما كنت لاقبل قط ، وما كان للمستر ايدن ان يقبل ايضا ، ان يكون نهر النييسي الغربي حدا لبولندا ، وكنا قد قبلنا بخط الاودر والنييسي

الشرقي كتعويض على بولندا مقابل انسحابها الى خط كرزون ، ولكن ما كان لاية حكومة أراسها ، ان تقبل اجتياح الجيوش الروسية لجميع المناطق الممتدة حتى النييسي الغربي والى ما وراءه ايضا ، ولم تكن القضية تتعلق بالمبدأ فحسب ، وانما كانت تتناول حقيقة هائلة ، تؤثر على نحو ثلاثة ملايين آخرين من المشردين الذين سيجلون عن بيوتهم .

وكانت هناك قضايا اخرى ، وكان لزاما علينا ان نصمد بسببها امام الروس وامام البولنديين الذين بدوا وكأنهم بعد ان ابتلعوا هذه القطع الكبيرة من الارض الالمانية قد اصبحوا اشد انصار السوفيات ، ولكن نتائج الانتخابات العامة ، قد ادت الى تجزئة المفاوضات كلها ، والى وصولها الى نتائج سابقة لاوانها ، وانا لا اقول هذا لانحي باللائمة على وزراء الحكومة الاشتراكية التي خلفتنا ، والذين اقحموا في المفاوضات دون دراسة جدية سابقة ، كما لم يكونوا على اطلاع على آرائي وخططي ، بحيث يشتبكون في نزاع في نهاية الامر ، ويحكمون عليه بالفشل اذا اقتضى الامر ، بدلا من السماح بتجاوز نهري الاودر والنييسي الشرقي ، واعطاء الاراضي الواقعة وراءهما الى بولندا ، وكان في الامكان اصلاح الوضع حتى في مؤتمر بوتسدام .

ولكن تحطيم الحكومة القومية البريطانية واختفائي عن المسرح في ذلك الوقت الذي كنت لازال اتمتع فيه بنفوذ عظيم وقوة كبيرة ، قد جعلا من المستحيل الوصول الى حلول مرضية .

ولو كانت الظروف عادية ، لشعرت بالحرية في ان اقضي بضعة ايام في استكمال القضايا الرسمية بالطريقة المألوفة ، وكان في وسعي من الناحية الدستورية ، ان انتظر انعقاد البرلمان بعد بضعة ايام ، وان اودع المجلس الجديد ، وكان في وسعي عن طريق مثل هذا الترتيب ان اتقدم الى المجلس والى الشعب قبل الاستقالة حاملا خبر استسلام اليابان ، ولكن الحاجة الى تمثيل بريطانيا فورا تمثيلا قويا يستند الى صلاحيات صحيحة في المؤتمر الذي غادرناه ، والذي كانت القضايا الكبرى التي بحثناها فيه ما زالت معلقة امامه ، جعلت كل تأجيل في الاستقالة ، يتنافى مع المصلحة العامة ، وقد كان حكم الناخبين من الناحية الاخرى مبرما ومعبرا بشكل طاغ ، مما جعلني غير راغب في البقاء ساعة اخرى مسؤولا عن تصريف شؤونهم ، فطلبت التشرف بالمقابلة الملكية ، وتوجهت في الساعة السابعة الى القصر ، حيث رفعت استقالتي الى الملك ، وأشرت على جلالته بأن يعهد بالحكم الى المستر آتلي ، ووجهت الى الامة الرسالة التالية التي ارى ان اختم بها هذا الكتاب :

٢٦ تموز ١٩٤٥

« لقد سجل الشعب البريطاني قراره في الاحداث التي جمعها اليوم ، ولهذا فقد ازاح عن عاتقي المسؤولية التي اضطلعت بها في اوقات اكثر حلوكة وظلاما ، ويؤسفني ، انني لم يسمح لي ، باكمال العمل

ضد اليابان ، ولكن جميع الخطط والاعدادات لاكمال هذا العمل قد تمت ، وستظهر النتائج في وقت اقرب بكثير مما كان في استطاعتنا ان نتصوره أو نتخيله ، وستقع على عاتق الحكومة الجديدة مسؤوليات ضخمة في الخارج والداخل ، ولنتوجه كلنا بالدعاء لها بأن توفق في تحمل هذه المسؤوليات .

ليس امامي الآن الا ان اعرب للشعب البريطاني ، الذي عملت من اجله ، طيلة تلك السنوات الخطيرة ، عن عميق شكري ، للتأييد الكامل ، الذي لم تشبه اية شائبة من التردد ، والذي اولاني اياه في اثناء قيامي بالواجب ، كما اعرب عن صادق عرفاني لمظاهر العطف التي غمر بها الشعب خادمه المطيع » .

الخاتمـــة

تموز ١٩٤٥ ـ شباط ١٩٥٧

اتاحت لي هذه الطبعة الجديدة من المذكرات التي وضعتها عن الحرب الماضية الفرصة اليوم لاستعرض الاحداث الضخمة التي وقعت في الاثني عشر عاما الاخيرة التي تلت انتهاء الحرب ، ولاعرب عن آرائي تجاهها .

فعندما غادرت بوتسدام في الخامس والعشرين من شهر تموز عام ١٩٥٤ ، كنت اتوقع الفوز في الانتخابات بأغلبية معقولة ، وكان من المذهل ان تصدمني الحقائق المرة القاسية ، ولما كانت ادارة دفة الحرب ومعالجة الاوضاع عند نهايتها الظافرة ، قد الهتني عن فهم حقيقة ما وقع في الجزر البريطانية ، ولو انني فهمتها حين ذاك ، لكان في امكاني ان ارتب الامور بشكل مغاير تماما ، فلقد جاء رأي اغلبية الجنود ، بعد ما اظهروه لي في اثناء تلك الفترة من علائم الحب والنوايا الطيبة ، مفاجئا لي تمام المفاجأة ، كما كانت نتائج الانتخابات وارقامها مفاجأة اكبر لاوروبا وأمريكا وروسيا ، لان الجميع كانوا لا يتوقعون بعد ما رأوا من ثبات الشعوب البريطانية ما مكنها من التغلب على جميع المحن التي مرت بها في عام ١٩٤٠ ، والذي جعل من السهل عليها ان تجتاز سنوات النضال الخمس منتصرة ظافرة ، الا تتبدل الحكومة .

كما لم احاول في اثناء مؤتمر بوتسدام حتى اللحظة الاخيرة ان اشتبك مع روسيا في خصام ، بسبب سلوكها الذي يبعث على الدهشة والذهول منذ ايام مؤتمر يالته ، وكان املي كبير في الا تنسحب الجيوش الامريكية من المناطق الواسعة التي احتلوها في أوروبا الوسطى ، فلقد كانت هذه هي الورقة الرابحة الوحيدة التي يحملها الحلفاء في ايديهم عندما توقف القتال ، للوصول عن طريقها الى تسوية مرضية ، ولم تكن بريطانيا تطلب شيئا لنفسها ، ولكني كنت واثقا من انها كانت ترى في هذا التقدم الذي تقوم به روسيا في جميع الاتجاهات ، شيئا يفوق كل ما هو عدل ، وظهر ان الامريكيين لم يكونوا مدركين لخطورة الوضع ، اما الدول التابعة ، كما اصبحت تدعى ، فتحتلها الجيوش الروسية ، كما كانت برلين في ايديهم ، مع انه كان في وسع مونتغمري ان يحتلها لو سمح له بذلك ، وكان الروس يسيطرون على فيينا ، ولم يكن يسمح لممثلي الحلفاء ، حتى كأفراد بالوصول الى العاصمة المهمة ، اما بالنسبة للبلقان ، فقد اصبحت رومانيا وبلغاريا محتلتين ، كما كانت يوغوسلافيا تهتز تحت نيتو زعيمها الوطني المشهور ، وكان الروس قد احتلوا براغ بموافقة

أمريكا كما يبدو ، وهم يسيطرون على بولندا التي اتفق على ان يمتد حدها الغربي الى قلب اوروبا على حساب المانيا ، ومع ذلك فقد اتضح ان وجهة النظر الامريكية كانت ترى ان هذه الامور ضرورية للابقاء على المانيا تحت السيطرة ، كما كانت تهدف الى عدم الوقوف في صف بريطانيا ضد روسيا .

وكنت ولا ازال احترم الشعب الروسي الباسل كل الاحترام ، الا ان ظل هذا الشعب اناخ بكلكله المدمر على مسرح ما بعد الحرب ، ولم تكن هناك حدود مرئية للضرر الذي يمكن لهذا الظل ان يحدثه ، ولما كانت بريطانيا وامريكا ، بتصميمها الكلي على الانتصار على دول المحور ، لم تضعا الشروط الكافية لتقرير مصير اوروبا المثلة ومستقبلها ، فقد خضنا الحرب لا دفاعا عن استقلال البلاد الصغيرة فحسب ، بل لنعلن الحقوق للافراد ولنضمنها ايضا ، كما نضمن الحريات التي تقوم عليها اسس الحياة الخلقية ، ولما كانت لروسيا السوفياتية اهداف اخرى تهتم بها ، فقد شددت قبضتها على الاراضي التي اجتاحتها جيوشها ، واقامت حكومات ائتلافية في جميع الدول القابعة وراء الستار الحديدي يشترك فيها الشيوعيون ، وكان الامل يتركز في امكان الاحتفاظ بالديموقراطية بأي شكل من الاشكال ، ولكن الشيوعيين اخذوا يضعون ايديهم على المراكز المهمة في بلدة بعد اخرى ، ومن ثم شرعوا في اضطهاد الاحزاب السياسية الاخرى ومضايقتها ، مطوحين بزعمائها الى حياة النفي والتشريد ، كما جرت محاكمات وأعمال تطهير ، وفي الحال سيطرت الشيوعية على رومانيا والمجر وبلغاريا .

وقد كافحت كفاح الجبابرة دفاعا عن بولندا في مؤتمري يالته وبوتسدام ، وباء كفاحي بالفشل .

وقام الوزراء الشيوعيون بانقلاب مفاجيء في تشيكوسلوفاكيا مما اثار يقظة الرأي العام العالمي ، وتحطمت الحرية في داخل البلاد ، وحظر عليها التعامل بحرية مع الغرب .

كما يرجع الفضل الى بريطانيا على الغالب ، في بقاء اليونان مستقلة بصورة غريبة بين هذه الدول ، فقد خاضت بمساعدة بريطانيا وامريكا حربا اهلية طويلة ، ضد العصاة الشيوعيين ، وبعد كل تلك الجهود والآلام الطويلة التي فرضتها الحرب الكونية الثانية تبين ان اكثر من نصف اوروبا لم يفعل اكثر من استبدال طغيان بآخر .

وتبدو هذه النقاط اليوم شيئا عاديا مألوفا ، وقد اصبح الكفاح الطويل وغير الفاشل الى حد ما ، لوقف تيار الاجتياح الروسي او الاجتياح الموحى به من الروس جزءا من اعمالنا اليومية وحياتنا ، وكان من الضروري حقا في بعض الاحيان ، كما هي الحالة بالنسبة الى القضايا الصحيحة ، تخفيف الحماس والتنكر للانتهازية ، ولم يكن من السهل ابدا في ذلك الوقت ان ينتقل الانسان بأفكاره من انتصار عظيم منهك على طغيان واحد ، الى توقع حملة مضنية وباهظة التكاليف ضد طغيان آخر .

وكانت منظمة الامم المتحدة لا تزال في طفولتها ، الا انه اتضح منذ البداية ، ان العيوب الموجودة فيها قد تقيم الدليل على انها من الخطورة الى الحد الذي يبطل الاهداف التي قامت من اجلها . على اي حال تبين انها لا تستطيع ان تؤمن بسرعة وبصورة فعالة بتلك الوحدة ، وتلك القوى المسلحة التي تحتاج اليها اوروبا الحرة والولايات المتحدة للمحافظة على كيانهما ، وكنت قد اقترحت في احدى محاضراتي ان تكون الامم المتحدة مجهزة بقوة دولية مسلحة ، كما الححت بالنسبة الى المستقبل الراهن والى المستقبل البعيد المدى على استمرار العلاقة الانكليزية ـ الامريكية الخاصة ، التي كانت احدى النظريات الاساسية التي كرست لها حياتي السياسية .

وقد قدر للسنوات الثلاث التالية ، ان تشهد مشروعا اقترب من تحقيق هذا الهدف وان لم يصل اليه تماما .

ولا اريد ان احتكر الفضل في جميع هذه الامور ، ولعل من مزايا المعارضة ، أن الانسان الذي يكون في خارج الحكم ، يستطيع ان يمضي

بخياله الى آفاق اوسع من تلك التي يمضي اليها اولئك الذين شاء لهم طالعهم ان ينقلوا المخططات الى حيز التنفيذ ، فقد تمكنت الحكومة البريطانية بوحي من ذلك الانسان ذي القلب الكبير والحكمة البالغة المستر أرنست بيفن ، ان تتولى زمام القيادة في اعادة بناء جزء من المجتمع الاوروبي ، او ما تبقى من اوروبا على الاقل ، وقد كانت الافكار الاولى منبعثة من الاخطار الناجمة عن احتمال بعث المانيا ، وقد وقعت بريطانيا وفرنسا في عام ١٩٤٧ معاهدة دنكرك ، التي التزمتا فيها ان تساعد الواحدة منهما الاخرى في حالة تعرضها لهجوم الماني ، الا ان حقائق الحاضر غير المطمئنة ، اخذت تكشف مخاوف الماضي .

وبعد مضي اشهر طويلة من النشاط الدبلوماسي ، تم التوقيع على معاهدة بروكسل في عام ١٩٤٨ ، وتعهدت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرغ ، بموجب هذه المعاهدة ، بأن تساعد بعضها بعضا في حالة تعرض اي منهما لعدوان ايا كان مصدره ، ولم يذكر اسم المانيا في هذه المعاهدة .

وقد تم انشاء منظمة عسكرية برياسة المارشال مونتغمري ، لتقدير الموارد المدخرة للدفاع ، ولوضع خطة تتناول هذه الموارد ، وقد اسميت هذه المنظمة بالاتحاد الغربي ، وقد ايدت هذه الاجراءات ، وأعربت عن املي بقوة ، في أن تحمل الولايات المتحدة على نوع من الارتباط معها ، اذ بدون مساعدتها ، تكون المنظمة ناقصة الى حد مخيف .

وكنا سعداء في ان يكون على رأس وزارة الخارجية الامريكية في هذا الوقت الجنرال مارشال ، البعيد النظر والكثير الاخلاص ، الذي عملنا معه بروح الزمالة الوثيقة والثقة طوال سنوات الحرب ، وقد حاول الجنرال والرئيس ترومان ، ضمن الحدود التي يفرضها الكونغرس والرأي

العام الامريكي ، ان يضيفا وزنا واهمية للجهود التي كانت تبذل حين ذاك في اوروبا ، وقد اثمرت الجهود المبذولة على جانبي الاطلنطي ، وتم التوقيع في شهر نيسان عام ١٩٤٩ ، على معاهدة شمال الاطلنطي ، التي التزمت الولايات المتحدة بموجبها ، لاول مرة في تاريخها ، من مراعاة الحقوق الدستورية للكونغرس ، بمساعدة حلفائها اذا ما هوجموا ، وقد تضمنت الدول الاوروبية التي وقعت على المعاهدة بالاضافة الى دول معاهدة بروكسل ، كلا من النرويج والدانمارك وايسلندا وايطاليا والبرتغال ، كما وقعت كندا ايضا على المعاهدة مقدمة دليلا اضافيا جديدا على الثقة التي كنا نصفها ـ نحن في بريطانيا ـ دائما في صداقتها وولائها .

وكان العمل الذي تلا ذلك معقدا كل التعقيد ، وقد نجم عنه اقامة منظمة حلف الاطلنطي ، التي تراسها هيئة تخطيط عسكرية ، يتولى قيادتها الجنرال ايزنهاور ، الذي جعل مقر قيادته في فرساي ، ونشأ من الجهود التي بذلتها القيادة العليا لمنظمة حلف شمال الاطلنطي في اوروبا ثقة هادئة ورصينة في ان اي غزو قادم من الشرق ، سيلقى مقاومة فعالة ومنتجة .

ومن الثابت ان حلف الاطلنطي قد حقق بوجوده في البداية اكثر مما حقق بعمله ، فقد اعاد الى اوروبا الثقة ، ولا سيما البلاد الواقعة على مقربة من الاتحاد السوفياتي وتوابعه ، وقد سبب هذا الاثر انحسارا لحق بقوة الاحزاب الشيوعية في البلاد المهددة ، وفي بعث ظهر في النشاط القومي الصحيح في المانيا الغربية .

وقد جاءت التجربة العصيبة في شهر حزيران عام ١٩٤٨ عندما قطع الروس برلين عن العالم الخارجي ، وكانت غايتهم ادخال برلين كلها في الدولة الشيوعية التي اقاموها في شرقي المانيا ، وبدا ان على بريطانيا وفرنسا وامريكا اما ان تتخلى عن المدينة او تبعث بقوافل التموين اليها من المانيا الغربية بطريق القوة ، وهو حق مشروع لها ، وقد عثر على حل لحسن الحظ ، امكن عن طريقه تجنب الكثير من الاخطار ، فقد بدا الجسر الجوي في العمل ، وحتى اوائل شباط عام ١٩٤٩ ، كان قد نقل اكثر من مليون طن من المؤن الى برلين بوساطة الطائرات الامريكية والبريطانية طوال مدة الحصار وهي ثمانية شهور ، وقد اضطر الروس الى الاذعان في الوقت المناسب ، وتخلوا عن الحصار الذي فرضوه .

وكانت المساعدة الاقتصادية للحلفاء امرا حيويا ، فنحن في بريطانيا انفقنا اموالا ضخمة في الحرب ، بحيث اذا ما بهما اقتصدنا فسنظل نعاني ضائقة شديدة ، وعلى الرغم من القرض الامريكي الضخم ، فان الوضع كان يتجه عندنا نحو الخطورة ، كما كانت بقية اجزاء اوروبا تعاني الحالة نفسها على درجات متفاوتة ، ولولا مشروع العون الاقتصادي الذي وضعه الجنرال مارشال والتعاون الذي ابدته ست عشرة دولة اوروبية اخرى ، فان اوروبا كانت ستنهار حتما الى حالة من الخراب والفقر ، تنمو فيها جذور الشيوعية بسرعة هائلة .

وكان هناك رأي آخـر لآمالنا المتعلقة بتوحيد اوروبا وتقويتها لمواجهة اي عدوان خارجي ، او هدم داخلي ، فالافكار التي استهللت بها خطابي في فولتون ، قد ترجمت الى حد كبير الى افعال وحقائق عن طريق الجهود الحكومية ، وسلسلة المعاهدات والمنظمات الرسمية التي شرحتها بايجاز ، وكان من المهم جدا بالنسبة للمفاهيم البعيدة المدى ، عن فكرة اوروبا المتحدة التي جعلناها مثلنا الاعلى النهائي ، أن تجد لها ندوة تناقش فيها وتدرس ، وكان يوجد عدد كبير من ابرز الساسة الاوروبيين وقادة الفكر يحملون الآراء نفسها ، وقد شرعنا في عام ١٩٤٧ في « الحركة الاوروبية » التي تستهدف الدعوة الى وحدة اوروبا ، وبحث الوسائل التي تؤدي الى تنفيذها عمليا ، ولكن بصورة تدريجية ، لان من الخطأ في المشروعات الضخمة ، ان يحاول المرء تنفيذ كل شيء فورا ، كما انه من الصعب في قضايا من هذا الطراز ان يحاول المرء التخطيط وكأنه في عملية عسكرية ، وكانت مهمتنا اقامة اتحادات ووشائج ادبية وثقافية واخلاقية واجتماعية في جميع انحاء العالم .

وقد قويت شوكة « الحركة الاوروبية » واشتد نشاطها ، وأدت دورا بارزا في التفكير الحكومي ، وقد اشار الجنرال مارشال ، الى ان هذه الفكرة كانت من جملة الاسباب التي حملته على وضع مشروعه لمساعدة اوروبا اقتصاديا،واثمرت المناقشات المتعددة التي جرت عن خلق المجلس الاوروبي في عام ١٩٤٩ ، متخذا مدينة ستراسبورغ مركزا له ، وتم في هذه المدينة انجاز الكثير من الاعمال النافعة مع اختلاف الخطوط وظلال الدعايات .

هذا وقد احتلت القنبلة الذرية ، وطفلتها القنبلة الهيدروجينية ، وهما آخر ما امتلكه الانسان من الاسلحة المدمرة الشاملة للبشرية ، المكانة المتألقة ، في جميع افكارنا المتعلقة بشؤون الدفاع ، وكانت بريطانيا والولايات المتحدة ، قد اتفقتا في مطلع الحرب الماضية ، على تجميع معلوماتهما وتجاربهما في البحث النووي ، وقدمنا بلا ثمن ، ثمار سنوات من الاكتشافات والتجارب التي توصل اليها الرواد من علماء الطبيعة الانكليزية في هذا الميدان ، كاسهام منا في المشروع السري الضخم المشترك ، الذي شرع في تنفيذه في الولايات المتحدة وكندا ، وكان في وسع هؤلاء الذين خلقوا هذه الاسلحة ، ان يسيطروا على العالم ويستعبدوه ، كما كان يفعل غيرهم ، من ذوي الايدي المشكوك في صدقها ، ولكنهم اثبتوا جدارتهم بمسؤولياتهم ، الا ان الاسرار تسربت على اي حال الى الاتحاد السوفياتي ، فساعدت العلماء الروس الى حد كبير في ابحاثهم ، وانعكست بعد ذلك جميع النظريات المقبولة من الاستراتيجية العسكرية ، وخلق نظام جديد لم نكن نحكم به من توازن القوى ، يقوم على اساس حيازة وسائل الابادة المتبادلة .

وقد شعرت في نهاية الحرب العظمى بالرضا عن نفسي ، لاني توصلت مع الرئيس روزفلت في كويبك في عام ١٩٤٣ الى احسن اتفاق في هذا الصدد ، وقد نص على التأكيد بأن بريطانيا وأمريكا لن تستخدما هذه الاسلحة ضد بعضهما البعض ، كما انهما لن تستخدماه ضد فريق ثالث الا بعد الاتفاق المشترك بينهما ، والا تقوما بنقل اية معلومات تتعلق بالموضوع الى فريق آخر الا بعد موافقة مشتركة من الدولتين المتعاقدتين .

الا ان الكونغرس الامريكي اصدر في عام ١٩٤٦ قانونا يحظر بموجبه نقل اية معلومات من الحكومة الامريكية الى اية دولة اخرى ، وكان الشيخ مكماهون الذي تبنى مشروع القانون لا يعرف شيئا في هذا الوقت عن اتفاق كويبك ، وقد ابلغني في عام ١٩٥٢ ، انه لـو كان يعلم بوجود هذا الاتفاق لما صدر قانون مكماهون ، وقد وجهت الحكومة البريطانية الاشتراكية (العمالية) احتجاجا في هذا الصدد ، كما انها لم تكشف عن اتفاقية كويبك والافضاء بوجودها ، الى لجنة مكماهون على الاقل ، ولو فعلت ذلك لبررت موقفنا ، ولوفرت علينا سنوات طويلة من البحث المضني والباهظ التكاليف ومن التطوير ايضا ، وهكذا حرمت بريطانيا حصتها في المعلومات التي كان لها حق مؤكد فيها ، وبذلك فاننا لم نتمكن من تفجير قنبلتنا الذرية الا في عام ١٩٥٢ .

وهكذا فان الاساس المضمون لآمالنا في السلام يرتكز على هـذه الناحية ، اي على حيازة امريكا وتفوقها في الاسلحة النووية ، ولا تعتبر جيوش الدول الغربية شيئا مهما ، اذا ما قورنت بالعدد الذي لا يحصى من الفرق التي تستطيع روسيا نشرها من البلطيق الى حدود يوغوسلافيا ولكن المعرفة الاكيدة بأن الزحف الذي سيؤدي الى اطلاق القوة الجوية المدمرة من عقالها ، هي الكابح الزاجر .

وعندما كانت الولايات المتحدة هي المالكة الوحيدة والفعالة للاسلحة الذرية ، كانت هناك فرصة للوصول الى تسوية عامة ودائمة مع الاتحاد السوفياتي ، ولكن ليس من طبيعة الدول الديموقراطية ان تستخدم ما تتمتع به من مزايا وتفوق في التهديد وفي اتباع اساليب الديكتاتورية ، ولا ريب في ان الحالة الفكرية التي كانت مسيطرة حين ذاك ، ما كانت لتسمح بأي نوع من خشونة القول مع حليفتها السابقة ، مع انه كان في وسع هذه الخشونة لو استعملت ، ان توقف الكثير من التطورات غير اللائقة التي وقعت ، ولكن الولايات المتحدة اثرت بتأييدنا طبعا ، ان تقف موقفا اكثر تعقلا بالنسبة لمشكلات الاشراف على استخدام الاسلحة النووية وجاءت معارضة لوسائل المراقبة الفعالة فأحبطت كل شيء .

وقد ادت هذه التطورات الى تبديل كل ناحية من نواحي التخطيط العسكري والسياسي ، واصبحت القواعد الضخمة اللازمة لتموين الجيوش في الحربين الكبيرتين الماضيتين اكثر الاهداف تعرضا للدمار ، وفي وسع قذيفة واحدة ، تلقي بها طائرة واحدة ، ان تدمر جميع المشاغل والمخازن في قاعدة قناة السويس ، التـي كانت المصدر الرئيسي لتموين الجيش الثامن في الصحراء بالمعدات والذخائر ، وفي وسع الموانيء مهما حمتها المدافع المضادة للطائرات والطائرات المحاربة ، ان تصبح مقبرة الاساطيل التي كانت تتولى في الماضي حمايتها ، كما كان اجلاء المدنيين وغير المحاربين من المدن اقتراحا معقولا حتى في ايام تطور الاساليب الجديدة في القصف الجوي في الحرب الاخيرة ، اما اليوم ، فعلى الرغم من الرغبة في مثل هذا الاجلاء ، فان وسائله لا تعدو ان تكون شيئا مخففا من اهوال كوارث الحرب النووية المدمرة المهلكة ، كما قد تحتم تبديل جميع الترتيبات الدفاعية لمواجهة الوضع الجديد ، وما زالت الاسلحة التقليدية ضرورية

للمحافظة على النظام في ممتلكاتنا ، ولخوض ما يسميه الناس بالحروب الصغيرة ، ولكننا لا نستطيع انتاج القدر الكافي منها ، لان انتاج الاسلحة النووية ووسائل توجيهها والتصرف فيها ، باهظة التكاليف للغاية بحيث تستنزف كل مخصصاتنا .

وظلت الآمال في قيام اتصالات اكثر ودا مع روسيا ، تسيطر على فكري دائما ، وبدا لي ان الفرصة قد توافرت بوفاة ستالين الفجائية في آذار عام ١٩٥٣ ، وكنت قد اصبحت رئيسا للوزارة ثانية ، وقد اعتبرت موت ستالين نقطة فاصلة في تاريخ روسيا ، فقد سبب طغيانه الكثير من الآلام لبلاده ، ولاماكن اخرى في العالم ، وكانت الشعوب الروسية في نضالها ضد هتلر ، قد بنت لنفسها الكثير من حسن النية في الغرب ، وفي الولايات المتحدة قبل غيرها من دوله ، ولم يكن في وسع اي انسان ان يتكهن بالنسبة الى سياسات الكرملين الغامضة بمن سيخلف ستالين ، وعلينا الا نقسو في الحكم على قادة روسيا ، فقد غزت اوروبا بلادهم ثلاث مرات في نحو من قرن ، وليس في وسعهم ان ينسوا بسهولة ، بورودينو وتانبرغ وستالينغراد ، كما انهم لا زالوا يذكرون المذابح التي قام بها نابليون في بلادهم ، ولا يمكنهم ان يغفروا لالمانيا القيصرية او النازية فظائعها ، ولكن السلامة لا تتحقق عن طريق العزلة ، ولم يحاول ستالين ان يعزل الجمهوريات السوفياتية وحدها وراء ستار حديدي عسكري وسياسي وثقافي ، بل حاول ايضا ان يقيم له خطا عميقا من المراكز الامامية في الدول لاحتياجات الاتحاد السوفياتي الاقتصادية ، ومنع كل اتصال لها بالعالم الحر ، وحتى ببعضها البعض ، ولكن لا ريب ان جميع المفكرين يرون في بعض المظاهر الموحية بالامل ، شيئا من الجلاء في الاوضاع الراهنة فالعقيدة الشيوعية آخذة في الانفصال تدريجيا عن الآلة العسكرية الروسية ، وستواصل الشعوب ثورتها على الامبراطورية الاستعمارية السوفياتية لا لشيوعيتها ، بل لانها غريبة عنها ، ولانها طاغية ومستبدة ، ولن يؤدي سباق التسلح حتى في الاسلحة النووية والصواريخ الموجهة الى ايجاد الطمأنينة او صفاء الذهن للدول الكبرى التي تسيطر على المساحات الشاسعة من الارض في آسيا او شمالي امريكا ، او الى البلاد التي تقع بينها ، وانني لا اوجه نداء لنزع السلاح ، فهذه نتيجة طبيعية ومظهر للتجاوب الحر بين الشعوب ، انه العقل الذي يسيطر على السلاح ، وانني ارى ان تتحدث الشعوب الحرة الى عقول شعوب روسيا وشريكاتها.

وقد بدا لي ان جوا هادئا قد يسيطر بعد وفاة ستالين وبهذه الصورة عرضت بعض افكاري على مجلس العموم في الحادي عشر من ايار عام ١٩٥٣ ، واقترحت عقد مؤتمر غير رسمي بين رؤساء الدول الكبرى ، فقد ينجح من حيث فشلت الاتصالات الحادة المتكررة ، واوضحت ان مثل هذا الاحتمال يجب الا يصحب استرخاء في علاقات الامم الحرة واستعداداتها اذ ان اي اضعاف لجهودنا الدفاعية ، سيشل اي اتجاه نافع للسلام ، ولم يتحقق تماما ما استهدفته وبحثت عنه .

ولا اقصد مطلقا ان انحي باللائمة على اية جهة من الجهات بالنسبة الى الامور المزعجة التي وقعت منذ عام ١٩٤٥ ، ولا ريب ان اولئك الذين كانوا مسؤولين عن الحكم في بريطانيا في السنوات التي تلت الحرب ، قد اضطربوا امام المشكلات المعقدة التي واجهوها في الداخل والخارج ، وكانت

الاساليب التي اختاروا اتباعها لحل هذه المشكلات ، مفروضة عليهم ، اما من الظروف التي اوجدتها ، او من السياسات العقائدية المقررة سلفا ولم تكن نتائجها دائما نافعة لبريطانيا او للعالم الحر .

وتجلت في السنة التالية المحاولات الشيوعية المضايقة للغرب ، واستغلال الشعور الوطني في آسيا ، ومحاولة السيطرة على الاماكن المكشوفة في شبه جزيرة كوريا ، ففي الهند الصينية على الرغم من ان الخصم الكبير للفرنسيين هوشي مينة ، كان منزويا في موسكو ، الا ان العون المادي الذي تلقته العصابات لم يكن على نطاق كبير ، كما ارغم عدد ضئيل نسبيا من الارهابيين في الملايو عن طريق قتل المزارعين البريطانيين والموالين من الصينيين والماليزيين أرغموا قوات بريطانية كبيرة على البقاء لاعادة فرض النظام .

وكنا انا والرئيس روزفلت وتشيانج كاي شيك ، قد سجلنا في عام ١٩٤٣ تصميمنا على ان تكون كوريا مستقلة ، وكانت قد تحررت في نهاية الحرب من اليابانيين ، واحتل الامريكيون الاقسام الجنوبية منها ، بينما احتل الروس اقسامها الشمالية ، واقيمت دولتان كوريتان ، واخذت العلاقات بينهما تتأزم وتحتد ، وغدتا اشبه ما تكونان بالدولتين الالمانيتين الشرقية والغربية ، واحبطت المعارضة السوفياتية كل محاولة قامت بها الامم المتحدة لاعادة توحيد البلاد ، واخذ التوتر وحوادث الحدود يتجهان الى الازدياد ، وشرع الكوريون الشماليون في الخامس والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٥٠ ، في غزو كوريا الجنوبية ، واخذوا يتقدمون بسرعة ، فطلبت الامم المتحدة من الغزاة أن يتوقفوا وينسحبوا ، ولعب الحظ السعيد دورا بارزا في وقف « الفيتو » السوفياتي عن منع تنفيذ قرار مجلس الامن ونواياه ، « اذ تغيب الاتحاد السوفياتي عن الجلسة لانه قاطعها » ولكن اخطاء نظام الامم المتحدة ظلت عرضة للاستغلال مرة بعد اخرى في السنوات التالية ، وهيأت الامم المتحدة في هذه المناسبة الاطار الذي قامت فيه الولايات المتحدة بالعمل الفعال ، واحاطت هذه الحقائق العارية بقرار تاريخي وخطير اتخذه الرئيس ترومان ، اذ لم تمض فترة قصيرة جدا على انتشار انباء الغزو ، حتى كان الرئيس قد توصل الى الاستنتاج بأن التدخل العسكري الفوري للولايات المتحدة ، هو السبيل الوحيد لانقاذ الوضع ، وكانت القوات الامريكية هي اقرب القوى من مسرح الاعتداء واكثرها عددا ، ولكن هذا لم يكن كل شيء ، فقد كتب في مذكراته يقول :

« وتأكدت من اننا اذا سمحنا لكوريا الجنوبية في السقوط ، فان سقوطها سيشجع الزعماء الشيوعيين على ان يطئوا بأقدامهم دولا اخرى اقرب الى شواطئنا ، واذا سمحنا لمثل هذا التطور بأن يقع دون تحد من جانبنا فانه سيعني الحرب العالمية الثالثة » .

وكان سير الحرب شاقا ومخيبا للآمال ، وباهظ التكاليف في الدماء التي سفكت ، حتى تمكنت قوات الحلفاء من وقف الغزاة الشماليين ، واخذ تدخل القوات الجوية يؤتي ثمارا فعالة ، ونفذ الجنرال ماك آرثر المهمة بحماس وجراة ، حيث استعادت قوات الحلفاء سيول في اليوم الرابع عشر من آذار عام ١٩٥١ ، ووصلت بعد شهرين الى خط العرض

الثامن والثلاثين واجتازته ، وفي هذه الاثناء تدفقت قوات المتطوعين الصينيين ، كما بدأت النجدات تتدفق على نهر بالو ، في شكل جيوش كبيرة العدد وان كانت فقيرة العتاد ، ورأى القادة العسكريون الامريكيون أن من الصعب عليهم ان يقبلوا وجود هذا « الملجأ الممتاز » ، وراء حدود منشوريا ، وكانت هناك ايضا قواعد الطائرات السوفياتية النفاثة التي كانت تتدخل بصورة مستمرة في القتال ، وعندما اشتد الضغط للسماح بمهاجمة الاراضي الصينية من الجو عارض الرئيس ترومان هذا الضغط بشدة لان هذه الخطوة كانت متناهية في الخطورة ، وقال :

« ان الحمر يقومون بسبر اغوار الضغط في اسلحتنا ، وعلينا ان نواجه اندفاعهم بدورنا مع شعور متزايد من القلق ، وقلت لمجلس العموم في اليوم الثلاثين من شهر كانون الثاني « ان قضية العالم ستقرر في اوروبا، فهناك يكمن الخطر الاكبر » ، وامتنعت عن الادلاء بآرائي مخافة ان يعتبر ذلك بمثابة انتقادات موجهة الى القادة العسكريين الامريكيين ، مما قد يعرقل جهودهم ، او يضعف الارتباطات التي توثق مصايرنا ، وقد اسهمت القوات البريطانية وقوات جامعة الشعوب اسهاما ضيقا وان كان فعالا في القتال ، ولكن امريكا احتملت العبء كله تقريبا ، ودفعت الثمن بمائة الف من زهرة شبابها .

وقد اخذت الامبراطوريات الغربية تنهار في اماكن اخرى من القارة الآسيوية ، كما ارغم حلفاؤنا الهولنديون على الخروج من جزر الهند الشرقية ، التي كانوا قد جعلوا منها نموذجا في الادارة الفعالة ، كما تحمل الفرنسيون سنوات طويلة من خيبة الامل ومن الحروب الموهنة المضنية في الهند الصينية ، حتى تجاوزت الاصابات بين الضباط في كل عام عدد من تخرجهم كلية سان سير من الضباط الجدد ، وتمكنت الجيوش الشيوعية التي تعززت بقوة من النجدات الصينية ، من احراز السيطرة التدريجية على شمالي البلاد ، وعلى الرغم من قصص المقاومة البطولية ، اضطر الفرنسيون الى الجلاء عن هذه المنطقة العظيمة المأهولة بالسكان ، وبعد مفاوضات طويلة وشاقة ، امكن انقاذ شيء ما من حطام الآمال المهدمة، فقد ظهرت ثلاث دول جديدة الى حيز الوجود ، وهي فيتنام الجنوبية ولاوس وكمبوديا ، وتأكد استقلالها ، وان كان استقلالها لم يتضح تماما ، اما فيتنام الشمالية ، فقد اقامت لها حكومة شيوعية منفصلة شأنها في ذلك شأن كوريا الشمالية ، وهكذا كان التقسيم من جديد ، هو الحل للصراع بين المصالح الشيوعية والغربية ، وظلت الخلافات الداخلية تمزق هذه الدول الجديدة ، التي تهددها جارتها الجبارة الى الشمال .

وكانت التبديلات التي وقعت في آسيا ، شيئا لا يقاس بحساب ، ومن المحتمل ان تكون هذه التبديلات محتومة لا مناص منها ، واذا كان القارىء يجد في هذا العرض القصير لمحة من الاسف ، فعليه الا يفترض انه ناجم عن العداء لحق الشعوب الآسيوية في تقرير مصيرها ، لكن الوسائل التي اتبعت في الوصول الى الوضع الراهن ، تستدعي قليلا من التفكير والتأمل ، فهل كان من الضروري ، أن يسفك هذا القدر الكبير من الدماء ؟ او لم يكن في الامكان الوصول عن طريق التطور الى النتيجة

السعيدة نفسها مع مزيد من الثبات والاستقرار ، بدلا من الارتجال الذي دفع به الضغط الاجنبي ، والذي بسببه ضياع نفوذنا بسبب الهزائم السابقة التي منينا بها في حرب الشرق الاقصى .

لقد دار شطر كبير من الحرب العالمية الثانية للدفاع عن الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا ، والحفاظ على تموييناتنا من الزيت ، وحماية قناة السويس ، وكانت دول الشرق الاوسط ، ولا سيما مصر ، قد تمتعت بمزية الحماية التي اضفيناها عليها من الغزو الالماني والايطالي ، دون ان تكلف نفسها عناء الاشتراك في الدفاع عن نفسها ، وقد اعقبت الحرب زيادة جديدة في عدد الدول المستقلة التي كانت توجد ضمن الممتلكات السابقة للامبراطورية العثمانية ، وكان خروج الفرنسيين من سورية ولبنان مؤلما لهم ، ولكنه كان محتوما ، وليس في وسع اي انسان ان يزعم اننا حصلنا لانفسنا على اي قدر من الفوائد هناك ، فقد شهد العالم في هذه المنطقة اندفاعا في الاحساس الوطني ، كان مـن المقدر لنتائجه ان تسير سيرها فيما بعد ، فالشعوب الاسلامية من اندونيسيا حتى مراكش في حالة غليان واضطراب ، وادى تصميمها الى مواجهة الدول الغربية ولا سيما تلك التي تتحمل مسؤوليات وراء البحار ، الى مشكلات ذات صعوبة خاصة ، وفي وسع هذه الشعوب ، وسط الهتافات الصاخبة للاستقلال والحكم الذاتي ، ان تنسى المنافع الكثيرة والمهمة التي اضفاها عليها الحكم الغربي ، ومن الصعب ايضا الاستعاضة عن النظام الذي طبقته الدول الاستعمارية في هذه المناطق الشاسعة ، بانظمة جديدة ومستقرة من الحكم السيادي .

وكانت مشكلة فلسطين من اعقد المشكلات التي واجهتها بريطانيا في هذه الارجاء ، ولقد كنت منذ صدور وعد بلفور في عام ١٩١٧ ، من أخلص انصار القضية الصهيونية ومؤيديها ، ولم اشعر قط ان البلاد العربية قد جنت منا الا العدل في معاملتها ، فالعرب مدينون لبريطانيا ولبريطانيا وحدها في وجودهم كدول ، فنحن خلقنا هذه الدول ، فلقد دفعت الاموال البريطانية والمستشارون البريطانيون بها سريعا في طريق التقدم ، وكانت الاسلحة البريطانية هي التي تتولى حمايتهم ، وكان لنا ، وما زال كما آمل ، عدد من الاصدقاء الاوفياء والشجعان في المنطقة ، وكان الملك عبدالله حاكما في منتهى الحكمة ، وادى اغتياله الى زوال الفرصة في تسوية سلمية للمشكلة الفلسطينية ، وكان الملك ابن السعود حليفا قويا ، وكنت اتابع في العراق باعجاب سلوك نوري السعيد الشجاع والحكيم ، اذ كان يخدم باخلاص ملكه ، ويقود بلاده في طريق الحكمة ، دون ان يتأثر بالتهديدات الخارجية ، او بالضجيج المتأثر من الخارج في الوطن ، ومن سوء الحظ ان هؤلاء الرجال كانوا من الشواذ(١) .

وواجهت الحكومة البريطانية كدولة منتدبة ، المشكلة الشاقة من الجمع بين هجرة اليهود الى « وطنهم القومي » ، وحماية حقوق السكان العرب، ولا يستطيع الا القليلون منا لوم اليهود على آرائهم العنيفة المتطرفة

---

(١) هذا هو رأي المؤلف الخاص وقد وجدنا نقله بدقة وامانة دون اي تعليق .

في هذا الموضوع ، وليس في مكنة شعب عانى خطر الابادة الكلية لوجوده القومي ، ان يكون عاقلا ومنطقيا كليا ، ولكن اعمال الارهابيين اليهود الذين حاولوا تحقيق اهدافهم عن طريق اغتيال الموظفين البريطانيين والجنود ، كانت مظهرا غريبا من مظاهر نكران الجميل ، ترك اثرا عميقا في النفوس ، وليس هناك من بلاد في العالم اقل صلاحا لمقارعة الارهاب ، من بريطانيا العظمى ، ولا يعود هذا الى الضعف او الجبن ، وانما الى ضبط النفس والفضائل ، والى طريقة الحياة التي عشناها في جزيرتنا التي نجحنا في الدفاع عنها ، واحست الحكومة البريطانية بلذعة جرائم القتل في فلسطين ، وبالمهانة من بلاد الشرق الاوسط ، وحتى من حلفائنا ، فكان من الطبيعي ان تقرر اخيرا في عـام ١٩٤٨ غسل ايديها من مشكلة فلسطين ، وان تترك اليهود وحدهم ، يجدون طريقة خلاصهم وادت الحرب القصيرة التي وقعت بصورة مسرحية ، الى تبديد ثقة البلاد العربية في نفسها ، بعد ان اطبقت على فلسطين آملة في نصر سريع .

وادى العنف الذي صاحب ولادة دولة اسرائيل الى اشتداد المتاعب في الشرق الاوسط بصورة مستمرة ، واني لاتطلع باعجاب الى ما تم انجازه من عمل هناك في بناء دولة واستصلاح صحراء وتقبل هذا العدد الكبير من اليهود من جميع اطراف المعمورة ، ولكن الوضع قاتم تماما ، فوضع مئات الالوف من العرب الذين اخرجوا من ديارهم ، والذين يعيشون حياة الفاقة والعوز ، في المناطق الحرام التي خلقت حول حدود اسرائيل ، خطر وفي منتهى الوحشية ، ويكثر العرب من ترديد العداء الذي لا ينطوي ولا يزول للدولة الجديدة ، ولا يستطيع القادة العرب الابعد نظرا ، ان يدعو الى الاعتدال ، دون ان يتعرضوا لخطر الاسكات والتهديد بالاغتيال ، انه منظر مظلم وخطر عنيف لا حدود له ، وهناك شيء واضح ، فالشرف والحكمة يتطلبان بقاء دولة اسرائيل والحفاظ عليها ، والسماح لهـذا الشعب بأن يعيش في سلام مع جيرانه « شرف من يا ترى ! » وفي وسع هذا الشعب ان يأتي الى المنطقة باسهام لا يقدر بثمن من المعرفة العلمية والعمل والانتاج ، ومن الواجب اعطاؤه الفرصة لمصلحة الشرق الاوسط كلـه .

وقبل ان انتهي من هذا العرض الموجز للامور التي اثرت علي منذ انتهاء الحرب ارى ان القي نظرة على الامم المتحدة ، ففي وسع اي جهاز لحكومة عالمية ان يفشل بسهولة في تحقيق غرضه ، وكان من رأيي عندما دنت الحرب من نهايتها ، ان من الواجب ان تتحكم اعظم العقول واعظم الافكار التي يملكها البشر في مصير العالم ، وكان هذا المشروع يقضي ، اذا تحتم تمثيل جميع البلاد كبيرها وصغيرها ، ان تضعف البلاد المذكورة ، فالمغزى الذي تقدمه الامم المتحدة ، ليس الا تأكيدا لا جدوى منه لتعادل النفوذ والسلطان ، لا يمت بصلة الى الحقائق المجردة ، وقد اسفرت النتيجة عن عمليات من النشاط اللامع وراء الكواليس تحاول ان تقبض على زمام الحكومة العالمية ، وقد استعملت كلمة « المحاولة » لان صوت اي بلد لا يعد سكانها اكثر من مليون او مليونين ، لا يمكن ان يقرر او حتى يتحكم في اعمال الدول الكبرى ، وتميل الامم المتحدة في شكلها الحالي الى مصانعة الدول الديكتاتورية وارهاب الدول الضعيفة ، وليس من حق الدول الصغرى ، ان تتحدث باسم الجنس البشري كله وعليها ان

تقبل ، ولا ريب في انهـا ستقبل ذلك عن طيب خاطر ، مرتبة اكثر تقشفا ، ولكنها اكثر قربا من الدول الكبرى ، ويجب ان تقوم على حكم العالم مجموعة من القادة المبارزين في مجموعات من البلاد المؤلفة حسب اوضاعها الجغرافية وان عملية السماح لهذه المجموعات بأن تؤلف نفسها دون الحكم عليها بحسب قواها او عدد سكانها هي التي تتولى تقرير الوضع كله .

ولا أرى من وراء كل ما قلت ، الايحاء بأن جميع الجهود والتضحيات التي بذلتها بريطانيا وحلفاؤها ، والتي سجلتها في هذه المذكرات قد ذهبت عبثا ، ولم تؤد الا الى قيام وضع اكثر خطورة وظلاما ، مما كان عليه الوضع في البداية ، وانني على النقيض من ذلك ، اتمسك برايي السابق في ان محاولاتنا لم تذهب سدى ، فقد أصبحت روسيا دولة تجارية عظمى ، وتبرز لاهلها في كل يوم بحماس تام ومتزايد هذه التعقيدات والملذات الموجودة في الحياة البشرية ، التي تجعل من خطط كارل ماركس ومشروعاته ، امورا مضى عهدها ، وغدت اصغر من ان تتفق مع المشكلات العالمية ، ولقد اخذت القوى الطبيعية تعمل بحرية اكبر ، وبفرصة اعظم ، في نشر الآراء والافكار المتعلقة بفردية الرجال والنساء وتنويعها ، وهذه القوى اضخم واكثر ليونة في هذا الكيان الواسع من امبراطورية الكون ، مما قد تصوره كارل ماركس في كوخه الحقير ، وعندما يضيق نطاق الحروب نفسها بالفرعية المتبادلة نفسها للقضاء عليهـا ، يصبح من المتوقع بصورة متزايدة تأجيلها وعدم اللجوء اليها ، وستستمر الخلافات حتما بين الدول او القارات او مجموعات الدول ، ولكن المجتمع الانساني سينمو في اشكال متعددة ، بحيث لا تفهمه الاجهزة الحزبية ، وما دام العالم الحر متماسكا والحالة هذه ، ولا سيما بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، وما دامتا تحتفظان بقوتهما ، فستجد روسيا ان السلام والرخاء اجدى نفعا من حرب الابادة ، وان توسيع آفاق الفكر ومجالاته ، عملية تتطلب الاندفاع عن طريق البحث عن الفرص لكل من يطلبها ، ومن الخير ايضا ، اذا ما التزم الجميع جانب الحكمة والروية ، ان تسيطر الرغبة في تامين الفرص للجميع على مشاعر الجنس البشري وتعمل بمثابة ضابط لها .

شارتويل ــ ويسترهام ــ كنت　　　　ونستون تشرشل

١٠ شباط ١٩٥٧

ــ تم الكتاب ــ

فهـرست

الحلـف الكبـير

النصر والمأساة

صفحة



